الدكتور
علي الهاشمي

المرأة في الشعر الجاهلي

ساعدت وزارة المعارف على نشره

الدكتور
علي الهاشمي

المرأة في الشعر الجاهلي

ساعدت وزارة المعارف على نشره

سنة ١٩٦٠

مطبعة المعارف ـ بغداد

المقدمة

غرضنا من هذا الكتاب هو أن نرسم صورة للمرأة الجاهلية على النحو الذى يعرضها الشعر الجاهلى • فاتخذنا هذا الشعر مرجعا أساسيا لهذا البحث ، فأثبتنا صفاتها ، وخصائصها ، وعرضنا صورها فى أدوار حياتها المختلفة ، تؤدى وظائفها فى المجتمع على نحو ما كان سائر أفراد ذلك المجتمع يؤدونه ، فكان عنوان الكتاب « المرأة فى الشعر الجاهلى » •

والذى حملنا على بحث هذا الموضوع أمور نذكر منها اثنين :ـ

أولهما ـ الكشف عما كان للمرأة الجاهلية من الاثر البليغ فى حياة الشعب العربى ، بحيث صارت عاملا فعّالا من عوامل النهضة الاسلامية الكبرى فيما بعد •

وثانيهما ـ التطور الشامل الذى تستقبله نساؤنا اليوم ، والذى يظهر أنه سيؤثر فى نواحى حياتهن وأحوالهن المختلفة • وقد رأينا أن مِنَ الخير لهذا التطور أن يجد له فى ماضى المرأة دليلا وأساسا يُكسبه الدوام ، ذلك لاننا نعتقد أن أضمن ما تكون التطورات اذا ما اتخذت من التاريخ أساسا وعبرة ، وجانبت الارتجال والتقليد المحض •

لم يسجل تاريخ الحضارة الانسانية الدور الذى قامت به المرأة كما ينبغى ، على الرغم من عظيم أثرها فى حياة الامم كافة ، فالمرأة عاشت الى جانب الرجل منذ عهد الانسانية الاولى ، وشاركته فى ميادين الحياة • بيد أن من النادر أن نجد بين الاسفار التاريخية المطوّلة ، ما جعل هدفه تصوير المرأة بشكل واف ، وأوضح آثارها فى حياة الافراد والجماعات ، حتى ليخيل للباحث أن التاريخ لا يكاد يُعنى بشأن المرأة الا عندما كانت تظهر فى ميدان

السياسة أو الحرب أو الادارة ، حيث تقوم بدور هو من صميم أعمال الرجل فى العادة • فالقسم الذى يمكن التوصل اليه من تاريخ المرأة انما يدرس فى العادة ، من خلال الفصول التى كتبت عن غيرها •

والتاريخ الذى يبدو أنه لم يُعط المرأة حقها من العناية لم يتعمد فى الواقع الانقاص من شأنها لمجرد كونها امرأة ، انما كانت طريقة المؤرخين القدماء أن يقتصروا فى تدوين تاريخ الامم والشعوب على تاريخ الشخصيات والذوات البارزة فى ميادين الحرب والادارة فحسب ، أمّـا الجهـود التى بذلها الجنس البشرى فى حقول الحياة المختلفة ومن ضمنها جهود المرأة فقلما استرعت عناية كافية من المؤرخين • وبهذا انطمست معالم هامة من حضارة الانسان ومنها ما كانت اليد الصناع للمرأة هى التى أوجدتها كتكوين الاسرة وتنشئة الاجيال الصاعدة وادارة الاعمال المنزلية وكل المراحل الاولى من أكثر الصناعات والفُنُون البشرية حيث أنها نبتت بين يديها •

كانت الامية التى غمرت حياة المرأة طيلة قرون ، والجهل الذى خيم على تفكيرها من أهم الاسباب التى دعت الى عدم ظهور شخصيتها التاريخية مدة طويلة من حياتها ، فقد أخرتها المشاغل التى تزخر بها حياتها عـادة ، فبقيت تعيش فى كنف الرجل ، ولم تتبلور شخصيتها • وليس أدل عـلى ذلك من تضارب الآراء فى فهم طبيعتها وتقويم مجهوداتها وكان اختلاف الرأى فى أمرها وتباين وجهات النظر فيهـا واسـعا • وكانت تلقى لهـذا الاختلاف فى التقدير فى تاريخها الطويل صنوفا شتى والوانا من المعاملة•

هذا بالنسبة الى تاريخ المرأة من حيث العموم ، أمّا المرأة العربية فى الجاهلية ، وهو موضوع هذا الكتاب ، فان المصادر المتوافرة تدل بصراحـة على أنها قد استطاعت ان تنجب جيلا قويا فى خلقه وتكوينه ، هو جيل الفتح، الذى حمل بصبر وحزم منقطع النظير ، رسالة الاسلام وجمع شمل العرب، وأخذ على عاتقه أعباء هذا الفتح وتأسيس امبراطورية عظيمة فى الشرق

الادنى قامت على اسس جديدة دفعت بالانسانية فى سبيل التقدم الحضارى خطوات واسعة • قام هذا الجيل بالمهمة التي تعهد بها خير قيام ، لم يضعف ولم يهن ، لما أشاعته المرأة فى نفسه • منذ الصغر ، من روح الرجولة ، والاخلاص وحب التضحية ، والثبات • وقد استطاعت أن تفلح فى تربيتها هذه لانها بذاتها كانت تتحلى بالمواهب العالية التى غذّت بها الجيل •

ما استطاعت الامة العربية أن تقود الحضارة الانسانيـة فى العصـر الوسيط الا بمشاركة المرأة الفعلية للرجل فى المجهود الحضارى مشـاركة شملت الميادين كافة • ومن الثابت أن هذهالامة قد ظهرت على مسرح القيادة الانسانية فى أكثر من مناسبة واحدة ، وآخر ما كان لها من الزعامة هى تلك النهضة الـكبرى التى أعقبت الفتح الاسـلامى فـأدار العرب دولاب السياسة العالمية ، ونشروا الدين والعلم والآداب العالية ادارة صالحة مدة طويلة ، ورسمو للناس مثلهم الاخلاقية السامية • وكانت المرأة بالطبع ، تقوم ، الى جانب الرجل ، بقسطها فى ميدان التمدن فى حالة الحرب ووقت السلم •

واذا قارنا المرأة العربية فى الجاهلية وفى صدر الاسلام بالمرأة عند الامم والشعوب المعاصرة لها وجدنا العربية قد سبقت سواها فى الاخـذ بأسباب التمدن وبلغت ما لم تبلغه النساء فى الامم الاخرى ، لكنها لم تحافظ على هذا التفوق بحيث أننا نجدها متخلفة عن غيرها فى ابتداء عصر النهضة حيث تبلورت شخصية المرأة لدى الشعوب المتمدنة • ولم تبدأ نهضة المرأة العربية الا فى السنوات الاخيرة ولا شك أن هذه النهضة سوف تثمر أحسن ما تثمر اذا قامت على أساسين : أولهما تجنب الشوائب التى رافقت النهضات النسائية فى العالم • وثانيهما هو أن تبنى على عناصر مستمدة من تاريخها المجيد ومن القيم الروحية لدى العرب بحيث لا تكون تقليدا طارئا ومحاكاة •

وبناء على ما سلف فما هى المصادر لدراسة حياة المرأة الجاهلية ؟ انها

القرآن الكريم والاحاديث الشريفة والامثال والاقاصيص وأخبار العرب وأيامهم ، والتقاليد والاعراف والآثار على اختلافها • كل هذه مصادر قيمة وهى تلقى أضواء غير متساوية على الادوار التى كانت تقوم بها المرأة الجاهلية •

اننا قد اتخذنا الشعر الجاهلى مادة للبحث لاعتقادنا بأهميته وغزارة مادته لهذا الموضوع اذا ما قيس بالمصادر الاخرى التى أشرنا اليها وذلك لان الشعر عنى بالمرأة كثيرا لصلتها بالشاعر وبالشعر فهى ذات تأثير بعيد فى نفس الشاعر بحيث هى مصدر الهامه ومناط نجواه ثم ان العاطفة والحس المرهف هما من أهم مقومات الشعر ومقومات طبيعة المرأة •

ان اتخاذ الشعر مصدرا لتصوير المرأة لا يقل فى الواقع قيمة ودلالة وصدقا عن اتخاذ أى مصدر تاريخى لتصوير حادثة تاريخية فى أبحاث المؤرخين وغيرهم من المشتغلين بالثقافات النظرية• ويؤيد ما ذهبنا اليه أن التراث الذى خلفه لنا العصر الجاهلى فى صوره المختلفة ، قصص وأخبار ووقائع ، ومظاهر اخرى من الحياة ، كُلٌّ هذا ، يعزز واقعية الصورة التى رسمها الشعر للمرأة الجاهلية •

ولا نريد فى هذا المقام ان نغفل الاشارة الى طبيعة الادب عامة ، ومنه الشعر ، كيف أن الاديب يرى الحوادث من خلال نفسه فيتأثر فى تصورها بشعوره ، ثم اذا عبر عنها خلع عليها من عنده صورا وخيالات وعرضها فى قوالب فيها الاستعارات والكنايات والمبالغات • لكنه مع هذا يظل رائده الصدق فى التعبير والوصول الى الحق كما يظل يترجم عن روح عميق فى الجماعة ، واذا ما تأثر باحساسه الخاص فشأنه فى ذلك شأن الكاتب والمؤرخ ولا يقدح فى تصويرهما للحياة امتزاجه باحاسيسهما وآرائهما بل يعتبر ذلك التصوير أمرا حقيقيا وواقعيا • وبالاضافة الى ما سبق فان الشاعر فى الجاهلية كان لا يميل الى استخدام المغالاة فى صوره البلاغية بل كان يعتمد

على البساطة والصراحة والابتعاد عن الصناعة والتعمل وكان شعوره صادقا على العموم بدليل انه لا يتغير عند تحرج المواقف •

لقد كان اعتمادنا على الشعر اعتمادا كليا ، لـكننا كنا مضطرين الى الرجوع الى مصادر اخرى لاستكمال الصورة لان هذا الشعر ، مثل شعر أية امة فى أى عصر ، ليس من مقاصده الاستقصاء ، فقـد كان شـعورا صادقا أطلقته المثيرات من عقاله ، فخرج فى أثوابه الجميلة عذبا ، صافيا • ولم يكن من طبيعة هذا الشعور أن يكون جامعا لكل ما يتصل بالمرأة وهى فى مجتمعها • وكانت عنايته بالناحية المادية أكثر من غيرها •

سيتضح للقارىء من فصول هذا الكتاب أنه كان للمرأة دور مهم فى ذلك العصر ، فكانت تلهم الشعب بدوافع المجد لانها كانت بذاتها مثـلا للفضائل التى أحلتها من نفوسهم موضع العناية • فكان الفرسان يندفعون وسط القتام بسيوفهم الهندية وأسلحتهم اليمانية ورماحهم الردينية من أجل الثأر أو الدفاع عنها أو من أجل استردادها • وهم فى كل حين يخطبون ودّها• وهى فى الحياة العامة تعين الرجل وتمده بصائب آرائها وتنظم سلوكه، ولها شأن كبير فى حياة الاسرة والقبيلة الامر الذى يفسر لنا بالغ العناية بها فى معظم مطالع قصائدهم فهى تستهوى قلوب الرجال ، شعراء وسامعين • وينشدون فيها القصيد فيحفظونه ويتناقلونه • فظاهرة افتتاح القصيد بالغزل والنسيب ، وكثرة الشعر الذى تغنى به الشعراء بالمرأة وتعشقوا بصفاتها لم يكن كل ذلك أمرا عارضا ولا نتيجة مصادفة انما كان من التراث الروحى، والثقافى المتوارث ، والتربية التى درجوا عليها • بحيث ندر فى شعرائهم من لم يقل شيئا فى الغزل كما ندر منهم من لم يحفظ قدرا منه •

كانت الجاهلية تقوم بالدور الذى القى على عاتقها ، بالنسبة لظروفهم ، على الوجه الاتم• فالحبيبة تحصنت بأثواب الكرامة، فألهبت عاطفة المحب وبعثت فى نفسه الفروسية • كما قامت الزوجة بتربية أولادها ، وتدبير شؤون

بيتها وشاطرت زوجها الرأى ، وكانت عنصرا فعّالا فى الاسرة ، ولم تكن دون زوجها فى ثقافتها وتفكيرها • وهكذا يقال عن الام والفتاة والنساء بعامة •

تلك هى صورة المرأة فى مختلف مراتب حياتها الاجتماعية كما تراءت لنا من دراسة ما وصل الينا من الشعر الجاهلى • وهى عندنا تمثل المرأة الجاهلية تمثيلا نطمئن اليه الى حد بعيد ، لانها صورة منتزعة لا من شعر شاعر واحد أو قبيلة واحدة ، وانما هى الصورة التى رسمها هذا السفر الضخم من نتاج القرائح المتعددة فى زمن مديد • واذا كان من المتصور أن تأتى مغايرة لصورة المرأة الواقعية فى ذلك العهد فان هذا لا يحتمل الا فى أجزاء طفيفة لا يعتد بها أما الصورة عامة فهى صورة المرأة الجاهلية • وكل ما نرجو أن نؤدى بهذا المجهود خدمة علمية •

على الهاشمى

تمهيد

(١) قصور الدراسات التاريخية للعصر الجاهلي :ـ

لا يزال تاريخ الجاهلية العربية غامضا على الرغم مما بذله المؤرخون القدامى والمحدثون ، المشارقة منهم والمستشرقون ، فى هذا السبيل • ومرد ذلك راجع الى قلة الكشوف الاثرية[١] والروايات الوثيقة التى تتجلى بها الحياة الاجتماعية والعقلية قبل الاسلام • وليس من الممكن العملى أن نجد اليوم مجموعة من القبائل العربية قد حافظت على نمط المعيشة التى كان الجاهليون يعيشون عليها ، بحيث أنها منذ التأريخ القديم حتى هذا العصر لم يطرأ عليها تغير يذكر فى حياتها الفكرية والاجتماعية والاقتصادية ، فنعرف من دراسة أحوالها اليوم أحوال العرب قديما[٢] • نعم لا يوجد مثل هذه القبائل وان افترض بعض الباحثين امكان وجود هذا فافترض ما لا يستند الا الى الظن والترجيح • وهما لا يُغنيان عن العلم واليقين شيئا •

بقيت أمنية الدارسين قائمة : وهى أن يظفروا بصورة دقيقة لحياة

---

(١) منذ اكثر من قرنين من الزمن بدأت اتصالات الغربيين الحديثة القائمة على الدرس للاغراض السياسية والاقتصادية والثقافية بجزيرة العرب فجاءها السواح والعلماء من الانجليز والفرنسيين والالمان والايطاليين والدنيمارك والنمساويين وغيرهم وتركوا دراسات قيمة يتعلق اهمها بالخطوط العربية واكتشفوا كثيرا من الالواح القديمة والنقوش وكتبوا فى وصف بلاد العرب وبخاصة المراكز الحضارية منها كما كتبوا عن احوالها الجيولوجية والجغرافية وعن نواح كثيرة من أحوالها الفكرية والمعاشية •

(٢) يسمى الاجتماعيون هذه بنظرية البقايا

Theory of Urivival

العرب فى تلك الفترة تغنيهم عن الرجم بالغيب والاعتماد على الفروض ، التى لا تؤدى الى اليقين ، والتحكم فى اختيار النماذج من غير الاستناد الى العلم الذى يثبت انطباقها على الاصل •

ان المؤرخين المسلمين القدامى قد ملأوا بطون كتبهم بما كان يعيه الناس عامة وبما يجرى على السنتهم فى نواديهم ومجتمعاتهم فكثيرا ما كانت الروايات تتضارب وتصبح الاخبار عرضة للطعن والتجريح بالاضافة الى أنهم مزجوا الحقائق بالاقاصيص والاساطير بحيث عز على الباحثين الوصول الى الواقع الحقيقى • ثم جاء علماء الغرب فاعتمدوا ـ فيما اعتمدوا ـ على ما كتبه المسلمون فجاءت دراساتهم بهذا الخصوص أقل ضبطا وتحريرا ، ذلك لان هؤلاء المستشرقين بالاضافة الى الفجوة الزمنية التى تفصلهم عن الجاهليين ، تفصلهم عنهم فجوة أوسع منها وهى الناتجة عن اختلاف البيئة والذوق • كل هذا أثّر فى تصورهم للحياة العربية الجاهلية على الرغم من المناهج العلمية التى يصطنعونها فى دراساتهم وبحوثهم •

ولاجل أن نعرف تاريخ العرب القديم لابد لنا من الوقوف على امور : منها لهجاتهم وكشف آثارهم (١) ، ولكن الباحثين فى السابق قد أهملوا أمر العناية بهذه الآثار والبحث فى الكشف عنها ، اعتقادا منهم أن العرب الاقدمين كانوا امة معزولة عن العالم المتمدن ، غارقة فى بحر من الجهالة والفوضى (٢) ، وأنها ليس لها تاريخ قديم • ولهذا رأوا أن لا فائدة من البحث فى استقصاء أحوالهم وأخبارهم •

ان أخبار الجاهلية العربية التى وصلتنا تميزها صفات أساسية : فهى بالاضافة الى قلتها ليست قديمة ، فلا تتغلغل فى التاريخ الى أكثر من ثلاثة

---

(١) روحى الخالدى : علم الادب عند الافرنج والعرب ص ٣٩ـ٤٠

(٢) جرجي زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ج ١ ص ٢١ •

أو أربعة قرون ، ثم هى من حيث طبيعة سندها قائمة على المشافهة والرواية • ويندر ان تستند الى أثر موروث أو نقش معروف أو كتاب مسطور • ولهذا كان اسلوبها موجزا يبلغ أحيانا درجة التلميح والاشارة كأخبار عاد وثمود وغيرهما من البائد من القبائل فأخبار هذا الفريق على غاية من الاختصار • وان اخبار وسط الجزيرة ، أى أخبار نجد والحجاز وتهامة وغيرهـا من الجهات وهى التى اعتمدت على المشافهة والرواية تختلف عن أخبار البلاد الاخرى المجاورة لها كاليمن والعراق والشام ومصر التى تعتمد على الآثار والعاديات والنقوش والكتابة والتماثيل والنصب وغير ذلك من الآثار المادية، كما تعتمد على المشافهة أيضا فأخبار وسط الجزيرة لذلك أقل قيمة تاريخية من أخبار هـذه البلاد الاخرى ذات المدنيـة • أما من حيث طبيعـة أخبار فى الجاهلية ، وكثيرا ما نسمعُهم يترجمون فى أشعارهم عما كانو يعانون من ما جعلها ممزوجة بالاساطير والقصص والشعر •

ويرجع عدم وصول أخبار الجاهليين الينا بصورة واضحة الى امور ، بعضها طبيعى وبعضها غير طبيعى :ـ

أ ـ الاسباب الطبيعية :ـ

يدل الشعر الجاهلى دلالة واضحة على عدم مساعدة طبيعة الجزيرة وأحوالها المناخية على بقاء الوثائق التى يمكن أن تكون تاريخية خلافا لمـا هو معروف عن البلاد المجاورة ، أى بلاد الحضارات القديمة : كالعراق ومصر والشام وغيرها • فكم كانت الرياح والامطار مصدرا لشكوى الشعراء فى الجاهلية ، وكثيرا ما نسمعُهم يترجمون فىأشعارهم عما كانوا يعانون من صعوبة ومشقة فى معرفة دار الحبيب وتمييزهم لساحات المنازل ، والنؤى وغـــير ذلك ، ويعزون ضياعهـــا الى فعـل الرياح المتناوحـــة والاتربـة المتصاعدة ، والامطارالمتساقطة • والبسيط من الآثار لا يقوى على شىء من هذا•

قال امرؤ القيس يخاطب دارا دارسة لحبيبة له :

يادار مـــارية بالحـــــائـل فالشـــهب فالحبتـين من عـاقـــل
صُمَّ صـداهـا وعفـا رسـمُهـا واستعجمت عن منطق السائل (١)

فهو يحاول تحديد موقعها لانها دارسة الرسوم ، مطموسة المعالم • وهذا هو نهج شعراء الجاهلية فى ذكرهم للديار ، كما قال لبيد فى مطلع معلقته :

عفت الديارُ محلها فمقامها بمنى تأبد غولها فرجامُها

واذا ما تبينوا شيئا من آثار الديار شبهوه بالوشم بالمعاصم والاكف كما جاء فى معلقتى طرفة وزهير أو بالكتابة كما فى معلقة لبيد •

كان الشاعر منهم يحرص أشد الحرص على معرفة الدار التى كانت حبيبته تقيم فيها حينا من الدهر ثم ضعنت عنهـا • فهـو ينعم النظر ليتبين رسومها العافية وأثافيّها ونؤيها (٢) وهذا كله ـ كمـا يظهر ـ من آثـار البداة فى الصحراء • أما آثار غير البدو فلم تُكشف عنها رمال العصـور الطويلة ، بحيث تكاد تكون هذه البلاد ـ على طولها وعرضها ـ بكراً لم لم تمتد اليها الابحاث الاستكشافية التى تميط اللثام عن واقع الحيـاة فى ماضيها القديم • وكان اضطراب حبل الامن وعدم استتباب روح النظـام والاستقرار وشيوع الامية والحروب من أسباب عدم توفر الظروف الملائمة لهم ليخلفوا لنا ما يعين الباحثين المحدثين على معرفة تاريخهم • هـذا من جهة ، ومن الجهة الاخرى ان المسلمين فى صدر الاسلام قـد تشـاغلوا

---

(١) ديوانه ص ١١٤ شرح عاصم بن ايوب • مطبعة التقدم فى مصر سنة ١٣٢٣ هـ •

(٢) تلاحظ مطالع معلقات : امرىء القيس ، طرفة ، زهير ، عنتره ، لبيد وقصائد غيرها ، كثيرة •

بالفتوح ونشر الدين فلم يجدوا متسعا للعناية بالحضارة السابقة فى جزيرة العرب فلما فرغوا الى ذلك وجدوا عامة أهل العلم والرواية لتاريخهم القديم وحضارتهم قد استشهدوا أو ماتوا • ويدل على هذا ما روى عن عمر بن الخطاب انه قال عن الشعر : « كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه فجاء الاسلام فتشاغلت عنه العرب ، وتشاغلوا بالجهاد وغزو فارس والروم ولهيت عن الشعر وروايته • فلما كثر الاسلام ، وجاءت الفتوح ، واطمأنت العرب بالامصار راجعوا رواية الشعر فلم يؤلوا الى ديوان مدون، ولا كتاب مكتوب ، فألفوا ذلك وقد هلك من العرب من هلك ، بالموت والقتل ، فحفظوا أقل ذلك وذهب عنهم منه أكثره »(١) وما قيل عن الشعر يقال عن سائر أخبار العرب وقصصهم وتأريخهم القديم •

ب ـ الاسباب غير الطبيعية :ـ

١ ـ الثورة على الجاهلية :ـ كان حب الاسلام والغيرة عليه قد دفعا بكثير من المخلصين الى أن يصوروا الحياة الجاهلية بشكل لا ينسجم مع ما ينبغى أن يكون عليه المهد الطبيعى الذى ظهر فيه الاسلام ، والذى منه نبع شرقا وغربا ، ولا يتفق مع تلك النهضة الفكرية التى تألقت فى الشرق تحت راية الاسلام • لذلك نراهم ينعتون الجاهلية العربية بكل سوء ويلصقون بها كل شر ابتدعه لهم حماسهم لهذا الدين الحنيف • ويجردون تلك الفترة من الزمن من كل خير ومكرمة ، ارواءً لحماسهم • وهذا هو الذى نعنيه بالثورة على الجاهلية • فمن ذلك مثلا ما روى عن بعضهم عن الرسول الكريم أنه خطب امرأة فقالت له :ـ « انى عاهدت زوجى ألا أتزوج بعده »

---

(١) ابن سلام : طبقات الشعراء ص ١٦ ، السيوطى : المزهر ج٢ ص ٢٩٣ •

وأنه صلى الله عليه وسلم أجابها قائلا :ـ «ان كان ذلك فى اسلام ففى له» (١) واذا صح هذا الزعم فانهم أرادوا بذلك أن يصوروا كيف كانت حقوق الجاهلية وعهودها مهدورة فى نظر الاسلام • ومن هذا ما روى عن قتادة السدوسى أنه فسر قوله تعالى :ـ « وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها » بما يصوّر الجاهلية تصويرا يرمز للوحشية والتأخر • ومن هـذا أيضا ما روى من حديث جعفر بن أبى طالب مع ملك الحبشة :ـ « كنا أهل جاهلية : نعبد الاصنام ونأكل الميتة ، ونأتى الفواحش ، ونقطع الارحام ، ونسىء الجوار ، ويأكل القوى منا الضعيف » (٢) •

هذه الطائفة من المسلمين المتحمسة للدين والتى كرست جهودهـا لخدمته واعلاء كلمته على ما سواه ، بلغ الحماس ببعض أفرادها درجـة التعصب ، وكان مما أدى اليه التعصب الاساءة الى كل ما خالف هذا الدين• وكان من الطبيعى أن ينصَبّ التعصب أو هذه الثورة على الجاهلية وعلى ما كان يتدين به أهلها ، فحارب هؤلاء الافراد المتعصبون ديانات الجاهلية ، وعملوا على محو آثارها ، وتعاليمها ، وطقوسها ، والاشعار التى قيلت فيها ، وكل شىء يمت اليها بسبب ، فاذا أردنا أن نعرف شيئا من ذلك عز علينا ، ولـم نظفر منه بطائل • وانه لمن المسلم به ان التعصب اينما حل أساء وأفسد • والتعصب أمر خطر ، وهـو أشـد ما يكون خطـورة اذا مـا وجـد لدى المجتهدين والمؤلفين ، واذا ما وجد لدى الزعماء والقـادة للجماعات أو الشعوب • لقد حرمنا هذا الفريق من المؤلفين والباحثين المتعصبين من أن نعرف مثلا ، شيئا ينبغى أن يعرف ، عن ديانات الجاهلين •

كانت الوثنية منتشرة بين العرب فلا يعقل الا تكون لهـم اشـعار

---

(١) ابن قيم الجوزية : اخبار النساء ص ٦٧ •

(٢) ابن هشام : السيرة ج ١ ص ٢١٨ •

وأدعية وصلوات فى آلهتهم ، غير ان المؤلفات الاسلامية التى بين أيدينا تكاد تكون خلوا من ذلك[١] ، فى حين ان القرآن لم يغفل ذكر أسماء طائفة منها ، فذكر : اللات ، والعزى ، ومناة ، وسواع ، ويغوث ونسرا ، ذكرها منددا بها • كما عرفت عند الجاهليين المجوسية ، عند تميم خاصة ، وعرفت الزندقة ايضا ولابد أن يكون لهذه الديانات أدعيـــة واشعار وصـــلوات وطقوس دينية ولكنا لا نعلم نحن الآن عنها شيئا • وهناك دين الحـــيرة ، الذى لا يدرى اصحابه اين يولون وجوههم ، ولا يعجبهم ما كان عنـــد قومهم من ديانات ، كما ان اليمن ظهر فيها دين الثورة على الالهة القديمة والدعوة الى التوحيد • واخيرا ، وليس آخرا ، دين الحنيفية وهو مبـــدأ افراد كثيرين منتشرين هنا وهناك يدعون الى نبذ الشرك والميل الى التوحيد والاعراض عن العادات الذميمة والامتناع عن اكل الذبائح التى اهلت لغير الله كما هو واضح مما جاء عنهم فى القرآن الكريم[٢] • هذا بالاضافـة

---

(١) بالرغم من تثبيط همم العلماء عن متابعة الدراســات المتصلة بالجاهلية واهمال كل ما يتصل بدياناتها بسبب نجد فى الشعر الذى بين ايدينا اشارات الى بعض عقائدهم وهى قليلة جدا كما نجد اكثر من ذلك فى اخبارهم • كما الف بعضهم كتبا فى عقائد الجاهليين وديانـاتهم لم يصلنا جلها ، منها :ـ

١ ـ « الاصنام » لابن الكلبى الذى نشر بتحقيق المرحوم زكى باشا وطبع بدار كتب القاهرة سنة ١٩٢٥ م •

٢ ـ « الاصنام » وما كانت العرب والعجم تعبد من دون الله لعلى بن الحسين بن فضيل بن مروان •

٣ ـ « آراء العرب واديانهـــا » للحسين بن محمد بن جعفر الخالع الذى وقف عليه ابن ابى الحديد •

٤ ـ « أديان العرب » للجاحظ •

(٢) البقرة ١٣٥ ، آل عمران ٦٧ ، النســاء ١٢٥ ، الانعـام ٧٩ ، ١٦١، يونس ١٠٥، النحل ١٢٠ ، ١٢٣، الروم ٣٠ ، الحج ٣١ ، البينة ٥ •

الى انتشار اليهودية والمسيحية وديانات اخرى .

وكان من الاحناف الذين يدينون بالحنيفية زيد بن عمرو بن نفيل العدوى ،(١) وسويد بن عامر المصطلقى الذى وصلنا عنه بعض أقواله فى القدر ، والمنايا ، والخير ، والشر .(٢) وقس بن ساعدة الايادى (٣) الذى تنسب اليه خطابته فى الطبيعة والحياة الانسانية والتبشير بالنبوة . وزهير بن أبى سلمى المزنى(٤) الذى ذكر فى شعره ايمانه بالله وبفناء هذا العالم وبالحشر والحساب ووعظ الناس بذكر احوال الامم السالفة . ومن ذلك قوله :ـ

فلا تكتمن الله ما فى صدوركم ليخفى ومهما يكتم الله يعلم
يؤخر فيوضع فى كتاب فيدخر ليوم الحساب أو يعجّل فينتقم (٥)

ويهمنا فى هذا المقام من الحنفاء أمية بن ابى الصلت الثقفى فالشعر الذى بين ايدينا والمنسوب اليه (٦) يصور انسانا مؤمنا باله واحد ، اله خالق للسموات والارض وانه يحيى ويميت ، انسانا مؤمنا بالموت والبعث

---

(١) ابن هشام ج ١ ص ٢٤٤ ـ ٢٤٩ ، طبقات ابن سعد ج ٣ ص ٢٧٦ ـ ٢٧٧ ، أسد الغابة ج ٢ ص ٢٣٦ ، الاغانى ج ١٤ ص ٤٠ ، المؤتلف والمختلف للمرزبانى ص ٣٣٨ .

(٢) ابن حبيب . المحبّر ص ١٣٦ . الالوسى : بلوغ الارب ج٢ ص ٢٥٩ ـ ٢٦٠ .

(٣) الاصابة ج ٥ ص ٢٨٥ ، البيان والتبيين ج ١ ص ٥٠ ، شعراء النصرانية ص ٢١١ ـ ٢١٨ .

(٤) ديوانه شرح ثعلب طبع دار الكتب ١٩٤٤ م ، شعراء النصرانية ص ٥١٠ ـ ٥٩٥ .

(٥) شعراء النصرانية ص ٥١٨ .

(٦) شعراء النصرانية ص ٢١٩ ـ ٢٣٧ .

والحشر والحساب مؤمنا بالجنة والنار وبامور اخرى كثيرة توافق العقائد الاسلامية موافقة تامة • اننا نجد فى هذا الشعر مثلا تصويرا للجنة والنار كالتصوير الاسلامى لهما • ونجد فى أحيان كثيرة موافقة تامة فىالاسلوب والسبك والتصوير والمعنى بين هذا الشعر وبين ما فى الاسلام ، كما نجد فى هذا الشعر قصص الرسل والنبيين مثل القصص الاسلامى • وهـــذا التوافق قد يدفع بالباحث الى القول بأن هذا الشاعر قد تأثر بالاسلام كـل التأثر ، لان وفاته كانت سنة تسع للهجرة أو كما عبر عن ذلك ابن قتيبـة اذ قال عنه : « وأتى بألفاظ كثيرة لا تعرفهـا العرب ـ وكان يأخذهـا من الـكتب »(١) أو يدفع التوافق هذا بالباحث الىالقول بان الاسلاميين نحلوه هذا الشعر وأرادوا خدمـــة الاسلام ، كان يدللوا على أن الجاهليين كانوا يترقبون ظهور هذا الدين ليخلصهم مما كانوا فيـه فصاروا يبشرون بـه ويتمنون أن يكون اشراقه فى أيامهم •

والذى نريد أن نقوله هو أن الثورة على الجاهلية كانت امـرا واقعـا خاصة على ما يتعلق بالديانات والعقائد بحيث لم يصل الينا منها شىء • والذى وصل الينا انما هو منحول وضع موافقا للاسلام فى اسلوبه ومعناه وخياله ، أو غير منحول لكنه نقل الينا محورا عما كان عليه ونقل باسلوب يعين على التجريح والنقد • فشعر امية وما نقل الينا من شعر غيره لا يصح أن يكون صورة للاغانى الدينية التى كان ينبغى أن تكون عند العرب كما هى عنـد غيرهم كالعبرانيين مثلا •

وكما كان الاسلام ثورة على الديانات الشائعة عند الجاهليين كانثورة على جل ما هو جاهلى : على الانظمة ، والتقاليد ، والاخلاق وغير ذلك •

---

(١) ابن قتيبة : الشعر والشعراء ص ١٧٦ •

وما وجده نافعا فيها أقره على حاله أو عدل فيه وفاقا لمثله واهدافه • وما لم يجده موافقا نهى عنه ، فثبط همم الباحثين عن العناية به ، وصرف الناس عنه • فالعرب عرفوا مثلا بزجر الطير [١] وبالسحر والنفث فى العقد [٢] وبالطيرة Augury وتطيروا من امور كثيرة اهمها :- المرأة ، والدار، والفرس [٣] ، والعطاس [٤] ، والغراب [٥] ، لكن الرسول نهاهم عن كل ذلك • فلم يجد الباحثون الاسلاميون دراسة هذه الأمور امرا مرغوبا فيه ، وانصرفوا عن التأليف فيها وفى أمثالها • وصرنا لا نعرف من أمرها وامر امثالها الا ما جاء عرضا •

٢ - **الشعوبية - وهى نزعات ثلاث** : أولاها نزعة أهل المساواة الذين استندوا الى آيات وأحاديث كثيرة نحو « انما المؤمنون اخوة » والمساواة كما نعلم ركن من اركان الشريعة الغراء نلمسها فى المعاملات • وثانيتهما نزعة المتعصبين على العرب الذين جردوهم من جميع الفضائل واعتبروا الاسلام اذ ظهر بينهم لم يكسبهم فضيلة بظهوره [٦] ولم يكن لهم فيه فضل [٧] والاخيرة وهى نزعة المتعصبين للعرب •

وكم لعبت هذه الاهواء المتباينة فى معالم التاريخ العربى اذ كانت

---

(١) الجاحظ : الحيوان ج ٣ ص ٤٣٨ •

(٢) القرآن : سورة الفلق •
Thompson: Semitic Magic P. 33

(٣) عمدة القارىء ج ٢١ ص ٢٧٣ ، ٢٨٨ ، ٢٨٩ •

(٤) تاج العروس ج ١ ص ١٦٢ ، جامع الاصول ج ٧ ص ٢٩٨ - ٢٩٩ ، ٣٩٦ - ٣٩٧ •

(٥) الجاحظ : الحيوان ج ٣ ص ٤٣١ ، ٤٤٢ • لسان العرب ج ١٦ ص ٢١٠ القاموس ج٤ ص ٢٠٤ •

(٦) أحمد أمين - ضحى الاسلام ج ١ ص ٤٩ •

(٧) المصدر السابق ج ١ ص ٥٣ •

العصبية قد أعمت الابصار عن ادراك الحقائق . ومن الامانة التأريخية والنزاهة العلمية أن يدون تاريخ العرب على وجهه ، ومن مصلحة العرب أنفسهم أن يعرفوا ماضيهم على ما كان وحاضرهم على ما هو عليه ، ومن حقهم أن يتطلعوا الى المستقبل وفق ما تقودهم اليه الامال المبنية على استعدادهم وكفايتهم . بيد أن ما حصل فى التاريخ الجاهلى كان غير هذا ، اذ نجد فيه كثيرا من المتناقضات : (١) يغمز بعض المؤرخين شرف العرب بقول : « كانت الروحية الجنسية عند الجاهليين فى أشد أوقات جزرها قبل الاسلام فلم يكن اخلاص الرجل لزوجته شديدا وكان يدعوها الى معاشرة غيره من الرجال »(٢) ويستنتج آخرون ما يدل على عكس ذلك فيقولون «كانوا حريصين أشد الحرص على قواعد شرفهم ومواطن اعراضهم (٣) ويذكر « رينان » مكانة العرب السياسية والثقافية والدينية(٤) فى حين أن البعض يؤلف كتبا خاصة بديانات العرب أو اصنامهم (٥) ويقول باحثون : ان العربى ذاتى أنانى (٦) ويذكره آخرون بأنه مثال للتضحية والكرم ، ويصفه أناس بالمادية (٧) ويقول فريق انه يطرب للشعر ويقدره اكثر من كل شىء .(٨)

---

(١) جوستاف لوبون ـ حضارة العرب ص ٩٩ ـ ١٠٠ .

(٢) S. Khuda Bukhsh : Contributions to the His. of Inlamic Civilization. V. I. P. 171.

(٣) جوستاف لوبون ـ حضارة العرب ص ٣٧٧ .

(٤) المصدر السابق ص ٩٧ .

(٥) محمد نعمان الجارم ـ ديانات العرب فى الجاهلية
Stobart : Ialam & its Founder. P. 13
ويراجع هامش ص ٧ .

(٦) أحمد أمين ـ فجر الاسلام ج ١ ص ٣٩ .

(٧) المصدر السابق ج ١ ص ٣٩ .

(٨) William J. H. Sloane : The Poet Labid. P.13

وقد هيأ عدم تدوين تاريخ العرب فى القديم ميدانا خصبا للاهـــواء والنزعات التى كان أقلها ضررا ما رددده أهل التسوية ، الذين لـم يرض عنهم ابن قتيبة ، كما بين ذلك فى كتابه « تفضيل العرب »[١] لاعتقاده أن المباينة امر ضرورى لابد أن يوجد بين الناس [٢] .

وكان المتعصبون على العرب أكثر من شوه الحقائق التاريخية وأضاعها وساعدهم على ذلك وجود بعض العناصر المثقفة فيهم ، اذ جعل هؤلاء همهم محو صفات العرب الحميدة ، فرموا نساءهم بالسوء ورجالهم بالذلة[٣] . وقد اتبعوا فى تحقيق ذلك طرائق منهـا : انهم اتخـذوا من الاحـوال الفردية الشاذة أمثلة عامة بقصد الـذم والافتراء . فمثلا نجـــدهم يصورون نساء العرب بما جاء فى قول جرير اذ عيّر بنى دارم :

وبرحرحان غداة كبل معبد نكحت نساؤكم بغير مهور [٤]

لا فرق بين الشريفات المصونات المخدرات وبين الوضيعـات . حتى أنهم جعلوا الاباحية شريعة الزواج فى الجاهلية وانتزعوا ذلك من قـــول عنترة وأمثاله اذ قال :

ان الرجال لهم اليك وسيلة ان يأخذوك تكحلي وتخضبي [٥]

وقد الف هؤلاء فى مثالب العرب كتبا كالكتاب الذى الفه ابو عبيدة الخارجى المذهب ، الاعجمى الدم والنزعة وكتاب غيلان ، اليهودى الاصل الزنديق العقيدة والمسلك[٦] كما الف المتعصبون للعرب كتبا كثيرة ككتاب

---

(١) ابن عبد ربه ـ العقد الفريد ج٢ ص ٨٩ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) المصدر السابق ص ٨٧ .

(٤) المصدر السابق ص ٨٧ .

(٥) ديوان عنترة العبسى ص ٣٤ (يوسف توما) .

(٦) الالوسى ـ بلوغ الارب ج ١ ص ١٦٠ .

(العرب والموالى) وكتاب (العرب والعجم)[١] .

ومن يتتبع أمر الشعوبية يجد أن الامويين كان لهم يد طولى فى تحريكها واثارتها ، فقد حكموا بالعصبية وساسوا الناس باثارة الضغائن وفرقوا فى المعاملات بين الرعية فثار الاعاجم محافظة على مصالحهم فى بادىء الامر يقابلون العصبية بمثلها ، ثم تطورت الحالة واتسع الخرق اذ صاروا يتطاولون على العرب . ولابد أن نشير الى أن الامويين الذين كانوا من أوائل موقدى نار العصبية كانوا هم من أوائل من اكتوى بلهيبها . وكان الشعر أداة مطواعة لنشر أغراض أهل الشعوبية ودعم مبادئهم ومن ذلك أنهم لم يتورعوا عن وضع الاشعار ونسبتها الى غير قائليها الامر الذى يدعونا الى مضاعفة الجهود للوصول الى مواطن الحقائق .

٣ ـ العصبية القبلية :ـ

المجتمع الجاهلى مجتمع قبلى والافراد ينضوون تحت لواء القبيلة بل يذوبون فى كيانها ، فان أحسن الفرد فالقبيلة المحسنة ، وان أساء فهى المسيئة .والقبائل وحدات اجتماعية مستقلة كالدويلات الصغيرة المستقلة . ونظرة الافراد محدودة بهذه الحدود . ومن الطبيعى أن يتحرك التنافس والتسابق والتناحر بين القبائل فى ميادين الحياة الاجتماعية المختلفة وعلى أبواب الرزق وميادين الشرف . ومن صور التنافس والتناحر تباهي القبائل ، وتكاثرها وفخرها على ما سواها . وجل ما فى الشعر الجاهلى هو من هذه المعانى ومما يتصل بها بحيث لا تكاد قصيدة من قصائده تخلو منها . والاسلام حارب التعصب القبلى والعنعنة الجاهلية والعدوان الظالم على الافراد والجماعات وقتل النفس بغير الحق خدمة للمصلحة العامة ، وسعى الى أن يغرس مكان ذلك حب الاسلام ، الحب الواعى المدرك للخير .

---

(١) الجاحظ ـ كتابان له ذكرهما فى الحيوان ج ١ ص ٣ .

ولكن الخلق الجاهلى شأنه شأن كل الامور الروحية لم يكن من اليسير أن يتبدل أو يتحول ، عن مسلكه القديم وأهدافه ، بين عشية وضحاها • فقد حملت القبائل التى خرجت الى الجهاد فى سبيل الله روح العصبية معها الى الارض التى وطئتها أقدام الفاتحين : الى العراق والشام وفارس وما وراء النهر شرقا ، والى مصر وشمال أفريقية والاندلس غربا • وامتد التعصب القبلى أجيالا كثيرة •

والذى يعنينا أمره الآن : هو القرن الثانى والقرن الثالث الهجريين ، القرنين الذين ابتدأ فيها التدوين ونشط التأليف • وكان الذين أدركوا الجاهلية وعرفوا أخبارها فرووها لمن بعدهم قد ماتوا ، ومات من كان يرويها عنهم فى الغالب وجاء رواة الطبقة الثالثة أو الرابعة الذين ضعفت صلتهم بالجاهلية ، وضاقت دائرة معارفهم بأحوالها وضعف حماسهم لها • وصار هذا الفريق من الرواة مصدرا هاما من مصادر التاريخ ، ورواية أخبار الجاهليين ، وذلك لقلة ما بين أيدى المؤلفين والدارسين من الاخبار فالتجأوا الى اولئك الرواة ليسدوا النقص ويتلافوا أمر ما ضاع من الاخبار بموت رواتها الاصليين • وكان هؤلاء الرواة ـ رواة الطبقة الثالثة أو الرابعة ـ الذين نسميهم بالرواة المحدثين لا زالوا يحملون روح العصبية القبلية التى ورثوها عن آبائهم ، كان هؤلاء يضيفون المفاخر الى قبائلهم والقبائل المحالفة لهم ، وبعكس ذلك ينتقصون من مفاخر خصومهم ومناوئيهم • فكثير من الاخبار ، التى دونت فى هذه الفترة ـ والتى وصلنا قسم منها ولم يصلنا جلها ـ قد دونت تحت تأثير تلك العواطف القبلية وفى ذلك الجو الذى كان فيه صراع قبلى وقومى ودينى ، فلم يسلم ما وصل الينا من التلفيق والوضع والتحوير الا ما رحم الله • قال ابن سلاّم :ـ « وقد نظرت قريش فاذا حظها من الشعر قليل فى الجاهلية فاستكثرت منه فى الاسلام • »[1]

---

(١) طبقات الشعراء ص ٦٢ •

ذلك لان الشعر حتى تاريخ التدوين كان مفخرة من مفاخرهم ، اذ كان المدافع عن الاحساب والحامى الذائد عن القبيلة • وكانت القبائل فى الجاهلية ترسل وفودها تهنىء القبيلة بنبوغ الشاعر فيها(١) • وكان الشاعر يدافع عن قبيلته بعد الاسلام وبعد القرن الاول والثانى للهجرة •

وكان من نتائج تقيدهم بالعواطف القبلية آثار فى التدوين والبحث عامة • فتحدد تفكير الرواة بحدود تلك العواطف بخلاف ما يتطلبه العلم والبحث الصحيح اللذان يتساميان على مثل هذه الحدود ، فضاقت آفاق الاخبار فمن هذه النتائج مثلا اننا نجد أن المدون من أخبار الجاهليين محدودا بجملته بحدود الحياة البدوية خاصة (٢) ، فهو بجملته مفاخر أو حماسة أو حروب أو بطولات أو مديح وهجاء • وهو يتصل بحياة أفراد معينين من ذوى المكانة فى القبائل • فحياة سائر الافراد ، وحياة الجماعات ودراسة العقائد العامة والعادات والامور الروحية وغيرها ، كلها لم تكن لتلق العناية الضرورية • وهذه ظاهرة طبيعية لان الرواة ونقلة الاخبار انما كانوا يفهمون التاريخ على الصورة التى كانت تفهمها قبائلهم ، وقبائلهم تناقشه وتتفهمه بمنطق العصر : أيام ، مناقب وبطولات •

ومن نتائج العصبية القبلية : أن نجد ان القبائل الكبرى تحظى بعناية الرواة والاخباريين والمؤلفين ، أما القبائل الصغرى فلم تصبها العناية الضرورية • ثم ان قبائل الحجاز ونجد هى التى دُرست أخبارها وتناقلها خلف عن سلف ثم قبائل العراق والشام بعد ذلك فهى التى لقيت عناية المؤلفين والرواة • أما قبائل اليمن وحضرموت وعمان والعروض وسائر الجهات والاصقاع النائية • فما أصابها من العناية الا القليل • لان القبائل

---

(١) السيوطى : المزهر ج٢ ص ٤٧٣ •

(٢) يلاحظ على سبيل المثال العقد الفريد لابن عبدربه ج١ ، ج٣ ، ج٦ تحقيق سعيد العريان •

الاولى كانت ذات منزلة فى الجاهلية ثم فى الاسلام • ولان غالبيـــة الرواة والاخباريين كانوا فيها •

ومن نتائج العصبية القبلية أيضا أن عُنى بأخبار أهل الوبر أكثر من أخبار أهل المدر (١) حاشا مكة مهبط الوحى وسوق العرب والمدينة مهجر المسلمين ، والحيرة ملتقى حضارة فارس والعرب فى الجاهلية • كما كان من نتائج العصبية القبلية تدوين شعر ولهجات بعض القبائل وقلة العناية بقبائل اخرى فهذا ديوان أشعار الهذليين وهذه ما الحجازية وذو الطائيـــة وتلك لغة بنى الحارث بن كعب والى آخر ما هناك مما فى متون كتب اللغة وكتب النحو والصرف والبلاغة والادب عامة • ثم لابد لنا أن نقول ان للعصبية القبلية آثارا بعيدة فى أن تُعتبر لهجة بعض القبائل أفصح من غيرها فى حين انها كلها (لغات) لهجات عربية قديمة فعليا هوازن وسليم وهذيل وغطفان وسفلى تميم مثلا هى أفصح من غيرها ولغة قريش لغـــة القرآن أفصح لغات العرب •

وهكذا فتأثير العصبية القبلية فى تاريخ العرب أكثر من تأثيرهـــا فى تاريخ أية امة من الامم •

(٢) حاجة العصر الجاهلى الى الدراسة العلمية :

يتضح مما سبق كيف تضافرت عوامل كثـــيرة على تشويه التاريخ والادب الجاهلى بحيث صرنا فى أشد الحاجة الى القيام بالابحاث الضرورية لندون هذا التاريخ والادب على وجه منطقى معقول تطمئن اليه النفوس ولا يكون ميدانا لهذه القضايا المتناقضة التى نجدها تملأ بطون الكتب ، ويحار

---

(١) يلاحظ على سبيل المثال العقد الفريد لابن عبدربه ج١ ، ج٣ ، ج٦ تحقيق سعيد العريان •

البحث حقيقة كيف يتخذ له طريقا للوصول الى حقائق الماضى بين قول « مولانا محمد على » (ان العصر الجاهلى عصر ظلام دامس) (١) وقول آخرين (ان الاسلام لم يأت للعرب بشىء جديد) (٢) • واما فيما يختص بالشعر الجاهلى الذى هو المادة الاولية لبحثنا هذا فالامر لا يختلف فيه عن ذلك بشىء • فمن الباحثين من ادعى بأن اكثره مصنوع فى العهد الاسلامى ومنحول (٣) منسوب الى الجاهليين ، ومنهم من قال بصحة صدوره عنهم واطمأن اليه فأراح نفسه من عناء البحث والتمحيص • والحق ان هؤلاء واولئك لم يكن بأيديهم موازين دقيقة متفق عليها يزنون بها ما لديهم من الشعر فيميزون بين المنتحل منه والاصيل وكل ما احتكموا اليه فى تمييز الشعر ونقده انما كان يستند الى أذواقهم وفروض لهم يرجحونها • فى حين ان واجب الباحث المدقق ينبغى الا يقف عند هذا الحد بل عليه أن يبحث ويسعى لاظهار الحقائق الثابتة التى يمكن أن يصوغ منها ذلك الميزان العلمى الصحيح ، الذى يهديه اليه بحثه المبنى على الدراسات العلمية الصحيحة النتائج • وهذا فى الواقع هو الذى أفدناه من بحوث المشككين فى صحة الشعر الجاهلى • اذ أنهم بأبحاثهم هذه دفعونا الى السعى لايجاد أساليب حديثة تطمئن اليها النفوس لما تستند عليه من قواعد علمية تدعمها ودلائل واضحة تقومها •

ولكن على أى الاصول تقوم هذه الدراسة التى تقدم لنا الصورة الصحيحة للشعر الجاهلى أو تقربها الينا تقريبا مجديا ؟ انه ليبدو لنا أن

---

(١) Mawlana Mohammad Ali: Mohammad the Prophet. P. 6

(٢) Rev. Canon Sell: The life of Mohammed. P. 2

(٣) طه حسن ـ فى الادب الجاهلى ص ١١٧ ـ ١٨٦ •

دراسة البيئة الجغرافية التى استوطنتها هذه الامة قديما هى أول ما يجب على الباحث أن يعنى به ليتفهم ما عسى أن يكون لها من آثار فى حياة العرب ونفوسهم فيستكشف مقدار مطابقة الشعر للبيئة وصدق تصويره لها ويستبعد كل ما لا يصح أن ينمو فى تلك البيئة من الافكار والصور ثم دراسة الحياة الاجتماعية والعقلية والادبية .

أ - البيئة الجغرافية وصلاتها بنظم الحياة وطبائع السكان :

شبه الجزيرة العربية أكبر شبه جزيرة فى العالم(١) ، والماء الذى يحيط بها من جوانب ثلاثة لا يخفف كثيرا من حدة الحرارة فيها . أما سطحها فمرتفع من الغرب ويسيطر على سواحل تهامة الضيقة ، وسلاسل المرتفعات تمتد من الشام الى اليمن وتسمى بجبال سراة (٢) وهى توازى البحر الاحمر عموما وتقترب منه فى مواضع كثيرة . أما متوسط ارتفاع هذه السلاسل فخمسة آلاف قدم ، وأقصى ارتفاع لها هو اثنا عشر ألف قدم ويقع فى اليمن(٣) . أما انحدار السلاسل نحو البحر الاحمر فشديد والسواحل صخرية يصعب رسو السفن فيها (٤) . وانحدار أرض الجزيرة الى الشرق والبحر العربى تدريجيّ ، والارض الوسطى منها تتألف من هضبة تدعى نجدا ومتوسط ارتفاعها نحو الفين وخمسماية قدما . وفى الاقسام الجنوبية تمتد سلاسل جبلية متقاربة الارتفاع تتصل بجبال اليمن ، وتكون بينها وديان مختلفة الاتجاهات تجرى فيها السيول (٥) . وأعلى

---

(١) حافظ وهبه : جزيرة العرب فى القرن العشرين ص ١

(٢) توجد فى الجزيرة مواضع يقال لكل منها سراة وتضاف الى أسماء القبائل .

3. Ency. Brit. Vol. 2 P. 169

(٤) حتى : تاريخ العرب ص ١٤ .

5. Ency. Brit. Vol. 2 P. 169

ارتفاع لهذه السلاسل هو الجبل الاخضر فى عُمان الذى يبلغ زُهاء عشرة آلاف قدم •

وتتكوّن أغلب أراضى الجزيرة من صحارٍ وسهول قريبة من الصحارى • والصحارى تشمل : الحرار وهى صخور بركانية عديمة الزراعة عادة الا بعضها كحرارالمدينة ، ثم الدهناء وهي بقعة واسعة رملية تمتد من حضرموت الى اليمن فى الغرب وعمان فى الشرق ويسمىقسمها الجنوبى بالربع الخالى The, Empty Quarter لخلوه من البشر(١) وقد اجتازها السائح الانكليزى برترام توماس Bertram Thomas فى ٥٨ يوما (٢) كما تشمل الصحارى صحراء النفوذ وهى رمال عميقة الغور تمتد من واحة تيماء الى واحة الجوف وجبل شَمّر(٣) التى تكسوها البسط الخضر ذات الازهير لمدة أسابيع قليلة فى الربيع اذا حصل قبله شتاء مطير وهى حارة جدا فى الصيف •

وقديما قسم الباحثون اليونان ، واتبعهم الرومان ـ بلاد العرب الى ثلاثة أقسام :ـ

(١) **العربية السعيدة :** Arabia Felix (٤) وأهم أجزائها اليمن بلاد معين وسبأ(٥) التى بلغت شأوا بعيداً فى الحضارة قبل الميلاد بالفى سنة ، حتى اذا تأخرت أحوالهم الاجتماعية والاقتصادية اهملوا تنظيم شؤونهم

---

(١) ياقوت : معجم البلدان ج٥ ص ٤١٩

(٢) Ency. Brit. Vol. I P. 183

(٣) Ency. Brit. Vol. 2 P. 173

(٤) وتسمى كذلك Arabia Eudaimon أو Arabia Beata

(٥) كما يشمل هذا القسم جنوب غربى بادية الشام

وانتهى امرهم بانهدام سد مأرب(١) • ويدخل فى هذا الجـــزء من بلاد العرب الحجاز ونجد والعروض والبحرين واليمامة ومن سكان هذا الجزء الذين ذكرهم اليونان : المعينيون ، والسبئيون ، والحميريون ، والحضرميون والثموديون • وهذا القسم من البلاد المستقلة سياسيا فى الغالب •

(٢)**العربية الحجرية :** Arabia Petraea وتشمل البـــلاد التى حكمها الانباط وشبه جزيرة سيناء وعاصمتها بطرا وقد خضعت للرومان اذ احتلها (تراجان) عام ١٠٦ للميلاد بعد أن تدهورت ســياســة الانبــاط ، وسموها المقاطعة العربية Provincia Arabia

(٣) **العربية الصحراوية :** Arabia Deserta (٢) وتشمل بادية الشام وقد تدخل فيها بادية السماوة حتى حدود بحيرة النجف والحـــيرة فهى الاراضى الصحراوية التى لم تستطع جيوش الرومان بسط سيطرتهـا عليها وسكانها من البدو الذين كانوا مصدر رعب لسكان البـــلاد الخصبة المجاورة لهم وخاصة سكان الهلال الخصيب لان هذه القبائل كثيرا ما كان يضطرها المحل وقلة الماء والكلأ الى غزو اراضى الهلال الخصيب والاستيطان فيه •

وهذه الاقسام الثلاثة حدودها غير ثابتة فقد تتسع حدود قسم منهـا على حساب القسمين الاخرين •

وتقسيم الجاهليين لجزيرتهم فى القديم لم يصلنا بصورة يعتمد عليهـا ولكن تقسيمهم لها قبيل الاسلام يرجح أن يكون مثل تقسيم المسلمين لها فى صدر الاسلام ، فكانوا يقسمونها الى خمسة أقسام :

---

(١) Historian's History of the World, Vol. 8 P. 5

(٢) وتسمى في اليونانية Arabia Eremos

١ ـ **الحجـاز** . ويمتد من تخوم الشام ويسمى قسـمه الشمالى بارض مدين وكانت تسكنها جذام[١] ، وأرض حسمى وهى مناطق جبلية خصبة كثيرة المياه وبها آثار وعاديات ومن جبالها ارم يظن انه المذكور فى القرآن[٢] وفى الحجاز وديان كثيرة تمر بها طرق وهى أراضٍ خصبة من أشهرها وادى القرى بين العلاء والمدينة ولـه أهمية تجـارية كبيرة فى الجاهلية وكانت به قرى كثيرة من أهمها « قرح » وهى من أسواق الجاهلية الشهيرة .

٢ـ **تهـامـة** : وهى القسـم الساحلى الضيّق الممتد على سـاحل البحر ولانحداره يسمى بالغور أو السافلة[٣] وتقع مكة فى تهامـة وهى بلد قديم مصيفها الطائف على جبل غزوان[٤] المرتفعة خمسة آلاف قدم عن سطح البحر[٥] وميناء مكة جدة .

٣ ـ **اليمن** : وكانت فى الجاهلية تطلق على بقعة اضيق مما تطلق عليها اليوم ولـكنها فى العهد الاسلامى كانت تطلق على أرضٍ أوسع ممـا تطلق عليها اليوم . وتتخللها أودية كثيرة تنساب فيها مياه الامطار ومن بلاد اليمن حضرموت ومهرة وظفار وعمان .

٤ ـ **العروض** : وهى صحار وسهول ساحلية وتشمل اليمامـة والبحرين وما جاورهما ومنها « قطر » وكان فيها سـوق قـديم وتشمل العروض منطقة الاحساء والقطيف حيث تكثر العيون[٦] وفى الجنـوب

---

1. Ency. Brit. Vol. I P. 368

(٢) ياقوت : معجم البلدان ج٣ ص ٢٧٧

(٣) ياقوت : معجم البلدان ج٢ ص ٤٣٧ ، ج٦ ص ٣١١ .

(٤) ياقوت : معجم البلدان ج٦ ص ٢٨٩

(٥) حافظ وهبه : جزيرة العرب فى القرن العشرين ص ٣٥

(٦) حافظ وهبه : جزيرة العرب فى القرن العشرين ص ٦٨

الغربى من القطيف تقع « العفير » وهى ميناء صغير (١) وعلى مقربة منها « الجرعـــاء » Gerrhaei وهى مدينة تجارية شهيرة عرفها اليونان والرومان •

٥ ـ **نجد** : وتشمل اليمامة وتسمى بـ«جو» أيضا(٢) ومركزها «حجر» وهى موطن طسم وجديس ومن مدنها :ـ « منفوحة » وبها قبر الاعشى ، وسدوس وهى مدينة قديمة • اما نجد نفسها فهى وسط الجزيرة وتشمل منطقة وادى الرمّة والمنطقة الوسطى والمنطقة الجنوبية • ونجد العالية هى التى تحاذى الحجاز وتهامة والسافلة وهى التى تلى العراق •

عاش العرب فى جزيرتهم الواسعة هذه التى تمتد سهول رمليـة فى جنوبيها وجنادل حجرية فى شماليها ، وتوجد فى الجهات الجبلية منها عادة ينابيع يسكن حولها أقوام يشتغلون بالزراعة ، ويقطنون قرى متباعدة • والى جانب هذا جبال جرداء وصحار رملية مترامية الاطراف • وطبيعة التربة فى شبه الجزيرة لا تحبس المياه فى الغالب ، والامطار قليلة وقـــد تتأخـر فتضيق الارض بمن فيها ، لهذا كثرت أسفارهم وهجراتهم مـن مكان الى مكان •

قال (هل) « ان شبه الجزيرة لا يشمل صحـــارى وسهوبا فقط ، ولكن فيه أراض غاية فى الخصب كانت تزرع منذ آلاف السنين ، وفيهـــا المدن الآهلة بالسكان تمتد على ساحل شبه الجزيرة بوجه عام ، وكانت فى الأزمان الغابرة أحسن حالا مما هى عليه اليوم • وفى القـــرنين السادس والسابع كانت اليمامة ونجد تسدان حاجة العرب من القمح لأن اراضيهما المزروعة لا تقل عن اراضى اوربا المزروعة اليوم وتبذها خصبا فى كثير من

---

(١) حافظ وهبه : جزيرة العرب فى القرن العشرين ص ٧٢ـ٧٣

(٢) ياقوت : معجم البلدان ج٨ ص ٥١٦ •

البقـــاع »[١] وقال (سيدو) « والحجاز يشتمل على اكثر مدائن العرب فهو لهذا كان يجذب النفوس اليه واشتهر بقلاعه الحصينة التى تقى سكانه شر الهجمات الخارجية • وفيه بساتين الطائف المشهورة بفواكهها والمدينة الشهيرة بتمرها »[٢] •

وكان من مميزات حياة العرب أمور ثلاثة : هى أنهم كانوا يتكلمون العربية وان اختلفت لهجاتها ، وأنهم أهل وثنية بصورة عامة ، وينقسمون الى بدو وحضر • وقد وصف (سمنه[٣]) المؤرخ المصرى فى عهـــد الأسرة التاسعة عشرة البدو منهم فقال : « انهم رعاة يحبون السلب والنهب»

ويتضح من هذا الوصف ، الذى استعرضنا فيـــه الجزيرة العربيـة بأقسامها المختلفة ، ان البيئة الجاهلية كانت فقيرة ، بالنسبة للبلاد المجـاورة لها وبالنسبة للبلاد الاخرى ذات الحضارات ، فى كثير من عناصر الحيـــاة الراقية وخاصة فيما يتعلق بوسائل اللهو ، والفنون الجميلة ، والمناظر ذات الالوان المختلفة • كل هذا دفعهم الى أن يوجهوا عنايتهم بصورة خاصة الى فن القول والى المرأة التى كانت تتمتع بقسط وافر من الحـــرية عندهم ، وتبادل الرجل أفكاره وعواطفه الصادقة ، ونظرا لقلة خيرات بيئتهم فانـه كان من المتوقع أن تكثر أسفارهم وتنقلاتهم طلبا لوسائل الحياة • وعلى هذا كان لابد من احتكاك القبائل بعضها ببعض وحدوث المنازعات التى تجرهم الى حروب امتدت امتداد اختلافاتهم الطويلة على وسائل الرزق والعيش •

---

1. Hell : Culture der Araber, trans. by Kh. Bukhsh, P. 2 - 3

2. Sedillot: Histoire Generale des Arabs V. I P. P. 41 - 42

3. Simneh

(٤) حسن ابراهيم حسن ـ تاريخ الاسلام السياسى ص ٣٦ •

وفى تلك البيئة المكشوفة غير المحصنة لم يكن للمرأة ما يمنعها من التعرض لاخطار خلافات القبائل وحروبها • ولهـذا كان من الطبيعى أن تشترك ـ الى حد ما ـ فى تلك المنازعات وهى بهذا لم تستطع أن تمنع نفسها مـن الوقوع فى الأسر أو النهب عنوة • وهى لوجودها الى جانب الرجل لابد أن تدفعه الى اظهار مروءته التى من أهم مميزاتها الشجاعة والكرم واغاثـة الصريخ وغيرها من الاخلاق النبيلة • ولوجود المرأة الى جانب الرجل كان لابد له أن يتوجه اليها بكريم خصاله وجليل فعاله ، وخالص حبه وولائه وعطفه واحترامه ، وذلك حسب منزلتها فى نفسه وصلتها به • وكانت هى ترقب أعماله ، وتظهر حرصها على ادراة بيته وسلامة بدنه ، فتضمد جراحه اذا أصيب وتشد من عزيمته اذا وهن ، لانه سندها الذى تعتمد عليـــه ، وحاميها فى ساعة المحنة والشدة •

وقد نتج عن قلة خيرات بلادهم عدم قيام حكومات منظمة تدافع عن حقوق الافراد فانقسموا الى قبائل تجمعها رابطة الدم حقيقـة كان ذلك أو كما كانوا يفترضون ، وكانت أولى واجبات القبيلة حماية حياتها من عدوان الطبيعة وعدوان الجماعات الاخرى • وكثيرا ما نشأ اختلال فى التوازن بين ما تنتجه الارحام وما تنبته الارض مما أدى الى ازهاق الارواح فى الحروب تارة ، وبألوان اخرى • وقد يضطر هذا الاختلال القبيلة كلها الى الهجرة الى البلاد الغنية المجاورة • وكانت كل قبيلة تحرص على أولادها ولا تسمح فى العادة ، بزواج بناتها فى القبائل الاخرى محافظة على قوة القبيلة لتصبح مرهوبة الجانب •

ب ـ عناصر الحياة الاجتماعية :ـ

اولا ـ دراسة الحياة الاقتصادية ـ لقد فرغ العلم من اثبات الصلة بين الحياة الاقتصادية والاجتماعية بحيث اعتبرت الثانية نتيجة للاولى فى أكثر

عناصرها اذ تتوقف عليها أساليب المعاملات وطبيعة الحضارة • ومن هذا ظهر كثيرون ممن نادوا بضرورة اعادة كتابة التاريخ الانسانى على ضوء هـذه الاعتبارات المادية • وقد ارتبطت آداب الاقوام بحياتهم الاقتصادية وتأثرت بها ومن هذا نجد المؤرخين الاقتصاديين أنفسهم (١) لـم يكتفوا بالرجوع الى الاحصائيات فى أبحاثهم الاقتصادية بل رجعوا الى القصص والادب فى القرن الثامن عشر وفى أوائل القرن التاسع عشر فى اوربا باعتبارها شواهد معاصرة على الاحوال الاجتماعية • ولهذا التعاون بين الادب والاقتصاد كان تفهمنا للادب يكون أكثر حيوية اذا ما أحطنا علما بالحيـاة الاقتصادية التى نشأ فيها • قال (السير جون ا • هامرتن) : كم يزداد انشراحنا اذا قرأنا (ديفو) و(فيلدنج) و(الآنسة أوستن) و(ديكنز) وكنـا على بصيرة بالتـاريخ الاجتماعى والاقتصادى والسياسى للعصور التى كتبت فيها هذه المؤلفات • ومن الذى فى مقدوره أن يشرح قطعا كبيرة من شعر (شيلى) و(بيرون) (٢) دون أن يكون محيطا بسياسة الحلف المقدس ومجلس الوصاية ؟ وهكـذا نرى أن أكثر ما كتب (جورج برو) وجل ما ألف (بيكن) مستغلقا على كل من يجهل أحوال انكلترا ايام (جورج الرابع) و(وليم الرابع) ، (٣) أما فيما يتعلق ببلاد العرب فان أثر الحيـاة الاقتصادية فى تكييف حياتهـم العقلية والثقافية والاجتماعية كبير وواضح جدا • فلقـد كانت الاحـوال الاقتصادية تختلف باختلاف الاقوام التى كان يتمتع بعضها بخيرات كثـيرة ساعدته على النهوض العقلى ، فى حين كان البعض الآخر منهم يعانى أهوال

---

(١) مثل الدكتور Clapham والسيد Hammond وزوجتـه

(٢) Degoe, Fielding, Austen, Dickens, Shelly, Byron

(٣) السير جون أ• هامرتن ـ تاريخ العالم • ترجمة وزارة المعارف المصرية •

الفاقة وقساوة البداوة • وقد دلت الوثائق الثابتة على رقى البابليين ، والمصريين ، وسكان اليمن ، وقبائل عاد وثمود الذين تحدث عنهم اليونان والرومان (١) • والكتب المقدسة هى أهم المصادر لدراسة الاحوال الاقتصادية لبلاد العرب ، بيد أن الصعوبة فيها هى كيفية فصل ما هو دينى عما هو تاريخى ، حتى أن الامر ليستحيل أحيانا (٢) • فهى قد صورت مثلا كيف أن بعضهم كان يقدم المبالغ الكثيرة مهرا لزوجته كما صورت البعض الآخر يؤجر نفسه السنين الطوال لعدم توافر المال لديه ليمهرها به، كما ورد ذلك فى قصة ابنة يعقوب وابنة شعيب (٣) عليهما السلام ، وفى هذا دلالة واضحة على التباين فى المنزلة الاجتماعية بين الأفراد عندهم •

وللاستاذ (ستوبارت) بحث قيم اعتمد فى كتابه على مصادر موثوق بها وفصل فيه طرائق معيشة العرب ومصادر رزقهم وعُني عناية خاصة بالطرق التجارية التى خلقت أهم مدن الجزيرة ، وأوضح كيف ان أخلاقهم وأحوالهم كانت نتيجة لحياتهم الاقتصادية فذكر كيف ان حرية التنقل قد خلقت فيهم حرية الرأى وبساطة العيش وحضور البديهة والكرم الواسع • كما أرجع عنايتهم بالشعر واهتمامهم بالفصاحة والبيان الى طراز معيشتهم (٤) ، وهكذا فعل (روبرتسون سميث) ولو أنه لم يميز بين النظم المختلفة باختلاف القبائل والازمنة والجهات اذ جعلهم كأنهم قبيلة واحدة احيانا يتصفون بصفات الحرب فقال : ان الحروب كانت مستمرة بينهم

---

(١) محمد فريد وجدى ـ دائرة المعارف ج ٦ مادة عربى

(٢) ابن قتيبة ـ عيون الاخبار ج ٤ باب المهور
The Cambridge Mediaval His. V. II P. 302.

(٣) القرآن الكريم ٢٨/٢٣ـ٢٧ •

(٤)
J. W. H. Stobart: Islam & its Founder, P. 11 - 13.

وفكرة الملكية غير معروفة لديهم والاموال والنساء مشاعة للجميع • وقال ان العطـاء لم يكن فضيلة عندهم انما كان واجبا معترفا بـه ، والمرأة التى تؤسر عندهم لا يختص بها زوج واحد فكأنهم جماعة شيوعية بدائية •(١) والظاهر أنه تأثر فى هذا بكتابات المؤرخ اليونانى القديم (سترابو) •

ومن المعروف أنه حـدث فى القرن الخامس للميلاد تطور فـى فن الملاحة عند الرومان ، فاستطاعت سفنهم الكبيرة أن تمخر عباب البحار وكان لهذا تأثير كبير فى حياة العرب الاقتصادية اذ قلّت به أهمية الطرق التجارية البرية ، التى كانوا يعولون عليها فى موارد رزقهم • فكشرت لهم الفاقة عن أنيابها فى ابتداء القرن السادس على ما رواه المؤرخون(٢) • ولم يكن أثر هذا التحول عن الطرق البرية مقصورا عـلى العرب ، بل تأثرت به سـائر الامم ، وان كان العرب أشدهم تعرضا له • ويقدم القرآن الكريم صورا مريعة لحالة العرب فى ذلك الوقت • اذ أصابهم الهلع والخوف من الهلاك فعمدوا الى أولادهم يقتّلونهم خشية املاق يائسين من رحمـة الله وساءت حالهم حتى أكلوا الميتة والدم ، وعدوا عـلى الموازين يخسرونها ، واخذوا الربا أضعافا مضاعفة ، وأغار بعضهم على بعض يتزوجون النساء عن طريق الاسر والنهب ، حين قل عددهن وارتفعت مهورهن(٣) • ولـكن هـذا الخوف قد وحدهم أخيرا تجاه الخطر المشترك ووجه أنظارهم نحو البلاد التى تكثر فيها الخيرات من حولهم(٤) • وقد أدى هذا التحول الخطير فى

---

(١) Robertson Smith: Kinship & Marriage, P. 150

(٢) المسعودى ـ مروج الذهب ج ١ ص ٢١٩
S. A. Huzzin: Arabia & The Far East P.5

(٣) الاغانى ج ١ ص ١٣
Bevan James: Women in Islam P. 12 - 14.

(٤) Stobert: Islam etc P. 13.

طرق التجارة الى زوال حضارات قديمة فخيل للناس عند ذاك أنهم خلقوا سدى وأن المدنية الانسانية أصبحت على شفا حفرة من الانهيار • ويظهر ذلك من استعراض المؤرجين لاحوال هـذه الفترة اذ توهموا فقالوا : ان الحضارات القديمـة قد تحطمت فى القرنين الخامس والسادس الميلاديين فلم يعد هناك شيء يقوم مقامها • ونجدهم يأسفون على ضياع أتعاب الجنس البشرى آلاف السنين (١) ، فتغير طرق التجارة وما يرافق ذلك من اضطراب فى الاقتصاد والمعاش والانحطاط الفكرى والخلقى يسبب انهيـار المصادر التقليديـة للنظام الاجتمـاعى والعجز عن احلال شيء محلهـا ، وقد يسبب تمركز الثروات بشكل يثير حربا بين الطبقات وثورات وانهيـارا ماليـا • وهذا وغيره قد يؤدى الى موت الحضارة احيانا ، اذ الحضارة ليست أمرا طبيعيا دائما ،انما يجب ان يغذيها كل جيل (٢) •

لقد اصاب العرب انهيـار اقتصادى أدى الى انهيـار شامل فى النظام الاجتماعى وتمركزت الثروات بيد افراد معدودين وصار الشعب كله يعانى الفاقة وكان تحول طرق التجارة التى هى أهم الموارد لاقتصادهم ، قد حول انظارهم الى موارد اخرى •فتوجهت نحو البلاد المجاورة الغنية فوجدوها فى غمرة انحلال سياسى ، وما كانوا يعانونـه من الضيق قد وحد قضيتهم وعين هدفهم • وشاءت الحكمة ان يشرق الاسلام ، ويحملهم رسالة الدعوة له ، فساروا بحماس منقطع النظـير تحت لوائه يبشـرون الناس بـه كافة فاصابهم ما أصابهم مصداقا لقوله تعالى « وتلك الايام نداولها بين الناس » •

وهكذا نجد فى دراسة الحياة الاقتصادية معينا على تفهم أحوال العرب السياسية والعقلية والثقافية • فلنلتمس ذلك فى أسواقهم التجارية ومعاملاتهم

---

1. Mawlana M. Ali: Mohammad The Prophet, P. 10

(٢) جورج حداد : المدخل الى تاريخ الحضارة ص ١٩ •

المالية • ومن الذين تحدثوا عن نظام الحياة الاقتصادية للجاهليين (سترابو) اذ قال كل الاعراب رحّل ويشتغلون بالتجارة ، ولم يكن الناس بمكة نفسها يقدرون شيئا مثل ما يقدرون الاشتغال بالتجارة ، ومن لم يكن تاجرا فيهم ما كان عندهم شيئا • وحتى النساء انفسهن كن يحترفن التجارة ويزاولن أعمالها ، وكانت الصفقات التى يعقدنها بأنفسهن بسيطة نسبيا • وكان من بين المشتغلين والمشتغلات بالتجارة فى الجاهلية من لو كان فى عصرنا هذا لعد من أصحاب الملايين(١) •

ثانيا ـ دراسة حياة اجتماعية مماثلة :ـ

قلنا فى مطلع هذا التمهيد انه ليس من الممكن العملى أن نجد اليوم مجموعة من القبائل العربية تكون قد حافظت على نمط المعيشة التى كان الجاهليون يعيشون عليها بحيث انها منذ ذلك التاريخ حتى اليوم لم يطرأ عليها تغيير يذكر فى حياتها الفكرية والاجتماعية والاقتصادية • ونفينا نظرية البقايا Theory of Urivival ولكن قد يكون من الممكن العملى ان توجد اليوم قبائل عربية او غير عربية تعيش فى ظروف مماثلة الى حد كبير ، للظروف التى كان الجاهليون يعيشون فيها واذا كانوا كذلك كانت أحوالهم مشابهة لاحوال العرب الجاهليين ، فلو درسنا نظم هؤلاء وحياتهم وأساليب تفكيرهم نكون كأنا درسنا أحوال الجاهليين ، أو شيئا قريبا من أحوالهم(٢) • لكن هناك صعوبة فى تطبيق هذه النظرية وهى صعوبة معرفة ظروف الجاهليين تماما ، وبالتالى فى اختيار الانموذج •

---

1. H. Lammans: L'Islam Groyances et Institutions P. 20 - 21 .

(٢) محمد جميل بيهم : المرأة فى التاريخ والشرائع ص ٢ ـ ٩ •
جورج حداد : المدخل الى تاريخ الحضارة ص ٧٤ ـ ٧٥ •

فالمشكلة قائمة فى كلا النظريتين • وما دام الامر كذلك فقد اضطر بعض الباحثين الى قبول نظريـة مشابهة الظروف مع ما فيهـا من عقبة اساسية • فاعتمد (جوستاف لوبون) عـلى دراسة الحياة البدوية اليوم لمعرفـة احوال قدماء العرب • ووجهة نظره فى قبول هذا الفرض هى أن يعتقد ان تحول حيـاة الطبقات العاملة ، فى كل امـة بطىء بخلاف الطبقـات الراقيـة (١) ويؤيد رأيه ، الى حد ما ، المذهب الاجتماعى القائل : بأن الانسان انما هو نتاج البيئة والظروف المحيط به • وقد وافق العلامـة (كوست) العلامـة (لوبون) فى اتخاذ البدو اليوم نموذجا (٢) ، فلاحظ ان البدويات يقمن بشؤون البيت وتربيةالماشية (٣) وأرجع الروحالفردية فيهم وعدم خضوعهم للسيادة الى قلة مطالب حياتهم • أما المزارعون القدماء فاتخذ لهم من حياة سـكان حوران نموذجا وقال : ان نساءهم يعاملن بلطف ويراقبن مراقبـة دقيقة ، وقلّ أن يرتكبن خطيئة لان عقابهـا القتل عندهم (٤) • ونجـد (دوماس) الذى درس حياة عرب شمال افريقيا يصل الى نفسالنتائج (٥) وكلاهما وصف العرب بالادب الجم وذكر طمأنينتهم النفسية (٦) التىجعلها (جوستاف لوبون) خـيرا مما عند الاوروبيـين من الاضطراب النفسى ، الصادر عن انغماسهم فى كفاحهم العنيف (٧) • وقال (سميث) كان بعض

---

(١) جوستاف لوبون : حضارة العرب ص ٣٧١ ـ ٣٧٤ •

(٢) المصدر السابق •

(٣) جوستاف لوبون ـ حضارة العرب ص ٣٧٥ ـ ٣٧٧ •

(٤) المصدر السابق •

(٥) E. Daumas: La Vie Arabe et la Société Musulmane P. 290

(٦) جوستاف لوبون ـ حضارة العرب ص ٣٨٦ ـ ٣٨٧ •

(٧) المصدر السابق •

العرب يشتغل بالزراعة ويسكن القرى أو المدن • والتجارة فى بعض هذه المدن أهم حرف السكان وهذا ما يستدعى بطبيعة الحال ، أن يكون بعض البيئات الاجتماعية أرقى من بعض • وقال : ويكاد النمط الاجتماعى يكون فى شبه الجزيرة كلها واحدا فالوحدة الاجتماعية والسياسية هى القبيلة (١)

ثالثا ـ دراسة القانون :ـ

ولما كان القانون مظهرا اجتماعيا فى كل أمة ففى دراسته دراسة لحياتها الفكرية(٢) لانه وليد العادات الناشئة عن المعاملات ومثل القاعدة القانونية مثل اللفظة فى اللغة اذ هما لا يوضعان الا بدافع الحاجة • لهذا ينبغى ألا نتصور المشرعين كموس وسولون فرضوا شرائعهم على قومهم من عندهم لان ذلك لا يتأتى لاعنف الفاتحين(٣) • لهذا لم يكن الاسلام الا امتدادا لاصول عريقة ، ولم يكن بعيدا عن الفضائل الجاهلية فقد أقر كثيرا من قواعدهم وعاداتهم(٤) • وكان المشرع العربى يستمد نظمه وقواعده من القوانين القديمة(٥) فالاسلام مصدق لما سبقه من التوراة والانجيل وكان الرسول يترك القبائل على ما تعارفت عليه ان لم يكن مخالفا للنظم الاسلامية • ثم ان التمازج العقلى والمادى بين العرب والشعوب التى أخضعوها

---

(١) Robertson Smith: Kinship & Marriage in Old Arabia, P. I-2.

(٢) على بدوى ـ أبحاث التاريخ العام للقانون ج ١ ص ٩ ـ ١٠ •

(٣) جوستاف لوبون ـ حضارة العرب ص ٤٠٧ ـ ٤٠٨ •

(٤) Chiragh Ali: Reformes under Muslim Rule P. XXI

(٥) M. de S.: Résumé de 1' Histoire des Traditions Moral et Religeuses. P. 335.

ليدل عـلى شيء كبير من التقارب بين نظم العرب ونظمهم والا فكيف نعلل سرعة امتزاج الحضارة والقوانين العربية بحضارات البلدان الراقيـة التى دخلها العرب فاتحين • فكان هناك تقارب فى مستوى الثقافة بدليل ما حصل من المصاهرة والامتزاج الذى جعل الكل أمة اسلامية (١) واحدة • وما كان نمو الآداب الاقليمية فى الدولة الاسلامية فيما بعد ليخالف القواعد التى رسمها الاسلام للسلوك والاخلاق • وهـذه القواعد كانت مما يجيش فى صدور العرب فى الجاهلية بدليل ما أظهره المتحمسون للدين ، وبدليل كراهيـة العادات التى ابطلها الاسلام عند الجاهليين أنفسهم مثل كراهيتهم للوأد • كل هـذا يدل على اتصالهم فيما بينهم وصلتهم بالعالم الخارجى • فهم لـم يكونوا أمة منعزلة (٢) ، اذ يروى أنه كانت للرومان بيوت تجارية فى مكة ، وكانت تتجسس على العرب (٣) • الامر الذى يدل على خطرهم فى السياسة الدولية اذ ذاك • ومما يدل عـلى رقيهم قوافلهم التجاريـة العظيمـة (٤) التى أكسبتهم ثروة مادية وعقلية (٥) • وكانت الحيرة من أهم المراكز التى تلتقى فيها الثقافات ، فيحصل فيها التمازج • فالدلائل اذن تتضافر كلها على وجود رقى حضارى لدى العرب ، وبرغم هذا فقد نظر بعض رجال القانون الى الجاهليين على أنهم شعب فطرى وشبههم بالانجليز قبل الفتح النورماندى ، وبالرومان قبل تدوين الالواح ، وباليونان قبل شريعة سولون (٦) ، فاعتبروا القرآن التدوين الاول لشريعة العرب فى حين أن شـريعة حمورابى التى

---

(١) جوستاف لوبون ـ حضارة العرب ص ٤٠٨ ـ ٤١٠ •
(٢) أحمد أمين ـ فجر الاسلام ص ١٣ ـ ١٥ •
(٣) المصدر نفسه •
(٤) الطبرى : حوادث عام (٢) ص ١٢٩١ •
(٥) أحمد أمين ـ فجر الاسلام ص ١٧ •
(٦) على بدوى ـ تاريخ الشرائع ص ٢٢٢ ـ ٢٢٣ •

وضعت حوالى ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد انما هى من شرائع هذا الشعب • والذى رآه (سمث) هو أن العرب كانوا فى الجاهلية يؤلفون طبقات اجتماعية مختلفة فى التهذيب ، فكان هناك فرق كبير بين البدوى المتغلغل فى البداوة ، وبين التاجر الغنى من مكة ، وهذا الفرق كان كبيرا بمقدار ما هو اليوم • وكان يستتبع هذا التباين بطبيعة الحال تباين فى القوانين والعادات الاجتماعية وقال : اننا لا نجد فى ثنايا الاحاديث وكتب التفسير ما يشير الى اختلاف العادات التى كانت عند الجاهليين ، وان هذا الاختلاف كان مادة للمنافسة التى حصلت بين المهاجرين وبين المكيين أنفسهم ، الذين ورثوا عادات قدماء أهل مكة(١) ، واذا استعرضنا منزلة المرأة التى يرسمها الشعر الجاهلى وجدناها أسمى من الصورة التى تصورها القوانين اليونانية والرومانية والانجليزية فى العصور التى أشاروا اليها(٢) ، فنجد الشاعر العربى يناجيها فى السر والعلانية ، ويستشيرها ويحتكم اليها فى فنه ، فى حين أن اختها الاوروبية ما كانت الا متاعا دهرا طويلا ، حتى عصر جستنيان ويثبت الشعر أن العرب خاضوا أهم حروبهم لاجلها وكانت للنساء مؤهلات عالية تمكنهن من اشغال هذه المنزلة الرفيعة ، فقد عرفن عامة بالعفة والأدب الجم وقد بنين أكثر تصرفاتهن على قواعد الشهامة •(٣)

رابعا ـ دراسة الحالة الدينية ـ والدين نظام اجتماعى وهو أوسع مدى من القانون(٤) ومصادره عند العرب الكتب المقدسة والآثار القليلة

---

(١) Robertsom Smith: Kinship & Marriage in Old Arabia P. I-2.

(٢) سعيد الافغانى ـ الاسلام والمرأة ص ١٢ •

(٣) عبدالله عفيفى ـ المرأة العربية ج ١ ص ٧ •
Blunt: The Seven golden Odes, P. 12.

(٤) عبدالرزاق السنهورى ـ اصول القانون ص ١٦ ـ ١٧

وفى الشعر ذكر لتماثيلهم .[١] والمرجح أن الديانات المجاورة قد دخلت بلاد العرب[٢] فجاءتهم اليهودية من الشمال ،[٣] وكانت أشهر مواطنها فى بلاد العرب فَدَك وخيبر[٤] التى حالف أهلها العرب ، فسُمُّوا الاحلاف[٥] . أما المسيحية فجاءتهم من الحبشة[٦] كما جاءتهم من الشمال بعد أن حطم (تيتس) Titus القدس عام ٧٠ بعد الميلاد[٧] ونالت اليهودية من نفوس العرب أكثر من اختها المسيحية[٨] وان انتشرت الاديرة[٩] ، واعتنقها خلق من اليمن والحيرة[١٠] وعرفت بها ربيعة وغسان وقضاعة[١١] وتنسك فيها كثيرن[١٢] .

---

(١) جورجى زيدان ـ تاريخ آداب اللغة العربية ج ١ ص ٥٣
جستاف لوبون : حضارة العرب ص ١٩٠ .

(٢) Albert A. Traver : His. of Ancient Civi., Stobart: Isla. atc, P. 22.

(٣) Von Kremer: Contribution of The History of Islam.

(٤) أحمد أمين ـ فجر الاسلام ص ٢٧ .

(٥) Rev. Canon Sell : The Life of Mohammad P. 2.

(٦، ٨) Von Kremer: Contribution of the His. of Islam.

(٧) Stobart: Islam & its Founder P. 23.

(٩) Stobart: Islam etc. P. 24.

(١٠) ياقوت الحموى ـ معجم البلدان ـ ج ٨ ص ٢٦٢ .

(١١) Daumas: La Vie Arabe et La Société Musulman, P. 4

(١٢) أحمد أمين ـ فجر الاسلام ص ٣١ ـ ٣٢ .

ويتضح من هذا أن العرب لم يكونوا بغير دين[١] ، ولا يصح الاستشهاد بوجود الملاحدة فيهم ، اذ لا تخلص أمة فى كل زمن الى شريعة واحدة بل على العكس من هذا ، فانهم كانوا على جانب من التدين بعيد فقد نقل (هيوار) عن هيرودوتس (Herodote) فى تاريخه أنه لا يوجد شعب أكثر من العرب تدينا[٢] ، ولا أدل على تأثير الدين من جعلهم الاشهر الحرم ، واتخاذهم مكة مثابة للناس وأمنا ، وهذه سبيعة بنت الاحب توصى ابنها بقولها :

ابنىّ لا تظلم بمكّة لا الكبير ولا الصغير
واحذر محارمَها ولا يغررك بالله الغرور[٣]

وليست زندقة قريش الا دليلا على تعمقهم فى التفكير فى شؤون العقائد وشعورا منهم بنقص دينهم وحاجتهم الى القويم من الدين • وهذا الشعور بالنقص أول مراتب الكمال ، وقد أيد ظهور الرسول فيهم خاصة رغبتهم فى ذاك الدين • ويختلف أهل البادية عن المدنيين فى عقائدهم وأفكارهم وان كانت قواعد النخوة والشهامة متغلغلة فى نفوس الفريقين •

ومن انتشار هذه الديانات يستطيع الباحث أن يعرف شيئا عن اختلاف منزلة المرأة عند القبائل اذ نظر اليها كل دين نظرته الخاصة ، فمنزلتها اذن تختلف باختلاف القبائل والجهات ، وباختلاف الازمنة •

خامسا ـ الدلائل على رقى العرب ـ من وصف القرآن الكريم لحياتهم وأساليب نقاشهم يستنتج القارىء ما يدل على رقى عقليتهم وتؤيد

---

(١) جعفر بن أبى طالب ـ السيرة ج١ ص ٢١٨ تراجع الصفحات ٦ ـ ٩ من هذا الكتاب ، وهذا يناقض « رينان » فى انكاره ديانة العرب •

(٢) Huart: Histoir des Arabes V. I. P. 10.

(٣) الجارم ـ أديان العرب ص ١٩ ، السيرة ج ١ ص ١٦ •

ذلك الحفريات القليلة[١] وكتابات الامم عنهم • واذا ثبت أن البابليين والاشوريين كانوا عربا فاننا نستطيع أن نعتبرهم من أرقى الامم القديمة • أما الحفريات التى جرت فى بلاد العرب فتثبت أنهم كانوا قريبين من البابليين[٢] ثم أن نُضْجَ آدابهم قبل الاسلام ليدل على رقيهم وعريق تاريخهم[٣] وقد ذكرت العرب المصادر الاشورية منذ عهد بعيد • ولما ثار « آشور بانيبال » كان العرب قد أعانوه[٤] • وتدل الحفريات ايضا على أن الاشوريين قد تدخلوا فى شؤون العرب وكان الفريقان يتساجلان الوقائع ويتدافعان فى ميدان السياسة طَوَال القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد[٥] • وقد كان لسكان شرق بلاد العرب حول الخليج الفارسى وعمان حياتهم البحرية وسفنهم وكانوا على اتصال بالعالم الخارجى وحضاراته[٦] •

أما المصادر اليونانية فقد تحدثت عن العرب فيما سجله «هيرودوتس» و« أرشميدور » عن اليمن السعيدية وما كان فيها من قصور طليت جدرانها بالذهب[٧] وهذه الاخبار تطابق ما روى عن بعض العرب أنهم كانوا يأكلون فى أطباق من ذهب • وهذه الاخبار وان كانت تبدو عليها

---

(١) جورجى زيدان ـ تاريخ آداب اللغة العربية ج ١ ص ٤٩

(٢) جوستاف لوبون ـ حضارة العرب ص ٩٧ ـ ١٠٠

(٣) نفس المصدر

(٤) نفس المصدر

(٥) ادى شير ـ تاريخ كلدو وآشور ص ٨٥ ـ ١٣٠ فى هذا الفصل استعراض لحوادث كثيرة بين العرب والآشوريين •

(٦) S. A. Huzayyin: Arabia & the Far East, P. 39.

(٧) جوستاف لوبون ـ حضارة العرب ص ١٠٣ ـ ١٠٥

مسحة أسطورية الا أنها ربما ترجع الى امور تاريخية ذات قيمة ، ذلك لأن توزيع الثروة العالمية اليوم يختلف كثيرا عما كان عليه فى العصور القديمة. وفى القرآن الكريم والكتب السماوية المقدسة أوصاف رائعة لجنات عدن التى تجرى من تحتها الانهار وقد عرض المسعودى لوصفها فقال : ان السائر فيها لا يفارق الظل بسبب العمران وبساتين الاشجار(١) وقد تحدث النبى حزقيل عن غزارة خيرات بلاد العرب(٢) . وعسى أن يعيد كشف منابع البترول ومناجم الذهب حديثا الى هذه البلاد رخاءها الاول .

وبعد استعراض هذه الدراسات للعصر الجاهلى يجمل بنا أن نستعرض شعر هذا العصر استعراضا جامعا .

(٣) الشعر الجاهلى وقيمة دلالته التاريخية :

أ ـ عناية العرب بشعرهم ـ لا نعلم امة حفلت بالشعر أكثر من العرب(٣) ، كما لا نعلم شعبا جنى الفائدة الاولى من آدابه مثلهم(٤) . ولاهتمامهم بالشعر كانت أشعارهم أكثر من مجموع أشعار الامم كلها(٥) . ومن هذا كان ما قالوه فى كل فن من فنون الشعر أكثر مما قالته الامم كافة فى ذلك الفن(٦) . وهذه الكثرة من الشعر

---

(١) مروج الذهب للمسعودى ج١ ص ٢٧٦

(٢) Stobart: Islam & its Founder, P. 12.

(٣) Sloane: the Poet Labid P. 2

Lane: Arabia Society in the Middle Ages, P. 190.

(٤) Sloane: The Poet Labid P. 3.

(٥) جوستاف لوبون ـ حضارة العرب ص ٤٧٣ .

(٦) جميل سعيد ـ تطور الحميريات ص ٢٦ ـ ٢٧ .

ساعدتهم على أن يلمسوا به سائر نواحى حياتهم[١] ولهذا قال القدماء عن الشعر انه « ديوان العرب[٢] » يعنون بذلك أنه سجل نفوسهم ، كما جاء فى قول عمر بن الخطاب الذى مر ذكره : « كان الشعر علم قوم لم يكن لهم أصح منه »[٣] • وكان الشعر فى نظر عنترة العبسى لم يغادر بابا من أبواب الحياة الا تعرض له بالوصف والذكر[٤] • وقال الجاحظ : « فكل أمة تعتمد فى استيفاء مآثرها ، وتحصين مناقبها على ضرب من الضروب •••• وكانت العرب فى جاهليتها تحتال فى تخليدها بأن تعتمد فى ذلك على الشعر الموزون ، والكلام المقفى ، وكان ذلك هو ديوانها »[٥] • ولحرص العرب على حفظ الشعر كان لكل شاعر منهم راوية أو أكثر وخاصة فحولهم ، وهؤلاء الرواة هم الذين حفظوا الاشعار وأذاعوها فى العرب[٦] • ولكن الشعر العربى (ما انتهى الينا منه الا أقله ، ولو جاءنا وافرا لجاءنا علم وشعر كثير)[٧] • أما أسباب ضياع ذلك فترجع الى : انتشار الامية عندهم ، والى عدم تدوينه ، ومع هذا فان المحفوظ منه حتى عهد التدوين كان كثيرا بالنسبة لما وصل الينا اليوم ، اذ قد تعرض فيما بعد تدوينه وكتابته الى أحداث كثيرة • فقد روى أن أبا تمام كان يحفظ اربعمائة والف

---

(١) Stanly Lany Poel: Studies in a Mosque P. 8.

(٢) احمد امين ـ فجر الاسلام ص ٦٧ •

(٣) ابن سلام ـ طبقات الشعراء ص ١٧ •

(٤) عنترة ـ مطلع معلقته •

(٥) الجاحظ ـ الحيوان ج ١ ص ٣٦ •

(٦) الجرجانى ـ الوساطة ص ٢١ ـ ٢٢ •

(٧) ابن سلام ـ طبقات الشعراء ص ١٧ •
الجرجانى ـ الوساطة ص ١٣٥ ـ ١٣٦ •

أرجـــوزة (١) وأن أبا ضَمضَـم كان يَروي لمائة شاعر كلهم اسمه عمـــرو (٢) . ومن هذا وأمثاله نستدل بوضوح على عظم ما وصلهم منه بالنسبة لما بين أيدينا اليوم . وكانت القصائد فى الجاهلية تمر من فم الى فم عن طريق الرواية . وبظهور الجديدة منها تصبح الاولى قديمة فى الغالب وبهذا تعرضت للنسيان التدريجى مقادير كبيرة جدا من الشعر . فالشعر الذى بين أيدينا اذن يمثل بجملته العهود الاخيرة من الجاهلية على الراجح، وأن القديم منه قليل نسبيا (٣) .

ان أدوار حياة العربية وآدابها القديمة مجهولة بالنسبة لنا اذ لم يتصد أحد لدراستها ذلك لأن الناس نظروا الى العرب نظرة ليس فيها الاهتمام الكثير لاعتقادهم أن هذا الشعب عاش قديما عيشة سيطر عليها الجهل وأن لا جدوى علمية فى دراسة آدابه ولغته (٤) . بيـد أن الواضح لدينا من ملاحظة اللغة والشعر أن العرب كانوا على درجة كبيرة من الرقى الادبى ، الأمر الذى يدل على عريق تاريخهم الفنى اذ أن لغتهم وشعرهم لم يبلغـا تلك الدرجة من الاتقان التى كانا عليها فى العصر الجاهلى الا بعـد أن مر عليهما أزمان طويلة جدا (٥) . والمرجع أن العرب عاشوا فى عهد (ميثولوجى) كما عاش اليونان ولكن آثاره التى سبقت عهد الشعر الغنائى لم تصـــل الينـــا (٦) واذا ثبت أن سفر أيوب كان عربيا اعتبر العرب أعـرق الأمم فى انشاد الشعر (٧) .

---

(١) ابن خلكان ـ وفيات الاعيان ج ١ ص ١٢١ .
(٢) ابن قتيبة ـ الشعر والشعراء ص ٤ .
(٣) الجاحظ ـ الحيوان ج ١ ص ٣٧ .
حضارة العرب لجوستاف لوبون ص ١٧١ .
(٤) جورجى زيدان ـ تاريخ آداب اللغة العربية ج ١ ص ٢١ .
(٥) المصدر السابق .
(٦) جورجى زيدان ـ تاريخ آداب اللغة العربية ج ١ ص ٢١ .
(٧) المصدر السابق ص ٢٥ .

ب - قيم الشعر الجاهلي - لأجل أن نصور ما فى الشعر الجاهلى من قيم روحية ودلالات تصويرية يجدر بنا أن ننظر اليه من نواح ثلاث - من ناحية صلته بالجماعات العربية وناحية صلته بالأزمان التى قيل فيها ، واخيرا من ناحية صلته بالبيئة العربية .

(١) أما من ناحية صلة الشعر الجاهلى بحياة العرب النفسية : فالشعر الجاهلى ، شأنه شأن كل فن ينشأ عند جماعة من الجماعات البشرية ، لم يكن الا تعبيرا عن شعور تلك الجماعة وكان أهمَ الفنون التى عُني العرب بها عناية كبرى . فكانت المعانى التى تختلج فى نفوس القبائل والأفراد تتفجر على لسان الشاعر وتطفح أناشيدَ وأغانٍ يحملها الركبان فيعيش منها ما كتب له الحياة . فلم يعرف الشعر عندهم غير معين تلك الأفكار البسيطة الواضحة وغير تلك الروابط الاجتماعية القبلية . فلم يكن أسلوب تفكيرهم ليميل الى الصناعة والتعمق .

والشعر الجاهلى كما كان يصدر عن شعور تلك الجماعات وأحاسيسها كان له بدوره أثر فى شعور الجماعة ذاتها وفى عقلية أبنائها . فكان الشعر اذن يصدر عن شعور الجماعة ويؤثر فى شعورها فهو بهذا يمثل القيم الروحية للشعب العربى . وقد لاحظ أفلاطون على الشعر اليونانى مثل ذلك الأثر فى نفوس اليونان فدعا الى اتخاذ الشعر وسيلة تهذيبية أخلاقية، واقترح لذلك أن يطلب الحكام من الشعراء معانى معينة ، ويسألوهم أن يُضَمّنوها فى أشعارهم ، فيها الخير والدعوة للفضيلة ، واقترح أن يكون عقاب من لا يتبع نصائح الحكام هو أن يُحرَّم عليه قولُ الشعر فى المدينة الفاضلة ، وقال « ان الانسان يتهذب ذوقه الموسيقى بسماعه الانغام الراقية ، فيعاف بعد ذلك قبول النغمات الشاردة ، وهو كذلك اذا ما سمع الأشعار الممتازة بمعانيها السامية ، تهذبت نفسه ، وسما ذوقه ، فيصبح لا يصدر عنه الا كلٌ جميل . والجمال ما هو الا تصوير للجانب الروحى من فكرة

الألوهية ، ولما كان الجمال هو الخير فان جهود الانسان ستتجه لتحقيق الخير للجماعـــة »(١) . وما اقترحه افلاطون من سيطـرة الحكام على الشعراء كان منه شيء لدى الجاهليين اذ نجد شعراءهم يتقيدون بالاخلاق العـامـة والحشمة الموروثة الا النادر الشاذ منهم وكان للشعراء حكام" يحتكمون اليهم وكثير" من أحكامهم مبثوث فى كتب الادب .

(٢) أما عن صلة الشعر الجاهلي" بالزمن فاننا نجد الشعر بجملتـــه يصـور العرب كيف كانوا يعتقدون اعتقادا جازما باتصالهم بماضيهـــم وارتباطهم به ارتباطا وثيقا ، وأنهم ورثوا عن أجدادهم العظـام صفاتهـم الكريمة ، التى عليهم أن ينقلوها الى ابنائهم سليمة ، فحرصوا على أن يودعوا تراثهم الشعري" خير ما عندهم من الفضائل . وموقفهم بالنسبة الى أجدادهم يشبه موقف الأمم الممتازة فى عهدهم ، فكانوا يمجدون الأجداد ويفخرون بتراثهم وماضيهم(٢) . والشعر الجاهلى يصور حرصهم على أن يخلفـــوا للأجيال اللاحقة أكرم فضائلهم ليكسبوا احترام تلك الأجيال لهم . واحترام الانسان للأجداد من أسمى صفات الانسانية . وان رغبة الجماعات فى أن تحترمها الأجيال اللاحقة تماثل حبها وتعلقها بالماضى . وكانت هذه النزعة الى المحافظة على هذه الصلات وتمسك العرب بأسباب الخلـود لها قيمتهـا الايحائية فى ميدان الفن الشعري" . اذ فى جو هذه النزعة كانوا يحيَون حياتَهم الكاملة ، فربطوا حاضرهم بماضيهم وبمستقبلهم وفى جوها نشأت البيئة الصالحة لتصوير تلك القيم الروحية المتوارثة، التى فيها معنى الخلود.

(٣) أما عن علاقة الشعر الجاهلى بالبيئة التى درج فيها ، والمظاهـر الطبيعية والاجتماعية التى تأثر بها ، فقد ظهرت واضحـة فى الأفكار التى

---

(١) افلاطون ـ الجمهورية ص ٢٧٥ وتراجع ص ٨٧ .

(٢) Sloane: The Poet Labid, P. I-3 .

عرضها الشعراء والصور التى رسموها والأخيلة التى تخيلوها ، والألفاظ الفنية التى اختاروها ، وظهرت حتى فى الفن الشعرى الغنائى الذى شمل شعرهم عامة .

فتح الشاعر الجاهلي عينه ، وأجال الطرف حوله ، فلم يجد مثل المرأة موضوعا يستحق أن يُولْيه عنايته واهتمامه ذلك لأن بيئته كانت قليلة الصور والمناظر . وجد المرأة أمامه ، المرأة التى تَسْحَر الرجل أينما وجدت ، فأولاها عنايته الفائقة فى شعره وجعلها مستودعا لأفكاره السامية ومناطا لنجواه . فكان الشعر الجاهلى غنائيا والمرأة أهم موضوعاته ، والشعر لغة الحبّ والعشق فصارت صورة الحبيبة من أوضح ما فيه ومع هذا فقد تساءل البعض عن الحب هل وجد بين ابناء الصحراء تحت شمسهم المتوهجة وفى أرضهم الممحلة ، بين قسوة الحياة وضرب أكباد الابل ، بين العصبية الشديدة والحروب المتّصلة ؟ نعم لقد وجد عند نبع الماء وفى منعطف الكثيب وتحت ظلال النخيل وفى مراعى الربيع المعشوشبة وعلى أصوات الرعاة وبين مضارب الخيام اذ تقع العين على العين والقلب على القلب(١) . وكانت ذكريات اللقاء فى السهول التى كساها العُشْب أيام الربيع القصار تعلق فى النفوس(٢) . وقد فرضت تقاليد بيئتهم عليهم قواعد الحب الشريف ، فكان حبُهم متساميا لم نجد مثله عند الأمم الأخرى . والبدوى يقدس حبّه ، ويرتفع به عن الخشونة والاحتقار وغير ذلك مما فى الشعر الأوروبى فى القرون الوسطى . وقد بعث حبهم فى نفوسهم روح الشجاعة ، وعدم الرهبة حتى من الموت(٣) وقد طبعت البادية المكشوفة نفوسهم على

---

(١) مارسيل تينر ـ تاريخ الحب ص ٦٤ .

(٢) Wilfrid Scown Blunt: The Seven Golden Odes, P. 14.

(٣) John Middleton Murry: Adam & Eve, P. 42 - 43 .

الصراحة • ولم يكب اعلان الحبّ ليجلُبَ عارا ولا ليحِط من سمعة المحبّ شيئا ، ما دام حبا شريفا •

اننا من دراسة أشعار الغزل والنسيب التى تغلب فى الشعر الجاهلى نستطيع أن نخرج بنتيجة هامة هى أن المجتمع العربى كانَ فى ذلك العهد قد بلغ درجة بعيدة من الحضارة على خلاف ما ذهب اليه بعض المؤرخين ، ذلك لان فنّ الغزل والنسيب لا ينشأان الا فى مجتمع متحضر ، فالحبّ الذى نفهمه لم يولد مع الانسان كالجوع والخوف والظمأ ، لأن المرأة الأولى عاشت تحت حماية الرجل مثقلة بمتاعب الجنين لا تتبرم بخضوعها لأن الرجل القديم كان شبيها بالحيوان لا يضطهد المرأة ولا يعذبها الا متى فكر فى اختطافها وحيازتها لنفسه (١) • ولما ارتفعت الحياة الاجتماعية ونشأ شىء من العرف والعادة فى قواعد حياة الانسان صار الرجل لا يختطف المرأة ، بل لابد له أن يستهويها ويجذبها نحوه ، فوجد نفسه أحوج ما يكون الى فن يكسب به قلبها ، وصار توّاقا لان ينال منها ابتسامة أو أية امارة تدل على عطفها ، وكان يعُدُّ ذلك انتصارا كبيرا • وهكذا انبعثت عاطفة الحب ، فتولدت من صُلْب البهيمية الاولى (٢) • فعاطفة الحب اذن يحتاج وجودها الى نظام اجتماعى فيه حماية للفرد كافية • وهناك بعض اللغات ليس فيها لفظة تدل على الحب (٣) ، بخلاف العربية التى كثرت فيها الالفاظ الدالة على هذا المعنى • وقد سبق أن قدّمنا أن المجتمع الجاهلى قبل ظهور الاسلام كان على درجة من الرقى حتى ان بعض الباحثين اعتقد أن الحياة الجاهلية انما كانت فترة مظلمة سبقتها حضارات راقية كما ينشأ عند كل امة •

---

(١) مارسيل تاينر - تاريخ الحب ص ٣ •

(٢) نفس المصدر ص ٤ •

(٣) Ellis: Studies in the Bsycology of Sex. P. 277

وكانت علاقة المرأة الجاهلية بالرجل ليست علاقة مادية فحسب ، كما يتوهم البعض ، بل كانت مصدرا لالهامه ، وشريكا نفسيا وعقليا له . فلا يجوز أن يشك أحد فى العواطف القوية التى نجدها فى شعر العرب الذين أحبوا حبا صادقا مثمرا، من أهم صفاته الدوام والثبوت(١) . واذا استعرضنا الشعر الجاهلى نجد فيه تصويرا للطبائع البشرية والمظاهر النفسية وفيه تعليلات أفلحوا فى قسم كبير منها .

ج - دعوى الانتحال - حامت بعض الشكوك حول صحة نسبة الشعر الجاهلى الى أصحابه مستندة الى ما أوجزناه من الاسباب ، ولما كان هذا الشعر مادة بحثنا لزمنا أن نوضح موقفنا منه بالنظر الى هذه الشكوك . أما النقاد فلم يقفوا موقفا واحدا بالنسبة الى قبوله أو رفضه ، فقد اشترط المرحوم أحمد أمين صحة المتن والسند(٢) فى حين ان مدونى الادب لم يسلكوا هذا السبيل الذى سلكه مدونو الحديث ، ولعل قدم عهد الشعر وضياع أسماء كثيرة من رواته لعدم اهتمام الناس بهم كان السبب فى عدم تدوينهم السند الذى سلكته رواية الشعر ، فهناك قصائد جاهلية كثيرة لا نعرف قائليها ، ولا نعرف : متى وأين قيلت ؟ ومن هم رواتها . لهذا كانت قاعدة أحمد امين على وجاهتها غير جامعة اذ تفوت علينا شعرا غزيرا وربما لا تنطبق الا فى أحوال قليلة . أما الدكتور طه حسين فقد ذهب فى الشك مذهبا بعيدا ولم يقدم لنا قاعدة واضحة لنميز المنحول من غيره ، وان كنا نجده يتشكك على الدوام فى الشعر الذى فيه اسراف فى الليونة أو

---

(١) Edward William Lane: Arabia Society in the Middle Ages P. 207.

(٢) احمد امين - فجر الاسلام ص ٥٩ .

فى الغرابة(١) الامر الذى نعتقد انه يختلف باختلاف الافراد والاذواق ، قائلين وسامعين ، فينعدم الضابط فيه لهذا السبب واننا لنعترف للدكتور طه بأثر أبحاثه العميقة فى نفوس الناشئة اذ أنها حفزت الدارسين الى التعمق والتمحيص فى دراسة الشعر • أما موقفنا من دعوى الانتحال فهى أننا نتقبل الشعر المروى الا اذا قامت دلائل ثابتة على انتحاله جريا على القاعدة الفقهية (الاصل البراءة) فاذا وجدنا فيه ما يمنع نسبته الى العهد الجاهلى حكمنا بانتحاله ومن الجدير أن نتصور أن الحياة الواقعية تحتمل امورا كثيرة قد لا تدخل فى الحسبان • فكثيرا ما تحدث رجال العلم عن الذرة بأنها لا تتجزأ وقد استخدم العلم الحديث الذرات المجزأة فى الحرب • وهو اليوم يستخدمها للاغراض السلمية وسيعم استخدامها على نطاق واسع فى ميادين الحضارة والمدنية الحديثة •

نحن لا نرى وجها يدعو لهذه المبالغة فى دعوى الانتحال فى الشعر ما دامت لم تتوافر لدينا المقاييس التى نطمئن اليها • أما قيمة دلالة الشعر العربى فقد عبر عنها ابن عباس اذ قال « اذا قرأتم شيئا فى الكتاب فلم تعرفوه فاطلبوه فى أشعار العرب(٢) » فأشعار العرب عامة تصور أدبهم كما تصور حياتهم وتقاليدهم • وقد لاحظ ذلك الجاحظ نفسه كما مر • ثم اننا نجد فى الشعر دواوين خاصة كل ديوان لشاعر معين وهذه الدواين تتميز فيها شخصياتهم التى لها صفاتها الخاصة وأفكارها وأساليبها وميولها وطبيعتها ولغتها فمن المستبعد اذن أن يبلغ الانتحال الى درجة أن توضع هذه الدواين الضخمة فتنسب الى شعراء موهومين أو حقيقيين ولكنهم لم يقولوها ، أو

---

(١) طه حسين ـ الادب الجاهلى ص ١١٧ ـ ١٨١ •

(٢) ابن رشيق القيروانى ـ العمدة ج ١ ص ١١ •
أبو زيد القرشى ـ جمهرة اشعار العرب ـ المقدمة ص ٥ •

أشخاصا ليسوا من الشعراء ، وهكذا فليس من السهل علينا أن نساير الدكتور طه حسين فنقرر مثلا انتحال قصيدة المنخل « ان كنت عاذلتى فسيرى » لانهالينة رخوة كما لا نستطيع أن ننكر صحة شعر الاعشى لسهولته ، ولا شعر اليمن لاختلاف لهجتهم كما فعل الدكتور طه ، اذ يجوز أن يكون شعراؤهم قد نشأوا فى بيئات عدنانية بحتة • ولسنا بموقفنا هذا بمبدعين ، فقد اعترف ابن سَلاَّم بصعوبة تمييز المنتحل من غيره اذ قال انها تبلغ درجة الاشكال(١) • ويضاف الى ذلك ان الشعر الجاهلى قد عُرض على أذواق عديدة قبلنا فلم نجد منهم من وسمه بالانتحال بهذا الشكل الواسع مع أنهم كانوا أقرب منا تذوقا وتفهما له ومعرفة لاغراضه واطلاعا على البيئة التى نشأ فيها ، بل نجد العكس ، فانهم عرضوا هذه الاشعار فى كتبهم عرض المطمئن اليها المعترف بصحتها جملة • واذا قال قائل ان وسائل البحث والنقد التى بأيدينا اليوم ما كانت متوافرة لهؤلاء النقاد والادباء القدامى ، فاننا نؤكد ما أوضحناه وهو أن دعوى الانتحال لا تقبل الا اذا بُنيت على أصول مقبولة ثابتة وانما نريد أن نجد هذه الاصول • ومما يؤيد هذا أن الاساليب التى اتبعها النقاد فقرروا بموجبها الانتحال فى الشعر أدت الى نتائج متناقضة فيما بينها أشد التناقض : فقد رأى الدكتور طه حسين : أن الشعر الجاهلى الذى بين أيدينا يصور امة متأخرة ، ولا يستطيع القارىء أن يظفر منه بشىء ذى غناء عن حياة العرب الاقتصادية بخلاف القرآن الذى يصورهم على درجة من الرقى العقلى والتجارى (٢) وبالايجاز انه يرى تأخر شعرهم عن واقع حياتهم ، ورأى (نولدكه) على عكس ذلك تماما اذ قال : اننا يتملكنا الاعجاب من غنى لغتهم ، وبساطة

---

(١) ابن سلام ـ طبقات الشعراء ص ٢٢ •

(٢) طه حسين ـ الادب الجاهلى ص ٧٥ ـ ٧٦ •

حياتهم ، وفقر طبيعتهم[١] . والذى يبدو من تلك الحرية الواسعة التى سمح النقاد بها لانفسهم أنهم صاروا يصورون ما كان يدور فى نفوسهم ولم يتقيدوا بالشعر وبالبيئة بالقدر اللازم ، ويُعنوا بالاصول التى يلتزمها النقد الصحيح . والغريب أن الشعر الجاهلى اذا صح انه وُضع فى العهد العباسى ، على رأى الدكتور طه حسين ، فجاء مصورا لحياة منحطة ، كان ينبغى أن يمثل على العكس من ذلك حياة راقية هى التى افترضها الدكتور أن تكون موجودة لدى الجاهليين فاذا كان العباسيون قد اصطنعوا هذا الشعر ، كما قال الدكتور طه فلابد أنهم كانوا قد اودعوه ما يجعله قريبا جدا للحياة الجاهلية ، التى هم أعرفُ منا بها وأقرب عهدا اليها . والواقع ان كل هذه امور تحتاج الى درس دقيق ثم تُقرر النتائج بعده . والذى نسلم به هو أن هذا الشعر لا يوجد فيه فضل عما تتطلبه الحياة الجاهلية على رأى (نولدكه) ولا هو بقاصر عن مجانسة حياتهم على رأى الدكتور طه . وغاية ما فى الامر أن قصورنا فى معرفة كل ذلك هو الذى قاد الى الوقوع فى هذا التناقض . ومن الغريب أن يحسب بعضٌ أن هذا التناقض كان واقعا بالفعل فى الحياة الجاهلية نفسها كما قال روحى الخالدى « كانت فنون أدبهم أرقى من معيشتهم البدوية[٢] » . وهذا أمر يصعب تصوره ، والا فأين اجماع النقاد على : أن الادب انما يكون صورة للحياة والذى نؤمن به فى هذا المقام هو أن كثيرا من هذا الخلط انما يرجع الى طريقة التعميم التى اتبعها بعض النقاد ، والى الاحكام الفردية التى تستند الى أمزجتهم الخاصة بدل ان تستند الى الوقائع الملموسة .

---

(١) احمد امين ـ فجر الاسلام ص ٦٣ ـ ٦٤ .

(٢) روحى الخالدى : تاريخ الادب عند الافرنج والعرب ص ٤٣ .

د - **دلالة الشعر ودلالة النثر** واذ نتخذ الشعر مادة للبحث يستحسن أن نعرف قيمته فى تقديم المواد النافعة لتصوير المرأة ، على أساس من المقارنة بينه وبين النثر • الشعر يشارك النثر فى كثير من المجالات وقد يتشابهان حتى لنخال النثر شعرا والشعر نثرا ، وقد قيل عن اختلافهما انه يشبه اختلاف الولد عن والدته ، طبيعتهما واحدة وتأثيرهما مختلف ، فكلاهما وليد الموسيقى ، يحفظ أصله ويشارك الآخر فى صفاته • وبانفصالهما حافظ الشعر على القسم الاقوى من الموسيقى تلك هى موسقى القلب ، واختار النثر موسيقى العقل فلاءمت طبيعة المناقشة والتعليم ، فى حين أن موسيقى الشعر هى التى تنسجم مع سائر العواطف : من أمل وخوف ، وحب وبغض ، ومع ذلك فلا زال كلا الفنين على درجة من القرابة والاتصال بصاحبه فهما يتصلان بمنافذ وطرق كثيرة ، اذ ما زال الشعر يستهجن مثلا عدم التعقل ، وما زال النثر يعتز بالشعور الصادق والعاطفة الصحيحة[١] • وهذا التقارب والوفاق بين الفنين لا يعدم التباين بينهما فالنثر يسمع مباشرة والشعر يسمع خلسة ، أو عن طريق الصدفة ، بمعنى أن النثر يُفْترض فيه وجود سامعين أو قارئين ويفترض فى الشعر أن يتحدث الشاعر الى نفسه دون أن يشعر بوجود سامعين • فالشعر اذن ان هو الا شعور واعتراف من الشاعر الى الشاعر يغنى فيه عواطفه ، فيصوغ أفكاره ويجعل منها تشبيهات ورموزا هى أنسب الاساليب البلاغية التى تترجم عن شعوره على صورته الحقيقية ، فتمثل ما يدور بخلده تمثيلا صادقا[٢] • ويختلف الشعر عن النثر اختلاف الفرح عن الراحة

---

(١) Gohn Franklin Genung: The Working Principle of Rhetoric P. 139

(٢) Mill: Dissertations & Discussions, Vol I P. 97.

البدنية ، وكما أن مبعث الفرح شعور داخلي فان مبعث الراحة أمر خارجي . ولعلنا ندرك هذا الفرق بالرجوع الى المصدر الذى اشتق منه اللفظان ، فأصل الشعر من الشعور الذى يستوطن فى ضمير الانسان . والنثر من مصدر النثر ، الذى يتمثل فى التفريق وهو من خصائص الامور المادية .

وفى الشعر منبع صاف يتدفق منه روح الانتصار والخير ، ذلك لان الروح الحساسة النشيطة تكون قادرة على أن تصدر عنها موجات من الافراح تبدد ما فى الحياة من كآبة وظلام ، كأن فى هذه الروح أقمارا تتشعشع منها أنوار قدسية هى من فطرة الله وموسيقى تنتظم على نغماتها الانفاس الحائرة فتخفف عن القلوب المكلومة الآلام(١) .

ان الحقائق التى توجد فى النثر توجد فى الشعر أيضا ولكن فى أثواب جميلة اذ مادام الشعر مرآة للحياة فهو يصور ما فيها . والفكرة والحقائق هى من عناصر الشعر الضرورية أيضا ولكنها أيضا تلتزم أساليبها الخاصة . والمرأة فى كثير من الاحيان كانت الهة الشعر وباعثة العاطفة الاولى فى قلب الرجل وملهمة المعانى له فجعلته يفيض بالاناشيد الخالدة والشعر العربى خاصة كان فى معظمه منها واليها فجاءت صورتها فيه ناطقة حية .

هـ ـ **دلالة الشعر الجاهلى** ـ اذا كان الشعر العربى كما يقول الأكثرون ديوان العرب ومرآتهم يصور نفوسهم وبيئتهم فما هى تلك الصورة التى يرسمها لنا اذن ؟

من يتصفحه يجد فيه صورا مختلفة الالوان ، يجد الصحراء بما فيها من خشونة فى الحياة ، وغلظ فى التعبير ، وقوة فى الاسلوب كما يجد فيه

---

(١) Bushnell: Sermons for the New Life, P. 226.

القول العذب ، والتركيب الفنى الجميل ، ويلمس من أطراف الحضارة والرقى العقلى شيئا غير قليل . وهذا أمر ليس فيه غرابة . فالشعر انما هو الا نتاج أمة كبيرة وثروة عقلية لجماعات عديدة ، فيها السرى والحكيم كما فيها المعدم والراعى الفقير . والشعراء لم يكونوا من طبقة واحدة ، فمنهم طائفة امتازت بالفروسية وطائفة اشتهرت بالخمر والمجون ومنهم نخبة من الحكماء واهل الرى . الا أن بعض النقاد على ما يظهر قد تأثروا بشاعر من الشعراء أو بطائفة منهم فانجرفوا معه وجعلوا منه مثلا للشعر كله ، ويبدو أن كثيرا من نقاد العرب والمستشرقين فى هذا سواء . ولعل طرفة بن العبد الذى تحدث عن نفسه بصراحة تامة فكشف عن أسرارها وآمالها(١) كان من أقوى شخصيات العصر الجاهلى وقد رأى الدكتور طه حسين فى معلقته (لينا فى غـــير ضعف)(٢) واعتبر شعره لهذا شعرا جاهليا غير مصنوع ، ورآه بعض يمثل الجاهلية فى صراحتها وسذاجتها واستنبط جماعة منه صفات عموها على الحياة الجاهلية كلها فقالوا انها كانت صفوا لا يعكره تفكير ، ولهـــوا ومرحـــا (٣) وهذا التعميم تبتعد عنه الدقة .

واذا نظرنا فى الشعر نظرة أدق مما فعلوا وجدنا فيه الشعراء يؤلفون مجموعات : شعراء فروسية كعنترة وعروة (٤) وشعراء خمريات كالاعشى

---

(١) معلقة طرفة بن العبد .

(٢) طه حسين : فى الادب الجاهلى ص ٢٣٩ ـ ٢٤٠

(٣) Khuda Bukhsh: Contributions to the His. of the Islamic civil. P. 105.

(٤) Browk: Literary His. of Persia P. 190.

وأبى محجن(١) وهناك الحكماء(٢) ، والامـــراء(٣) ، وهناك الوصافون، وأهل الحماسة(٤) ، والصعاليك (٥) . وقل أن نجد مع هذا شاعرا يختص بفن واحد . أما الشعراء الذين ذكروا المرأة منهم ، ومن بينهم أهل الغزل، فهم مجموعة كبيرة بحيث لا يعدمهم مصر" ، ولا تخلو منهم قبيلة . ومن بين هؤلاء المتيمون ، وشهداء الحب ، ولبعضهم قصص غرامية غريبة ، تدل على حب افلاطونى . وبالاجمال فان موضوع المرأة لما كان موضوع الطبيعة فى الرجل ندر أن نرى شاعرا لم يذكره من قريب أو بعيد .

وخلاصة القول : هى أن الشعر الجاهلى لم يكن صورة واحـــدة ، ولا نجد فيه عددا من القصائد يتشابه تشابها تاما . فلو أخذنا المعلقـــات المشهورة وجدناها تختلف فى صفات وتجتمع فى صفات . فحب الذات مثلا هو طابع معلقة امرىء القيس وطرفة وعنترة ، ولكن معلقة امرىء القيس تشيع فيها صورة الامارة والشرف وخصوصا فيما تشتمل عليه من وصف . ومعلقة طرفة مطبوعة بالطابع المادى والصراحة والاعتراف بالواقع عن ايمان ثابت . أما معلقة عنترة فهى صورة للفارس المحارب(٦) وكل من هـــذه المعلقات تختلف عن المعلقة الاخرى . واختـلاف الشعراء فى أذواقهـــم وأساليب التعبير عن نفوسهم لم يمنع اتفاقهم ، الى حد ما ، فى افتتاح قصائدهم

---

(١) يراجع شعر الأعشى وعنترة وأبى محجن وما كتبه خدا بخش ص ١٦٥ هامش (٣) اعلاه .

(٢) يراجع شعر أمية بن أبى الصلت ، وزيد بن عمرو ، وزهير ، الافوه الاودى وابن سلام فى طبقات الشعراء ص ١٠٣ .

(٣) يراجع شعر الأفوه الاودى ، عامر بن الطفيل ، عبـد يغوث ، قيس بن عاصم .

Sloane: The Poit Labid. P. 5-6.

(٤) قصيدة عمر بن كلثوم .

(٥) شعر عروة بن الوردة ، السليك ، تأبط شرا ، الشنفرى .

(٦) المعلقات السبع ـ ترجمة جونسون ص ١ ـ ٤ .

بذكر المحبوبة غالبا بطريقة مباشرة ، أو بذكر أطلالها • والاطـــلال فى الشعر تنسب اليهن غالبا فهى « ديار للرباب »[١] و« أطلال لخولة »[٢] و« دمنة من أم أوفى »[٣] ولعل عادتهم فى نسبة الديار للمرأة من بقـايا عادتهم فى نسبة الاولاد والقوم لامهاتهم دون آبائهم وذلك فى عهد الامومة القديم ثم صارت طريقة من طرائق أشعار المحبين اذا ذكـروا حبيباتهـم ، فهذه العناية بالاطلال فى الشعر الجاهلى ترجع الى مقدار التأثير العظيم الذى تؤثره المرأة فى نفس الرجل ، الذى لم يكن ليرى جمالا بدونها ولا يراها دون أن يشعر بالجمال • والجمال والحب متلازمان • وكان الحب عند العرب مصدرا لفضائل كثيرة توحى بها المرأة ولم يكن هذا شأنه عند اليونان مثلا، اذ الحب كعاطفة لم يكن يظهر عندهم ولا تغنى به شعراؤهم فشعر هوميروس خال منه • صحيح ان هيلين Héline كانت السبب المباشر لحروب طروادة Troie ولكن هذه الحروب ما ثارت حبا بهيلين نفسها ، فاليـونان لـــم يحاربوا من أجل اكرامها بل حاربوا حبا للغلبة ورغبة فى الانتصار ولـم يظهروا فى حروبهم أعمالا باهرة مصبوغة بالغرام والحب مثل ما أظهره الشعب العربى فى مناسبات تفوق الحصر[٤] • فالحبيبات ذوات الخـــدود الناعمة والقدود الميالة والعيون الساحرة ، والشعور الحالكة أخبارها العذبة ممزوجة بأخبار الطعن والضرب وبالاعمال الجسام المجيدة • وكان اليونان يرون الحب لعنة تنزلها الالهة لتعوقهم عن انجاز أعمالهم[٥] ، ولكن الحب

---

(١) الحارث بن عباد ــ شعراء النصرانية ص ٢٧١ •

(٢) طرفة بن العبد ــ ديوانه ص ٣ (رواية ابن السكيت) •

(٣) زهير بن أبى سلمى ــ ديوانه ص ١ •

(٤) Perron: Femme Arabe, P. 76.

(٥) Ibid: P. 76-77.

الصادق عند قدماء العرب ورغبتهم فى حماية المـــرأة كثيرا ما أثار الخصام بينهم • وكان لكل فارس محبوبته ، توحى اليه بأمثلة الشجاعة • فصارت فروسيتهم فروسية حقا ، نبيلة ، عليها روعتهـا من الاخـــلاص والشعور بالجمال ، وكانت تعم ربوع الصحراء، مشاتيها ومصايفها ، سهولها ووهادها• والفروسية العربية ، كما نعلم ، نقلت الى الغرب ، الا أنها لم تتغلغل بكامل صفاتها فى أخلاقهم • أما فى الشرق فان الفروسية كانت ذات فائدة كبيرة لضرورتها لنظمهم الاجتماعية السائدة ، وهى من مقتضيات النظم الاخلاقية فى بلاد العرب • أما فى الغرب فكانت تقليدا ، لهذا سرعان ما انهارت تحت تأثيرات المقاومة لها(١) • ولما كان اليونان لا يعرفون الحب كعاطفة وكذلك الـــرومان لـــم نجـــد فى أشعارهـــم(٢) ما نسميه فـن الحب(٣) L' Art d' Aimer • أما العرب فكانت نساؤهم تتمتع بمكانة اجتماعية مرموقـــة ، فغرست روح الفروسية فى نفوسهم حب التضحية للمـــرأة الشريفـــة(٤) ، وهى التى تعشقها الشـــعراء فشغلت المقـــام الاول من قصائدهم ، فحيوها تحية الخاشع لها لا الخاضع وصوروا شدة شوقهم اليها تصوير الهائم بكريم صفاتها، فصار ذكر المرأة تقليدا فنيا فى قصائدهم (٥) تقترن به كل المعانى المختلفة • قال ذو الاصبع العدوانى فى ابن عم لـــه كان يعاديه مفتتحا قصيدته بالغزل يقول :

يامن لقلب شديد الهم محزون ، أمسى تذكر ريـا أم هـارون

---

(١) Perron: Femme Arabe, P. 76-77.

(٢) Virgile, Catulle, Tibulle, Properce.

(٣) André, Maurois: Sept Visages de L' Amour, P. 8.

(٤) W. S. Blunt: Seven Golden Odes, P. 10-14

(٥) حبيب الدمشقى ـ المرأة فى الجاهلية ص ٢٥ ـ ٢٦ •

وبعد أن أعقب هذا البيت بأبيات فى الغزل انتقل فجأة فقال : « ولى ابن عم على ما كان من خلق ... » فجمع فى هذه القصيدة بين العاطفتين الحب والبغض معا . ومن هذا وغيره تظهر الصلة الوثيقة بين المرأة والشعر الجاهلى فكان الشعر من خير المصادر لتصويرها . بيد انه لا يتوقع أن نجد فى الشعر كل ما يتصل بالمرأة لان الشعر لم يكن فى يوم من الايام يهدف الى الاستقصاء والاحاطة التامة لان الاستقصاء والترتيب والتبويب العلمى يخرجه عن جوه الشعرى . ومع هذا فقد يقدم الشعر حقائق وصورا عديدة تكون ذات قيمة تاريخية كبيرة قد تفوت المؤرخين .

ان التاريخ لم يكن ليعنى بالمرأة العناية التى أولاها اياها الشعر ، هذا من ناحية ، ومن الناحية الاخرى فان الشعر مقيد بقيود منها الوزن والقافية ، وكان بالاضافة الى ذلك ينقل بالرواية وبالفاظه ، والنقل بالالفاظ فى العادة من دون تبديل فيها ، لهذا كان الشعر وثيقة ثابتة قوية الدلالة . وقد قدم لنا الشعر الجاهلى معلومات كثيرة أغفل ذكرها المؤرخون ، أو ذكروها فى أساليب تختلف عما عليه فى الشعر ، فصور آثار المرأة حبيبة ، وامّا وزوجة وفتاة تصويرا أوضح وأدق مما نجده فى كتب التاريخ والاخبار ، خاصة فيما يتعلق بعواطف المرأة واعمالها فى الحروب وملابسها وزينتها وغير ذلك .

وبناء على ما سبق ذكره فاننا نرجو أن يكون ما نقدمه فى هذه الرسالة ذا قيمة أدبية وتاريخية واجتماعية تساعدنا على معرفة أحوال المرأة العربية ومنزلتها فى العهد الجاهلى .

الفصل الأول

المرأة فى الحياة الجاهلية

١ - منزلتها فى المجتمع :

كان دور المرأة ظاهرا فى الحياة الجاهلية وهاما جدا ولهذا كنا نسمع فى كل مناسبة اعترافا شعريا من الرجل لها بفضلها وبمنزلتها السامية اذ كانت هى أهم ما فى حياته مما يستحق العناية ويستوجب التضحية . فهى التى حارب من أجلها وشجُع ليرضيها ، وتوجه اليها بكريم الصفات وجليل الفعال .

وللمنزلة الممتازة للمرأة لم يجد الاشراف والملوك بأسا من التكنى بها والانتساب اليها فقد نسب المناذرة الى أمهم ماء السماء . وهى مادية بنت عوف ملكة العراق الى قيل عنها ، ان جلال الجمال ، وجمال الجلال قد انتهيا اليها . وان أبناءها المناذرة قد ورثوا عنها سناء الشرف ومضاء الذكاء ، وهكذا نسب عمرو بن هند الى أمه من غير أن يرى فى ذلك عيبا أو منقصة . (١)

ومن الدلائل على قدرها فى النفوس أنها كانت تجير الهارب وتحميه . فقد روى أن خماعة بنت عوف بن محلم الشيبانى أجارت مروان بن زِنباع العبسى ، وكذلك فكيهة بنت قتادة بن مشنوء أحد بنى قيس بن ثعلبة أجارت السُلَيك ابن السَلَكة السعدى ، وأم جميل الدوسية أجارت ضرار بن

---

(١) وقد كتب محمد بن حبيب الراوية رسالة فيمن نسب من الشعراء الى أمهاتهم .

الخطاب الفهرى[١] . وروى عن ابن مسعود بن مالك الثقفى أنه جعل خباء زوجته سبيعة بنت عبد شمس حرما فى حرب الفجار ، بحيث أمن فيه من دخله من اعدائه من قريش وأصبح سالما . ويعتقد أن هذه القبة ترجع فى أصلها الى تقليد دينى اذ كانوا يرفعون لصنم القبيلة قبة يسمونها « قبة الاعاذة » يضربها الاشراف ويحتفظون لها بالصفة الدينية .

ومن أهم الآثار الدالة على سمو منزلتها فى البيئة الجاهلية أن حروبا كثيرة قد حدثت بسببها على ما سيأتى بيانه ، وأنها كانت تقوي الصلات بين القبائل . فان النعمان بن المنذر لما غضب عليه كسرى أودع اسلحته وأهله عند هانىء بن مسعود الشيبانى ثم رحل الى طى لصهره فيهم ، فطمع فى مساعدتهم له .[٢]

وليس أدل على عظيم منزلتها من أن تعتلى عرش الملك فقد روى عن كثيرات منهن انهن صرن ملكات مطاعات فى الملك والرياسة منهن : «زنوبيا» ملكة تدمر التى لقبها المعاصرون « بجانداركِ الصحراء » والتى قال عنها المستشرق « وادنكتون » أنها من أصل عربى من بنى السميدع . ولهذا أطاعتها القبائل السورية . وبلغت من العزة درجة ضرب بها المثل فقالت العرب « أعز من الزباء » .

وقد صور القرآن الكريم عظمة الملكة بلقيس وسياستها الديمقراطية وادارتها البلاد بالشورى والتعقل والحزم [٣] فقد « أوتيت من كل شىء ولها عرش عظيم » [٤] ولما طلبها سليمان « قالت : يأيها الملؤا أفتونى فى

---

(١) محمد بن حبيب ـ المحبر ص ٤٣٣ .
(٢) الاغانى ج ٢٠ ص ١٣٢ ، ج ٢ ص ٢٩ـ٣١ .
(٣) القرآن الكريم ـ سورة النمل ٢٤ ـ ٤٤ .
(٤) القرآن الكريم ـ سورة النمل ٢٣ .

أمرى • ما كنت قاطعة امرا حتى تشهدون »(١) • وقـد أيدت الاخبار المتواترة أن منهن من عرفت بأصالة الرأى وحسن النظر فى الامور فقـد روى عن عمرة ابنة عامر بن الظرب أنها كانت تساعد أباهـا فى الفُـتيا عندما تقدم به السن وتستشار فى الامور(٢) وقيل انها كانت تقرع العصا اذا رأته سها فى حكمه • ومن الاشارة لهذا المعنى قول الشاعر :

لدى الحكم قبل اليوم ماتقرع العصا وما علم الانسان الا ليعلما (٣)

وقد نبغ أكثر من واحـدة منهن فى الحـرب والسياسة والادب والشـعر(٤) والتجارة ، كجليلة أخت جساس التى يلفت النظر شعرها الرائع المؤثر ، وكام جُندب التى احتكم اليها امرا الشعر فى عهدها امرؤ القيس وعلقمة ، وكالخنساء بنت عمرو التى امتازت بالرثاء فأبدعت ، ومثل هند زوجة أبى سفيان ، وكانت ترسل بتجارتها الى قبيلة كلب فى الشام (٥) ويروى الرواة أنه لما سقط لواء قريش فى معركة أحد تناولته عمرة بنت علقمة الحارثية (٦) • والى غير هؤلاء وهن كثيرات وكثيرات •

٢ ـ حقوقهـا :

فى الشعر الجاهلى دلائل كثيرة على ما كان للمرأة من حقوق واسعة فقد صورها طرفة بن العبد على أنها مناظرة للرجل(٧) كما توجه اليهـا

---

(١) القرآن الكريم ـ سورة النمل ٣٢ •

(٢) R. Smith: Kinship & Marriage, P. I25-295.
Levey: Arabia before Muhomed P. 51
Bevan James: Women in Islam P. 22.

(٣) الاغانى ج٤ ص ١٢٩ وروى أيضا : لذى الحلم •

(٤) Bevan James: Women in Islam.

(٥) مكة فى دائرة المعارف الاسلامية •

(٦) جورجى زيدان ـ تاريخ آداب اللغة العربية ج ١ ص ٣٢ •

(٧) طرفة بن العبد ـ ديوانه ص ١٤ •

الشعراء بأدب : يخاطبونها ويتوجهون اليها بجليل الفضائل وكريم الاعمال . (١)

وقد كان من حقها أن تراقب أفعال الرجل وتسأله عن أعماله وتناقش تصرفاته وتدعوه الى الاستقامة والفضيلة . فالزوجة مثلا كانت ترى أن زوجها وما ملك انما يعود خيره وشره عليها فهي لذلك تحرص على ماله ، وترى من حقها أن تلومه ان أسرف فتدعوه الى الاعتدال(٢) ، وقد تقسو أو تعنف في لومها كما صور ذلك نبيه بن الحجاج بقوله :

تلك عرسي تنطقان بهجر ... وتقولان قول زور وهتر
تسألان الطلاق اذ رأتاني ... قل مالي ، قد جئتمانا بنكر
فلعلي أن يكثر المال عندي ... ويخلي عن المغارم ظهري
وترى أعبدا وجيادا ... ومناصيف من ولائد عشر (٣)

فكانت ترى من حقها أن تلح على زوجها في التدبر والقصد عند الانفاق(٤) كما كانت ترى من حقها ايضا مراقبة سلامته (٥)

---

(١) ديوان طرفة بن العبد ص ١٥

(٢) كعب بن زهير ـ ديوانه ص ٢ ، عمرو بن الاهتم المفضليات ص ٤٩ .
الحماسة ج ٢ ص ٢٣٦ـ٣٣٧ ، عروة بن الورد ـ ديوانه ص٢٠ـ٤٦

(٣) الاغاني ج ١٦ ص ٦٢ .

(٤) تأبط شرا ـ المفضليات ص٤ ، حاتم الطائي ـ شعراء النصرانية ص ١٢٠ ـ ١٢٥ .

(٥) سعيد الغنوي ـ الاصمعيات ج ١ ص ٦٠ .

وتحذيره مغبة المخاطرات[١] وليس معنى هذا أن المرأة كانت عاملا يدعو الى البخل أو الجبن أو الهزيمة . كلا . فنحن نراها تلوم الرجل اذا جبن [٢] وتحفزه على السعي اذا كسل وتقاعس[٣] . نعم كانت المرأة ميزانا من موازين الاستقامة ترى في الرجل ما يراه وما لا يراه وتسعى لتقوم ما اعوج من خلقه وعمله . فكان من حقها أن تمنعه عن الاسفاف والعكوف على اللهو والخمر[٤] . أما في البيت فكانت حقوقها واسعة وأوامرها نافذة فهي ربة بيتها، والمرأة وهي امٌ تمارس حقها في تربية بنيها وارشادهم[٥] .

والمرأة وهي فتاة تعيش في بيت أبيها وتلقى منه كل عطف ومن حقها أن تنعم بحياته وخيره[٦] . وقد عاشت بنات الاشراف ، خاصة ، عيشة رغيدة ناعمة كما تشاهد صورهن في الشعر فلبسن الخز والحرير والديباج[٧] وقامت الاماء العديدات على خدمتهن . وكان من حقهن على الاباء أن ينعمن بعطفهم ودلالهم [٨] وكان الاباء يعنون براحتهن وسعادتهن وحتى أنهن ما غبن عن أذهانهم في أحرج ساعات حياتهم، عندما

---

(١) قيس بن الخطيم ـ الاغاني ج ٢ ص ١٥٩ ، سلامة بن جندل . الشعر والشعراء ص ١٤٧ . الاغلب العجلي ـ الاغاني ج١٨ ص ١٦٤ .

(٢) أبو قيس بن الاسلت ـ الاغاني ج ١٥ ص١٦١ ، تأبط شرا ـ الاغاني ج ١٨ ص ٢٣ .

(٣) النمر بن تولب ـ ديوان عروة بن الورد ص ٤٦ .

(٤) الاعشى ـ ديوانه . القصيدة رقم ٦٦ ، أبو الذيال الهذلي ـ طبقات ابن سلام ص ١١٣ .

(٥) بلاغات النساء ص ١٤٠ ـ ١٤١ .

(٦) المنخل اليشكري ـ شعراء النصرانية ص ٤٢٣ .

(٧) الاعشى ـ ديوانه . القصيدة رقم ١٢ .

(٨) المصدر السابق القصيدة رقم ٢١ .

كانوا يعانون أشد أدوار المرض[١] أو يقدمون على حرب أو يستعدون لسفر . وعندما تتزوج الفتاة يصبح لها حقها فى المهر[٢] ان تزوجت بالعقد أو بزواج الصديقة . وكان لها أن ترفض الرجل اذا لم تجد فى نفسها رغبة اليه خاصة بنات الاشراف[٣] وقد صور تأبط شراً كيف أشارت بعض الفتيات على صاحبة لها أن ترفض الزواج منه حينما جاء يطلب يدها[٤] . كما رفض بعضهن عروة بن الورد لكثرة مخاطراته.[٥] لهذا لم يكن للزواج من الشريفة طريق غير ارضائها كما حدث للزباء بنت علقمة اذ طلبت يدها فامتنعت حتى أقنعتها أمها على الموافقة[٦] . ومع هذا فكثيرات من بنات الاشراف كن يشترطن فى الزواج أن يكون أمرهن بأيديهن فلهن أن يطلقن أنفسهن بعد أن يتزوجن ان لم يستقم لهن زواجهن[٧] . ويعقد ابن حبيب فى كتابه « المحبر » فصلا طريفا عن النسوة اللواتى كانت احداهن اذا أصبحت عند زوجها صار أمرها اليها ان شاءت أقامت وان شاءت تركته ، وذلك لشرفهن وقد رهن . ويذكر منهن سلمى أم عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف وفاطمة بنت الخرشب الانمارية ، وهى أم الكملة ، وأم خارجة بن بجيلة ومارية بنت الجعد ، وعاتكة أم هاشم بن عبد مناف[٨] . وعلى العموم فان الزوجة كانت تلقى

---

(١) لبيد بن ربيعة : الاغانى ج ١٤ ص ١٠١ .

(٢) « الزواج » Hughes: Dictionary of Islam Art.

(٣) Mansour Fahmy: La Condition de la Femme de la tradition etc P. 9.

(٤) الاغانى ج ١٨ ص ٢١٧ ، الحماسة ج ١ ص ١٣٥ .

(٥) الاغانى ج ٨ ص ٢١٧ ، خزانة الادب ج ١ ص ٦٦ .

(٦) المرأة فى جاهليتها واسلامها لعفيفى ج ١ ص ٥٢ .

(٧) الاغانى ج ١٦ ص ١٠٦ .

(٨) المحبر لمحمد بن حبيب ص ٣٩٨ .

من زوجها عطفا واحتراما وحبـــا صادقا(١) ، وكانت تتمتع بحقوقها فى بيتها ، وعلى الزوج • ولعل مما يدل على ذلك أبلغ الدلالة أن نجد من حقها أن تكون صاحبة مال فمثلها مثل الرجل تملك وتتصرف فيما تملك • قال حاتم الطائى لزوجته :

دعينى ومالى ان مالك وافر ٌ وكل امرىء جار على ما تعودا(٢)

يريد أن تتركه حرا فى ماله وتتصرف هى بمالها كيف شاءت •

ويمكن أن نتخذ لنساء الطبقة الراقية من ذوات الثروة مثلا بعض النساء المكيات اللائى كن على اتصال بالحضارات الراقية فنذكر منهن سيدتنا خديجة التى كانت تعد من مثريات القوم وتتمتع بثروة تجارية مستقلة ، لها مالهـا الخاص الذى كان الرسول يتاجر به وخادمها الذى رافق الرسول فى تجارته • وقد وهبت بنتها دارا كانت لها بمكة • وكان لمثريات مكة نصيب فى القوافل التجارية التى اعتادت أن تعبر الصحراء شمالا وجنوبا (٣) ولعل حماسهن الشديد الذى أظهرنه ضد المسلمين بادىء الامر كان يرجع بعضه الى خوفهن على أموالهن التجارية •

والى جانب هذه النصوص التى تؤكد تملك المـرأة يجـد الباحث نصوصا اخرى تؤكد أنهم لم يكونوا ليورثوها(٤) ، فقد روى أن أول من ورث النساء فى الجاهلية فأعطى البنت سهما والابن سهمين ذو المجاســـد

---

(١) عروة بن الورد ـ ديوانه ص ٣١ ـ ٣٥ •

(٢) حاتم الطائى ـ شعراء النصرانية ص ١٢٠ ، ويلاحظ قـول همام بن رياح بن يربوع : المعمرين لابى حاتم السجستانى ص ٥٨ •

(٣) Sir Abdu Rahim: Muhammed Jurisprudence, P. I2.

(٤) البيضاوى ـ تفسير الايتين ٨ ، ١٢٦ من سـورة النساء ، الطبرى ـ تفسيره ج ٤ ص ١٨٥ •

اليشكرى وهو عامر بن جشم بن غنم بن حبيب كما روى فى سبب نزول الاية بتوريث البنت أن رجلا من الانصار توفى وترك أربع بنات الى الدمامة ما هن ، فأخذ ابناء عمه ماله كله فشكت امرأته ذلك للرسول اذ لم يكن لديها ما تطعمهن به فنزل قوله تعالى « للرجال نصيب ممـــا ترك الوالدان والاقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والاقربون »(١) . ولم يكـن عدم توريث المرأة مانعا تملكها ، اذ كان لها أن تتملك بطرق كثيرة كالتجارة والعمل .

ونرى مما تقدم أن المرأة كانت ذات حقوق مقررة وكان من أهـم حقوقها على الرجل أن يحميها ويمنع عنها الضيم ويشعرها بأنها تعيش فى حمى حقيقى فتجد فيه كفايتها لهذا كثيرا ما مدح شعراؤهم بالغـيرة على النساء والذب عنهن .

ولم يكن الرجل ليحمى أهله وافراد بيته فقط ، فالبيت عند العربى والاسرة يتسعان حتى يشملا القبيلة ومن هنا افتخر الشعراء بأنهم يشركون جاراتهم فى طعامهم وما يذبحون أو يأكلون يقول حاتم :

وانى لأحزى أن تُرى لى بطنـة وجرات بيتى طاويات(٢) وتُحَّف

فهو يشرك جاراته فى زاده ، ويعطيهن من الحقوق ما يعطيها أهله . أليس يحميهن ضد المغيرين كما يدفع عنهن الجوع والمسغبة وكانت هـذه الحماية تتضاعف اذا لم يكن لهن معين أو اذا غاب عن الواحدة منهن بعلها يقول حاتم :

ومـــا تشتكى جـارتى غـــير أنهـــــا
اذا غـــاب عنهـــا بعلهـا لا أزورهـــا

---

(١) المحبر لمحمد بن حبيب ص ٣٢٤ ـ ٣٢٥ .
(٢) شعراء النصرانية ص ١٣٠ .

سيبلغهـــا خـــيرى ويرجـــع بعلهـــا
اليهـــا ولـــم يقصر على ستورهـــا (١)

ويُظهر الرجال فى هذه الصور عفة عن النظر الى جاراتهم والتعرض لهن فى غياب بعولتهن ، ومن حقوقهن عليهم أن يغضوا الطرف عن عيوبهن ويصرفوا أسماعهم عن أسرارهن ، فاذا كان للجارة هذه الحقوق فما كان للزوجة وأهل الرجل هو أعظم وأوفر .

٣ ـ واجباتهـــا :

لم يكن العرب ليرهقوا نساءهم بالاعمال والواجبات كما فعل غيرهم من الشعوب مثل اليونان والفرس . والعربية كانت تختلف حالتها باختلاف الاسرة التى تعيش فيها ، فنساء الاسرة الراقية قل أن يقمن بالاعمال المنزلية وغيرها ، اذ تكفيهن الاماء والخادمات مؤونة الطبخ وضرب الخيـام وجلب الماء والغسل وغير ذلك . أما فى الطبقات الوسطى والفقيرة فالنساء يقمن بأعمالهن بأيديهن ، ومع هذا ففى جميع الاحوال كانت ادارة البيت منوطة بالمرأة والسيادة فيه للرجل . فعلى المرأة تنظيم بيتها ، ورعـــاية أطفالها ، وتهيئة الغذاء واللوازم لهم ، وعليها أن تحافظ على كرامة البيت وسمعـة صاحبـــه(٢) ولـــم يكـن من المستحسن عنـــدهم خضوع الـــزوج لزوجتـــــه(٣) فهو يراقب بيته(٤) وزوجته وقد يغلظ معها فى القول ويشتد اذا شعر بلزوم ذلك .(٥)

---

(١) المصدر السابق ص ١٢٢ .

(٢) الشنفرى الازدى ـ المفضليات ج ١ ص ٤٢ ، الاغانى ج ٢١ ص ١٣٨ .

(٣) العقد الفريد ج ٣ ص ٥٣ ، ابن الاثير ج ١ ص ٤٢ .

(٤) الاعشى ـ ديوانه . القصيدة رقم ١٢ .

(٥) النقائض ـ ص ٨٨ ـ ٨٩ .

ولانشغال المرأة باعالة اولادها ثقل الحمل على كاهلها فخف الرجل لغلبتها ، ولكنها كانت غلبة ارشاد وقيادة وهى الدرجة التى أشار اليها قوله تعالى « وللرجال عليهن درجة »(١) التى تتمثل فى القوامة الشرعية الواردة فى قوله تعالى « الرجال قوامون على النساء »(٢) فالواقع أن الرجل غير قادر على استعباد المرأة استعبادا فعليا كما يتوهم البعض ، بل انها تستطيع أن تؤثر فى نفسه فتغيظه وقد تكون أقوى منه فى بعض المواقف وهذا ما اعترف به الشاعر الجاهلى مباشرة وبأسلوب غير مباشر ، فقال عمرو بن معد يكرب :

ان الغوانى قد أهلكننى تعبا ... وخلتهن ضعيفات القوى كذبا (٣)

وهكذا نجد الشعر مليئا باعترافات الشعراء بأن النساء سلبن عقولهم وخلطن عليهم أفكارهم وطرن بقلوبهم وأنهن قتلنهم قتلا • هذا بالاضافة الى الكيان الخاص للمرأة الذى نجده فى الشعر واضحا عندما تغنى بها الشعراء • أما ميزة الرجل على المرأة فيرجعها بعض الى عامل دينى أو عامل طبيعى (فسيولوجى) كما رأى بعض آخر أن الحياة كانت نشأت أنثوية ثم صارت عسكرية سياسية ، فتقدم الرجل على المرأة اذ ذاك بحكم قوته الجسمية ، وحيلته العقلية(٤)، ويرجعها آخرون الى عوامل مادية معاشية(٥)•

أما الضيوف فان ربة البيت هى التى تهىء لهم الخيمة • قال أبو الفرج فى أخباره : ان عمراً بن عمرو سأل آمنة بنت أخيه قائلا « اضربى

---

(١) القرآن الكريم ـ البقرة ٢٢٤ •

(٢) القرآن الكريم ـ النساء ٢٤ •

(٣) الاغانى ج ١٤ ص ٣٩ ، الاصمعيات لوليم بن الورد ص ٥ ، النقوى : العقل •

(٤) Lester F. Word: Pure Sociology chap. I4.

(٥) فردريك انجلز : أصل العائلة •

على قيس ، الذى أنعم على عمك ، هذه القبة " فجاءت ورأت الحارث فظنته قيسا فضربت له القبة . وكان الحارث قد قتل أباها وهى لم تعرف شخصه. فلما علم عمها بالأمر قال « ضربتها على رجل قتل أباك وأمر بقتل عمك » فجزعت لذلك(١) . وقد صور أوس بن حجر عناية ربة البيت بالضيوف واهتمامها الفائق بشؤونهم فقال :

لعمرك ما ملت ثواءَ ثويها ... حليمة اذا ألقى مراسى مقعد
ولكن تلقت باليدين ضمانني ... وحل بشرج فالقبائل عودى
ولم تلهها تلك التكاليف أنها ... كما شئت من أكرومة وتخوّد
سأجزيك أو يجزيك عني مثوبٌ ... وقصرك أن يثنى عليك ويحمد (٢)

وكان من أمر أوس أنه أصيب على أثر سقوطه من راحلته ، فلما سمع بأمره فُضاله بنى عليه وجعل ابنته حليمة تقوم عليه حتى شُفي واستقل . وقد لمس أوس فى حليمة أناتها وصبرها على تكاليفه الجسيمة ، التى كلفها اياها وهو مريض ، وهذا مما يدل على أن العناية بالمرضى ورعاية المجاورين كانت من أعمال ربات البيوت ويؤيد ذلك أن الزبرقان بن بدر لما أضاف الحطيئة وكّل أمه (شذرة) به وقيل بل وكل زوجته هُنيدة بنت صعصعة بن ناجية فأكرمته ، وذلك فى عام مجدب ، وما تحول عنها الا بعد أن وسوس خصوم الزبرقان فى صدرها ، اذ افتروا على زوجها بأنه يريد أن يتزوج من مليكة ابنة الحطيئة وكانت فتاة جميلة فاتنة فأظهرت هنيدة حينذاك جفوةً نفرَ الحطيئة بسببها .(٣)

---

(١) الاغانى ج ١٠ ص ٤٤ ، النقائض ص ٦٥٩ .

(٢) الاغانى ج ١٠ ص ٧ . الثوى ـ الضعيف الاسير ، قصرك ـ قصاراك .

(٣) الاغانى ج ٢ ص ٥٢ ـ ٥٣ .

وكان الضيف اذا لم يجد الراحة المنشودة فى دار مضيفه عزى ذلك الى اهمال زوجة هذا المضيف لانها هى المسؤولة بالدرجة الاولى عن الاهمال ولهذا نجد بعض الشعراء يهجون زوجات من أضافوهم وزوجة المضيّف تسمى عندهم « أم المثوى » قال أحدهم :ـ

يا أم مثواى عدمت وجهك ... انقذنى رب العلى من مصرك
ولذع برغوث أراه مهلكى ... أبيتُ ليلي دائب التحكك
تحكك الاجربِ عند المبرك (١)

وكان على النساء مساعدة الرجال فى السلم ووقت الحرب بكل ما أوتين من قوة وذكاء ، وعليهن أن يخلصن لقبائلهن فيسعين للمحافظة على سلامتها وشرفها .

والشعر الجاهلى يصور المرأة مشاركة للرجل فى الحرب الى حد ما . فقد تثيرها وتكتوى بلظاها وأهوالها . ونجد فى شعر النساء صرخات مدوية ودعوات صاخبة للحرب بأسلوبهن المؤثر الذى لا يسكت عليه الرجل وان كان حليما غزير العقل ومن هذا قول ابنة الحصين ترثى أباها وتحرض قومها على الاخذ بثأره .

فان انتمُ لم تصبحوا القوم غارةً ... يحدث عنها وارد بعد صادر
وترموا عقيلا بالتى ليس بعدها ... بقاء فكونوا كالاماء العوائر (٢)

وقد أظهرن براعة فائقة فى التأثير فى قلوب الرجال يدفعهن فى الغالب اخلاصهن وحبهن . ومن الامثلة الممتازة التى تصور قدرتهن فى

---

(١) الجاحظ : ثلاث رسائل ـ الرسالة الثانية . موضوعها فخر السودان على البيضان ص ٦٣ .

(٢) رياض الادب فى مراثى شواعر العرب لشيخو ص ٤٧ . الاماء العوائر = النساء الضعاف .

التأثير لحمل الرجال على طلب الثأر قول أم قرافة تخاطب زوجها حذيفة وقد قبل الدية عن ابنها القتيل .

حذيفة لا سلمت من الاعادى ... ولا وقّيت شر النائبات
أيقتل قرفة قيس وترضى ... بأنعام ونوق سارحات
أما تخشى اذا قال الاعادى ... حذيفة قلبه قلب البنات
فخذ ثأرا بأطراف العوالى ... وبالبيض الحداد المرهفات
والا خلّنى أبكى نهارى ... وليلي بالدموع الجاريات
لعل منيتى تأتى سريعا ... وترمينى سهام الحادثات
فذاك أحب من بعل جبان ... تكون حياته أردا الحياة[1]

ولو استعرضنا أسباب حروب الجاهلية الهامة التى وصلت الينا أخبارها وأردنا أن نعمل بنصيحة نابليون العظيم حين قال « فتش عن المرأة » لتبين لنا أن المرأة كانت سببا فى اشعال نار الكثير منها . فكانت بنت النعمان ملك الحيرة من جملة أسباب حرب ذى قار[2] ، الحرب التى كان طالع المرأة سعيدا فيها وذلك لانتهائها بانتصار العرب الحربى والسياسى[3] وكذلك كانت صرخة عمرة بنت الحباب التغلبية[4] وصرخة ليلى بنت المهلهل أم عمرو ابن كلثوم[5] سببا لحروب عدنان وقحطان . أما حرب البسوس فقد ذكروا أن هذه المرأة البسوس ، قد أشعلتها بعتابها[6] . وكانت حرب

---

(١) رياض الادب فى مراثى شواعر العرب ص ٣٩ ـ ٤٠ (اقنع حمل أخاه حذيفة أن يقبل الدية) .
(٢) الاغانى ج ٢ ص ٢٩ـ٣١ .
(٣) فقد صور البديل العجلى النشوة التى بعثتها هذه الحرب . المرأة العربية لعفيفى ج ١ ص ١٢٦ .
(٤) نفس المصدر ج ١ ص ٦٦ .
(٥) الاغانى ج ٩ ص ١٧٥ـ١٧٦ .
(٦) العقد الفريد ج ٣ ص٣٤٧ـ٣٤٨، شعراء النصرانية ص١٥٥.

الفجار كذلك قد أثارتها امرأة : فقد روى أن فتاة حسناء تعرض لها بعض الشبان الماجنين من كنانة فسألوها أن تسفر وألحوا عليها فى المسألة (١) وكانت غادة فاتنة ذات جمال ساحر وحسن رائع فما رفعت صوتها : « يا آل عمر » حتى ثارت الحرب بين عامر وهوازن وقريش وكنانة . وقد صوّر عمرو بن كلثوم فى معلقته كيف كانت نساؤهم تقول لهم وهم مقدمون على الحرب : « لستم بعولتنا اذا لم تمنعونا » أما دعواتهن للاخذ بثار قتيل عزيز وعدم السكوت على ضيم فكثيرة(٢) ، فقد دعت ريحانة ابنها الى أن يأخذ بثار أخيه(٣) . كما استنفرت كبشه اختُها ، أهلَها للاخذ بثار أخيها الذى قتله بنو مازن ، فجعلت كلامها على لسان القتيل ليبلغ أعمق الاثر فى النفوس فقالت :

فأرسل عبدالله اذ حان يومه ... الى قومه لا تعقلوا لهم دمى
ولا تأخذوا منهم افالا وأبكرا ... واُترك فى بيت بصعدة مظلمِ
ودع عنك عمراً ان عمراً مسالم ... وهل بطن عمرو غير شبر لمطعم
فان أنتم لم تثأروا واتديتم ... فمشوا بآذان النعام المصلَّم
ولا تَردُوا الا فضول نسائكم ... اذا ارتملت أعقابهن من الدم (٤)

---

(١) العقد الفريد ج ٣ ص ١٠٩ .

(٢) الحماسة لابى تمام ص ٤٢٢ ، ٤٢٣ ، الاغانى ج ٤ ص ١٤١ـ ١٤٢ ابن الاثير ج ١ ص ٣٨٥ ـ ٣٨٦ .

(٣) الاغانى ج ٩ ص ٧ ، شعراء النصرانية ص ٧٦١ .

(٤) الدر المنثور فى طبقات ربات الخدور لزينب فواز ص ٤٥٨ ، حماسة أبى تمام ج ١ ص ٥٤ ـ ٥٥ ، حماسة البحترى ص ٣٠ لا تعقلوا الخ ـ لا تأخذوا عن دمى دية ، أفأل ـ جمع أفل وهو ولد الناقة بلغ سبعة أشهر ، فمشوا الخ.. امشوا بآذان مقطوعة حتى لا تسمعوا ما يقال فيكم من عار . ولا تردوا الخ .. من عاداتهم ان تأتى النساء بعد الرجال للورد ومن ورد بعدهن فهو فى الغاية من الذلة .

وقد جعلت طبيعة النساء ، والقواعد الجاهلية ، عليهن بعض الواجبات الاخرى كالبكاء والندب فى الاحزان (١) والغناء واللهو فى الافراح ، كما فرضت أعرافهم على المتوفى عنها زوجها أن تعتد سنة كاملة فى الغالب (٢) .

٤ ـ وظائفها فى السلم والحرب :ـ

وجدت المرأة باعتبارها تمثل الام عملها حاضرا بخلاف الرجل الذى يظن أنه هرب من العمل دهرا طويلا ، ذلك لان الام تكون ألصق بأولادها وقد قيل لهذا : ان المرأة حملت من ميدان الحياة الحيوانية الى ميدان الحياة البشرية التضحية والخدمة للجنس ، فاعتبرت منبعا للتعاون المتبادل الذى حد كثيرا من الانانية الفردية فهى من هذه الوجهة ذات أثر كبير فى الحضارة .

وقد أحاطت الطبيعة المرأة بعنايتها فخصتها بحب شديد للمحافظة على نفسها فهى تسعى عمرَها الى الابتعاد عن الاعمال العنيفة ، وترغب فى العمل الهادىء البعيد عن المخاطر . ولهذا الطابع الهادىء الذى انطبعت به أعمالها كان مصير أكثر أعمالها النسيان . قال «كارليل» ان خدماتها كلها كانت أعمالا ولكنها منسية ، هى هذه الملايين العديدة من الناس ، فالمرأة لم تشتغل بالحرب والصيد عادة ، اذ هما من محتكرات الرجل ، لانهما يحتاجان الى دوافع حيوية شديدة . فالجانب الحربى للحضارة الاولى اذن يعود للرجل والجانب الصناعى انما هو للمرأة . فالمميزات الالية للادوات التى كانت تستخدمها المرأة هى ليست الاسلحة الحربية ولكنها المدية فقد استخدمتها لجميع الاغراض الصناعية . كان العربى يلقى بين يديها صيده وذبيحه وهى التى تطهى اللحم وتصنع الجلود كما كانت تصنع الملابس وكثيرا من خاجياتها المنزلية . يقول النابغة :

---

(١) المهلهل ـ ديوانه ص ٢٠ .

(٢) المحبر لمحمد بن حبيب ص ٣٢٧ .

كأن مجر الرامسات ذيولها عليه حصير نمقته الصوانع (١)

أما فى الارياف والقرى التى وجدت فيها الزراعة فالمرأة عملت فى شؤون الزراعة وفوق هذا فهى الطبيبة والممرضة بالوراثة اذ ان الطب مهنة النساء فى الاصل ليس فى بلاد العرب فحسب ، بل فى جميع اجزاء العالم (٢) ، والمرأة اعتمد عليها العرب كثيرا (٣) فوظائفها وقت السلم عديدة اذ من الطبيعى مثلا أن تقود جمل والدها الاعمى (٤) وتقوم بالطهى وما يتصل به لان ذلك من عملها فى الطبقات المتوسطة وما دونها ، الطبقات التى لا تملك اماء ولا تستخدم من يؤدى لها أعمال البيت ، أما فى البيوتات الراقية فان الخادمات والاماء هن اللاتى يطهين الطعام (٥) ويؤدين أعمال البيت . قال علباء بن أريم يصف فتيات يطبخن :

واذا العذارى بالدخان تقنعت

واستعجلت نصب القدور فملت

دارت بأرزاق العيال مغالق

بيدى من قمع العشار الجلة (٦)

فهن قمن ، ولشدة الجوع الذى أصابهن صبرن على الوقوف وسط

---

(١) شعراء النصرانية : ص ٦٨٨ . الرامسات = الرياح ، عليه = على النؤى .

(٢) Max Bartol: Naturolker, P. 52 - 53.

(٣) النقائض ص ٦٥٩ .

(٤) النقائض ص ٦٥٩ ـ ٦٧١ .

(٥) Blunt: The Seven Golden Odes P. 13.

(٦) الحماسة لابى تمام ج ١ ص١٥٣ ، الاصمعيات لوليم بن الورد ص ١٨ ملت ـ ادخلت فى الملة وهى الجمرة ، مغالق ـ سهام الميسر قمع = ج قمعه وهى رأس السنام . العشار = النوق الحاملة .

الدخان واستعجلن نصب القدور على النار ولاستبطائهن ادراكها زودنها بالجمر • ودل هذا على شدة الجوع لانه ذكر العذارى وقد أظهرن جوعهن على خلاف عادتهن من الحياء والخفر • أما وظيفة الام فى اطعام عيالها فقد ذكرها الشنفرى بقوله :

وأم عيال قد شهدت تقوتهم اذا أطعمتهم أو تحت وأقلت
تخاف علينا الجوع ان هى أكثرت ونحن جياع أى آل تألت(١)

فالام هى التى تعنى باطعام الاولاد تغدق أو تقتر حسب الاحوال ووفق سليقتها • أما حلب الاغنام والدواب فكانت نساء بعض القبائل لا تقوم به فقد روى أن خالد بن جعفر بن كلاب لما أغار على رهط الحارث بن ظالم ابن يربوع فقتل الرجال بقيت النساء والحارث وهو يومئذ غلام كانت نساء بنى ذبيان لا يحلبن النعم فلما بقين من غير رجال طفقن يسألن الحارث ليشد عصاب الناقة ليحلبنها فقال خالد :

تركت نساء يربوع بن غيظ أرامل يشتكين الى الوليد (٢)

أما الدعوة الى الحفلات والافراح وسقى الندامى فقد جاءت فى خطاب المرقش الاكبر :

انا محيوك يا سلمى فحيينا وان سقيت كرام الناس فاسقينا
وان دعوت الى جلى ومكرمة يوما سراة كرام الناس فادعينا (٣)

ومن المرجح أن تكون سلمى من الحرائر ، اذ هن اللائى يروجن

---

(١) الاغانى ج ١ ص ١٣٩ ـ ١٤٠ • او تحت = قللت ، آل = تقصير •

(٢) الاغانى ج ١٠ ص ١٢ •

(٣) شعراء النصرانية ص ٢٨٦ ، حماسة ابى تمام ص ٤٥ (باريس ١٨٢٨) •

للاعمال الجليلة والمكارم ، وهن اللائى توجه اليهن مثل هـذه التحيات . وان صح ذلك فان الحرائر كن يسقين الشراب فى مجالسهن وتقوم الزوجة بشؤون زوجها فتغسل رأسه وتهيء ملابسه وفراشه فقد روى عن جليلة اخت جساس أنها غسلت رأس زوجها(١) كما كانت النساء تهيء أوعيه المـاء(٢) وقد تقوم الحرائر بحمل الماء كما تقوم الاماء اذ ليس فى الشعر ما يدل على هذا والمرجح أن تقوم به الاماء والخادمات ان وجدن .

هذا فى السلم وأما فى الحروب ففى الشعر تصوير للمرأة وهى تحمس المقاتلين . من هذا قول المهلهل وهو فى أول الحرب يتوقع ظهور المخدرات لتدعو المقاتلين للاستبسال فنجده يسأل صاحبه ليقرب حصانه استعدادا للمعركة بقوله :

قربا مربط المشهر منى سوف تبدو لنا ذوات الحجال (٣)

وكانت العادة عندهم أن يركب عدد من البنات على الجمال ليغنين ويصرخن بالمحاربين عندما تشتد الحرب(٤) . وقد روى أن الحوفزان وقومه لقيهم بنو منقر وعلى رأسهم قيس بن عاصم فاقتتلوا أشد القتال ، ونادت نساء بنى ربيع « يا آل سعد » . فاشتد قتال بنى منقر لصياحهن فهربت بكر وخلوا ما كان فى أيديهم من الاموال(٥) . وكان تعرضهن للخطر يبعث فى نفوس المحاربين الشجاعة والاستبسال(٦) وبهذا ضرب حنظلة بن ثعلبة فى ذى قار قبة وسط المعركة فجمع حولها النساء فاشتد

---

(١) النقائض ص ٩٠٥ .
(٢) النقائض ص ٦٤١ .
(٣) المهلهل ـ المرأة فى جاهليتها واسلامها لعفيفى ج ١ ص١٤٤ .
(٤) Blunt: The Seven Golden Odes, P. 12.
(٥) الاغانى ج ١٢ ص ١٣٥ .
(٦) النقائض ٦٤٢ .

قتال العرب(١) وقد وقفن أمام الجيش الفارسى حاسرات عنهن الحجب ، صارخات بالفرسان ، باذلات لجمالهن الناعم الرخص فقد الهاهن الرعب والذعر عن الحجل والتستر • وقد وصفهن الاعشى وهن فى أول هذه الحرب بقوله :ـ

لما أتونا كأن الليل يقدمهم مطبق الارض يغشاها بهم سدف

الى قوله :

وظعننا خلفنا كحلا مدامعها أكبادها وجف مما ترى تجف
حواسر عن خدود عاينت عبرا ولاحها وعلاها عبرة كسف
من كل مرجانة فى البحر أخرجها غواصها ووقاها طينها الصدف(٢)

وبأسر النساء كان يحذر الرجل قومه ، فقال لقيط بن بكر :

يا قوم لا تأمنوا ان كنتم غيرا على نسائكم كسرى وما جمعا (٣)

ومن صفات الفروسية حماية الشريفة(٤) وكانوا يفخرون بالدفاع عنهن فقال خريب بن الحرب التيمى مادحا :

هم منعوا فى يوم قار نساءنا كما منع الشول الهجان قرومها (٥)

وقد وصفهن طرفة بن العبد وهن يتجاولن أثناء الموقعة كأقاطيع بقر الوحش يتبع بعضهن بعضا فيحمسن المحاربين بأصواتهن اذ قال :

ونحن اذا ما الخيل زايل بينها من الطعن نشاج مخل ومزعف

---

(١) العقد الفريد ج ٣ •
(٢) الاعشى ـ ديوانه • القصيدة رقم ٦٢ ، الاغانى ج ٢٠ ص١٤٠
(٣) الاغانى ج ٢٠ ص ٢٤ •
(٤) Blunt: The Seven Golden Odes, P. 12.
(٥) الاغانى ج ٢٠ ص ١٤٠ ويلاحظ ديوان عنترة ص ٢٨٣
الشول ـ رافعة الذنب للقاح ، الهجان ـ البيض الكرام ، القرم ـ الفحل الشديد •

وجالت عذارى الحى شتى كأنهـــا توالى صوار والاسنة ترعف (١)

وفضلا عن ذلك فالعربيات كن يحاربن اذا اقتضت الضرورة بشجاعة لا تقل عن شجاعة الرجال ـ كما حدث فى واقعة احد ـ وقد وصف جحدر ابن ضبيعه اشتراكهن الفعلى فى أعمال القتال(٢) . وهناك قصص تدل على مقاتلتهن كقصـــة عامر بن الطفيل(٣) . وكان قتالهن أحيانا بشراســـة وعنـــف(٤) . وكان البدو يخرجون نساءهم معهم الى الحرب فينشدنهم أغانيهن الحربيـــة . وهـــذه الاغانى يظن أن أصلهـــا كان دينيا لان العرب كانوا مثل سائر الامم والشعوب يصلون لآلهتهم وهم شاكى السلاح قبـــل ذهابهم الى الحرب ، فيستشيرون الآلهة فى الحرب ـ كما فعل امرؤ القيس بعد مقتل أبيه ـ ويسألونها أن تنصرهم على أعدائهم ، ثم يرقصون عندهـــا الرقص الحماسى ثم تحول هذا الغناء الدينى الى غناء حربى(٥) ولـــم يـــكن شىء يثير حماسة الرجال مثل غناء النساء .

واذا لم تشترك النساء بالاعمال الفعلية فى الحرب كن يقمن بالاعمال الثانوية فيقدمن للمحاربين الماء والزاد والسلاح ، ويرقبن المؤخرة والجوانب لئلا يباغتهم العدو . ومن أهم أعمالهن تضميد الجراح(٦) فهن الطبيبات

---

(١) طرفة بن العبد ـ ديوانه ص ١٢٧ « شرح الاعلم » شعـــراء النصرانية ص ٣١٣ زايل ـ فارق ، نشاج ـ طعن يخرج الدم بصـــوت شـــخير ، المخـــلّ الذى ينزف الدم ، توالى ـ أواخر ، الصوار ـ قطيـــع البقر ، ترعف = تقطر دما .

(٢) جحدر بن ضبيعة : شعراء النصرانية ص ٢٦٨ .

(٣) ابن الاثير ج ١ ص ٤٨٢ .

(٤) Fison & Howitt: Kamilaris & Kunari, P. 133

(٥) البستانى ـ النساء العربيات ص ٤١ .

(٦) الميدانى ـ مجمع الامثال ج ١ ص ١٩٥ .

بالوراثة[١] قال قيس بن الخطيم :ـ

طعنت ابن عبد القيس طعنة ثائر لها نفذ لولا الشعاع أضاءها

يهون على أن ترد جراحها عيون الاواسى اذ جهدت بلاءها[٢]

والاواسى هن النساء الطبيبات . فالمرأة التى تداوى عواطف الرجال وتوحى اليهم بشتى المعانى والفكر ، كانت تداوى جراحهم . وقال دراج ، وكان قد طعن ، يخاطب زوجته أم كهمس :

شدى علىّ العصب ام كهمس ولا تهلكك أذرع وأرؤس

مقطعات ورقاب خنس فانما نحن غداة الانحس

هيم بهيم طليت تمرس[٣]

ويرجع سر مهارة النساء فى الطب الى تنقلهن مع الرجال فى الحروب، وبين المتخاصمين وعنايتهم بشؤن الاطفال ، الامر الذى جعلهن يعرفن الحالات المرضية ، وفقههن فى طبيعة الظواهر والتغيرات التى تصيب الانسان[٤] . وعلى العموم فان جميع الاعمال الخاصة بحياة السلم ورخاء الانسانية كانت حينا من الدهر وفى جذور التاريخ الانسانى من أعمال الحقل النسائى[٥] .

---

(١) Nicholson : A Literary Hist. of the Arabs, P.60

(٢) حماسة أبى تمام ج ١ ص ٤٤ ، النفد ـ الخرق ، الشعاع ـ المتفرق .

(٣) نفس المصدر ج ١ ص ٢٠٢ . خنس = منقبضة من الطعن. هيم الخ .. مثل ابل عطاش جرب طليت تحتك ببعضها .

(٤) Ellis : Studies in the Psycology of Sex, the Preface.

(٥) A. G. Spencer : Woman's Share in the Social Culture, P. 1-4.

لم يكن خروج القرشيات فى احد بأول مرة تخرج فيها العربية مع المقاتلين ، وقد أظهرن فى هذه الواقعة حماسا ضد المسلمين كان سببا فى انتصار قريش • ولعل من أسباب حماسهن غيرتهن على تجارتهن الخاصة التى كانت لهن فى قوافلهن التجارية • وكان سكان المدن يبذلون لنسائهم وقت الخطر من أساليب الحماية ما لم يكن يتيسر للبدو ، فالاوس الذين كانت لهم قلاع وحصون كانوا يمنعون نساءهم وأطفالهم فيها وقت الحرب (١) ومن صلة النساء بالحروب أنهن كن يستقبلن المنتصرين عند رجوعهم من المعارك ظافرين كما خرجت نساء بنى النجار لاستقبال البدريين عازفات بالمزاهر مغنيات(٢) •

وقد صورنا فيما عقدناه سابقا لبيان واجبات المرأة كيف أنها كانت تؤثر فى تفكير الرجل وسيرته ومن ذلك انها تدفعه على اشعال نار الحرب وبذل جهوده فى مقارعة الخصوم وتهدده ان توانى أو قصر(٣) وصورناها تلومه على قبول الدية وتخوفه من مغبة قالة الناس(٤) • ونضيف الى ذلك انها كانت تستصرخه وتستنهضه اذا ما لمست منه توانيا أو تأخرا • قال أبو خراش خويلد بن مرة الهذلى بعد مقتل أخيه عروة :ـ

تقول آراه بعد عروة لاهيا وذلك رزء ، ما علمت ، جليل

ويجد لومها أثره فى نفسه فيجيب معتذرا معللا تأخره :ـ

فلا تحسبى أنى تناسيت عهده ولكن صبرى يا أميم جميل

ثم يعود يؤكد لها عزمه على الاخذ بالثأر بقوله :ـ

---

(١) Ilse Lichtenstadter: Woman in the Aiyam Al-Arabe, P. 38.

(٢) البستانى : النساء العربيات ص ٤٣ •

(٣) راجع هذا الكتاب ص ٦٦ ، ابن الاثير : الكامل ج١ ص ١٢٢

(٤) يراجع هذا الكتاب ص ٦٧

وانى اذا ما الصبح آنست ضوءه يعاودنى قطع على ثقيل (١)

وكما كانت المرأة تثير الحرب وتشترك فيها كانت كذلك تسعى فى اخمادها أحيانا ، وكان لسانها يبلغ موضع أسماع الرجال(٢) ، قالت امرأة من بنى عامر تثبط عن الحرب :

سيتركها قوم ويصلى بحرها بنو نسوة للثكل مصطبرات(٣)

ومعنى ذلك كله أن المرأة كانت تقوم فى الحرب بوظائفها فى السلم ووظائف جديدة تتصل بالاعمال الحربية نفسها حتى لقد تشارك فيها مشاركة ذات أثر فعال .

واذا ما انتهت الحرب فقد صور الشعر ان النساء كن يقمن المآتم على القتلى يبكين ويشققن الجيوب ويخمشن الوجوه قال الافوه الاودى :ـ

وجاء نساء الحى من غير امرة رفيقا كما زفت الى العطن البقر

الى قوله :ـ

فنائحة تبكى وللنوح درسة وامر لها يبدو وأمر لها يسر

ومنهن من قد شقق الخمش وجهها مسلبة قد مس أحشاءها العبر (٤)

٥ ـ ملابسها وزينتها :ـ

وفى الشعر ذكر لكثير من صنوف الملابس والحلى ووسائل الزينة الاخرى ومن هذا ما جاء فى قول امرىء القيس :ـ

---

(١) ابن عبد البر : الاستيعاب ج ٤ ص ٥٧ .

(٢) Nicholoson: Aliterary History of The Arabs, P. 6.

(٣) ابو تمام : الحماسة ج ١ ص ٢٢٥ .

(٤) ديوانه ص ١٥ (مجموعة : الطرائف الادبية تحقيق عبدالعزيز الميمنى) والعطن مستراح يتخذه الحيوان عند الماء .

خرجت بهـــا تمشى تجر وراءنـا على أثرينا ذيل مرط مرحـل (١)

فذكر من ثياب حبيته مرطهـا الطويل المزركش والمزين بالصور اذ أراد بالمرحل المزين بصورة الرحال • فالعربيات كن يزين ثيابهن بالصور كما تزين الفتيات اليوم ثيابهن بالزخرفـة والصور المختلفة • وكن يلبسن على صدورهن الصدار وممن ذكر الصدار عروة بن الورد بقوله :ـ

ترى كل بيضـــــاء العوارض طفلة تفرّى اذا شال السماك صدارها (٢)

ولعل القرويات اليوم والبنات فى البادية يلبسن شيئا يقارب فى شكله هذا الصدار • وكانت المنعمات منهن يرتدين الثياب بعضهـــا فوق بعض وهى تصنع من الخز أو الحرير وتعتبر من أغلى الثياب وهى كذلك حتى اليوم • قال الاعشى يصور فتاة من ذوات النعمة :ـ

تـــرى الخز تلبســـه ظـــاهرا وتبطن من دون ذاك الحريرا (٣)

كما كن يرتدين الملاءة ، ويسمينهـا الريطـة (٤) والثياب التى حيك نسجها بخيوط من الذهب •

---

(١) امرؤ القيس : معلقته • المرط ـ كساء من خز أو صوف أو كتان وكل ثوب غير مخيط • وفى الحديث : « انه صلى الله عليه كان يصلى فى مروط نسائه » اللسان مادة » مرط « •

(٢) عروة بن الـورد : ديوانـه ص ٤٦ • العوارض ـ الاسـنان الضواحك ، الطفلة ـ الناعمة ، تفرى ـ تشق ، شـال النجم ـ ارتفـع • الصدار والاتب والمجول والشوذر قمص متقاربة الكيفية فى القصر واللطافة وعدم الاكمام يلبسها النساء تحت دروعهن ، وربما اقتصرن عليها فى أوقات الخلوة • « فقه اللغة ص ٣٦١ » الصدار ثوب رأسه كالمقنعة وأسفله يغشى الصدر والمنكبين • قال الاصمعى والجوهرى : « الصدار ما يلى الصدر من الدرع • » وفى المثل « كل ذات صدار خاله » أى من حق الرجل أن يغار على كل امرأة كما يغار على أهله • اللسان مادة « صدر » •

(٣) الاعشى : ديوانه القصيدة رقم ١٢ •

(٤) قال الازهرى : لا تكون الريطة الا بيضاء « فقه اللغة ص ٣٦٠ »

يقول سليمى بن ربيعة :

والبيـــض يرفلـن كـالدمـى في الريط والمذهب المصون[١]

ولابد أن يكون هناك فرق بين ثياب النساء من الطبقات الراقيـــة والبدويات الفقيرات من حيث المواد التى تصنع منها والبلاد التى تستورد منها • والفقيرات كن يصنعن ثيابهن بأيديهن فى الغالب • ولعل من ألبسة بدويات اليوم شبيها بألبسة اخوانهن قديمـا • وقد كن فى الجاهليـة يضعن الرداء فوق الالبسة ثم يليه الدرع والازار وكلها تسمى دثارا ويليها الشعار وهو ما يلى الجسد وقد تلبس المرأة ثيابا كثيرة بعضها فوق بعض • أما الخمار فهو ما يغطى الوجه ، وأخذ أشكالا كثيرة من حيث ما يخفيه من الوجه فمنه النصيف واللثام واللفام والنقاب والخمار • وقد تفننت النساء فى وضع الخمار فأثر ذلك فـى نفوس الشـــعراء وحرك قلوب المحبين فقـال جران العود النميرى :

وفى الحى ميـــلاء الخمار كأنها مهـاة بهجـل من أديم تعطف

كأن ثناياهـا العـذاب وريقهـا ونشوة فيها خالطتهن قرقف[٣]

وكما قال المرار بن منقذ :

وهـــوى القلب الـذى أعجبـــه صورة أحسن من لاث الخمر[٤]

ومن أنواع الحجاب البرقع والوصواص الذى تظهر منـه العيـون فحسب • والظاهر أن النقاب والقناع كان خاصا بالحرائر وان الاماء لم يكن يحتجبن ولهذا قال عنترة :

---

(١) دولة النساء للبروقى ص ١٦ •

(٢) لسان العرب ج ٦ ص ٨٠

(٣) معجم البلدان لياقوت ج ٥ ص ١٠٢ الهجل ـ المطمئن من الارض الاديم ـ الجلد المدبوغ ، التعطف ـ مشى فيه استرخاء •

(٤) المفضليات ج ١ ص ٣١ ـ ٣٢ •

ان تغدفى دونى القنـــاع فاننى طب بأخذ الفارس المستلئم (١)

وكانت الكريمات من العقائل تتخذ الاستار بالاضافة الى الحجاب فى أسفارهن وفى بيوتهن قال النابغة :

فـامت تـراءى بين ســجفى كـلة كالشمس يوم طلوعها بالاسعد (٢)

والسجف الستر الرقيق المشقوق الوسط وقال المثقف العبدى يصف الضعائن :

ظهرن بكلـة وسـدلن رقمـا وثقبن الوصـاص للعيـون (٣)

والرقم نوع من الوشى • أما الالوان الشائعة التى كن يرغبن فيها فهى الالوان الزاهية والاحمر القانى خاصة الذى يشبه بلون الدم المسـفوح • قال طرفة :

عـالـين رقمـا فـاخرا لـونـه من عبقرى كنجيع الذبيـح (٤)

وكذلك وصف علقمة ثيابهن بالحمرة الى حد أن الطير تتبعها تحسبها ذبائح ولحوما (٥) والشريفات منهن يحلين كللهن بالزركشـة خاصـة اذا ظهرن فى أسفارهن كمـا كن يزين الاغطية التى توضع عـلى الجمال قال المسيب بن علس :

---

(١) عنترة العبسى ـ المعلقة •

(٢) النابغة ـ ديوانه ص ٦٧ • السجف ـ الستر المشفوق ،

(٣) شعراء النصرانية ص ٤٠٥ • ابن سلام طبقات الشعراء ص ١١٢ الوصاوص ـ خروق فى الستر على قدر العين •

(٤) طرفة بن العبد ـ ديوانه ص ١٥٠ (مع شرح الاعلم الشنتمرى)

(٥) علقمة ـ ديوانه ص ٤٦ •

عقمـــا ورقمـــا ثـم أردفـــة كلل على أطرافهـا الخمل (١)

أما الحلى التى استعملتها النساء فان فى الشعر تصـويرات كثيرة لهـا فذكر الشعراء المواضع التى كن يضعن فيها حليهن أويعلقنها وهى الجيد (٢) والنحر(٣) والمعصم(٤) وأسـفل الساق(٥) واذان(٦) ، كمـا نجـد فى الشعر ذكرا للمواد التى كانت تصنع منها : وهى الاحجار الكريمة والمعادن النادرة وأهمها: الياقوت(٧) والشذر(٨) واللؤلؤ(٩) والزبرجد(١٠) والدر(١١) والـذهـب(١٢) . وهذه هى أكرم الاحجار والمعادن وأغلاها ثمنا فى

---

(١) الجمهرة لابى زيد القرشى ص ١١١ ويلاحظ بيت علقمـة بن عبده : لسان العرب ج ١٥ ص ٣٠٨ ، ص ١٤٠ . العقم ـ المرط الاحمر ، الرقم ـ ضرب مخطط من الوشى . الخمل ـ ريش النعام .

(٢) الاعشى ـ ديوانـه ـ القصيدة رقم ١٨ ، المثقب العبـدى ـ شعراء النصرانية ص ٤٠٥ قيس بن الخطيم ـ طبقات ابن سلام ص ٩٠

(٣) النابغة ـ ديوانه ص ٦٣ ، حاتم الطائى ـ شعراء النصرانية ص ١١٨ .

(٤) الاعشى ـ ديوانه ـ القصيدة رقم ٧٧ .

(٥) طرفة بن العبد ـ ديوانه ص ٥٦ ، النابغة ـ ديوانه ص ٦٣

(٦) جمهرة الامثال ص ٢٤٢

(٧) النابغة ـ ديوانه ص ٨٦ ، حاتم الطائى ـ شعراء النصرانية ص ١١٨ .

(٨) امرؤ القيس ـ ديوانه ص ٦٩ ، النابغة ـ ديوانه ص ٨٦

(٩) الاعشى ـ ديوانه ـ القصيدة رقم ١٨ ، علقمـة ـ قصيدتـه « ذهبت من الهجران » .

(١٠) قيس بن الخطيم ـ طبقات ابن سلام ص ٩٠

(١١) الاعشى ـ ديوانه ـ القصيدة رقم ١٨

(١٢) النابغة ـ ديوانه ص ٦٣ ، المثقب العبدى ـ شعراء النصرانية ص ٤٠٥ .

ذلك العهد وفى عهدنا الحاضر • والمهم أنها لا زالت تصنع منها وسائل الزينة فى جميع بقاع الارض المتمدنة • وكان لموقع بلاد العرب أثر كبير فى تيسير هذه المواد ، فسواحلها بالذات يستخرج منها اللؤلؤ والمرجان (١) من سواحل اليمن السعيدة والبحرين • ولصلتهم بالبلاد العامرة اذ ذاك كالهند وفارس والعراق والشام ومصر وبلاد الروم والحبشة فهم حصلوا على مواد الزينة هذه بسهولة بواسطة قوافلهم المتنقلة •

وصنعت الجاهليات من هذه الاحجار والمعادن السموط الضخمة (٢) التى تكلف حتى فى هذا الزمن مبالغ ، وعلقن السموط فى العنق (٣) وعلى الصدر وينظم فيها الزبرجد والياقوت والشذر ، يقول النمر بن تولب :

أناة عليها لؤلؤ وزبرجد ونظم كأجواز الجراد المفصل (٤)

وكانوا يصنعون من الذهب القلائد وتتشح بها النساء (٥) فيضعنها على الصدور (٦) والعربيات لبسن الاسورة فى المعاصم (٧) وتزين بالخلاخل (٨)

وقد وصف كثير منهم حلى النساء • يقول الاعشى :

---

(١) القرآن الكريم ـ سورة الرحمن •

(٢) الاعشى ـ القصيدة رقم ١٨ ، علقمة الفحل ـ قصيدتاه « السمطان » •

(٣) حاتم الطائى ـ شعراء النصرانية ص ١١٨ •

(٤) النمر بن تولب ـ الجمهرة لابى زيد القرشى ص ١٠٩ •

(٥) النابغة ـ ديوانه ص ٦٣ ، المثقب العبدى ـ شعراء النصرانية ص ٤٠٥ •

(٦) النابغة ـ ديوانه ص ٦٣ •

(٧) الاعشى ـ ديوانه ـ القصيدة رقم ٧٧ ، البديل العجلى ـ الحماسة ج ١ ص ٢١٨ •

(٨) طرفة ـ ديوانه ص ٥٦ •

اذا لبست سمدارة ثم أبرقت بمعصمها والشمس لما ترجل
وألوت بكف فى سوار يزينها بنان كهداب الدمقس المفتل (١)

وقال حاتم :

تهادى عليها حليها ذات بهجة وكشحا كطى السابرية أهضما
ونحرا كفى نور الجبين يزينه توقد ياقوت وشذر منظما
كجمر الغضى هبت به بعد هجعه من الليل أرواح الصبا فتنسما (٢)

وكن يستعملن الاسورة فى الرسغ والجبيرة فى الساعد ، والدملج فى العضد (٣) ،والخلخال والخدمة فى اسفل الساق والاقراط فى الآذان. وربما اختصت الحرائر منهن باستعمال السوار بدلالة قول حاتم حين لطمته العنزية « لو ذات سوار لطمتنى » (٤) .

وكثير من أنواع الحلىّ كان فى أصله نوعا من الرقى والتعاويذ والتمائم وكان يحمل لدفع مكروه او كسب مرغوب او استجلاب خير . ولما اطالوا من حمله ولبسه او تعليقه ألفوا ذلك واحسوا بشىء من الجمال فيه فصار حليا . ولهذا كان الجاهليون يعلقون الحلىّ والجلاجل على اللديغ لاعتقادهم انها لا تتركه ينام لانهم كانوا يرون انه لو نام لسرى السم فى جسمه فأماته. ويعتقدون انه لو علق عليه الرصاص ، الذى هو ليس من المعادن الكريمة ، لمات (٥) . ولهذه العقائد شىء من السر العلمى لانها تقوم على التجارب

---

(١) الاعشى ـ ديوانه ـ قصيدة ٧٧ .

(٢) حاتم الطائى ـ شعراء النصرانية ص ١١٨ . السابرى ـ نوع من التمر .

(٣) حبيب الزيات الدمشقى ـ المرأة فى الجاهلية ص ١٣ .

(٤) حاتم الطائى ـ مجمع الامثال للميدانى ج ٢ ص ١٠٣ « جعل السوار علامة للحرية اذ قلما تلبس الاماء السوار » .

(٥) بلوغ الارب ج ٢ ص ٣٠٤

فبعض مركبات الرصاص مثلا مواد قاتلة .

ومن لوازم التزين عندهن الخضاب والوشم يقول زهير بن أبى سلمى

ودار لهـــا بالرقمتين كأنهـــــا مراجيع وشم فى نواشر معصم(١)

وتفنن فى ضفر الشعر كما قال أمرؤ القيس

غـــدائره مستشزرات الى العـــلى تضل المدارى فى مثنى ومرسل(٢)

ونظرا لما يترتب على الفرع الطويل من الحسن أطالت قصيرات الشعور منهن شعورهن بوصلة معـارة . وكن يتنفن بعض الشـعر فى الحواجـب كما تفعل النساء اليوم فى بعض الاحوال قال الراجز

يا ليتهـا قـد لبست وصـواصـا ونمصت حاجبها تنماصا(٣)

والنامصة عندهم الناتفة شعرها . فقد عرفن نتف الحاجب . والعرب أحبوا الحواجب المزججة الطويلة ولم تصبغ النساء حواجبهن بما هو معروف بـ (الخطوط أو الخطاط) الا فى بعض الحواضر (٤) .

أما الطيب الذى كانت تستعمله النساء فقد جاء كثيرا ذكره فى الشعر يقول امرؤ القيس .

ألـم تريانى كلمـــا جئت طارقـــا وجدت بها طيبا وان لم تطيب (٥)

---

(١) زهير بن أبى سلمى ـ شعراء النصرانية ص ٥١٢ . النواشر ـ عروق باطن الذراع .

(٢) امرؤ القيس ـ معلقته الغدائر ـ الذوائب ، المدارى ـ الامشاط.

(٣) حبيب الزيـات الدمشـقى ـ المرأة فى الجاهليـة ص ١٤ . الوصواص ـ شق فى الستر .

(٤) أبو الطيب المتنبى ـ ديوانه ص ٣١ (البهية) .

(٥) امرؤ القيس ديوانه ص ٥٦

وأغلب طيبهن المسك(١) وهو من المواد العطرية الغالية حتى اليوم • والمرجح أن نساء الطبقات الراقية هن اللائى كن يستعملنه • وذكر الشعراء أن المسك كان يجلب من اليمن ، وهو النوع الجيد القوى الرائحة لتستخدمه النساء • ومن المبالغة فى وصف استعمالهن الكثير له قول المرار بن منقذ • وهى لـــو يعصـر من أردانهـــا عبق المسك لـكادت تنعصـر (٢)

والعطور كانت ترد بأصنافها الى بلاد العرب من الهند التى اشـتهرت بصنع العطور ومنها الألوى (٣) وهى لا زالت حتى اليوم مشهورة باصدار العطور • ويحدثنا التاريخ ان بلاد العرب كانت الواسطة لنقل بضائع الهند الى مصر وأفريقية والشام ومن أهم هذه البضائع العطـور • واسـتخدمت الجاهليات أنواعا كثيرة منها « البان » الذى يحتمل أنه كان يصنع من الشجر المعروف بهذا الاسم ، والرند وهو شجر معروف بالباديـة • والظاهر أن هـذه العطور هى من جملة العطـور التى تستخدمها النساء اليوم ، وذكر امرؤ القيس منها فى قوله :

وريح سـنا من حقـة حميريـة تخص بمفروك من المسك أذفرا
وبانا وألويا من الهنـد زاكيـا ورندا ولبنى والكباء المقترا (٤)

فالالوى العود والرند شجر طيب الرائحة فى البادية ، واللبنى ضرب

---

(١) امرؤ القيس ـ معلقته • وقصيدته فى ديوانه ص ١٩ ، أبو الذيال الهذلى طبقات ابن سلام ص ١١٣ •

(٢) المفضليات ص ٣١ ـ ٣٢ •

(٣) امرؤ القيس ـ ديوانه ص ٦٩ (وربما كان هذا هو المعروف بطيب « العود ») •

(٤) نفس المصدر • السنا ـ ضرب من النبت والطيب ، المفروك ـ المسك والطيب • الاذفر ـ الشديد الرائحة ، المقتر ـ المدخن •

من الطيب والكباء البخور أو كل عطر يابس واستخدمت النساء العنبر قال المرار :

عبق العنبر والمسك بها فهى صفراء كعرجون العمر (١)

كما استخدمن عطر الزنبق • يقول الاعشى :

اذا تقوم يضوع المسك أصورة والزنبق الورد من أردانها شمل (٢)

ويبين الشعر أن هذه العطور كانت تحمل الى بلاد العرب فى علب من الخشب ، وهى الحقاق (٣) ، أو فى جلود بعض الحيوانات تدبغ وتهيأ لهذا الغرض كجلود الفأر المعروفة بمسكها الطيب (٤) أو قشور الفواكه تصنع منها الحقائق كالعلب • وشبهوا رائحة النساء بريا القرنفل (٥) أو برائحة الراح مازجها ماء المطر الصافى ، أو برائحة الزنجبيل (٦) أو الرياض سقاها الغيث (٧) •

ونساء الحواضر العربية كن على اتصال بالمراكز الحضارية فى عهدهن ولهذا اقتبسن امور الزينة والحلى ، واستخدمنها أكثر من البدويات ، ولهذا وجدنا فى شعر المتحضرين وصفا لها فى حين أن أوصاف النساء البدويات قل أن نجد فيها هذه الوسائل المصطنعة • ولعل أحسن مثال لذلك ما جاء فى معلقة عمرو بن كلثوم وهو قوله :

---

(١) المفضليات ج ١ ص ٣١ ـ ٣٢ العمر ـ النخلة

(٢) الاعشى ـ ديوانه • القصيدة رقم ٦

(٣) امرؤ القيس ـ ديوانه ص ٦٩ •

(٤) علقمة ـ ديوانه ص ٤٧ ، شعراء النصرانية ص ٤٩٩ •

(٥) امرؤ القيس ـ المعلقة

(٦) أبو الذيال الهذلى ـ طبقات ابن سلام ص ١١٣ •

(٧) الاعشى ـ ديوانه • القصيدة رقم ٦

تريك اذا دخلت على خـــلاء وقد أمنت عيون الكاشحينا (١)

كما يصح أن نتخذ للوصف الحضرى ونعومته مثالا من شعر الرمق بن زيد بن تميم الخزرجى وهو من أهل المدينة اذ قال :

لم يقض دينـك مـل حســا ن وقـــد غنيت وقـــد غنينـا
الراشـــقـات المرشـــــقـا ت الجازيـات بمـــا جزينـــا
أشـــباه غـزلان الصـــــرا ئـــم يأتـزرن ويرتـدينـــــا
الريـــط والـديبـــــاج والـ ـحلى المضاعف والبرينـــا (٢)

واذا أردنا الاستزادة من صور التزين والعناية بالملابس عند الحضريات ففى شعر علقمة كثير منه خاصة قصيدته « هـل ما علمت ومـا استودعت مكتوم » التى عرضت على قريش فمنحتها لقب « سمط الدهر الاول » ولولا قربها من الذوق القرشى الحضرى ما فضلوها هـذا التفضيـل • وكذلك الحال فى قصيدته الثانية التى لقبت « بسمط الدهر الثانى » اذ يعرض فيها لطبائع النساء وأخلاقهن كما عرض فى الاولى لملابسهن وزينتهن •

وسنعرض فى الفصول التالية لاهم صور المرأة فى الشعر الجاهلى •

---

(١) يراجع ديوان الاعشى ــ القصائد ١٢ ، ١٤ ، ٢٠
Ludwing Able: Die Sieben Muallakat, P. 20 - 21

(٢) الرمق بن زيد ــ معجم البلدان لياقوت الحموى مادة « المدينة » ج ٧ ص ٤٢٩ ، الاغـانى ج ١٩ ص ٩٦ (وهـو عبيـد بن سـالم بن مالك الخزرجى) غنيت ــ تزوجت • الصرائم ــ القطعان • البرين ــ نوع من الحلى •

الفصل الثانى

المرأة الحبيبة فى الشعر الجاهلى

١ ـ مكان الحبيبة فى الشعر الجاهلى :

كرس الشاعر الجاهلى قدرا كبيرا من اشعاره من اجل المرأة ، وتعرض لوصفها والحديث عنها وهى فى مختلف الادوار التى تؤديها فى الحياة الاجتماعية الجاهلية • صورها حبيبة ، وزوجة ، واماً ، وفتاة ، وأمة من الاماء • وتحدث عن وظيفتها وواجباتها فى المجتمع ورسم العواطف والمشاعر التى تحس بها ويحس بها الاخرون نحوها • لكن عنايته هذه لم تكن واحدة وهى تؤدى هذه الادوار المختلفة فى ذلك المجتمع العربى فى الجاهلية • فهو لم يعن بها فى سائر أدوارها عنايته بها وهى حبيبة وسر هذا واضح فما تثيره الحبيبة فى نفس الشاعر ليس مثله ما تثيره غيرها من النساء • والشعر ، كما هو مفهوم ، لغة الحب ولغة العاطفة فهو يعذب ويحلو باسم الحبيبة ويرق فيستهوى اليه النفوس اذا كان غزلا أو نسيبا أكثر منه فى سائر الموضوعات الشعرية الاخرى • ولهذا كان ما وقفه الشاعر الجاهلى على الحبيبة أكثر مما وقفه على من سواها من النساء وأكثر مما وقفه عليها غيره من الشعراء الذين عاصروه من الامم الاخرى • توجه اليها الشاعر العربى بغزله ونسيبه وتعرض لوصفها مباشرة كما تعرض لها باسلوب غير مباشر ، وأعنى به نسيبه الطللى • نعم انه أحب الديار لحبها ، وكره الديار لهجر الحبيبة لها وابتعادها عنها • وما كان عبيد بن الابرص الا واحدا من الشعراء الجاهليين حين قال :ـ

فقلت لهـا لا تعجـلى ان منـزلا نأتنى بـه هنـد الى بغيض[١]

وكم صرح الجاهلى قائلا : احب لحب فاطمة الديارا ، وما حب الديار شغفن قلبى ، ولكن حب من سكن الديارا • ولهذا وغيره يصح أن نعتبر أكثر ما قيل فى الاطلال والديار انما قيل لاجل الحبيبة وبهذا يصبح مـا وقفه الجاهلى عليها من فنه الشعرى قدرا ضخما • ولا عجب فهى الالهـة التى أوحت اليه بكثير من الشعر والهمته بالمعانى العـذبة ، وكانت غاية أمنية الشاعر المحب أن يسمعها نشيده ، وأكبر هم الواحد منهم أن ينـال رضاها ، اما غير الحبيبة من النساء فلم يثرن فى الرجـال ما اثارته هى ، فالزوجة مثلا التى تفضى الى زوجها ويفضى اليها لا تكون دواعى الاستهواء والاسترضاء بتلك الحرارة المعهودة بين المحب وحبيبته لهذا كان ما قيـل فى الزوجة دون ما قيل فى الحبيبة فى كمه وقوة عاطفة الوجد فيه •

ومما ساعد على هذه الكثرة من الشعر فى المحبوبة أن أبناء الاشراف من الطبقات الراقية كانوا من الشعراء[٢] ، وقد توافرت لهم أسباب الحياة المترفة الناعمة : شباب مكتمل وشرف واسع وخير عميم ووقت خـال ، فاستهوتهم المرأة وشغلت أذهانهم وملكت عليهم قلوبهم ، وهى خير ما فى حياتهم مما يستحق العناية والتقدير • فكان للشاعر فى نضارة وجهها متعة نفسية وفى ابتسامتها محفز له على اقتحام الصعاب ، فاذا رضيت عنه شعر بأن الدنيا بعرضها وطولها راضية عنه ، فلا عجب اذا ما وقف عليها أكثر نتاجه الفنى « فكم بخيل جاد من أجلها ، وقطوب تطلق وجبـان شجع وجاهل تأدب ، وناسك فتك من أجل ابنة حواء[٣] ولم تغب المحبـوبـة عن ذهن المحب حتى فى أشد ساعاته حرجا وفى نومه وفى يقظته • [٤]

---

(١) عبيد بن الابرص ـ شعراء النصرانية ص ٦١٣ •

(٢) Blunt: The Seven Golden Odes, P. II

(٣) على بن حزم ـ طوق الحمامة ص ١٢ •

(٤) عنترة العبسى ـ ديوانه • المعلقة •

وقد أكثر الشاعر الجاهلى من شعر الغزل • وهذه الكثرة هى التى جعلت بعضا من الباحثين يقول انحياة العرب كانت كلها لهو وسرور دائم• وان أهداف العربى تنحصر فى الخمرة والمرأة والحرب • (١) واذا نظرنا الى الشعراء وجدنا منهم المكثر فى النسيب ومنهم المقل الا أن الشاعر المجيد فى نظر أهل البادية كان ينبغى أن يأخذ نفسه بشىء منه • وقد توارث الشعراء هذه الظاهرة الفنية من زمن بعيد لا نتبين مبدأه • ومن الجاهليين من خصص قصيدة كاملة للغزل بالحبيبة كطرفة (٢) وهذا قليل بالطبع وكان للجاهليين نموذج مثالى للقصيدة فهى تبدأ بالغزل المباشر أو بالنسيب الطللى فكان ذكر المحبوبة اذن خير ما يفتتحون به قصائدهم • والقصيدة عندهم تشتمل فى العادة ، على أكثر من غرض واحد •

٢ ـ الوصف المادى للحبيبة :

ذكر أفلاطون ان ادراك الجمال يكون على مرحلتين المرحلة الاولى مرحلة الحس ، ويصل اليها المعجبون عن طريق النظر والسمع وهؤلاء هم الغالب فى كل أمة فيعجبون بالاشكال والصور والالوان والاصوات وكل ما دخلت فى تركيبه هذه الاشياء من آثار الفن • والمرحلة الثانية مرحلة ادراك كنه الجمال فسماها أفلاطون بمرحلة المعرفة لما فيها من ادراك الحقيقة وهى مرحلة لا يصل اليها الا القادرون على التفكير الحر فى الجمال المطلق ، وهم قليلون يدركون هذا النوع من الجمال المتجلى فى الاشياء الجميلة (٣) فيستطيعون ادراكه مجردا عن هذه الاشياء •

---

(١) طرفة بن العبد ـ ديوانه ص ٢٨ •

Khuds Bukhsh: Contributions to the History of Islamic Civilization, P. 165

(٢) أفلاطون ـ الجمهورية ص ١٤٩ •

ونحن اذا رجعنا الى الشعر الجاهلى وجدنا الشاعر يبدو فيه وهو يحمل فى ذهنه عناصر كثيرة للجمال هى مجموعة القيم المتوارثة والقيم الثقافية له ، أى انها التى ورثها عن أسلافه على أنها عناصر للجمال، مضافة الى ما انتزعه من محيطه • فكان لهذا بقر الوحش والظباء والرخام والعاج والماء البارد الصافى موطنا يقتبس منه عناصر الجمال كما كانت الشمس والقمر وغيرهما موطنا لذلك ايضا • ونجد الشاعر من ناحية محبوبته يحب واحدة فى الغالب ، فيسميها باسمها ، ويخلص لها أشد الاخلاص ويجد فيها من معانى الجمال تلك ما يجد • أما الجمال المطلق فاذا أريد به أن يكون صورة متصورة بعيدة عن من تتمثل فيه عناصر الجمال فليس البحث عن المحبوبة فى الشعر الجاهلى ميدانا لهذا التصور ، والراجح عندنا أن الجاهلى لم يكلف نفسه هذا النوع من النظرات العامة المجردة لان طبيعته وظروفه لم يكونا ليعيناه على هذا النمط من الاحساس والتفكير •

أما مواطن الجمال فى المحبوبة فهى فى جسمها المادى وما يصدر عنه من حركات وتعابير ثم طبائعها وأخلاقها ولهذا عنى الشاعر بتصوير قوامها واجزاء جسمها على الصورة وبالمقدار الذى يتذوقه الجاهلى وفاقا لطبيعة حياته وتقاليده •

وقد صور الشعر جسم المرأة المحبوبة ممتلئا وقدها رشيقا أهيف وقوامها كغصن اذا تمايل ليس فيه ضخامة • وهو المهفهف[1] غير المفاض أو المجدال[2] • قال المرار العدوى :

فهى هيفاء هضيم كشحها فخمة حيث يشد المؤتزر[3]

---

(١) امرؤ القيس ــ المعلقة •
(٢) امرؤ القيس ــ ديوانه ص ٣٨ •
(٣) المرار بن منقذ العدوى ــ المفضليات ج ١ ص ٣١ ــ ٣٢ ، العمدة لابن الرشيق ج ٢ ص ٥٥ •

وقال النابغة :

صفراء كالسيراء أكمل خلقها كالغصن فى غلوائه المتأود (١)

وقد وصفوا استقامة قوامها ولينه بالغصن الذى لا التواء فيه وقالوا ان خصرها دقيق هضيم وأردافها فخمة وكثيرا ما شبه الجاهليون أوراك النساء بالرمل والكثبان ، المليئة بها بيئتهم . ومن هذا يتكون الجسم الجميل المتسق الصفات الفاتن الجمال .

وعنى الاعشى بوصف حركات الحبيبة قعودا وقياما اقبالا وادبارا فأحسن اذ قال :

عسيب القيام كثيب القعود وهنانة ناعم بالها

اذا أدبرت خلتها دعصة وتقبل كالظبى تمثالها (٢)

واتفق الشعراء فى وصف الخصر بأنه هضيم مثل كشح المهاة المطفل(٣) قال امرؤ القيس :

لطيفة طى الكشح غير مفاضة اذا انفتلت مرتجة غير متفال (٤)

أما ذراعاها وساقاها فممتلئان قد مار اللحم عليهما مورا الى منتهى الخلخال (٥) حتى أنه ليضيق بالساق كما يمتلىء السوار بالمعصم

---

(١) النابغة الذبيانى ـ ديوانه ص ٦٣ . السيراء ثوب مخطط من حرير . غلوائه = طوله .

(٢) الاعشى ـ ديوانه ـ القصيدة رقم ٢١ . العسيب = الطويلة المستقيمة . كثيب القعود = ضخمه المقعد فى الجلوس . الوهنانة = الناعمة . الدعصة = الكثيب الصغير .

(٣) طرفة بن العبد ـ ديوانه ص٤٧ مع شرح الاعلم الشنتمرى.

(٤) امرؤ القيس ـ ديوانه ص٣٨ . الكشح = الخصر ، المتفال = المنتنة .

(٥) الاعشى ـ ديوانه ـ القصيدة رقم ٧٧ .

قال النابغة :

على ان حجليها وان قلت أوسعا صموتان من ملء وقله منطق

وقدمها ريا وكفلها ضخم كالنقا(١) فيه سعة وارتفاع(٢) بحيث اذا ما انبطحت على الارض ارتفع جنبها عنها(٣) . أما بطنها فذات عكن لطيفة الطـــى(٤) وهى ملساء(٥) . ونهداهـا كالرمانتين ناهـــدان (٦) ومتناها محطوطان(٧) فيظهر جمال العنق من بينهما . ويقال أن أول من وصف الثدى هو عمرو بن كلثوم(٨) بقوله :

وثديا مثل حق العاج رخصا حصانا من أكف اللامسينا (٩)

وقد اعتبر علماء الطبيعة والاجناس سعة الحـــوض وكبر العجيزة فى المرأة من جملة المميزات الجنسية الثانوية قال ألس « المرأة العربيـــة التى وصفها (كوخر) Kocher وغيره حوضها عريض واسع ليس فيه الامتلاء الذى يكسبه شكلا مكورا كما نلحظه فى الأوربية النامية جيدا (١٠) وهذه الفكرة التى نقلها عن كوخر لا يؤيدهـا الشـعر الجاهلى فقد وصف الشعراء عجيزة المرأة بالامتلاء وخصرها بالدقة والضيق وباغوا فى وصف الدقة

---

(١) المصدر السابق رقم ٨٠ .

(٢) المصدر السابق رقم ٧٧ .

(٣) المصدر السابق رقم ٧٧ ، والنابغة ـ ديوانه ص ٥ .

(٤) النابغة ـ ديوانه ص ٦٣ .

(٥) طرفة ـ ديوانه ص ٨٥ .

(٦) المرار بن المنقـذ ـ المفضليات ص ٣١ ـ ٣٢ ، الاعشى ـ قصيدة رقم ١٨ .

(٧) النابغة ـ ديوانه ص ٦٣ .

(٨) داود الانطاكى ـ تزيين الاسواق ج ٢ ص ٩١ .

(٩) عمرو بن كلثوم ـ المعلقة

(١٠) Ellis: Studies in the Psycology of Sex P. 67

الى حد قالوا فيه انه لضيقه ليكاد ينقصف، ولا يناسب الخصر الضيق هذه العجيزة العريضة الواسعة • وسعة الحوض التى جاء وصفها فى الشعر دليل على تقدم المرأة العربية فى نموها ورقيها فى سلم التطور •

ومن الوصف الجيد للاوراك والارداف قول الشاعر :ـ

وبيض نضيرات الوجوه كأنما تأزرن دون الازر رملات عالج
خذال الشوى لا تحتشى غير خلقها اذا الرسح لم يصبرن دون المنافج
يذرن مروط الخز ملأى كأنها قصار وان طالت بأيدى النواسج (١)

فهو يصفهن باعتدال القوام وامتلاء الارداف من غير ضخامة وارتخاء•

وكثيرا ما كان الشاعر يحار فى الوصف فيجد انه لا يستطيع ان يلم بنواحى الجمال المادى فى جسم الحبيبة وبداعة أعضائها وسائر أطرافها فيضطر الى أن يجمل (٢) فى وصفه فيستغنى به عن الاطالة ويتحاشى صعوبة التدقيق • قال الاعشى :

فقد كملت حسنا فلا نعت فوقها وانى لذو قول بها متنحل (٣)

ووصفوا بشرة المحبوبة بالرقة والنعومة وهى الرؤدة الرخصة (٤) قال امرؤ القيس :

اذا ما الضجيج ابتزها من ثيابها تميل عليه هونة غير مجبال
كحقف النقا يمشى الوليدان فوقه بما احتسبا من لين مس وتسهال (٥)

---

(١) خذال الشوى = ممتلئة الاطراف ، الرسح = ج رسحاء وهى قليلة لحم العجز ، المنافج = حشايا توضع فوق الارداف •

(٢) المرار بن منقذ ـ المفضليات ص ٣١ـ٣٢ ، النابغة ـ ديوانه ص ٥١ •

(٣) الاعشى ـ ديوانه ـ القصيدة رقم ٧٧ •

(٤) امرؤ القيس ـ قصيدته (أحار بن عمرو كأنى خمر) • الرأد والرأدة والرؤد والرؤدة والرؤودة = الشابة الحسنة •

(٥) المصدر السابق ص٢٨• غير مجبال = غير غليظة ، الحقف = ما استدار من الرمل • النقا = الكثيب • الوليدان = الصبيان •

أما أناملها فناعمة طفلة وبنانها سباط[١] قال امرؤ القيس :

وتعطو برخص غير شثن كأنه أساريع ظبى أو مساويك أسحل[٢]

ولون النساء المرغوب فيه عندهم البياض لذيوع الاسمرار وكثرته وندرة البياض وقلته قال المزرد :

وبيضاء فيها للمخالم صبوة ولهو لمن يرنو الى اللهو شاغل[٣]

ولحدة نظرهم ودقة تمييزهم لاحظوا تغير ألوان المحبوبة الجميلة بتغير الوقت فى النهار . فالوجوه الناعمة الصافية الرقيقة يستطيع قوى الملاحظة أن يميز فيها ما تعكسه من الضوء فتبدو له ألوانها متغيرة بتغير الاضواء وقوتها فى النهار قال الاعشى :

بيضاء غدوتها وصفراء العشية كالعرارة[٤]

وهم اذ فضلوا البياض لم يرغبوا فى الباهت منه ، البارد الطبع ، انما المشوب بالصفرة :

كبكر المقانات البياض بصفرة غذاها نمير الماء غير المحلل [٥]

وقد اتفق الجاهليون فى وصف مشية الحبيبة بالهدوء والفتور ، فهى

---

(١) النابغة ديوانه ص ٦٣ ، مع امرؤ القيس ـ ديوانه ص ٣٨، الاعشى . القصيدة ٢٨ . السباط = الحسن القد والاستواء .

(٢) امرؤ القيس ـ المعلقة . الشثن = الغليظ . ظبى = اسم رمل . أساريع = دواب ، اسحل = شجر طيب الرائحة .

(٣) المزرد ـ المفضليات للظبى ج ١ ص٣٤ ، معلقة امرىء القيس المخالم = الممازح ، يرنو = يديم النظر .

(٤) الاعشى ـ دولة النساء للبرقوقى ص ١٧٢ . العرارة = نبته طيبة الريح .

(٥) امرؤ القيس ـ المعلقة . البكر = بيضة النعام ، مقانات مخلوطة ، غير المحلل = لم ينزله أحد .

تتهادى[١] كما يتهادى المنزوف دمه أو المنزوف عقله :

واذ هي تمشي كمشي النزيف يصرعه بالكثيب البهر[٢]

أو تمشي كدبيب القطا[٣] فهي هادئة في حركتها وفي هذا الهدوء والتمهل تفاتل وتمايل هما دليل الراحة قال المزرد :

ليالي اذ تصبي الحليم بدلها ومشي خزيل الرجع فيه تفاتل[٤]

ومن جميل صفة المشي ما جاء في شعر الاعشى :

كأن مشيتها من بيت جارتها مر السحابة لا ريث ولا عجل[٥]

وقوله :

يمشين رهوا فلا الاعجاز خاذلة ولا الصدور على الاعجاز تتكل[٦]

ووصف المشي بأنه يصرعها اذا مشت الى جاراتها لولا تشددها[٧]

أما خطاهن فوصفوها بالقصر كما قال المرار :

قطف المشي قريبات الخطى بدنا مثل الغمام المزمخر

يتزاورن كتقطاء القطا وطعمن العيش حلوا غير مر[٨]

---

(١) النابغة ـ النصرانية ص ٨٦ .

(٢) امرؤ القيس ـ قصيدته (أحار بن عمرو) ص ٧ النزيف = المنزوف عقله بالسكر ، البهر = الكلال وانقطاع النفس .

(٣) الاعشى ـ قصيدته رقم ٧٧ ، المنخل اليشكرى ـ نهاية الارب للنويرى ج ٢ ص ١٠٧

(٤) المزرد ـ المفضليات ج ١ ص ٣٤ .

(٥) النويرى ـ نهاية الارب ج ٢ ص ١٠٦ .

(٦) الاعشى ـ ديوانه ـ القصيدة رقم ١٨٣ .

(٨) الاعشى ـ ديوانه ـ القصيدة رقم ٦ .

(٧) المرار بن منقذ ـ المفضليات ج ١ ص ٣١ . المزمخر = المرتفع ، تقطاء القطا = مقاربة خطوه .

والبطء فى المشى والتثاقل فى الحركة يدلان على ميل النساء الى عدم العنف كما يميل الرجال عامة الى الاعمال العضلية العنيفة ، وهذا يرجع الى تركيب أبدانهن ، فقد ألفن أن يقرن فى بيوتهن ويقمن بمداراة الاطفال وتربيتهم كما ألف الرجال محيط الاعمال العنيفة . وفى الشعر الجاهلى كثير من وصف مشى النساء وحركاتهن(١) .

ونجد وجه المحبوبة يسترعى انتباه الشعراء أكثر من أى جزء فيها ، فقد كرسوا كثيرا من الشعر لتصوير قسماته وتقاطيعه ، وكانت العين أكثر الجوارح التى عنوا بها لتأثيرها فى النفوس ولدلالتها على المعانى العميقة المختلفة . فيقرأ الرائى فيها ما لا يقرؤه فى غيرها . ولقد شبه الجاهليون الوجه الجميل بالشمس(٢) أو القمر . قال المرار بن منقذ :

صورة الشمس على صورتها كلما تغرب شمس أو تذر (٣)

ووصفوا الوجه بالصفاء والنقاء(٤) ومنه تشبيهات عنترة للوجه بقوله :

أشارت اليها الشمس عند غروبها تقول اذا اسود الدجى فاطلعى بعدى
وقال لها البدر المنير الا اسفرى فانك مثلى فى الكمال وفى السعد (٥)

ومنهم من شبه الوجه الجميل بالمصباح بجامع الانارة فيهما ، وكانت مصابيحهم التى توقد بالزيت والفتيل تبهرهم بنورها . قال امرؤ القيس :

تضىء الظلام بالعشى كأنها منارة ممسى راهب متبتل (٦)

---

(١) جنوب الهذلية ـ رياض الادب ص ٧٨ ، تميم بن مقبل ـ حماسة ابن الشجرى ص ١٨٨ .
(٢) طرفة بن العبد . المعلقة .
(٣) المرار بن منقذ ـ المفضليات ج ١ ص ٣٣ .
(٤) سويد بن أبى كاهل . قصيدته .
(٥) عنترة العبسى ـ ديوانه ص ١٠٢ .
(٦) امرؤ القيس ـ المعلقة .

ومن جمال الوجه أن يكون أبيض اللون ناعم اللمس .

والشَعَر الذى فتن به الجاهليون هو الكثيف المسترسل الاسود الفاحم الذى فيه خصل كثيرة ملتفة كما وصفه امرؤ القيس بقوله :

وفرع يزين المتن أسود فاحم
أثيث كقنو النخلة المتعثكل
غدائره مستشزرات الى العلى
تظل المدارى فى مثنى ومرسل (١)

وطوله من صفات الجمال فيه لهذا وصف المرار شعر محبوبته بانه اذا ما أرسلته صار يخط على الارض :

تهلك المدارة فى أفنانه فاذا ما أرسلته ينعفر (٢)

وليس من الغريب أن يشبه امرؤ القيس خصل الشعر الملتفة بعذق النخلة ، فمنظر النخلة من أهم مواطن الجمال فى البيئات المقفرة . وان الشعر فى النوع الانسانى ينمو فى الرجال على وجوههم ، ولكنه ينمو فى النساء على رؤوسهن ويكون غزيرا وغزارته من صفاتهن (٣) المحببة لدى الرجال . واذا أرادوا وصف الشعر بالسواد شبهوه بالليل لانطوائه على بعضه ولشدة سواده كما شبهوا الجبين بالصبح يطلع فيه . قال عنترة :

ويطلع ضوء الصبح تحت جبينها فيغشاه ليل من دجى شعرها الجعد (٤)

---

(١) امرؤ القيس ـ المعلقة . مستشزرات = مرتفعات، المدارى = الامشاط .

(٢) المرار بن منقذ ـ المفضليات للضبى ج ١ ص ٣٢ .

(٣) Ellis: Studies in the Psycology P. 270 - 290

(٤) عنترة ـ ديوانه ص ١٠٣ ، شعراء النصرانية ص ٤٢٧ .

أما عيني المحبوبة فشبهوهما بعيني المهاة[١] أو الرئم صيد غزالها[٢] وبعيني الجؤذر[٣] أو الشادن[٤] أو بعيني حمار الوحش[٥] كل ذلك لبيان سعتهماوشدةسوادهما وصفاء بياضهما وصوروا دموع عيون المحبوبة وهي تبكي باللؤلؤ[٦] . كما صورا العين متلألأة تسارق النظر[٧] . ومن جمال العيون عندهم أن تكون غضيضة ساجية تنظر نظر السقيم الى عواده[٨] وتخيلوا ، اذ وصفوا العيون وأثرها ، القسي ، فشبهوا أثرها بأثر القسيّ كذلك فهي ترسل نظراتها كما ترسل القسي سهامها فتصيب . وهذا التصوير نجده عند عنترة خاصة وهو الفارس المحارب وقد ألف السهام واصابتها[٩] كما شبه عنترة وقع النظرات بوقع السيوف .[١٠]

ومن أحسن الاوصاف لبريق عيني الحبيبة وحيويتهما قول الاعشى :

تلألؤهـا مثـل اللجين كأنمـا
ترى مقلتي رئـم ولـو لـم تكحل

---

(١) زهير بن أبى سلمى ـ ديوانه ص ٦٤ ، علقمة الفحل ـ شعراء النصرانية ٥٠٥ .

(٢) طرفة بن العبد ـ ديوانه ص ٣٨ ، الاعشى ـ ديوانه قصيدتاه رقم ٧٧ ، ٨٠ .

(٣) طرفة ـ ديوانه ص ٦٣ رواية ابن السكيت .

(٤) النابغة ـ ديوانه ص ٦٣ .

(٥) امرؤ القيس ـ المعلقة .

(٦) طرفة بن العبد ـ ديوانه ص ٣٨ ، علقمة ـ مقطوعته « تراءت وأستار من البيت » .

(٧) طرفة ـ ديوانه ص ٦٣ .

(٨) النابغة ـ ديوانه ص ٦٣ .

(٩) عنترة ـ ديوانه ص ١١٤ ، ١٢٣ .

(١٠) المصدر السابق ص ١٠٢ ـ ١٤٢ .

سجوين برجاوين فى حسن حاجب
وخد أسيل واضح متهلل (١)

ونساء الجاهلية يستعملن الكحل المصنوع من الاثمد(٢) :

بعينى مهاة يحدر الدمع منهما
بريمين شتى من دموع واثمد (٣)

والراجح ان مادة الاثمد هى أهم اجزاء الكحل التى تدخل فى تركيبه كما هو مستعمل عند النساء اليوم .

وأما خدها فوصفوه بأنه أسيل(٤) وانه واضح متهلل ناعم (٥) وهو الاصلتى(٦) يقول عنترة :

اذ تستبيك بأصلتى ناعم عذب مقبله لذيذ المطعم (٧)

وعنى الشعراء عامة بوصف فم الحبيبة وطيب حديثها فرققوا القول وتلطفوا فى انتقاء الصفاة ومن ذلك ما قاله طرفة :

وتبسم عن ألمى كأن منورا
تخلل حر الرمل دعص له ندي
سقته اياة الشمس الا لثاته
أسف ولم تكدم عليه باثمد (٨)

---

(١) الاعشى ـ ديوانه ـ القصيدة رقم ٧٧ سجوين = هادئتين ساجيتين ، برجاوين ـ سوادها ظاهر والبياض محدق به .
(٢) المصدر السابق .
(٣) علقمة الفحل ـ ديوانه ص١١٤، شعراء النصرانية ص٥٠٥ . بريمين = لونين مختلفين .
(٤) امرؤ القيس ـ المعلقة، الاعشى ـ ديوانه ـ القصيدة رقم٧٧.
(٥) عنترة ـ ديوانه ص ١٠٣ .
(٦) المرار بن منقذ ـ المفصليات ج ١ ص ٣١ ـ ٣٢ . ويوصف به الجبين أيضا .
(٧) عنترة العبسى ـ ديوانه ص ٢١٦ .
(٨) طرفة بن العبد ـ ديوانه ص ٩ المعلقة .

أى أنها تضحك عن ثغر أسمر اللثات فيتضح بياض الاسنان وصفاء الثغر من وراء هذه السمرة ، وقد شبه بياض الثغر ببياض الاقحوان الذى ينبت فى كثيب الرمل الطيب الندى فيبـــدو صافى البياض زاهى اللون • وقال ان أشعة الشمس قد سقت هذا الفـــم فجعلته مسمرا وبدت الاسنان ناصعة • وكثيرا ما شبهوا الاسنان بالاقحوان (١) أو بالبرد أو اللجين (٢) وكم كان بريق أسنان الحبيبة يستهوى عيون الشعراء فأطالوا فى وصفه •

وطعم الفم كان موضوعا لاحاديث طويلة فشبهوه بطعم الخمر مازجه الماء البارد فهو ينعش كما ينعش الخمر الشارب الصديان (٣) ، كما شبهوه بالعسل شيب بالماء القراح (٤) وبالزنجبيل (٥) والتفاح (٦) وقالوا انطعم ظلم الفم يشبه خضل الاقحوان وكأن نطفتـه خلطت بمـــاء مـزن • (٧)

يقول خداش بن زهير :

واذ هى عذبـــة الانيـــاب خـــــود
تعيش بريقها العطش المجـودا (٨)

ومن قدامى من شبه الريق بالراح والعسل النابغة وتزاحم الشعراء

---

(١) النابغة ـ ديوانه ص ٦٣ ، الاعشى ـ القصيدة ٧٧ ، الاسود ـ ديوانه ص ٤٣ •

(٢) طرفة ـ ديوانه ص ٦٣ ، المسيب ـ جمهرة أشعار العرب ص ١١١ •

(٣) الاعشى ـ ديوانه ـ قصيدة رقم ٥٢ •

(٤) المرار بن منقذ ـ المفضليات ص ٣١ ـ ٣٢ •

(٥) أبو الذيال الهذلى ـ طبقات ابن سلام ص ١١٢ ـ ١١٣ •

(٦) الاعشى ـ ديوانه ـ قصيدتاه رقم ٥٢ و٩٠ •

(٧) بشر بن أبى خازم ـ المختار ص ٧٨ •

(٨) خداش بن زهير ـ سقط الزند •

بعده على هذا الباب(١)

وعندما شبهوا طعم الفم بطعم الخمر تفننوا فى بيان أنواع هذه الخمور وذكروا الجهات المختلفة التى كانت تستورد منها فقالوا عنها القرقف السلاف المعتقة(٢) من عانة(٣) أو بابل(٤) أو حلب(٥) فأطالوا بهذه المناسبة فى وصف الخمور(٦) . وقالوا ان بين ثنايا المحبوبة ما اذا سقت به عطشان مشرفا على الهلاك أعادت اليه حياته وانتعش برضابها(٧) :

سقتنى بصهباء درياقة متى ما تلين عظامى تلن (٨)

ومن جميل التصورات فى هذا الباب قول عنترة عن فم حبيبته بأن فيه ساقيا من السقاة يمزج الخمر بالعسل . يقول :

وبين ثناياها اذا ما تبسمت

مدير مدام يمزج الراح بالشهد (٩)

فقد أراد أن يجعل فى فمها جماع ما يلتذ به ، فاختار لذلك أطيب

---

(١) الصفدى : الغيث المسجم من شرح لامية العجم ج ١ ص ٢٨٩ - ٢٧٠ .

(٢) النابغة الجعدى - ديوانه ص ٥٣ ، زهير بن أبى سلمى - ديوانه ص ٣٤ ، ربيعة بن مكدوم - الاغانى ج ٩ ص ٩٢ ، النابغة - ديوانه ص ١٠٩ .

(٣) الاعشى - ملحق ديوانه رقم ٤٨ . E

(٤) عبيد بن الابرص - المختار ص ٩٠٤ .

(٥) أبو وجرة - الاغانى ج ١١ ص ٨٤ .

(٦) الاسود بن يعفر - ديوانه - القصيدة رقم ٥٢ ، الاعشى - ملحق ديوانه رقم ١٤٤ . D

(٧) النابغة - ديوانه ص ٦٣ .

(٨) ابن مقيل - ملحق ديوان الاعشى ص ٣٨٤ رقم XI

(٩) عنترة - ديوانه ص ١٠٤ .

ما استطاع ان يتصوره من لذائذ الحياة الخمر والشهد ، وهذا أبلغ ما يصل اليه ذهن بدوى مثله وقال ان المحب اذا ذاق من فمها طلب المزيد ، وان كان عطشا ارتوى فذهب ما يشكو منه(١) وصار فى نشوة تشبه نشوة الثمل السكـــران(٢) ومن الامور الممدوحة فى الفم برودته وفتوره يقول الاعشى :

صادت فؤادى بعينى مغـــزل خذلت
ترعى أغـــن غضيضا طرفـــه خرقا
وبـــارد رتـــل عـــذب مذاقتـــه
كأنمـــا عـــل بالكافور واغتبقـــا (٣)

وتقطيع الكلام مـــن الصفات المستملحة(٤) وكذلك رخامـــــة الصـــوت(٥) . والاختلاف فى الصوت بين كلا الجنسين يجعل كلا منهما أكثر جاذبية للاخر(٦) فالملاحظة لا تعدم أن تبين ما لخشونة أصوات الرجال ونعومة أصوات النساء وفتور كلامهن وتقطع نبراتهن من الاثر الفعال فى رفع مستوى السرور الجنسى(٧) . فذكر الشعراء أن الحبيبات يصـــدن

---

(١) النابغة ـ ديوانه ص ٦٣ .
(٢) عبيد بن الابرص ـ المختار ص ٩٤ .
(٣) الاعشى ـ ديوانه ـ قصيدة ٨٠ ، تلاحظ القصيدة ٧٩ . اغتبق = شرب العشى . عل = شرب ثانية . الرتل = البارد أو الفلج الاسنان .
(٤) امرؤ القيس ـ العقد الثمين فى دواوين شعراء الجاهليين ص ١٢٦ .
(٥) طرفة بن العبد ـ ديوانه ص ٥٣ (الاعلم) .
(٦) يلاحظ اختلاف الصوت فى الجنسين :ـ
Ellis: Studies in the Payccology of Sex P. 19
(٧) Ibid P. 260 - 280. 227 - 228.

قلوبهم بأفواههن المليحة وأصواتهن العذبة فيهش الفؤاد اذا ما ضحكن حتى ليكاد يطير من فرط الشوق والحب العميم .

أما جيد المحبوبة فقد انتزعوا أوصافه من الرئم اذ شبهوه بجيدها وأرادوا به الطول وجمال الانتصاب يقول المرار بن منقذ :

صلتة الخد طويل جيدها ... ناهد الثدى ولما ينكسر (١)

فالعنق الجميل فيه ارتفاع بالاضافة الى طوله بحيث يصبح أشبه بعنق الظبى (٢) وأحبوا فى العنق الصفاء ونقاء اللون . يقول قيس بن الخطيم :

وجيد كجيد الرئم صاف يزينه ... توقد ياقوت وفصل زبرجد (٣)

٣ ـ الوصف المعنوى للحبيبة :

المحبوبة فى شعر الجاهليين فى الغالب من الطبقات الشريفة لهذا وصفوها بأنها مخدومة منعمة لا يرام خباؤها اذ الحراس الشداد يقظون من حولها . ومن الذين أطالوا فى وصف الحراس الاعشى (٤) وعلقمة (٥) . ولا ريب فى أن حياة العزلة ، وهى من مميزات البدو ، جعلت كلاً من الرجل والمرأة يعتمد على صاحبه تحت تأثير الاخطار المادية المحيطة بهم ، فكان كل بيت يقطنونه فى ذلك القفر ترتفع أطنابه منفردا فى الوديان المتباعدة والسهول الواسعة ، كان على ساكنيه أن يحموه ويحرسوه سواء من قوى الطبيعة التى يتعرض لها أم قوى البشر المغيرين . فالرجل والمرأة كلاهما كانا يحرسان

---

(١) المرار بن منقذ ـ المفضليات ج ١ ص ٣٢ .

(٢) قيس بن الخطيم ـ طبقات الشعراء لابن سلام ص ٥٦ ـ دولة النساء ص ١٣١ .

(٣) المصدر السابق .

(٤) الاعشى ـ ديوانه ـ القصيدة رقم ٨٠ .

(٥) علقمة الفحل ـ شعراء النصرانية ص ٥٠٢ .

من القاصرات الطرف لو دب محول من الذر فوق الاتب منهـا لاثرا (١)

والحشمة والحياء من أكرم الصفات التى يتوج الحب بها فيصـان من الابتذال ويحتفظ بسموه وطهره ، ومن أمارات الحياء والحشـمة الطرف الغضيض الذى ذكره عنترة اذ قال :

دار لآنسـة غضيض طرفهـا طوع العناق لذيذة المتبسم (٢)

والحياء فى المرأة من صفات الانوثة وتعبر عنه بأساليب كثيرة تحببها فى عينى الرجل فيزداد تعلقا بها • يقول المتلمس :

ان الحييّـه حبهـا لم ينفـد واليأس يسلى لو سلوت أخا دَدِ
قد طالما أحببتها وودتهـا لو كان يغنى عنك طول تودد (٣)

أما مقاييس الحشمـة والتحجب فتختلف فـى المدن والقرى عنها فى البوادى ولذلك أسبابه وعوامله الاجتماعية (٤) • ومن مظاهر الحشـمة الحجاب المعتدل قال النابغة :

صفحت بنظرة فرأيت منهـا تُحَيَّتَ الخدر واضعة القرام
ترائب تستضىء الحلى منهـا كجمر النـار بُذِّر بالظلام (٥)

فالمحبوبات الشريفات من شرفهن أن يقرن فى خدورهن فاذا تراءين للناظر فعن بعد وفى استحياء وخفر • وكان هذا أبلغ فى سحر قلب المحب

---

(١) امرؤ القيس ـ ديوانه ص ٨٠ • الاتب = قميص غير مخيـط الجانبين •

(٢) عنترة ـ المعلقة •

(٣) المتلمس ـ ديوانـه ـ القصيدة رقـم ٦ ص ٣٦ • نشره R. Dollers الدد = اللهو •

(٤) الاعشى ـ ديوانه ـ قصيدة رقم ٢٢ •

(٥) النابغة ـ ديوانه ص ٨٦ ، العقد الثمين ص ٢٨ ، القرام = ستر أحمر وقيل ثوب ملون •

واستلاب لبه ، وأكثر ما كن يظهرن للنظر وقت الرحيل، ولهذا صار الرحيل موضوعا تحدث فيه الشعراء كثيرا[١] ، فوصفوا المحبوبة وهى تستعد وتبدأ سفرها ، كما وصفوا شدة شعورهم ، وتعلقهم بها ، وحزنهم على فراقها •

٤ ـ تبادل الحب :

وكثيرا ما عرض الشعراء لتقلب المحبوبات وعدم استمرارهن على حبهن ، ومن هذا ما جاء فى قول ثعلبة بن صفير المازنى :

وأرى الغوانى لا يدوم وصالها أبدا على عسر ولا لياسر[٢]

فقد رأى أن وصال المحبوبات لا يستقيم سواء فى حالة العسر واليسر، فأخلاقهن وسيرهن قلب • ورأى المرار بن سعيد الفقعسى أنهن لا يتبعن من يجفوهن أو ينصرف عنهن ولا من شغلته هموم الحياة عن متابعتهن ، ولكن الذى يظفر منهن بما يريد ، ويستنجز مواعيده هو كل من جاراهن فى أحلامهن وسايرهن فى أذواقهن ، كل حلاف أثيم ، يسترضيهن بأيمانه ان حقا وان باطلا ، وأنهن لا يستهويهن الغنى والثروة فحسب فيطمع فيهن أهل اليسار والاغنياء ، ولا هن يكرهن الفقير فحسب فييأس من مودتهن المعدم المحتاج • قال :

وليس الغوانى للجفاء ولا الذى له عن تقاضى دينهن همـوم
ولكنما يستنجز الوعد تابع منـاهن حـلاف لهن أثيـم
وما جعلت ألبابهن لذى الغنى فييأس من ألبابهن عـديم[٣]

---

(١) امرؤ القيس ـ ديوانه ص ٦٩ـ١٢٤ ، عبيد بن الابرص ـ شعراء النصرانية ٦١٢ المرقش ـ شعراء النصرانية ص ٢٩١ ، النابغة ص ٧٢١ ، دريد بن الصمة الجمهرة ص ١١٧ •

(٢) ثعلبة بن صفير المازنى ـ المفضليات ج ١ ص ٥١ •

(٣) المرار الفقعسى • عيون الاخبار ج ٤ ص ٤٥ •

فقد وافق المرار ثعلبة فى أن الغنى والفقر وحدهما لم يكونا المقياس لحب النساء ولكنه أوضح كيف أن مجاراتهن ومماشاتهن تجذبهن ، فهو يرى أن التفنن فى مجاراتهن والملاينة والملاطفة فى معاملتهن هى الوسائل الفعالة فى كسب قلوبهن • ولم ير المرار سرعة التقلب فى أخلاقهن كما رأى ذلك ثعلبة • وقد خالف هذين الشاعرين علقمة الفحل الذى تعرض لوصف طباعهن وادعى أنه انما يعرض ذلك عنهن عرض عالم بشئونهن طبيب بأدوائهن قال :

فان تسألونى فى النساء فاننى ... بصير بأدواء النساء طبيب

اذا شاب رأس المرء أو قل ماله ... فليس لـــه فى ودهن نصيب

يردن ثراء المال حيث علمنه ... وشرخ الشباب عندهن عجيب(١)

فهو يرى أن الذى يستهوى النساء ان هو الا الشباب والفتوة أولا ثم المال والثروة بعده • والشباب قمة مجد الحياة ، وعنوان نضارتها ، وفيه الجمال والقوة وهما أغلى ما فى الحياة ، ولهذا كان أمر الشباب عندهن عجبا • أما المال فان كسبه كان ولا يزال أسهل مقياس لاختبار قوة الرجل وحيلته ، وأدعى الظواهر الى اجتذاب القلوب والانظار(٢) وقد وافق امرؤ القيس علقمة موافقة تامة فى تحليله طبائع النساء فى قوله :

أراهن لا يحببن من قـل ماله ... ولا من رأين الشيب فيه وقوسا(٣)

كما وافق عامة الشعراء علقمة مع شىء من الاختلاف فقال أوس بن حجر :

---

(١) علقمة الفحل ــ الاغانى ج ٢١ ص ١١ ، عيون الاخبـار ج ٤ ص ٤٥ ، نهاية الاريج ٣ ص ٦٦ مواشم الادب لجعفر العلوى ج ١ ص ١٥٠ •

(٢) العقاد هذه الشجرة ص ١٢٨ •

(٣) امرؤ القيس ــ ديوانه ص ١٠٩ • قوس = انحنى حتى صارت مثل القوس •

تنكرت منا بعد معرفة لمى وبعد التصابى والشباب المكرم (١)

فقد تجاهلته بعد ان كبر وفقد شبابه الغض المكرم وحيويته وتصابيه . وهكذا قال لبيد عن محبوبته : أنها تنكرت له قائلة « كفى الشيب بالمرء قاتلا اذا نزل به »(٢) وقالوا انه يسوء الغوانى أن يرين بياض الرأس (٣) وان الشيب يريبهن(٤) ويروعهن(٥) . ولهذا وصفوهن بأنهن اذا ما رأين الشاب سارعن الى تحيته والترحيب به ، وبعكس ذلك اذا ما كبر ولاح الشيب فى مفارقه صرن لا يسألن عما به ، فاذا صادفنه صددن عنه بوجوههن وأبصارهن(٦) قال الاعشى :

وأرى الغوانى حين شبت هجرننى أن لا أكون لهن مثلى أمردا
ان الغوانى لا يواصلن امرءا فقد الشباب وقد يصلن الامردا (٧)

والمحب الذى كانت تهجره حبيبته لشيبه تبعث فى نفسه بسبب ذلك ألما ممضا وأسفا على شبابه كما ذكر ذلك سلامة بن جندل .

تقول حين رأت شيبى ولمته شمطاء بعد بهيم اللون غريب
أودى الشباب حميدا ذو التعاجيب أودى وذلك شأو غير مطلوب(٨)

---

(١) أوس بن حجر ـ ديوانه ص ٤٣ .
(٢) لبيد ـ ديوانه ص ٥٧ .
(٣) الاعشى ـ ديوانه ـ القصيدة رقم ٦٣ .
(٤) المصدر السابق القصيدة رقم ٢٢ .
(٥) عبد المدان ـ شعراء النصرانية ص ٨٧ .
(٦) الاسود بن يعفر ـ ديوانه ـ القصيدة رقم ١ .
(٧) الاعشى ـ ديوانه ـ القصيدة رقم ٣٤ .
(٨) سلامة بن جندل ـ ديوانه ص ٧ ، شعراء النصرانية ص ٤٨٧
الغربيب = الحالك السواد . المزايلة = المفارقة . فأصبحن الخ = لا يعرفن الا خلقى وبياض شعرى .

وقد حكى زهير بن أبى سلمى عنهن كيف كن يسألن من تقدم به السن أن يلتزم جانب الوقار ويعرضن عن لهوه ومزاحه • يقول عنهن :

وقال الغوانى انما أنت عمنا وكان الشباب كالخليط نزايله

فأصبحن ما يعرفن الا خليقتى والا سوادالرأس والشيب شامله(١)

وهذا ما جعل الشعراء يمسكون بأنفسهم عن اللهو عندما تتقدم بهم السن(٢) وان كان منهم من يشعر بميله الى التصابى فى هذا العهد لما كان يحس به من حيوية ومرح(٣) • والمحبوبات أنفسهن كثيرا ما استنكرن على المحب شيبه(٤) فقد صور عنترة عبلة وهى ترى بياض رأسه ذنبا لا يغتفر •

ذنبى لعبلة ذنب غير مغتفر لما تبلج صبح الشيب فى شعرى(٥)

ومن هذا الاستعراض الشامل يتضح كيف ان الشباب ، الذى هو عنوان الحيوية الجنسية ، كان ذا أثر فعال فى الحب فى بلاد العرب ، البلاد التى تعتبر بحق منبعا للفروسية والشجاعة والبطولة العالية ، وكيف كانت الغانيات الراشقات المرشقات الفاتنات مفتونات بالشباب ، يعجبن به • وهذا مما بعث فى نفوس أبناء الجزيرة القوة والحياء والجلد والصبر عند تحمل الصعاب ولهذا أنكر الشعراء على أنفسهم الشيخوخة ونفضوا عنهم ما تجلبه من غبارها فأظهروا أنفسهم لمحبوباتهم بمظهر القوة التى لم تنتقص •

الا زعمت بسباسة اليوم اننى كبرت وأن لا يحسن اللهو أمثالى

---

(١) زهير بن أبى سلمى ـ شعرا ءالنصرانية ص ٥٧٤ ـ ٥٧٥ •
(٢) النابغة ـ شعراء النصرانية ص ٦٥٨ •
(٣) عبيد ـ جمهرة أشعار العرب ص ١٠٠ •
(٤) الاعشى ـ ديوانه القصيدة ١٠٣ •
(٥) عنترة ـ ديوانه ص ١٢٣ •

بلى رب يوم قد لهوت وليلة بآنسة كأنها خط تمثال
كذبت لقد أصبى على المرء عرسه وأمنع عرسى أن يزن بها الخالى (١)

فهو يقابل زعمها بالتكذيب الصريح ويؤكد لها قوته وشبابه وسحره لألباب النساء . ونجد منهم جماعة يأسفون على شبابهم ويتمنون أن يعود اليهم (٢) وهكذا حاول الشعراء ، الذين ذكروا الشيب ، أن يعتذروا عنه بأساليب مختلفة فالاعشى يقول « ان الشباب ثوب معار غير دائم » (٣) كما شبه كعب بن سعيد الغنوى الشيب بغائب لابد له من أوبة (٤) .

وكان الاعشى يتسلى بذكر أيام شبابه عندما كان يخاطب الحبيبات (٥) ويذكر لهن كيف كانت لمته سوداء كجناح الغداف وكيف أنه استبدل ذلك اللهو فى شبابه بالحكمة (٦) . وهكذا فعل عروة بن الورد اذ خاطب محبوته بقوله :

فما شاب رأسى من سنين تتابعت طوال ولكن شيبته الوقائع (٧)

كما أظهر البعض لهن أن نزول الشيب بهم لم يغير فيهم من عزمهم أو كرمهم فذكر لبيد مثلا أنه يستطيع أن يكره خصمه وأنه كان جوادا (٨) واستنكر المرار بن منقذ استغراب خولة من شيخوخته فأظهر لها عدم اكتراثه بزوال شبابه ، لانه ما زال ماجدا كريما اذ قال :

---

(١) امرؤ القيس ـ ديوانه ص ٢٨ ، العقد الثمين ص ١٥٢ .
(٢) الاعشى ـ ديوانه ـ القصيدة رقم ٣٤ .
(٣) المصدر السابق ـ القصيدة رقم ٩٣ .
(٤) كعب بن سعيد الغنوى : شعراء النصرانية ص ٧٤٦ .
(٥) الاعشى ـ ديوانه ـ القصيدة رقم ٣٩
(٦) المصدر السابق رقم ٨
(٧) عروة بن الورد ـ ديوانه ص ٦٤ .
(٨) نفس المصدر ـ ص ٣٩ .

عجبـــا خـولـة اذ تنـكرنى ... أم رأت خولة شـيخا قد كبر
وكسـاه الدهر شـــيبا ناصعا ... وتحنى الظهر منـــه فأطـر
ان ترى شـيبا فانى مـاجـد ... ذو بـلاء حسـن غـير غمر
ما أنا اليوم عـلى شىء مضـى ... يا ابنـة الاقوام ولى بحسـر(١)

واعتذر دريد بن الصمة عن شيبه بعلو همته التى كانت مثل الصارم الذكر وجنانـه الثابت ورأى عبيد بن الابرص أنه استبدل بالشباب وقارا فصار يدل على الملوك العظام(٢) • قال نفر بن قيس يصور استنكار بهيسة لشيب رأسه بقوله :

ألا قـالت بهيســـة مـــا لنفر ... أراه غـــيرت منـــه الدهور
وأنت كذاك قـد غيرت بعدى ... وكنت كأنك الشعرى العبور (٣)

فقد بكى الشعراء مع هذا شبابهم لهن ، ومن لا يبكى الشباب ولا يتمنى رجوعه اذ فيه القوة والجمال والحياة وفيه ما فيه • قال سلامة بن جندل :

ياخَدُ أمسَى سواد الرأس خالطه ... شيب القذال اختلاط الصفو بالكدر
ياخَدُ أمسَت لبانات الصبا ذهبت ... فلست منهـــا عـلى عـين ولا أثر
كان الشباب لحاجات وكن لـــه ... فقد فرغت الى حاجاتى الاخر (٤)

ونجد الشعر صور المرأة وهى تمجد الشباب وتهتف فى كل حين باسمه • قال بعض الشعراء :

كفـاك بالشـيب ذنبا عنـــد غانية ... وبالشباب شفيعا أيهـــا الرجـــل

---

(١) المرار بن منقذ ـ المفضليات ج ١ ص ٢٧ •
(٢) عبيد بن الابرص ـ شعراء النصرانية ص ٦١٢
(٣) نفر بن قيس ـ الحماسة ج ٢ ص ٦٤ وأنت الخ ـ ما تنكرينه موجود فيك فقد كنت كالشعرى اشراقا •
(٤) سلامة بن جندل ـ عيون الاخبار ج ٤ ـ شـعراء النصرانيـة ص ٤٨٦ • اللبانة ـ الحاجة من غير فاقة بل من همة •

ومن صفات المحبوبة الدلال وهو أسلوب تنهجه المرأة بدافع فطرتها لتتحسس بقيمتها فى نفس المحب وقد لا يرغب فيه الرجل أحيانا لما فيه من تخالف وامتناع ، ولهذا شكاه البعض :

أتاركة تدللها قطام ... وضنا بالتحية والسلام (١)

والدلال ضرب من فن التميل الفن الذى برعت فيه النساء ، ومن ألوانه تغير الطباع، وتنوع المعاشرة، وخلف المواعيد، والهجران. وكم تمنى الشعراء ألا تبتعد عنهم الحبيبات اذ طلبوا وصالهن وشكوا هجرهن كأنهم لا يعلمون ان ذلك من صميم خلقهن :

ألا ان هذا أمْسِ رث جديدها ... وضنت وما كان المتاع يؤودها
فلو أنها من قبل جادت لنا به ... على العهد اذ تصطادنى وأصيدها
ولكنها ممن يميط بوده ... بشاشة أدنى خلة تستفيدها (٢)

وبخل المرأة نتيجة لطبيعتها وفطرتها فهى تعتصم بالاحتجاز ، لانها هى فى ذاتها جائزة يسعى للحصول عليها المحبون ، ومتى بلغ الاحتجاز عندها مبلغه بلغت أخلاقها غايتها . ولان هنالك فرقا بين حب الرجل وحب المرأة ، لهذا تسامى الرجل فى حبه وتعبيره أحيانا . أما المرأة فحبها مكتوم يتوارى عن الانظار . وحب الرجل ينبع من العزيمة وحبها من الاحساس، وحب الرجل يدعوه الى المجد اذ يحفزه على السعى والظفر ، وحب المراة يطلب الحماية ، وحب الرجل سكون بعد جهاد وحبها شغل شاغل ، ولو أن كلا منهما يسعى الى السرور الا أن الرجل هو الذى يتقدم اليه ويدفع ثمنه. فكما أن الدلال من آثار التصنع والرياء عند المرأة كذلك خلفها المواعيد من نتائج دلالها . وقد تزمت من خلفها مواعيدها الشعراء فى حين أنها تمارس

---

(١) النابغة الذبيانى ـ ديوانه ص ٥٦

(٢) المثقب العبدى ـ شعراء النصرانية ص ٤٠٩ المتاع ـ الوداع . يميط ـ يميل . الخلة ـ الصداقة .

طبيعة من طباعها . قال أبو الذيال الهذلي :

لا الدهـــر فان ولا مواعـــدها تأتى فليت القتـــول لـم تعـــد
وعـــدا محاصلـــه الى خلـــف ذاك طلاب التضليل والنكـد (١)

وشبهوا مواعيدها « بمواعيد عرقوب أخاه بيثرب(٢) » فطلب المثقب العبدى من حبيبته أن تكف عن مواعيدها الكاذبة(٣) . ورأى ثعلبة المازنى أن خلفها المواعيد أمر لا يمكن علاجه ، لانه من طبيعتها وطبيعة حبها الذى لا يدوم فسمح لنفسه أن يهجرها ان خالفته(٤) . ومن طبيعتها الحرمان وقد شكاه الشعراء لان الوصال فى نظرهم الحياة الهانئة ، والحظ الرفيع ، والسرور الدائم ، وقد كان منتهى أمانيهم(٥) ومع هذا فالنساء وان اتفقت طبائعهن وصفاتهن فى امور كثيرة الا أنهن يختلفن فيما بينهن كما ذكر طفيل الغنوى :

ان النســـاء كأشـجار نبتن معـا منهـــا المرار وبعض المر مأكـول
ان النســـاء متى ينهـين عن خلـق فانـــه واقـــع لابـــد مفعـــول
لا ينصـرفن لرشـد ان دعـين له وهن بعـــد ملائيم مخـــاذيل(٦)

فطباعهن تختلف فى أشياء وتتفق فى أشياء ، تختلف فى كل شىء ذاتى خاضع للتربية والمحيط وتشترك فى صفات الانوثة من حيث أنهن نســـاء

---

(١) ابو الذيال الهذلى ـ طبقات الشعراء لابن سلام ص ٧٣ .
(٢) علقمـة الفحل ـ ديوانه ص ٨٧ ، الشماخ ـ ديوان الصبابة ج ٢ ص ١٢ .
(٣) المثقب العبدى ـ شعراء النصرانية ص ٤٥٥ .
(٤) ثعلبة بن صفير المازنى ـ المفضليات ج ١ ص ٥١ .
(٥) على بن حزم ـ طوق الحمامة ص ٥٥ ـ ٥٦ .
(٦) الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ١٧٣ ، عيون الاخبار ج ٤ ص ١١٣ ، الاغانى ج ١٥ ص ٣٢ ، أخبار النساء ص ٨٠ ، نهاية الارب ج ٣ ص ٣٨ (ويشابهه قول كعب بن مالك) .

واجبهن فى الحياة القيام بدور الانوثة فقد اندفعن بطبائعهن الانثوية الى المخالفة وفعل ما نهين عنه فقد يكون الدافع لهن على ذلك اجتذاب الانظار اليهن أو كسب الرعاية ، وقد يخالفن فيما لامصلحة مقصودة لهن فيه، وقد شاع ذلك عنهن حتى قيل « ما نهيت امرأة عن شيء الا أتته » واختلفن فى امور فمنهن المبالغة بدلها الشديدة الامتناع الشحيحة الموافقة ومنهن السهلة الطبع غير المبالغة فى مخالفتها وامتناعها . وقد يحس الشاعر ذلك فيهن . قال الاعشى :

وفى الحى من يهوى لقانا ويشتهى ... وآخر من أبدى العداوة مغضب
فما أنس ملأشياء لا أنس قولها ... لعل النوى بعد التفرق تصقب (١)

وطبيعة المحبوبة التى صورناها تختلف فيها نساء المدن عن نساء البادية من بعض الوجوه فحب المال، عندالرجل، قد تكون فتيات المدن أكثر تعلقا به هذا ما نجده فى شعر المدنيين، اذ البدويات لا ينظرن للمال نظرة الحضريات على أنهن يعجبن كل الاعجاب بالشجاعة والفروسية وما يتصل بها من النخوة والكرم والاسراع لدفع الخطر اذا أبدى ناجذيه ، على أن شرخ الشباب عجيب عندهن ، حضريات وبدويات ، كافة .

٥ ـ تأثير الحبيبة فى وجدان الشاعر :

لم يمر بالادب العربى عصر من العصور لم يكن الحب فيه ينبوعا من ينابيعه (٢) فالشعر الجاهلى القديم فى البادية ، بصوره التقليدية ، ولغته المتقنة ، وتشبيهاته القوية ، وبحوره الدقيقة ، وأوزانه الرصينة ، كانت كل قصيدة من قصائده ، تقريبا ، تفتح باسم حبيب ، تغنى باسمه ، أو وصف لمنازله وديارة ، أو وقوف لوداعه أو بكاء لفراقه أو ذكر لاى شأن من شؤونه . وكان هذا كما سبق انذكرنا ، تقليدا فى الجاهلية ثم نهج كثيرون

---

(١) الاعشى ـ ديوانه القصيدة رقم ٣٠ . تصقب ـ تدنو .
(٢) جب ـ تراث الاسلام ج ١ ص ١٦١ ـ ١٦٢ .

من الاسلاميين عليه • ولم يكن ذلك الا لمـــا للحبيبة من أثر فى نفوس الشعراء والسامعين •

تحدث الجاهلى عن تأثير الحبيبة فى عقله وقلبـه فقـــال : انها سلبت عقـــله ،(١) وذهبت به كله(٢) ، وأودت بالقلب(٣) بل خالطت القلب فشغف بها(٤) فهى فتنـة فتن بهـا الرجل(٥) فاصطادت فـــؤاده (٦) ورمت بسهام لحاظها فاصابته(٧) وان ذرفت عيناهـا فانمـا لتضرب فى اعشار قلب المحب المقتل(٨) قال الاسود بن يعفر :

والبيض يرمـــين القلوب كانهـــا أدحى بين صريمـــة وجمـــاد
ينطقـن معروفا وهـــن نواعـــم بيض الوجوه رقيقة الاكبـاد (٩)

وصف الشعر الجاهلى الحبيبة بأنها تستولى على عقل المحب وقلبـــه وهما كل المرء ، فما المرء الا عقله وقلبه • ولهذا فانها اذا ما ظعنت انحدر القلب

---

(١) الاعشى : ديوانه ـ القصيدتان رقم ٣٠ ، ٧٧ •
(٢) طرفة بن العبد : ديوانه ص ٣٨ •
(٣) الاعشى : ديوانه ـ القصيدة رقم ٣٨ •
(٤) المصدر السابق ـ القصيدة رقم ٧٨ •
(٥) المصدر السابق •
(٦) المصدر السابق : القصيدة رقم ٨٠ •
(٧) امرؤ القيس : ديوانه ص ٦٩ •
(٨) المصدر السابق : المعلقة ، العمـــدة : ج ١ ص ١٥٥ • قال الاصمعى : أغـزل بيت قالتـه العرب ، قـول امرىء القيس : « ومـا ذرفت عيناك الخ ••• » •
(٩) الاسود بن يعفر : ديوانه القصيدة رقم ٢٥ •

فى اثرها غدوة وهى ظاعنة[١] .

أمـــــرخ خيامهـــم أم عشر أم القلب فى أثرهم منحـدر [٢]

وتترك فى الصدر صدعا لا تجبره اليد الصناع [٣] .واذا حل بالمحب ليله لا تتركه ذكرياتها يحلو له نوم أو يطيب وسن ، اذ كيف ينام وقـد صادت قلبه وبانت به قال الاعشى :

نام الخلى وبت الليـــل مرتفقـا أرعى النجوم عميـدا مثبتا أرقـا
أسهـو لهمى ورائى فهى تسهرنى بانت بقلبى وأمسى عندها علقـــا
يا ليتها وجدت بى ما وجدت بهـا وكان حب ووجـــد دام فاتفقـا
لا شىء ينفعنى من دون رؤيتهـــا هل يشتفى وامق مالم يصب رهقا[٤]

فهى سبب سهره لانها سلبت قلبه فأصبح معلقا بها[٥] . ومع هـذا الحب والكلف لم تشعره هى بشىء من حبها . فهو يتمنى أن تجد من الحب مثل ما يجد ، فيتفق الجنان معا وتتحقق السعادة . واذا أخلص المحبان فى حبهما أصبح الحب رباطا قويا لا يستطيع الوشاة والمغرضون فكه ، عمـلوا ما عملوا ، فللحب سلطان على القلوب لا يعدله سلطان ، ووشايات الواشين لا تزيده الا قوة ورسوخا . قال علقمة :

اذا ألحـــم الواشـون للشـر بيننـا تبلغ رس الحب غير المكذب [٦]

واذا كان أهم ما اتصفت بـــه الحبيبة فى البيئـة الجاهليـة الامتنـاع

---

(١) الاعشى ــ ديوانه ــ القصيدة رقم ٣٠ .
(٢) امرؤ القيس ــ ديوانه ص ٥ ، العقد الثمين ص ١٢٦ أأنجدوا أم أغاروا أم القلب يصبو اليهم .
(٣) الاعشى ــ ديوانه ــ قصيدتاه رقم ٤ و ٢
(٤) المصدر السابق قصيدة رقم ٨٠
(٥) المصدر السابق
(٦) علقمة ديوانه ص ٨٥ .

والاحتجاز والابتعاد عن المحب ، صيانة للنفس ، وخشية من العار ، فإن الشعراء المحبين أجمعوا على وصفها بأنها هم للنفوس وغرض سام يريدون الوصول اليه (١) . فهى تسهر المحبين (٢) ، وهى موضوع أحاديثهم . (٣) واذا ابتعدت عنهم ألهبت فى نفوسهم نار الشوق ، وتمنوا اللحاق بها على ظهر ناقة ضامرة مسرعة وهى الناقة التى وصفوها بأنها مصرمة ، أجد الفقار (٤) وهى الجلدية (٥) والجسرة (٦) والشدنية (٧) وقد أبدع علقمة الفحل فى وصفها أيما ابداع :

تلاحظ السوط شزرا وهى ضامرة
كما توجس طاوى الكشح موشوم (٨)

ولا عجب ، بعد أن صور الشاعر التأثير العميق الذى للحبيبة فى وجدانه ونفسه ، أن يقول : انه يجد فى وصالها نعيما دائما ، وظلا باردا ، وهناء متواصلا ، حتى لكأنها جنة الخلد له :

من نالها نال خلدا لا انقطاع له وما تمنى فأضحى ناعما أنقا (٩)

فالحبيبة هى الحياة وهى العيش الرغيد وهى الدنيا ، فاذا صفت علاقتها بالمحب صفا له دهره وهنىء عيشه وسعد باله ، قال النابغة :

---

(١) الاعشى ـ ديوانه ـ القصائد رقم ٩ ، ٧٨ ، ٨٠ ، طرفة ـ ديوانه ص ٤ لبيد ـ ديوانه ص ٤٠ ، المخبل السعدى ـ المفضليات ص ٤٤ .

(٢) الاعشى ـ ديوانه ـ قصيدة رقم ٨٠ ، طرفة ـ ديوانه ص ٤ .

(٣) الاعشى ـ ديوانه ـ قصيدة رقم ٩ ، طرفة ـ ديوانه ص ٤ .

(٤) أوس بن حجر ـ ديوانه ص ١٤٠ .

(٥) علقمة ـ شعراء النصرانية ص ٤٩٩

(٦) دريد بن الصمة ـ شعراء النصرانية ص ٧٦٢ .

(٨) عنترة العبسى ـ ديوانه ص ٢١٨ .

(٧) علقمة الفحل ـ شعراء النصرانية ص ٤٩٩ . ضامزة ـ ضامة لحييها فلا تجتر .

(٩) الاعشى ـ ديوانه ـ قصيدة رقم ٨٠ .

وقد أراني ونعما لاهين بها
والعيش والدهر لم يهمم بامرار
أيام تخبرني نعم وأخبرها
ما أكتم الناس من حاجي وأسراري (١)

ولعظم أثرها في نفوس المحبين وصفوا الشعور الذي تثيره بالحياة تنبعث من جديد في أجساد الاموات : ـ

يشفي غليل النفس لاه بها حوراء تسبي نظر الناظر
لو أسندت ميتا الى نحرها عاش ولم ينقل الى قابر
حتى يقول الناس مما رأوا يا عجبا للميت الناشر (٢)

وهي تلعب بألباب الرجال حتى الحليم العاقل منهم كما وصف ذلك امرؤ القيس :

الى مثلها يرنو الحليم صبابة
اذا ما اسبكرت بين درع ومجول
تسلت عمايات الرجال عن الصبى
وليس فؤادي عن هواها بمنسل
ألا رب خصم فيك ألوى رددته
نصيح على تعذاله غير مؤتل (٣)

لا بل وحتى الرهبان الذين باعوا نفوسهم لله وعزموا على الانصراف

---

(١) النابغة الذبياني ـ التوضيح والتبيان عن شعر نابغة بني شيبان ص ١٠٩ ، شعراء النصرانية ص ٧٢٤ .

(٢) الاعشى ـ ديوانه ـ القصيدة رقم ١٨ .

(٣) امرؤ القيس ـ المعلقة . اسبكرت ـ امتدت وتم قوامها . الدرع ـ قميص المرأة الطويل ، المجول قميصها القصير . الالوى ـ المستمر في العذل . المؤتل ـ المقصر .

عن نعيم الحياة ولذاتها ، يسحرهم الجمال فينكصون عما وطدوا عزمهم عليه • وغرض الشاعر من ذلك وصف فرط جمالها وشدة تأثيرها قال النابغة :

لو أنهـا عرضت لأشمط راهب عبـد الالـه صرورة متعبـد
لـرنا لرؤيتهـا وحسن حديثهـا ولخاله رشدا وان لـم يرشد (١)

ولشدة تعلق المحب بالحبيبة وهيامه بها يحسب أنها تعلم بما يشعـر ويقاسى فى سبيل حبه ، وقد تلمس ببصيرتها فى الواقع جانبا من ذلك أو جله ان كانت ذكية صادقة الحب ، قال الاعشى :

وقـد علمت بالغيب أنى أحبهـا وانى لنفسى مالك فى تجمل (٢)

والمرأة وان كانت تعرف الرجل الا أن المسلم به أنه أقدر منها على فهم نفسيتها بصورة عامـة ، ويدل على ذلك الروايات التى ألفها الرجال فصوروا فيها المرأة والروايات التى كتبتها النساء فصورن فيهـا الرجال • وقـد أثبت جماعة من الشعراء فى الجاهلية معرفتهم بأحوال النساء كامرىء القيس وعلقمة والاعشى وغيرهم • (٣)

ومما أبدع امرؤ القيس فيه تصوير حبيبته كيف أنها تحس بما فى نفسه من الوجد والحب لها ، وكيف تستطيع أن تلعب بقلبه وعقـله • فصورها وهى تذرف الدمع لتضرب بسهام لحظها فى قلبه المتيم • انهـا تدرك تأثير تصرفاتها فيه بحكم طبيعتها الانثوية • والمرأة تريد دائما أن تشعر بقيمتهـا فى نفس الرجل فتتباكى وتسخط وترضى ، وهى فى كل هذه الاحـوال تكون على أشد ما تكون من اليقظة والانتباه لتلحـظ تأثير ذلك فى نفسه

---

(١) النابغة ـ ديوانه ص ٦٣ ، العقد الثمين ص ١٠ •
(٢) الاعشى ـ ديوانه ـ القصيدة رقم ٧٧ •
(٣) يصح أن نشبههم بـ
Belzac, Tolstoy, Victor - Hugo, Theckery, Meredith, Hawthorne, Hardy. من المعاصرين •

بملاحظة انفعالاته ، واذا ما شعرت بقلة الالتفات منه حفظت ذلك فى نفسها فلا تنساه وعاتبته عليه • قال امرؤ القيس :

أغـــرك منّي أن حبـــك قـــاتـــلى
وأنـك مهمـــــا تأمـــرى القلب يفعـــل
ومـــــا ذرفت عينـــاك الا لتضـــربى
بسهميك فى أعشـــار قلب مقتـــل (١)

ونرى مما سبق أن الحب الذى أوقدته المرأة فى نفس الشاعر الجاهلى كان حبا صادقا فعالا فى النفوس وبلغ فى أحيـان القمـة فى التأثير اذ أدى الى التضحية الغالية وكانت عاقبته أحيانا هيام شديد أو موت فى سبيل الحب • والدلائل على صدق الحب الذى أثارته المرأة فى نفس الشاعر الجاهلى كثيرة جدا منها :

أ ـ قصص المتيمين من الشعراء ـ فليس للمحب الذى لا ينال غير الحرمان الا أن يستسلم الى الضنى والسهاد أو يتدرع بالصبر • والصادق فى حبه المرهف الحس يكون أقرب الى المذهب الاول وهكذا وجدنا جماعة من الشعراء لفظوا آخر أنفاسهم ، على ما ذهبت اليه الروايات ، على مذبح الحب الصادق ، ورضوا بالموت واختاروه على الحيـاة فى كنف الحـــرمان والهجران وهؤلاء هم شهداء الحب • والمشهور منهـم ثلاثة المرقش الذى أحب ابنة عم له ، ولكن والدها زوجها من أحد الموسرين ليستعين بزواجها على معالجة ضائقة مالية حلت به • بيد أن حب الفتاة تغلغل فى قلب المرقش لأنها استولت على شعوره كله ، فانتهت حيـاته بموته حـزنا وكمدا • (٢)

---

(١) امرؤ القيس ـ المعلقة •

(٢) الاغانى ج ٥ ص ١٨٩ ، الشعر والشعراء ص ١٠٢ ، خزانة الادب ج ٣ ص ٥١٤ ، جمهرة أشعار العرب ص ٥١١ • شـعراء النصرانية ص ٢٨٢ •

وثانى المشهورين من المتيمين عبد الله بن العجلان(١) . وثالثهم مالك بن الصمصامة الذى استهوته جنوب بنت محصن الجعدى فملكت شعوره واحساسه ولكن أخاها لم يرض أن يزوجها منه حتى قتله حبها .(٢) هذا الحب الذى كانت تثيره بنات الجزيرة كان حبا صادقا ممتازا صريحا كفجر الصحراء طاهرا كقطر الندى ثابتا كالطود عميقا كنبع الماء فى الصخر الاشم . وكان هذا الحب كتوما صامتا صموت الغار . فقد روى ان المحب منهم فى بعض الاحيان كان يذبل من فرط الهوى ويموت ثم لا يبوح باسم من يهواها خشية أن يصيبها أذى . وكانت القيود الاجتماعية هى التى الزمت أن يكون طابع الكتمان(٣) شعار حبهم ، والحرمان جزاء من اشتهر بحبه منهم . وهذا مما دعا الى ظهور لون مثالى من الحب عندهم عرف بالحب العذرى(٤) كان شبانهم يفاخر بعضهم بعضا به .

وقد ذاعت هذه القصص والاخبار التى تصور الحب الخالص المثالى الممتاز ، وأخذ الخلف يتناقلها عن السلف فكانت جزءا من القيم الروحية للشعب العربى .

ب ـ حرارة العاطفة والثبات فى الحب : ومن الدلائل على صدق الحب الجاهلى حرارة الحب والثبات فيه الذين يصورهما الشعر الجاهلى . فالمحبوبة هى غاية المحب فلا ينفعه دونها شىء ولا يلهيه عنها أمر قال الاعشى :

لا شىء ينفعنى من دون رؤيتها هل يشتفى وامق ما لم يصب رهقا (٥)

---

(١) الاغانى ج ١٩ ص ١٠٢ ، الشعر والشعراء ص ٤٤٩ .

(٢) الاغانى ج ١٩ ص ٨٣ .

(٣) الاغانى ـ ج ٢ ص ٨١ .

(٤) مارسيل تينر ـ تاريخ الحب ص ٦٤ ـ ٦٥ . يراجع كتاب « الحب العذرى » لاحمد عبدالستار الجوارى .

(٥) الاعشى ـ ديوانه ـ القصيدة رقم ٨٠

وكلما حاول أن ينساها لم يستطع ذلك (١) ، فان سافرت جد به الوجد والهيام ورغب فى اللحاق بها(٢) ، وان أبعدت بينهما الايام ونسى ما نسى فلا ينساها :

وكل محب أحدث النـاى عنده
سلو فؤاد غير حبك ما يسلو (٣)

فهى محبوبة مقيمة وظاعنة ويستمر حبها فى أعماق الزمن ما شاء له أن يستمر • قال الاعشى :

وفارقتك برهن لا فكاك لـه يوم الوداع فامسى الرهن قد غلقا (٤)

وكان من آثار الصدق فى الحب وحرارة العاطفة والثبات فيه هذا النحول والسقام والضنى(٥) الذى أكثر الشعراء من الشكوى منه • فوصفوا حرمانهم النوم ، وهزال أبدانهم ، وتفكيرهم المتواصل فى الحبيبة ، وشوقهم المضنى قال عنترة :

وهيهات يخفى ما أكن من الهوى
وثوب سقامى كل يوم يجدد (٦)

وصدق حبهم أدى الى عدم التكلف فى شعر المتيمين فقالوا شعرهم فى غير تعمل وكان اذا سمعه متيم شعر مثل شعورهم • ومنهم من وصفوا تبريح الهوى بأجسامهم ولم يجعلوا همهم التفنن فى التعبير ، انما كان اسلوبهم واقعيا خاليا من الاغراق فى التخيل والمبالغة فلا نجد فى الشعر الجاهلى صناعة

---

(١) طرفة بن العبد ـ ديوانه ص ٥٠ رواية ابن السكيت •
(٢) علقمة الفحل ـ شعراء النصرانية ص ٤٩٩ •
(٣) زهير بن أبى سلمى ـ ديوانه ص ١٥ مع شرح الاعلم الشنتمرى
(٤) المصدر السابق ص ٣٤ •
(٥) على بن حزم الاندلسى ـ طوق الحماية الالفة والالاف ص ٩٦ •
(٦) عنترة العبسى ديوانه ص ١٨ •

وتمثلا مثل ما جاء فى قول المتنبى مثلا :

كفى بجسمى نحولا أننى رجل لولا مخاطبتى اياك لم ترنى (١)

ولا مثل قول ابن الفارض : « ماله مما براه الشوق في »(٢) انما التعبير الجاهلى تعبير طبيعى لا مغالاة ولا ابتعاد عن الواقع فيه لانه تعبير عن شعور صادق • ومثاله ما جاء فى قول طرفة بن العبد •

يا خليلى قفا اخبركما عن أحاديث تغشتنى وهم
وابلغا خولة انى أرق لا أنام الليل من غير سقم
كلما نام خلى باله بت للهم نجيا لم أنم
منع التغميض عنى ذكرها فهى همى وحديثى والسقم (٣)

والمبالغة كيفما كانت فى شعرهم لا تتعدى الحد الذى جاء فى قول عنترة :

نعيم وصلك جنات مزخرفة ونار هجرك لا تبقى ولا تذر(٤)

ولا حد قولهم : « خلفت فى الفؤاد صدعا تعجز الصناع عن جبره(٥) •

ومن جميل ما يدل عليه الثبات والدوام فى الحب عندهم أن الرجال ، حتى بعد تقدم السن بهم ، كانت قلوبهم رطبة بالحب ، تخف الى صوته وتشتاق الى عهده(٦) • وهذا علقمة الفحل ينازع قلبه فى هواه ويميل به

---

(١) المتنبى ـ ديوانه ج ٢ ص ٤٣٤ شرح عبدالرحمن البرقوقى • جورجى زيدان ـ تاريخ آداب اللغة العربية ج ١ ص ٧٧ •
(٢) ابن الفارض ـ ديوانه ص ٨ (بيروت ١٨٨٨) •
(٣) طرفة بن العبد ـ ديوانه ص ٥٦ • رواية ابن السيكت ومع شرح الاعلم ص ١٤٧ •
(٤) عنترة العبسى ـ ديوانه ص ١١٤ •
(٥) الاعشى ـ ديوانه ـ قصيدتاه رقم ٤ و ١٢ •
(٦) الاعشى ـ ديوانه ـ القصيدة رقم ٢٠ •

الى الاتزان والتعفف وقد لاح الشيب فى مفرقه ، ولكن قلبه الفتى كان لا يزال وفيه طراوة من الحب ونشوة من التصابى • كان طروبا تتحرك فيه أوتار الحب والهوى قال :

طحـــا بك قلب فى الحســان طـــروب
بعيـــد الشـباب عصر حـــــان مشيب
يكلفنى ليـــلى وقـــــد شـــط وليهـــا
وعـــادت عـــواد بيننـــا وخطـوب (١)

ج ـ التضحية والفروسية ـ ومن علامات الحب الصادق الذى غرسته المرأة فى قلب العربى التضحية الصادقة والاستبسال لأجل الحب ، وكـان عنترة العبسى من الذين صوروا تلك التضحية والاستسلام خير تصوير فان حبه واخلاصه جعله يستسلم لحبيبته بدون قيد أو شرط • كما اعتـاد أن يستسلم له الابطال فحبيبته كانت بطل معركة حبه فتقدم اليها قائلا :

المـال مالكم والعبـــد عبدكـــم فهل عذابك عنى اليوم مصروف (٢)

وما كانت فروسية العرب التى هى أم الفروسية العالميـة الا وليـــدة صدقهم فى الحب ، وليدة المرأة العربية قال عنترة :

يا عبل لولا أن أراك بناظـــرى ما كنت ألقى كل صعب منكر (٤)

فالمرأة هى التى كانوا من أجلها ينجزون أعمال البطولة ، ويتحلون بصفات الفروسية الكريمة التى هى الشهامة الحقـة ومن صفاتها الكـــرم والشجاعة وحماية الجـــار والاباء • وكان للفـــروسية آثار فى اخـــلاق

---

(١) علقمة الفحل ـ ديوانه ص ٢ طبعة الجزائر • طحا ـ اتسع وذهب كل مذهب • بعيد الشباب ـ فى اثر ذهابه• شط وليها ـ بعد عهدها عواد ـ شواغل •

(٢) عنترة العبسى ـ ديوانه ص ١٦٥ جمع يوسف توما البستانى

(٤) عنترة العبسى ـ ديوانه ص ١٢٦ •

العرب كافة • وقد أوضح عمرو بن معد يكرب أثر الحبيبة فى استبساله ساعة الحرب وكيف تخلق منه بطلا غير هياب :

لمـــا رأيت نســـاءنـا يفحصن بالمعـزاء شـــدا
وبـــدت لميس كأنهـــا بـدر السـماء اذا تبـــدى
وبـدت محاسنهـا التـــى تخفى وكان الامـــر جـــدا
نـازلت كبشهـم ولـــم أر من نـزال الـكبش بـــدا(١)

فالحزم كان فى كثير من الاحيان من صنيع المـرأة تبعثه فى نفس الرجل وقد أوضح الاعشى ذلك فى قصائد كثيرة له منها قوله :

ولـــو أن دون لقائهـــا جبـــلا مزلقـــة هضابـــه
لنظـرت أنـــى مرتقـــا ه وخـير مسلكـــه عقابـه
لأتيتهـــا ان المحـــب ب مكلف دنس ثيابـــه (٢)

وكان لأباء الحبيبة وتمنعها أثر بعيد فى الشعر وفى الخلق العـام • فاباؤها هو الذى الهب العواطف وجعلها نارا لا يخبو أوارها وعينا صافيـة لا ينقطع نميرها وما هذا القدر الكبير من الانتاج الشعرى فى الغزل والنسيب الا من آثار العفة التى تدرعت بها المرأة والحشمة التى صانت بها كرامتهـا فصار المحب الجاهلى يشعر فى كل حين بأنه فى حاجة الى أن يتودد اليهـا فيخطب رضاها ويكسـب عطفهـا • ولو تبذلت المرأة فلانت واسـمحت لخبت جذوة الشعر ونضب معينه • فامتناع المحبوبة هو سر هذه الحرارة فى

---

(١) عمرو بن معد يكرب ـ الحماسة لابى تمـام ج ١ ص ٤٢ • يفحصن ـ يؤثرن • المعزاء ـ الارض الصلبة • بدت من الرعب • الكبش ـ الرئيس •

(٢) الاعشى ـ ديوانه ـ القصيدة رقم ٥٤ • خـير مسـلك ذلك المكان العقاب •

الحب وصدق الشعور فى القصيد وهذا الفناء فى سبيل العشق والهيام • قال طرفة :

قضى نحبه وجدا عليها مرقش وعلقت من سلمى خبالا اماطله(١)

نعم كانت الحبيبة بل كان حبها ألما ممضا ، وبكاء عاليا(٢) وحزنا ، وشغفا وهياما(٣) وجنونا مستعرا(٤) • وكم أسهرت الحبيبة المحبين فقضوا لياليهم الطويلة يرعون نجومها • فلا غرو اذا ما استهانوا بالموت وتمنوه • قال قيس بن الحدادية :

وان الذى أملت من أم مالك أشاب قذالى واستهام فؤاديا

فليت المنايا صبّحتنى غدية بذبح ولم أسمع لبين مناديا(٥)

وكثيرا ما وازنوا بين حياة الحب والموت الهادىء ففضلوا الموت على الحياة لشدة ما كان يقاسيه المحب من ألم الحرمان • قال طرفة :

لعمرى لموت لا عقوبة بعده لذى البث أشفى من هوى لا يزايله(٦)

والحب الذى خلقته المرأة العربية كان حبا ساميا بالنسبة لما كان موجودا عند الامم الاخرى(٧) • لانه يهدف الى مثل عليا وقد دفع بالمحب الى أن يتسامى ويأتى بباهر الاعمال(٨) ويتضح ذلك من المقارنة بين التضحية للمحبوبة عند

---

(١) طرفة بن العبد ـ ديوانه ص ٣٨ رواية ابن السكيت •

(٢) امرؤ القيس ـ ديوانه ـ ص ٤ ـ ١٤ •

(٣) الاعشى ـ ديوانه ـ القصيدة رقم ٧٨ •

(٤) طرفة بن العبد ـ ديوانه ص ٦٣ • رواية ابن السكّيت •

(٥) قيس بن الحدادية ـ الاغانى ج ١٣ ص ٧ • أم مالك اسم لفتاة مثل ام كلثوم • القذال ـ جماع مؤخرة الرأس •

(٦) طرفة بن العبد ـ ديوانه ص ١١٨ ـ ١٢٠ مع شرح الاعلم الشنتمرى •

(٧) Blunt: The Seven Golden Odes P. 11

(٨) عنترة العبسى ـ ديوانه ص ٢٩ •

العرب والتضحية عند الاوربيين المعاصرين لهم(١) • وقد أدرك العرب بملاحظاتهم الهادئة أن عهد الجمال والحب عهد قصير وان للجمال دولة سرعان ما تدول • قال عنترة يغرى بانتهاز فرصة الجمال والفتوة •

عبلة أيام الجمال قليلة لها دولة معلومة ثم تذهب(٢)

وكانت الحبيبة تثير فى نفس المحب اهتمامه الكبير بشأنها ولهذا نجدها موضع عنايته يتوجه اليها بجليل أعماله • قال عنترة يمتدح لحبيبته صبره :ـ

اذا لعب الغرام بكل حر حمدت تجلدى وشكرت صبرى
وفضلت البعاد على التدانى وأخفيت الهوى وكتمت سرى
ولا أبقى لعذالى مجالا ولا أشفى العدو بهتك سترى (٣)

فقد صور لها صبره وتجلده واحتماله البعاد ان كان فيه ستره وصيانته وقدرته على الكتمان لحبه وقطعه ألسنة العاذلين بعدم افساح المجال لعذلهم وصيانته عرضه أمام الخصوم • وكل هذه الصفات مما ترغب فيه المرأة لأنها من صفات الرجولة الصحيحة •

وكان لساعات الوداع ـ وما أكثرها فى الجزيرة وعند الرعاة ، وحياتهم نجعة وارتحال ـ أثر ملحوظ فى غزل الشاعر • فقد أوحت بالكآبة والبكاء وجعلت غزل الترحل والظعن تفجعا واهتاجت النار فى قلب الشاعر المحب ـ قال الاعشى يصور أثر سفر الحبيبة فى نفسه :

كأن عينى فى غربى مقتلة من النواضح تسقى جنة سحقا (٤)

فكان سفرها عند الاعشى هذه الدموع السخينة الغزيرة ، ونازلة فاجعة عند طرفة اذ قال :ـ

---

(١) Blunt: The Seven Golden Odes P. 14

(٢) عنترة العبسى ـ ديوانه ص ١٥ ـ ١٦ •

(٣) المصدر السابق ص ١١٥ •

(٤) الاعشى ميمون ـ ديوانه ـ القصيدة رقم ٢٣

فجعونى يوم زمـوا عيرهـم برخيم الصـوت ملثوم عطر (١)

وكيف لا يذكر فمها الحلو وصوتها الرخيم فى هذه الفاجعة وهمـا مصدر الفاجعة ورسولها فقد كانت ودعته بعباراتها العذبة الرقيقة التى بقى أثرها فى نفسه حيا ناطقا • ورحيل الحبيبة عند عنترة هروب القلب وفجيعنه ايضا ، قال :

كان فؤادى يوم قمت مودعـا عيلة من هـارب يتفجـع (٢)

فؤاد هذا الفارس يفر من مخدعه ، وينطلق فى أثر الحبيبة من بين أضالعه لكنه الفتى الجلد الصبور ، وهل لصبره مكان أولى من هـذا المكان يظهر فيه وموقف احرى من هذا الموقف يتطلع اليه • قال :

اذا رشـقت قلبى سهام من الصـد وبدل قربى حادث الدهر بالبعـد
لبست لهـا درعـا من الصبر مانعـا
ولاقيت جيش الشـوق منفردا وحدى (٣)

وغير عنترة كثيرون ، يفعل فيهم ظعن الحبيبات ما يفعل فمنهم من كان يبكى كما بكى علقمة الفحل طويلا ذلك البكاء الذى أذاعه فى قصيدته الشهيرة، النبى لقبتها قريش بسمط الدهر الاول ، ومطلعها :

هل ما علمت وما استودعت مكتوم ام حبلها اذ نأتك اليوم مصروم (٤)

أو يبكى بكاء امرىء القيس وبدموع ناقف حنظل ، اذ قال :ـ

كأني غـداة البين يوم تحملـوا لدى سمرات الحي ناقف حنظل (٥)

---

(١) طرفة بن العبد ـ ديوانه ص ٦٣ • رواية ابن السكيت •
(٢) عنترة : ديوانه ص ١٠٣ •
(٣) المصدر السابق ص ٦٥ •
(٤) علقمة ـ شعراء النصرانية ص ٤٩٩ •
(٥) امرؤ القيس : ديوانه ص ١٢٤ سمرات ـ شجرات مـن نوع معلوم • ناقف الحنظل ـ من يشقه بأسنانه •

وهكذا كان الظعن وما فيه من صور ومشاهد واشارات وتلميحات وعتاب والى آخر ما فيه وما فيه ، كان فعلا عميق الاثر فى نفوس المحبين من قالة الشعر الجاهليين اما ماردت عليه النفوس به فهو مختلف • هو الالم (١) أو الذبح والموت (٢) أو الهلاك (٣) أو الشيب (٤) أو التعرض لافتراس الوحوش (٥) أو الجنون (٦) أو اشياء اخرى غير هذه انما جوهرها وخلاصتها لا يختلف عن هذه ابدا ، والشعر طافح بها (٧) •

وكثيرا ما ذكروا الغراب ونعيبه اذ ذكروا ظعنهن ، والعرب تتشائم منه (٨) ، وأطالوا فى وصف آلامهم • وأظهروا حنينهم الى الخبية على بعادها (٩) ، وكرهوا المكان الذى كانت تحل فيه ،(١٠) وتشوقوا الى المنازل الاخرى التى حلت فيها وتنوروا نارها عساها تخفف

---

(١) ديوان عنترة ص ١٠٣ •

(٢) قيس بن الحدادية : الاغانى ج ١٣ ص ٧ •

(٣) اوس بن حجر ـ ديوانه ص ٢٠ •

(٤) حسان ـ ديوانه ص ١٢ •

(٥) عروة بن حزام • النوادر ص ١٦٠ ـ تزيين الاسواق ص ٧٧ •

(٦) المفضليات ج ٢ ص ١٤٦ • الايهم ـ المجنون •

(٧) يلاحظ مثلا : طبقات ابن سلام ص ١٠٨ ، ديوان النابغة ص ٥٠ • معجم البلدان ج ٢ ص ١٠٠ ، ٢١٨ •

(٨) تراجع ص ١٠ من هذا الكتاب ، الحيوان ج ٣ ص ٤٣١ ، ٤٤٢ ، لسان العرب ج ١٦ ص ٢١٠ ، القاموس ج ٤ ص ٢٠٤ •

(٩) النابغة ـ ديوانه ص ٥٠ •

(١٠) عبيد : ديوانه ص ١٠ •

احزانهـــم[١] وشاموا البرق مـن ناحيتها[٢] واستروحوا الصبا عـل يردها وروحها يكشفان الغمة عن قلوبهم[٣] واستطالوا غيابها وان قصر[٤] وتمنوا لقياها[٥] ووجدوا نوح الحمام يهيج هيامهم[٦] ومنهم من تجلـد وتدرع بالصبر وكتم عن النـاس همومه لبعدها[٧] ومنهـم من ضرب فى الارض من اجلها[٨] .

وما غفلوا عن وصف حدوجهن وهن ضاعنات وشبهوها بالاحمال على السفين وما قولنا الابل سفن الصحراء بجديد بالنسبة لمـا كانوا يقولون ، قال العبدى :

وهن كذاك حـين قطعن فلجـا كـان حمولهـن على سفـين
يشبهـن السفـين وهـن بخت عراضات الاباهـر والشؤون[٩]

وشبههن امرؤ القيس بالنخيل[١٠]، ومعن بن اوس شبههن بالنخيل وبالسفائن . قال :

---

(١) معجم البلدان ج ٢ ص ٢١٨ .
(٢) المصدر السابق ص ١٠٠ .
(٣) بلوغ الارب ج ٢ ص ٣٧٣ ، نهاية الارب ج ١ ص ٩٥ .
(٤) قيس بن الحدادية ـ الاغانى ج ١٣ ص ٦ .
(٥) الحادرة ـ ديوانه ص ١٤ .
(٦) عنترة ـ ديوانه ص ٦٦ .
(٧) اوس بن حجر ـ ديوانه ص ٢٩ ، عنترة ديوانه ص ٦٥ ، النابغة ، ديوانه ص ٥٣ .
(٨) المفضليات ج ٢ ص ٩١ .
(٩) المفضليـات ج ٢ ص ٨٨ بخت ـ جمال طـوال الاعنـاق . عراضات ـ عريضات . الاباهر ـ الظهور . الشؤون ـ مجارى الدمع .
(١٠) ديوانه ص ١١٧ .

بعينيك راحوا والحدوج كأنها سفائن أو نخل مذللة عم (١)

كما وصفوا جمالهن حين الظعن وذكروا حليهن لان النساء عادة يتجملن حين السفر لانهن يظهرن للعيون • قال المثقب العبدى :ـ

وهن على الرجائز واكنات قواتل كل اشجع مستكين
كغزلان خذلن بذات ضال تنوش الدانيات من الغصون
ظهرن بكلة وسدلن اخرى وثقبن الوصاوص للعيون
وهن على الظلام مطلبات طويلات الذوائب والقرون
أرين محاسنا وكنن اخرى من الاجياد والبشر المصون
ومن ذهب يلوح على تريب
كلون العاج ليس بذى غضون (٢)

وشعراء البوادى أكثر تفننا فى وصف الرحيل وآثاره فى نفوسهم لانه من مقومات حياتهم •

ولشدة تعلق الحبيبات بالمحبين كانت تتوافد عليهم منهن أطياف خيالات اثناء نومهم فتوقظهم ، فمنهم من تتركهم الاحلام ساهرين يعانون طول الليالى وشدة الآلام التى تجلبها لهم ولهذا كانت خيالات الحبيبات بالنسبة لهؤلاء هما وقلقا لانها تذكرهم بالحبيبات وهم يريدون أن يتناسوها كما قال طرفة :

فقل لخيال الحنظلية ينقلب اليها فانى واصل حبل من وصل (٣)

أو لأن الخيال زور يذكر المحب بالواقع المر كما قال المرقش الاصغر :

---

(١) ديوانه ص ٣ •

(٢) المفضليات ج ٢ ص ٨٨ • شعراء النصرانية ص ٤٠٦ • الرجائز ـ مراكب النساء ، واكنات ـ جالسات • الاشجع ـ الطويل خذلن ـ نفرن من القطيع • ذات ضال ـ موضع ، تنوش ـ تتناول • الوصاوص ـ البراقع • وهن الخ ـ مطلوبات على ظلمهن الرجال • الرتيب ـ الصدر • الغضون ـ التخديدات •

(٣) ديوانه ص ٨٨ • أول من ذكر طيف الخيال فى الشعر عمر بن قمئه وأول من طرده طرفة • « تزيين الاسواق ص ٤٩ » •

ولكنه زور يوقظ نائما ويحدث اشجانا بقلبك تجرح (١)

وهذا مسلك عامة الشعراء بالنسبة لطيف خيال الحبيبة الا ان طائفة منهم رأوا فيه بعض الحبيبة ، وشعروا بانه يخفف عليهم احزانهم ، فحاول هؤلاء تصوير الطيف وكأنه شيء واقعي محسوس أو قريب منه • وهذا نوع من الخداع النفسي وهو يستدعي الراحة للنفوس القلقة ومن هذه الطائفة : عنترة وسويد بن ابي كاهل • اذ قال :

ارق العين خيال لم يدع من سليمى فؤادى منتزع
حل اهلى حيث لا أطلبها جانب الحصن وحلت بالفرع
وكذاك الحب ما اشجعه يركب الهول ويعصى من وزع
لا ألاقيها وقلبي عندها غير المام اذا الطرف هجع (٢)

فهو يوهم نفسه بأن حب المحبوبة هو الذي دفعها الى تجشم الصعاب وقطع المسافات لاجل أن تزوره • وبمثل هذا كثيرا ما صرح عنترة • ومنه قوله :ـ

وان طيف الخيال ياعبل يشفي ويداوى به فؤادى الكئيب (٣)

ومن الشعراء طائفة اتجهت الى وصف قدرة الطيف على قطع المسافات واظهروا اعجابهم بذلك(٤) •

واهتمام الشعراء بطيف الخيال دليل على مكانة المحبوبة في نفوسهم

---

(١) المفضليات ج ٢ ص ٤٢ ، شعراء النصرانية ص ٣٢٨ •
(٢) المفضليات ج ١ ص ١٩٣ ، شعراء النصرانية ص ٤٢٩ • الحصن ـ حصن الحضر في بادية كربلاء • الفرع ـ مكان بين الكوفة والبصرة •
(٣) ديوانه ص ٢٦ وتلاحظ ص ٥٣ •
(٤) طرفة : ديوانه ص ٤٦ ، ١١٧ • خفاف بن ندبة : معجم البلدان ج ٣ ص ١٢٢ ، المرقش الاكبر : المفضليات ج ٢ ص ٥٥ •

فالخيالات كانت نوقظهم من نومهم ، وهى ظاهرة لا تحدث الا فى الامور الهامة ذات الاثر البليغ فى النفس .

والاحلام فى ضوء العلم الحديث لها قيمة كبيرة فى الدلالة على المشاكل النفسية والامور العقلية وهى دليل عنـــد بعض العلماء النفسانيين على رقى الشعب الذى تكثر فيه[١] .

٦ ـ صور قصصية :

والشعر الجاهلى غنائى ، كما هو مفهوم ، بجملته الا أن فيه لمحات قصصية ، وهى أقرب الى الواقع منها الى الاساليب الخياليـة التى كانت عند الامم الاخرى اذ لا يجول الجاهلى فيها فى آفاق خياله بعيدة مثـل شعراء القصص عند اليونان أو الفرس مثلا ، كما ليس فيها مـن التفنن الصناعى والخلقى شىء ملموس ذلك لان الشعر القصصى لم ينبت على الوجه الصحيح فى البيئة العربية الجاهلية ، وهذا أمر مسلم به بالنسبة لما وصلت اليـــه الدراسات حتى اليوم .

وأهم ما فى قصص هذا الشعر الجاهلى هو الذى يدور حـول المرأة اذ كان للشعراء مع محبوباتهم قصص ، حرصوا على تخليدها فى أشعارهم اعلاء لشأنهن واظهارا لمـكانتهن من نفوسهم وأهم خصائص هذا القصص الحوار ، وبعض الاخبار المتسلسلة القريبة جدا من الواقع الملموس والقليلة المناظر والالوان ، الامر الذى ترجع عناصره الى البيئة الجاهلية الفقيرة بالنسبة لاختلاف الالوان وتباين الصور . لكن الذى يميز هذا القصص عن الشعر الغزلى فى الجاهلية هو ما فيه من غزل مكشوف ويرجح ان يكون هذا مكتسبا

---

(١) Ellis: Dtudies in the Psychology of Sex P. 300.
Blunt: The Seven Golden Odes P. 13 - 14
Bevan: Woman in Islam P. 6

من غير العرب لانه يخالف الى حد ما ما فى الشعر الجاهلى عامة من تقاليد وآداب متوارثة •

ويجوز أن نعتبر الاعشى ، وامرء القيس ، وسحيم ، والمنخل ، وطرفة أكثر هؤلاء الشعراء اهتماما بهذه التى سميناها باللمحيات القصصية • فقد جاء فى معلقة امرىء القيس ذكر لايام كانت قد مرت به ، ذكرها وبين ما حدث له فيها • من ذلك قوله :

وبيضة خدر لا يرام خباؤها تمتعت من لهو بها غيرمعجل(١)

ثم وصف زيارته لهذه الحبيبة وكيف جازف فى مجاوزة الحراس والاقوام من حولها تحت جنح الليل الدامس حتى دخل عليها خباءها وهى نائمة وخرج بها فى ثياب نومها الطويلة الحريرية والى آخر القصة فتعرض لوصف هذه الحبيبة وتصوير جسدها الناعم وفرعها الطويل الفاحم المسترسل • وكان عرضه لهذه الصورة مما يغرى الشباب ، فيزين لهم مثل هذه الزيارات فى الليل حيث تستفيق بلابل الحب فى نفوسهم ، وتنشط أشواق المحبين ، وتغشى فيه سنة الكرى عيون الرقباء • كل هذا جعل الشعراء من بعده يحتذون امرء القيس فى قصصهم • وامرؤ القيس كثير المرح والمداعبة لمحبوبته متفنن فى استمالتها يقدم لها الطعام فى الاسفار والرحلات وهو كثير الحركة يطبخ ويشوى ومرة يدخل عليها خدرها وهى راكبه ، ويعقر البعير ، وهو الماهر بأسباب اللهو والملاطفة ، ومسلكه مسلك أبناء الاشراف والنبلاء العابثين كما أنه كثير المخاطرة صبور على تحمل الصعاب فى سبيل حبه • ومن قصصه الغرامية قوله :

ومثلك بيضاء العوارض طفلة لعوب تنسينى اذا قمت سربالى
لطيفة طى الكشح غير مفاضة اذا انفتلت مرتجة غير متفال

---

(١) امرؤ القيس ــ المعلقة •

سموت اليها بعد ما نام أهلهـــا سمو حباب المـــاء حالا على حال
فقـالت ســـباك الله انك فاضحى ألست ترى السمار والناس أحوالى
فقلت يمـــين الله أبرح قـاعـــدا ولو قطعوا رأسى لديك وأوصالى
حلفت لهـــا بالله حلفـــة فاجر لناموا فما ان من حديث ولا صال
فلما تنازعنـا الحديث وأســمحت هصرت بغصن ذى شماريخ ميال
وصرنا الى الحسنى ورق كلامنـــا ورُضت فذلت صعبةأىاذلال (١)

أما الاعشى فقد برع فى القصص خاصة فى قصيدته :

أوصلـت صـرم الحبـــل مـن سـلمى لطول جنابهـا (٢)

فوصف فى هذه القصيدة زيارته لمحبوبته على نحو ما عرضه امرؤ القيس ولكنه أضاف للقصة شخصية جديدة هى شخصيّة الرسول الذى وفق لهذه المهمةالدقيقة فبعثه اليها • ومن صفاته أنه كان فطنا متقنا لما تتطلبه مهام الرسالة، وكان صنعا بالحديث وأساليبه اذ عرف كيف يستدرجها فى الحديث وكيف يصل بها الى الغرض الذى جاء من أجله فنجح فى أداء رسالته لانه استطاع أن يأخذ منها موعدا • وبهذا يبدو لنا أن الاعشى أول من اختار الرسول اللبق الماهر فى شعره الغرامى ، وقد أوصى هذا الرسول باللين والحذر فى مكالمة الحبيبة لئلا تنفر منه اذ كان الاعشى مرهف الحس حسن القيادة للحبيبة فقال أنه يستطيع أن يقودها الى ما يريد ، كما يقـود الربان السفينة ثم اسـتمر الاعشى فى القصة فذكر زيارته بعد ما نام الرقيب وتستمر هذه القصة كما فى قصة امرىء القيس • وللاعشى قصيدة رقيقة فى زيارته لحبيبته تعرض فيها لوصف أشواقه وما خلقه الحب فى نفسه من الجرأة الفائقة وعدم الاكتراث فى التضحية من أجل الوصول اليها • ويصح أن نعتبر هذا القصص بادرة

---

(١) ديوانه ص ١٤٠ « شـرح السندوبى » • متفـال ـ كريهـة الرائحة • وتراجع القصيدة فى ص ١١٢ •
(٢) الاعشى ـ ديوانه ـ القصيدة رقم ٣٩ •

أولى للقصص فى الادب العربى احتذاه الشعراء الاسلاميون فيما بعد ، خاصة عمر بن أبى ربيعة • ويظهر تأثر عمر بقصص الاعشى الذى منه :

فبعثت جنيا لنا ... يأتى برجع جوابها
فمشى ولم يخش الانيـ ... ـس فزارها وخلا بها
فتنازعا سر الحديـ ... ـث فأنكرت فنزا بها
عضب السان متقن ... فطن لما يعنى بها
صنع بلين حديثها ... فدنت عرى أسبابها
قالت قضيت قضية ... عدلا لنا يرضى بها
فأرادها كيف الدخو ... ل وكيف ما يؤتى بها
فى قبة حمراء زيـ ... ـنها ابتلاق طبابها
ودنا تسمعه الى ... ما قال اذ أوصى بها
ان الفتاة صغيرة ... غر ، فلا يسدى بها[1]

ومن شعراء القصص الغرامى سحيم عبد بنى الحسحاس الذى شبب بعميره بنت سيده أبى سعيد • ومما قال فيها :

وبتنا وسادانا الى علجانة ... وحقف تهاداه الرياح تهاديا
وهبت شمالا آخر الليل قرة ... ولا ثوب الا بردها ورداثيا
توسدنى كفا وتثنى بمعصم ... علىّ وتحوى رجلها من ورائيا
فما زال بردى طيبا من ردائها ... الى الحول حتى أنهج البرد باليا

---

(١) الاعشى ـ ديوانه ـ القصيدة رقم ٣٩ وتلاحظ القصيدتان ٢٣، ٥١ • صنع ـ رقيق • كيف ما يؤتى بها ـ كيف الاتيان لها • الطباب ـ السير يوضع على آخر فيخرز • ان الفتاة الخ •• أوصى الرسول ان يرفق بها •

وأشهد عندالله ان قد رأيتهـــا وعشرين منها اصبعا من ورائيا (١)

ويظهر من وصف المحبوبة الذى سلف مبلغ الحرية وحدود الحشمة عند طائفة من الجاهليين وكيف كان الوصف المادى هو الغالب على هـــذه القصص • وان كان فى ماديتـه لا يبلغ ما ذهب اليه بعض المحدثين كزولا وتولستوى • والنساء عموما كان ينظر اليهن على أنهن يتمتعن بشخصية قائمة بذاتها لها كيانها الخاص وهذا ينسجم مع ما نشـاهده من أسـاليب اللطف واللين التى استخدمها الشعراء فى قصصهم وأحاديثهم (٢) ولهذا فقـــد توجهوا بالآراء السامية للمرأة ، وخاطبوها بالمكارم والفضائل ، كما ظهروا أمامهن بالمظاهر الراقية وصورا أنفسهم لهن متحلين بالمكارم يقول الحادرة :

أسمى ويحك هل سمعت بغدرة رفـع اللواء بهـا لنـا فى مجمع
انـا نعف فـلا نريب حليفنـا ونكف شـح نفوسنا فى المطمع
ونقى بآمن مالنـــا أحسابنـــا ونجر فى الهيجا الرماح وندع (٣)

فالمرأة تستجيب عن طريق العاصفة أسرع من الرجـل فهى تخضع للمؤثرات الخارجية رغم ارادتها(٤) • والفتاة الشابة على الخصوص تضعف سطرتها على أعصابها فلا تتمالك نفسها من الاستجابة فكيف بها وهى تحب أيضا • فهى لا شك تتأثر بما يوجه اليهـا من الاعمـال والمفاخر وخاصـة من مهرة الشعراء المحبين فليس بغريب اذن أن يكون كثير من هذا القصص حقيقى واقعى خاصة وان ما فيه غير بعيد عن هذا الواقع •

---

(١) سحيم : ديوانه ص١٩ ، طبقات الشعراء لابن سلام ص ٧١، الاغانى ج ٢٠ ص ٥ ، اخبار النساء لابن قيم الجوزية ص ٤٣ • علجانة ـ شجرة معروفة تنبت فى الرمل ، الحقف ـ الكثيب من الرمل • تهـــاداه الرياح ـ تنقله الرياح • قرة ـ باردة • انهج ـ بلى •

(٢) الاعشى ـ ديوانه : القصيدتان رقم ٢١ ، ٧٨ •

(٣) الحادرة ـ المفضليات ج ١ ص ١١ •

(٤) Ellis: Studies on the Psychology of Sex P. 290 - 295

الفصل الثالث

الزوجة فى الشعر الجاهلى

١ ـ مكان الزوجة فى الشعر الجاهلى :

وكان حظ الزوجة من الشعر الجاهلى يلى حظ الحبيبة • فتكاد الصورة التى يصورها لها فى الاسرة تكون صورة تامة واضحة ، اذ تظهر فيها الروابط المتينة بينها وبين زوجها ، بما فى ذلك من تبادل للافكار وتمازج روحى • نعم فقد أظهرها الشعر وهى حريصة أشد الحرص على صيانة بيتها ، وراحة زوجها ، وسلامته ، وحفظ ماله • كما أظهرها تهتم بالمحافظة على زوجها ، ورعاية حقوقه • وكان الزوج يصغى اليها بعناية فائقة ، فيسمع آراءها ، ويحاول أن يقنعها بسلامة فكره ، وصحة تصرفاته • وقد يستخدم الخشونة اذا رأى ضرورة لذلك • وصورها الشعر وهى تلوم وتلحف فى اللوم ، وفى العتاب ، وهو يصغى للومها ، وقد يعمل بما تشير به عليه ، وقد يضيق باللوم ، فيقلق ويضجر حتى يحنق عليها كما أنه قد يناقشها الرأى مناقشة دقيقة • كل ذلك قد شغل قسما كبيرا من الشعر الجاهلى ، خصصه الشاعر الجاهلى من أجل الزوجة • واذا استعرضنا هذا القدر من الشعر وجدناه يدل دلالة واضحة على قيمة المرأة العالية فى نفس زوجها ، وقيمة الرجل فى نفس زوجه ، وهذا مما يدل على أن العلاقة بين الزوجين كانت قوية محكمة الربط ، وانه من الثابت أن المرأة اذ كانت زوجة كانت تتمتع بمنزلة ممتازة عند الشعوب السامية الاخرى المجاورة لجزيرة العرب ، كالمصريين والبابليين والآشوريين ، بخلاف ما كانت عليه عند الرومان

واليونان [١] .

والشعر الجاهلى اذ يصور الحياة تصويرا طبيعيا بعيدا عن التكلف نجد فيه عناية فائقة بالمرأة ، وهذا أمر له دلالته ، فتفتح القصائد باسمها ، وتوجه الآراء لها ، ويسعى الشاعر لاسترضائها وحملها على أن تشاركه فى الرأى. كل هذا دليل على رقى منزلتها فى الاسرة وفى البيئة الاجتماعية . وتختلف منزلة الزوجة ، بالطبع ، باختلاف الطبقات فهى عند الطبقات العامة تقوم بأعمال كثيرة ، وتتمتع بقوة بدنية تساعدها على أداء واجباتها ، وفى البيئات الراقية كانت أحسن حالا وأنعم بالا ، وبهذا يصورها الشعر الذى كرسه الشعراء من أجلها ، على أن منزلتها فى الاسرة أيضا تتوقف كثيرا على مبلغ جاذبيتها ، وحسن تصرفها . فالزوجة فى شعر الصعاليك غيرها فى شعر الامراء وأبناء البيوتات ، وهى تختلف فى شعر شاعر منهم عنها فى شعر شاعر آخر ، فعروة بن الورد مثلا وهو أحد الصعاليك كان عطوفا ، محبا لزوجته ، وهذا يظهر من أسلوب مخاطبته لها . يقول :

ذرينى ونفسى أم حسان اننى ... بها قبل أن لا أملك البيع مشترى
أحاديث تبقى والفتى غير خالد ... وان هو أمسى هامة فوق صير [٢]

أما تأبط شرا فالنساء ما كانت ترغب فيه [٣] لمغالاته فى الخشونة فى حياته ومعيشته [٤] . وكان الشنفرى يخشن فى معاملته لزوجته ، [٥]

---

(١) La Tourneau: La Condition de la Femme P. 342., Rosler La Question Feministe, P 137.

(٢) عروة ـ ديوانه ص ٣١ . صير ـ حجارة توضع على القبر .

(٣) الاغانى ـ ج ٨ ص ٢١٠ـ٢١٨

(٤) جورجى زيدان ـ تاريخ آداب اللغة ج ١ ص ١٤٢ .

(٥) الشنفرى ـ عيون الاخبار ج ١٠ ص ٨٠ .

وهكذا كانت حياته الخاصة خشنة .أما قيس بن الجدادية فكان مثل عروة محبا لزوجته وهى تحبه وتخاف عليه الاخطار . وبعض أزواج هؤلاء الصعاليك شاركنهم فى مخاطراتهم ، ودعونهم الى الغارة وعيرنهم بقعودهم بين النساء وتحملهم مذلة الحاجة والفاقة . وكان هذا اللوم يحفزهم على الغزو ولم تكن النساء جميعهن بدرجة واحدة فىالدعوة الى ركوب المخاطر .

أما الشعر الذى قيل فى الزوجة فيصور النساء كلهن يعجبن بالشجاعة، ويمجدن البطولة . الا أنهن لا يردن أن يبلغ بهما الرجل درجة المخاطرة والهلاك ، لان الزوجة تريد أن تستظل بظلال زوجها فستعد به ، كما أنها تريده حاميا لها . أما الزوجة عند البدو خاصة فقد صورها الشعر كيف كانت مجبولة على تقديس كل من كان للشجاعة قرينا ، وبحماية الجار معروفا ، ولمشقات الاسفار محتملا .

٢ ـ وصف الزوجة :

قال عمرو بن كلثوم يصفها :

على آثارنا بيض حسان ... نحاذر أن تقسم أو تهونا

أخذن على بعولتهن عهدا ... اذا لاقوا كتائب معلمينا

الى قوله :

اذا ما رحن يمشين الهوينا ... كما اضطربت متون الشاربينا

يقتن جيادنا ويقلن لستم ... بعولتنا اذا لم تمنعونا(١)

ومنه يظهر كيف انهم لم يجدوا حرجا من ذكر زوجاتهم ووصف محاسنهن خاصة فى ساعة الغيرة عليهن والحرص فى العناية بشأنهن . فكأنه قال انهن ذوات جمال بارع وحسن خلاب ، ولهذا فان الدفاع عنهن لابد أن يكون

---

(١) معلقته . القصائد العشر للتبريزى ص ٢٤٦ ـ ٢٤٨ .

بالمهج والارواح • وكيف لا يكنّ كذلك والقلوب بين أيديهن ، والموقعة كثيرا ماتدور تحت أنظارهن، وفضلا عن ذلك فهن لاخلاصهن وثقتهن بشرف أزواجهن قد أخذن عليهم عهدا بأن يدافعوا عنهن ويستبسلوا من أجلهن ، وقد أثرن فى نفوسهم الغيرة والنخوة •

ومن الصفات الخلقية الكريمة للزوجة الجاهلية التى أكثر الشعراء من ترديدها ، حفظها سرّ زوجها فى غيابه واخلاصها وتعلقها به ، وتمنيها عودته اذا بعد عنها ، قال علقمة :

منعمة لا يستطاع كلامها ... على بابها من أن تزار رقيب
اذا غاب عنها البعل لم تفش سره ... وترضى اياب البعل حين يؤب(١)

كما ذكر الشنفرى الازدى الحشمة والحياء الذى تبديه الزوجة الكريمة التى ترضى سيرتها زوجها وجيرانها ، فكانت صورة كريمة للزوجة حقا • قال :

لقد أعجبتنى لا سقوطا قناعها ... اذا ما مشت ولا بذات تلفت
تحل بمنجاة من اللوم بيتها ... اذا ما بيوت بالمذلة حلت
كأن لها فى الارض نسيا تقصه ... على أمها وان تحدثك تبلت
أميمة لا يخزى نثاها حليلها ... اذا ذكر النسوان عفت وجلت
اذا هو أمسى آب قرة عينه ... مآب السعيد لم يسل أين ظلت(٢)

وللحياء الذى تبديه المرأة أثر كبير فى الرجال يرفع منزلتهن ويعلى شأنهن(٣) • وكان الجاهلى شديد الحرص والغيرة على عرضه وكثيرا

---

(١) شعراء النصرانية ص ٥٠٢ ـ ٥٠٤ •

(٢) الشنفرى الازدى ـ المفضليات للضبى ج ١ ص ٤٢ • الشعر والشعراء ص ١٨ الاغانى ج ٢١ ص ١٣٨ •

(٣) Ellis: Studies on the Psychology of Sex P. 234—236.

ما كرر فى مخاطبة زوجته أنه يرخص المال فى سبيل صيانة عرضه وحسبه(١) .

وكانت الزوجة اذا خالفت زوجها فى الرأى انما تعمل على أداء واجبها الاجتماعى فى تقويم ما اعوج منه ولفت نظره الى ما يجمل به أن يعنى به وفى أداء الزوجة لهذا الواجب دليل على مقدار الحرية الواسعة التى كانت المرأة تتمتع بها فى الجاهلية . وقد صور عروة بن الورد كيف أن زوجته كانت تعرف طباعه وما يتصف به من صفات سامية وهو يفخر بمعرفتها هذه . قال :-

وقد علمت سليمى أن رأيى ... ورأى البخل مختلف شتيت
وانى لا يرينى البخل رأى ... سواء ان عطشت وان رويت
وانى حين تشتجر العوالى ... حوالى اللب ذو رأى زميت (٢)

ويستمر فى هذه القصيدة بذكر فضائله وأخلاقه . ويهمه كثيرا ان تعرف زوجته ذلك فيه ، لانه يهمه رضاؤها فرضاء النساء عن ازواجهن كان يوقد فى نفوسهم الحزم ، وهم جعلوا من ازواجهم مرايا تريهم صور نفوسهم ، وموازين تظهر لهم قيم فضائلهم . وكان رضاهن أكبر سلوة يلجأون اليها فى الشدائد . من هذا ان عبد يغوث كان قد أسر فاستخفت به احدى النساء عندما رأته ، فقال يرد عليها متسليا عن أسره بتذكره لرضاء زوجته عنه . قال :-

وتضحك منى شيخة عبشمية ... كأن لم ترا قبلى أسيرا يمانيا
وقد علمت عرسى ملكية أننى ... أنا الليث معدوا عليه وعاديا (٣)

---

(١) المتلمس - ديوانه - قصيدة رقم ١ .
(٢) عروة بن الورد - ديوانه ص٤٦ ، شعراء النصرانية ص٩٠٦ .
(٣) عبد يغوث - شعراء النصرانية ص ٧٩ ، الاغانى ج ١٥ ص ٧٦ ويروى كأن لم تجد .

وفى هذا دلالة كبيرة على تأثير الزوجة فى نفس زوجها .

وقد صور كثير من الجاهليين تعلق المرأة بالشباب فى زوجها ، وعنى بذلك خاصة علقمة الفحل[١] ، ودريد بن الصمة[٢] ، وكعب بن سعيد الغنوى[٣] ، والاسود بن يعفر[٤] ، وصور الشعر الزوجات وهن محوطات بالعناية الفائقة والحماية والرعاية كل ذلك غيرة من الازواج على نسائهم ، وحبا لهن . والغيرة والحب كانا يدفعانهم الى مراقبتهن فاستعان الاشراف على الحماية بالحراس الشداد على البيوت ويكون هذا فى الحواضر والمدن كثيرا . أما فى الصحراء فكانت بساطة البيئة وانكشاف انحائها وظهورها كلا للعين بسهولة أمرا سهل مهمة المراقبة . وكانت المراقبة آفة المحبين فقد شكوا من الازواج الحريصين والرقباء الاشداء . قال الاعشى يصف غيرة أحد الازواج على زوجته :

لهـا ملك كان يخشى القراف ... اذا خالط الظن منه الضميرا
اذا نزل الحى حل الجحيـ ... ش شقيا غويا مبينا غيورا
يقول لعبديه حثا النجا ... ء وغضا من الطرف عنا وسيرا
فليس بمسرع على صاحب ... وليس بمانعه أن تحورا[٥]

---

(١) علقمة الفحل ـ الاغانى ج ٧ ص ١٢٨ ، الشعر والشعراء ص ١٠٧ خزانة الادب ج ١ ص ٥٦٥ .

(٢) دريد بن الصمة ـ الاغانى ج ٩ ص ٢ ، شعراء النصرانية ص ٧٥٢ .

(٣) كعب بن سعيد ـ خزانة الادب ج ٣ ص ٦٢١ ، شعراء النصرانية ص ٧٤٦ .

(٤) الاسود بن يعفر ـ ديوانه ـ القصيدة رقم ١ .

(٥) الاعشى ـ ديوانه ـ القصيدة رقم ١٢ . الجحيش ـ ان تنزل ناحية رحبة . النجاء ـ الاسراع . تحور ـ ترجع .

والاخبار كثيرة عن النابغة الذبيانى انه كان مقدما عند ملوك المناذرة ، أثيرا عند النعمان خاصة . اذ كان من ندمائه وأهل أنسه ، وقد تراءت له المتجردة فلما شبب بها فى قصيدته التى منها :

سقط التصنيف ولم ترد اسقاطه فتناولته واتقتنا باليد

نذر الملك دمه ، واضطر الى الهروب الى ملوك غسان فى الشام لما كانت بينهم وبين المناذرة من خصومة ومنافسة . ومن هناك ارسل اعتذاراته الرقيقة النادرة (١) .

وهكذا كان الرجال شديدى التعلق بأزواجهم يقدسونهن ويتعشقونهن . ولتقديسهن أثر فى حياة الشعراء ، فجعلها حياة غنية نبيلة معا حتى ان الذين اشتغلوا بدراسة الحضارة الاوروبية أوضحوا أنهم لم يجدوا لمثل هذا الحب والاحترام للزوجة أساسا فى حضاراتهم القديمة ، يونانية أو لاتينية ، سواء فى عصورها الذهبية أو الفضية(٢) . ورأوا أن هذا الحب والتقديس للزوجة انما نشأ فى بلاد العرب ، فحمله رجالهم الفاتحون هدية الى أسبانيا فى ركاب الدعوة الاسلامية الكريمة ، وهو فضيلة من فضائلهم الجمة على الحضارة والانسانية(٣) .

وقال جوستاف لوبون تعليقا على حب العربى لزوجته وغيرته عليها « ويندر أن نجد فى الشرق رجلا يتملق زوجة رجل آخر ، فلا تجد هناك كما قال : الدكتور (ايزانبرت) مثل ما يكدر صفو الحياة الزوجية فى أوروبا من الخيانة التى هى أشد ايلاما ، وأعظم فسادا مما يجر اليه تعدد

---

(١) الاغانى ج ٩ ص ١٥٧ - ١٦٥ ، اليعقوبى - تاريخه ج ١ ص ١٧٢ - ١٧٣ .

(٢) تراث الاسلام ج ١ ص ١٥٩-١٦٢ .

(٣) المصدر السابق .

الزوجات • وقال (مسيو دوأمسيس) ان المرأة فى الشرق تحترم بنبل فلا يستطيع أحد أن يرفع عليها يده فى الطريق • وفى الشرق يشمل البعل زوجته برعاية ، ولا نجد رجلا يقوم على الاستفادة من كسب زوجته•• (١)

وكان رباط الزواج المقدس كبير القيمة فى نظرهم ، لهذا كان تعرضه للتصدع أو لاي لون من ألوان الكدر أمرا تستعظمه نفوسهم الكبيرة • فلم يكن مشهد الزوجة وأطفالها وهم يشكون فقدان المعيل أمرا تستقر له نفوسهم ، أو تسكت عليه نخوتهم ، فلا عجب اذن أن وجدنا مثلا عدى بن زيد يصور للنعمان ، ملك الحيرة ، حالة النساء من أهله ، عندما كان النعمان قد ألقاه فى سجنه • فعدى وهو فى السجن لم يكن ليحتمل أن يترك نساءه فى حاجة الى عونه وتكون جدارات السجن تمنعه أن يمد نهن يد المساعدة• فهذا همه الاكبر وهو فى غيابة السجن•فاذا عجزت يداه عن اختراق أسوار هذا السجن لتمتد اليهن فان نشيده الرقيق وتوجعه المر لم يعجزا عن اختراق أسوار السجن ومسمع الملك فيدركان مستقر نفسه ويحركان شهامته العربية ونخوته التقليدية • نعم بعد أن صور له عدى نساءه قائلا :

وبيتى مقفر الارجاء فيه	أرامل قد هلكن من النحيب
يبادرن الدموع على عدى	كشن خانه خرز الربيب
يحاذرن الوشاة على عدى	وما اقترفوا عليه من الذنوب
فان أخطأت أو أوهمت أمرا	فقد يهم المصافى بالحبيب (٢)

وقد أفلح فى التأثير ، فى نفس النعمان بهذه الصورة التى رسمها له وأوضح فيها تصدع الاستقرار فى اسرته وتعرض الود المقدس فيها الى

---

(١) جوستاف لوبون ـ حضارة العرب ص ٤٣٤ ـ ٤٣٥ •

(٢) عدى بن زيد ـ شعراء النصرانية ص ٤٥٢ ، الاغانى ج ٢ ص ٢٥ • الشن ـ القربة •

الانشعاب • وأبيات عدى هذه تذكرنا بأبيات الحطيئة التى أرسلها الى عمر ابن الخطاب من سجنه •

ومما يلاحظ أن الزوج فى الجاهلية كان لا يرضى أن تخرج زوجته عن طاعته فاذا حاولت ذلك سعى ليضع حدا له ، اذ لم يكن من المستحسن الخضوع لهن دائما[١] •

قال الشنفرى الازدى يخاطب زوجته ويصور حالها اذا ما حادت عما رسمه لها من جادة الطاعة والموافقة • قال :ـ

اذا أصبحت بين جبال قو ... وبيضان القرى لم تحذريني
وامـا أن تؤديني وترعى ... أمانتكم وأما أن تخونى
اذا ما جئت ما أنهاك عنه ... ولم أنكر عليك فطلقينى
فأنت البعل يومئذ فقومى ... بسوطك، لا أبالك ، فاضربينى[٢]

٣ ـ الزوجة توجه زوجها وتلومه على سوء سلوكه :

أ ـ حرصها على سلامة الزوج ـ والشعر الجاهلى صوّر ملامة الازواج على مخاطرات أزواجهن ، والقائهم أنفسهم فى مواطن الاخطار ، فقد حكى كعب بن سعيد الغنوى كيف لامته زوجته على ركوب المخاطر :

لقد أغضبتنى أم قيس تلومنى ... وما لوم مثلى باطلا بجميل
تقول ألا يا استبق نفسك لا تكن ... تساق لغبراء المقام دحول
أراك امرأ ترمى بنفسك عامدا ... مرامى تغتال الرجال بغول[٣]

---

(١) ابن عبد ربه ـ العقد الفريد ج ٣ ص ٥٣ ، ابن الاثير ج ١ ص ٤٢٠ •

(٢) الشنفرى الازدى ـ عيون الاخبار ج ٤ ص ٧٩ ـ ٨٠ • قو ـ اسم واد • بيضان ـ جبل لبنى سليم بالحجاز • البلدان ج ١ ص ٣٣٧•

(٣) الاصمعيات ج ١ ص ٦٠ • الدحول البئر الواسعة الجوانب •

ويستمر بعد عرض رأيها يرد عليها بقوله :-

ألـم تعلمى ألا يـراخى منيتـى ... قعودى ولا يدنى الوفاة رحيلى
مع القدر الموقوف حتى يصيبنى ... حمامى لو أن النفس غير عجول
فانك والمـوت الذى ترهبينـه ... عـلىّ ومـا عـذالـة بعقـول
كداعى هديل لو يجاب اذا دعا ... ولا هو يسلو عن دعاء هديل(١)

وفى هذه القصيدة تصوير بارع بروح هادئـة مطمئنة لوجهـة نظر الزوجين ، فالزوجة ترى فى زوجها مخاطرا يرمى بنفسه عامدا فى المهالك، وفى هذا قلة مبالاة ليس فيها خير • والزوج يريد أن يمثل دوره كرجـل وكفارس مهيب الجانب ، ويضع لسلوكه أساسا من التفكير السليم ، ألا وهو أنه يؤمن بالقدر ، وأن ما كتب له هو الذى سـيراه فى قابل حياته ، وأن سلوكه وعمله سوف لا يغيران مما هو مقدر شيئا • فهو لا يريد أن يطيعهـا لانه لا يؤمن برأيها • ومثل هذا قول عروة بن الورد متحدثا عن زوجته :

أرى أم حسان الغداة تلومنى ... تخوفنى الاعداء والنفس أخوف
تقول سليمى لو أقمت لسـرنا ... ولـم تدر انى للمقـام أطوف
لعـل الذى خوفتنـا من أمامنا ... يصادفـه فى أهلـه المتخلف (٢)

فهو يشير الى المصادفات والظروف ، ويظهر لها أنه انما يغامر ويخاطر لاجل أن يكسب لها ، فيقيم عندها ويكفيها • واستمر بعد هذا يصور لها صبره وجلده وعدم اهتمامه بالاعداء • كما يصور شدة احساسه ، وأنه يجد من نفسه لنفسه وازعا • وأطرف من هذا قول عنترة فى حرب داحس والغبراء يرد فيه على زوجته التى كانت تمنعه عن حمل نفسه عـلى المـكروه عنـد الحرب :

---

(١) كعب بن سعيد ـ الاصمعيات ج ١ ص ٦٠ .
(٢) الاغانى ـ ج ٢ ص ٩٤ ، شعراء النصرانية ص ٨٩٧ ، أراجيز العرب للبكرى ص ١٥ ، ديوانه ٩١ ـ ٩٢ طبع مصر وص ٢٦ طبع گوتنگن .

بكرت تخوفنى الحتوف كأننى ... أصبحت عن غرض الحتوف بمعزل
فأجبتهـــا ان المنيـة منهـــل ... لابد أن اسقى بكأس المنهـــل
فاقنى حياءك ، لا أبالك واعلمى ... أنى امرؤ ســأموت ان لم اقتـل
ان المنيـــة لـو تمثـــل مثلـت ... مثـلى اذا نزلوا بضنك المنزل (١)

ونجد فى شعر أغلب فرسان العرب تصويرا لملامة نسائهم على ركوبهم المخـاطر كشـعر كعب بن سـعيد الغنوى (٢) ودريد بن الصمـــة (٣) وسويد بن أبى كاهل (٤) وذى الاصبع العدوانى (٥) وعروة بن الورد (٦) وقيس بن الخطيم (٧) ،وســلامة بن جندل (٨) ، والاغلب العجـلى (٩) وغيرهم . واذا أرادوا أن يصوروا قوة الارادة وشدة عزيمة الفارس قالوا : « ان الحسناء الكاعب لا تثنى عزمه ، اذا صمم على مقارعة الخصوم » (١٠) .

---

(١) عنترة ــ ديوانه ص ٢٠٣ . البحترى الحماسة ص ٣ .
(٢) كعب بن سعيد الغنوى ــ خزانة الادب ج ٣ ص ٦٢١ ، شعراء النصرانية ص ٧٤٦ .
(٣) دريد بن الصمة ــ شعراء النصرانية ص ٧٦٩ ــ ٧٧٠ .
(٤) سويد بن أبى كاهل ــ الاغانى ج ١١ ص ١٧١ .
(٥) ذو الاصبع العدوانى ــ الاغانى ج ٣ ص ٢ ، خزانة الادب ج ٢ ص ٤٠٨ .
(٦) عروة بن الورد ــ ديوانه ص ٢٨ .
(٧) قيس بن الخطيم ــ الاغانى ج ٢ ص ١٥٩ .
(٨) سلامة بن جندل ــ الشعر والشعراء ص ١٤٧ ، خزانة الادب ج ١ ص ٤٩٤ .
(٩) الاغلب ــ الاغانى ج ١٨ ص ١٦٤ ، الشعر والشعراء ص ٣٨٩، الخزانة ج ١ ص ٣٣٣ .
(١٠) الحطيئة : حماسة البحترى ص ٤١ ويلاحظ قول الربيع بن زياد المصدر نفسه ص ٣٨ .

وكثير من الشعراء كانوا فرسانا[١] ، وهم انما خاطروا لاجل الكسب ، وهو سلعتهم[٢] ، فكانت النساء تخشى على المخاطر منهم الهلاك وتحذر أن تقترن به فقد روى أن تأبط شرا ، الصعلوك المغامر ، خطب امرأة من هذيل فنصحها بعضهم الا توافق • فقال :

وقالوا لها لا تنكحيه فانه ... لاول نصل أن يلاقى مجمعا

فلم تر من رأى فتيلا وحاذرت ... تأيمها من لابس الليل أروعا [٣]

واستمر يفخر برجولته واحتماله الصعاب وقلة نومه وصبره على الخشونة حتى قال انه عاشر الوحوش ، وصار يصبح ويمسى معها فألفها وألفته ووصف هذا كله وصفا رائعا مؤثرا وخاصة فى نفس المرأة البدوية المعجبة بالفروسية •

والعربيات كن يسعين لتنظيم الناحية المادية من تصرفات أزواجهن ، كما كن يلاحظن الناحية المعنوية من نفوسهم فينهينهم عن المغالاة فى المخاطر • وفى الوقت ذاته اذا لمسن منهم خوفا من الحرب أو ميلا للفرار نهينهم ، وشجعنهم على الاقدام • فقد لامت أبا قيس بن الاسلت زوجته على شحوب لونه واكتراثه الزائد اذ كانت الاوس قبيلته قد أمرته فى حرب بُعاث • فصار يعتذر لها ويصور مشقة الحرب ، كيف أنها توجع الرجال •

قالت ولم تقصد لقول الخنا ... مهلا فقد أبلغت أسماعى

استنكرت لونا له شاحبا ... والحرب غول ذات أوجاع

---

(١) Lane: Arabia Society in the Middle Ages P. 207.

(٢) عروة بن الورد ــ تاريخ آداب اللغة العربية لجورجى زيدان ج ١ ص ١٤٣

(٣) تأبط شرا ــ الاغانى ج ٨ ص ٢١٠ ــ ٢١٨ ، الحماسة لابى تمام ج ١ ص ١٣٥ • قالوا لها : ان مجمعا سيقتله بأول نصل ان لقيه • وانها لم تر أن تنصرف عن رجل متيقظ •

بن يذق الحرب يجد طعمها مرا وتتركه بجمجماع (١)

وبمثل هذا اعتذر أوس بن حجر عن فراره . وكانت النساء تدفع بالازواج الى المخاطر ان وجدنها الطريق الوحيد للحصول على المال أو الدفاع عن القبلة ، فقد حرضت النمر بن تولب زوجته على المخاطرة ، لانه كان فى ضائقة مالية ، وكان خاملا مستسلما للحاجة . حيث قال :ـ

قالت تماضر اذ رأت مالى خوى وجفا الاقارب فالفؤاد قريح
انى رأيتك فى الندى منكسا وصبا كأنك فى الندى نطيح
خاطر بنفسك كى تصيب غنيمة ان القعود مع العيال قبيح
المال فيه مهابة وتجلة والفقر فيه مذلة وفضوح (٢)

واذا رأت المرأة تخاذلا من زوجها عن قريب أو صاحب ، لامته على ذلك كما فعلت زوجة تأبط شرا ، فاعتذر لها عن ذلك (٣) . كما هى تلومه على فراره من الحرب ، وكثيرا ما نجده يعتذر اليها كما فعل أزهر بن هلال التميمى واعتذر لزوجته عن عدم استمراره فى الحرب قائلا :ـ

أعادتك ما وليت حتى تبددت رجالى وحتى لم أجد متقدما
وحتى رأيت الورد يدمى لبانه وقد هزه الابطال وانتقل الدما
أعاتك انى لم ألم فى قتالهم وقد عض سيفى كبشهم ثم صمما
أعاتك ما وليت حتى تبددت مقارعة الابطال يرجع مكلما (٤)

ومن هذا يبدو الاعتذار الجميل والاتزان والتعقل فى مخاطبة النساء ،

---

(١) الاغانى ج ١٥ ص ١٦١ .
(٢) النمر بن تولب ـ ديوان عروة بن الورد ص ٤٦ (وينسب الى عروة) .
(٣) تأبط شرا ـ الاغانى ج ١٨ ص ٢١٣ .
(٤) المرأة فى جاهليتها واسلامها ـ عبدالله عفيفى ج ١ ص ١١٤ .

واقناع الزوجات ، اذ كان الجاهلى حريصا على أن يرضى زوجته عن صحة مسلكه ويطلب منها أن تكشف عن رأيها فيه ، لانه أحس فى نفسه أن لرضاها أثرا بليغا فى شخصه حتى أن الذى كان منهم يفارقها بالطلاق لا يرضى أن يفارقها الا اذا أظهرت رضاها عنه ، كل ذلك ليتجنب الذم .

ب - بغضها عكوف زوجها على اللهو والخمر - فنجد فى شعر المدنيين من الشعراء الجاهليين خاصة تصويرا لملامتها زوجها على لهوه وخمره . ومن هؤلاء الشعراء عدى بن زيد ، الذى كثر تردده على الحيرة ، فقد رد على زوجته بأنه يلهو لان ذلك شأن الحياة فعليه أن يتمتع بها قبل أن يوافيه أجله. ومن هؤلاء الشعراء الاعشى أيضا اذ خاطب زوجته قائلا :

ذرينى لك الويلات آى الغوانيا ... متى كنت زراعا أسواق السواقيا
ترجى ثراء من سياس ومثلها ... ومن قبلها ما كنت للمال راجيا
سأرمى بعيدا ان دنوت من البلى ... وكل امرىء يوما سيصبح فانيا (١)

ومن أبناء المدينة أبو الذيال الهذلى ، وقد انعكف على اللهو مع كواعبها الخرد وغيدها الحسان يشرب الخمر ويعلل انصرافه للهو بأن الحياة فانية ، وان على الانسان أن يتمتع بلذاتها فالموت منه على قاب قوسين . والظاهر أنه ما كان يؤمن بالحساب . قال :

دع ذا ، ولكن رب عاذلة ... لو علمت ما أريد لم تعد
هبت بليل تلوم فى شربي الـ ... ـخمر وذكر الكواعب الخرد
فقلت مهلا فما عليك ان أمـ ... ـسيت غويا غيى ولا رشدى
انى لمستيقن لئن لم أمت ... يومى انى اذن رهين غد
هل نحن الا كمن تقدمنا ... وكل من تمّ ظمؤه يرد
نحن كمن قد مضى وما أن أرى ... شحا يزيد الحريص من عدد
فلا تلومنى على خلقي ... واقنى حياء الكريم واقتصدى (٢)

---

(١) الاعشى - ديوانه - القصيدة رقم ٦٦ .
(٢) أبو الذيال الهذلى - طبقات الشعراء لابن سلام ص ١١٣ .

وهذا لون من التفكير واضح الاسلوب والمنهج • ولا نعدم فى عصرنا هذا أن نجد من ينهج هذا النهج فى تفكيره • ومهما يكن من أمره فانه يصور النمط الفكرى الذى كان الجاهليون يخاطبون به زوجاتهم • انه يصور آراءهم وعقائدهم التى كانوا يتوجهون بها لنسائهم وما أظن أحدا لا يطمئن الى القول بأنها أفكار على درجة من الرقى لما فيها من التحرر ، وهى أفكار مادية ملائمة للوثنية ملائمة ظاهرة اذ لا تبتعد الى ما وراء حدود المادة ، كما ليس فيها قدر كاف من التأمل • فهى اذن ليست أفكارا بدائية كما أنها ليست أفكارا فلسفية أو نظريات عالية • فهى مجموعة من النظر الحسى مضافة الى شىء قليل من التفكير النظرى •

ماذا كان يدور فى خلد الزوجة عندما كانت تنوم زوجها على تماديه فى لهوه وخمره فيرد عليها بتلك الردود المادية التى هى من سطحى هذه الحياة الملموس ؟ يقول لها : اننا كمن تقدمنا صائرون الى الموت كل بعد أن ينهى أمده ، ولابد من الاستزادة من اللذات وشرب الخمور والتمتع بالنعيم لاننا سنطرح فى حفر من الارض بعيدا عن الناس ، لا يسأل عنا سائل ولا يحفل بأمرنا انسان •

لا ندرى بم كانت تناقش الزوجة هذا الزوج فليس فى شعر الرجال سوى لومهن وعتابهن ، ذكروه على السنتهن • اما شعر النساء ، الذى كرسنا له الفصل الاخير من هذا الكتاب ، فلعل فيه بعض التصوير لما كان يدور فى نفوس الازواج وغيرهن من اللائمات ، لكنه يحتاج لايضاحه الى التحليل النفسى ، والاستنتاج ، واخيرا الى ان نقرأ ما بين السطور •

جـ ـ حرصها على المال والقصد فى انفاقه ـ ولعل من الطريف ما يذكر من توجيه المرأة لزوجها أنها كانت تحرص على القصد فى انفاق مال زوجها • قال كعب بن زهير يذكر لوم زوجته على بكر نحره وكساء وهبه :ـ

ألا بكـــرت عرســـى بليـــل تلـــومنى
وأقـــرب بأحـــلام النســـاء الى الـــردى
أمـــن أجـــل بكـــر قطعتنى ملامـــة
لعمـــرى لقـــد كانت ملامتهـــا نثـــا
ألا لا تلـومى ، ويب غـــيرِك عـــاريا
رأى ثوبـه يومـا من الدهر واكتسى (١)

والرجال يختلفون فى طبائعهم عن النساء فقال انزوجته تعيد وتكرر لومها ، والاعادة والتكرار هى من أسلحة النساء فى التأثير على الرجال • فنجد فى شعر الصعاليك مثلا دعوات كثيرة للكرم الواسع ، ونجدهـــم يظهرون لزوجاتهم حبهم للجود ، وكثيرا ما عناوا لهن ، عن طريق الحس والتجربة ، كيف أنهم يبقون على أنفسهم سمعتهم الطيبـة ويدفعون بذلك المذمات • ولعل أحاديث لوم الازواج أزواجهن فى شعر البدو على كثرة انفاقهم واسرافهم كان كثيرا ، كما أن لومهن على اللهو والعكوف على الخمر كان كثيرا فى شعر أهل الحواضر ، لان الكرم من خلق البدوى ، كما أن المخاطرات والحروب من مستلزمات حياتهم ، فى حين أن الخمور والغانيات تكثر فى المدن والحواضر أكثر مما هى عند البداة • فالصعاليك، وهم بداة ، كانو محاربين مغامرين بأنفسهم ويتحلون بصفات الفروسية التى منها الكرم لهذا نجد ملامات نسائهم على مخاطراتهم وانفاقهم كثـيرة فى أشعارهم قـــال تأبط شرا :

بل من لعـــذالة خـــذالة أشب — حـــرق باللوم جلدى أى تحـــراق
تقول أهلكت مالا لو قنعت بـــه — من ثوب صدق ومن بز وأعلاق
عاذلتى أن بعض اللـــوم معنفـة — وهل متـاع وان أبقيتـــه بـــاق

---

(١) كعب بن زهير ــ ديوانه ص ١٢١ « البستانى » ويب = ويل •

انى زعيم لئن لـم تتركى عـذلى أن يسأل الحى عنى أهل آفاق
لتقرعن علي السن من ندم اذا تذكرت يوما بعض اخلاقى (١)

فقد صورها ملحفة فى لومها الى درجة أغاظته ، ولم يطق على لومها صبرا ، فهددها بأنها اذا استمرت على ذلك فانه يغيب نفسه عنها فى مجاهل الارض بحيث لا يستطيع الوصول اليه أحد . وان كان عالما بمجاهل الارض كلها . وقال لها انه لو فعل ذلك لقرعت على ما فعلها سن الندم . وهكذا نجد حاتما الطائى يشترك مع الصعاليك فى أكثر صفاتهم ومنها كرمه الواسع الذى بزهم فيه ، قال يرد على زوجته :

مهلا نوار أقلى اللوم والعذلا ولا تقولى لشىء فات ما فعلا
لا تعذلينى على مال وصلت به رحما وخير سبيل المال ماوصلا (٢)

ويصح أن نتخذ حاتما مثلا ساميا للجود عند العرب . وكان يقول لزوجته ان الجود من عادته ولا يستطيع الاقلاع عنه ، فالانسان معرض للموت وهو اذا مات لا ينفعه مال أبقاه ، فى حين أن ما أنفقه فى حياته فى سبيل الخير ووجوه البر يحفظ له سمعته . ومن الذين أكثروا من مخاطبة أزواجهم وتوجيه مثل هذه الافكار لهن : الاسود بن يعفر (٣) ، والمخبل السعدى (٤) ، ولبيد (٥) ، وعمرو بن الاهتم (٦) . وكانت

---

(١) تأبط شرا ـ المفضليات ج ١ ص ٤ .
(٢) حاتم الطائى ـ شعرا النصرانية ص ١٢٧ ـ ١٢٨ الاشب = اللائم او المختلط . اعلاق = جمع علق ، ما كرم من سلاح وثياب .
(٣) الاسود بن يعفر ـ نفس المصدر ص ٤٧٧ ـ ٤٨٠ .
(٤) المفضليات ـ ج ١ ص ٤٦ .
(٥) لبيد ـ ديوانه ـ القصيدة رقم ٤٦ .
(٦) عمرو بن الاهتم ـ المفضليات ج ١ ص ٤٩ .

نساؤهم تحسن لهم جمع المال وتصور لهم قيمته، ومنهن من بالغت في ذلك، كما قال الشاعر :

وتقولون عـــاذلتي وليس لهـــا بعـــد ولا مـــا بعـــده عـــــلم
ان الثـــراء هـــــو الخلـــود وان المرء يكرب يومـــه العـــدم (١)

وذكر الشعراء الوقت الذي كانت تلومهم أزواجهم فيه فكان ليـــلا غالبا اذ قال حاتم « وعاذلة هبت بليل تلومني »(٢) وكما ذكر ذلك عروة ابن الـــورد(٣) ، فيكون بعد هجعة من الليل(٤) . وهذا هو الوقت الذي يختلي فيه المرء بزوجته . وقد دلت العادة على أنه الوقت المناسب لمثل هذه الاحاديث الخاصة بشؤون الاسرة . ويحصل اللوم في بكرة الليل كما قال كعب بن زهير « ألا بكرت عرسي بليـل تلومني(٥) » وكمـا قـال المثلم بن رباح المري « بكر العواذل بالسواد يلمنني(٦) » وهـذا هـو طرف الليل وكما قـال ضمرة بن ضمرة النهشلي : « بكرت تلومـــك بعـــد وهن في الندى »(٧) والوهن الساعة من الليل . وقد يكون في الغداة كما قال زهير ابن أبي سلمى وهو من آيات وصفه الرائع :

وأبيض فيـــاض يداه غمامـــة عـــلى معتفيـــه ما تغب فواضـــله
بكرت عليـــه غـــدوة فرأيتـــه قعـــودا لديه بالصريم عـــواذله

---

(١) المفضليات ج ١ ص ٤٦
(٢) حاتم الطائي ـ شعراء النصرانية ص ١٢٠ .
(٣) عروة بن الورد ـ ديوانه ص ٢٨ .
(٤) حاتم الطائي ـ شعراء النصرانية ص ١١٨ .
(٥) كعب بن زهير ـ ديوانه ص ١٢١ (جمع فؤاد فرام البستاني)
(٦) المثلم بن رباح المري ـ بلوغ الارب للالوسي ج ١ ص ٦١ .
(٧) نوادر ابن زيـد الانصاري ص ٢ ، اخبـار النحويين البصريين للسيرافي ص ٥٧ « الكاثوليكية بيروت » .

يفدينـــه طـــورا وطورا يلمنـــه وأعيا فما يدرين أين مخاتله (١)

ولم تكن نساء الجاهلية عامة تدعو الى الشح والبخل ، بل كانت بينهن الـكريمة كأبنـة حاتم الطائى • والواقـع أنهن كن لا يرضين بالاسـراف وعدم الاستقامة والتدبر فى الانفاق وهذا سالم بن قحفان يخاطب زوجتـه قـائلا :

لا تعـذلينى فى العطـــاء ويسرى لكل بعير جـاء طالبه حبـــلا (٢)

فتجيبه :

حلفت يمينا يا بن قحفان بالذى تكفل بالارزاق فى السهل والجبل

الى قولهـــا :

فاعط ولا تبخل لمـن جاء طالبـا فعندى لها خطم وقد زاحت العلل (٣)

وكثير ما نجد فى الشعر النسائى مفاخرة لهن بالجود والكرم وقد رثين الجواد باكيات جوده وعطاءه • والعرب رجالا ونساء كانوا يقدرون للمال قيمته ولكنهم كانوا يرتاحون للندى وللكرم وقضاء الحاجات، ويكرهون رد السائل ومنع الخير عن الجار ، وحرمان الرفيق والصاحب والمعوز والصديق • ذلك لان حياتهم الخاصة واحتمال وقوع كل فرد منهم فى أى حـــين فى مخالب العوز والحاجة بفعل الطبيعة أو بفعل العـدو من الناس ، كل ذلك دفعهم الى أن يروا أن الجود خير من الثروة ، والسمعة خير من المال • فى حين أنهم كانوا أهل تجارة ونقلة بضائع ، فهذا عـــروة بن الورد يصور لزوجته حالة الفقير ، كيف يجفوه الاقارب ، وكيف تسوء حاله فيقـــول مخاطبا :ـ

---

(١) زهـير بن أبى سلمى ـ شـعرا ءلنصرانيـة ص ٥٧٩ ـ ٥٨٠ ديوانه ص ٣٠ ـ ٣١ •

(٢) سالم بن قحطان العنبرى ـ بلوغ الارب للالوسى ج١ص٥١ـ٥٢

(٣) المصدر السابق ـ حماسة أبى تمام ج ٢ ص ٢٧٠ ـ ٢٧١ •

دعينى للغنى أسعى فانى ... رأيت الناس شرهم الفقير
وأبعدهم وأهونهم عليهم ... وأن أمسى له حسب وخير
ويقصيه الندى وتزدريه ... حليلته وينهره الصغير (١)

وهذا التمازج الروحى الذى وصفناه بين الزوجة وزوجها فى مختلف الميادين لا يعدم وجود التباين فى الرأى ، والاختلاف أحيانا • فقد صور الشعراء النقاش والجدل الذى يثور بسبب اختيار النمط الاحسن فى الانفاق (٢) ، والاقدام ، والسعى • فالمرأة تريد من زوجها أن يسلك سبيل الاعتدال وهو ما يريده الرجل ، الا أن وجهات النظر تختلف فيه ، وقد يؤدى الاختلاف الى سوء العشرة فتسىء المرأة الى زوجها أو الى أحد أفراد أسرته ، خاصة اذا لم تكن قريبة له ، كما حدث أن سبت زوجة دريد أخاه نطلقها • ومما قال :

اذا عرس امرىء شتمت أخاه ... فليس فؤاد شانئه بحمض
معاذ الله أن يشتمن رهطى ... وان يملكن ابرامى ونقضى (٣)

وقد تدل على زوجها بفضل أهلها أو كفاية أبنائها فتغيظه بذلك كما قال علباء بن أريم :

زعمت تماضر اننى امأت ... يسدد أبينهوها الاصاغر ختنى
تربت يداك وهل رأيت لقومه ... مثلى على يسرى وحين تعلتى (٤)

ومع كل هذا فلا يستطيع الباحث عن موقف المرأة فى الشعر الجاهلى

---

(١) عروة بن الورد ـ تاريخ آداب اللغة العربية لجورجى زيدان ج ١ ص ١٤٣ ، شعراء النصرانية ص ٨٨٨ ٠
(٢) حاتم الطائى ـ شعراء النصرانية ص ١٢٠ ٠
(٣) دريد بن الصمة ـ المصدر السابق ص ٧٦٠ ٠
(٤) الاصمعيات ـ لوليم بن الورد ص ١٨ ٠

الا أن يلمس العواطف الصادقة عند العربى نحو زوجته ، وهـذا ما أبه كثير من الباحثين (١) . فكم كان يحسن فى ارضائها وملاطفتهـا . (٢) والازواج على ما فيهن من ضعف كن يثرن فى نفوس رجالهن صفات ملاكيه تدفع الى الخير والى الفضيلة (٣) .

٤ ـ الزوجة فى زواجها :ـ

النـكاح والزواج والوطء وغيرهـا من الالفاظ الكثيرة متعددة اللفظ متقاربة المعنى ولعل اللفظ الاول من هذه الالفاظ أدلها على الفعل المادى . وخلاف الزواج الزنى أو العهر أو الفجور أو غـير ذلك من الالفـاظ المتقاربة المعنى ايضا المتعددة اللفظ كذلك .

والشعر الذى بين أيدينا لا يصور أساليب الزواج المختلفة باختلاف العهود والقبائل فى بلاد العرب ، وجل ما فيه انما هو صور من الحيـــاة الزوجية عند العرب قبل الاسلام بمدة قصيرة ، قرنين أو ثلاثة أو شـىء قريب من هذا . فاذا أردنا معرفة انماط الزواج وأساليبه عند الجاهليـين لابد لنا من الاستعانة بمصادر اخرى كالاخبار والتاريخ وعـلم الاجتماع والادب عموما .

قال ولكن " G. A. Wilken " الزواج عند أجدادنا كان فوضويا وغير محدود بشروط فى جميع بلاد المعمورة . أى أنهم كانوا يمارسون زواج الاختلاط أو المشاركة "Heterisme" وان الانتقال من هـذه

---

(١) Lane: Arabia Society in the Middle Ages P. 207.

(٢) زهير بن أبى سلمى ـ ديوانه ص ٨٩ .

(٣) Ellis: Studies on the Psychology of Sex P. 320 - 321.

الحالة الى الزواج الفردى حيث أصبحت الزوجة تخص زوجا معينا نقض للعادة القديمة[١] وقد تم فى مدة طويلة .

ان الاخبار التى تتعرض لمسألة الزواج متشعبة ومضطربة اذا فهمت على انها تصور نمطا واحدا من الزواج شاع عند الجاهليين فى مختلف أزمانهم وديارهم وقبائلهم ومنازلهم الاجتماعية . ولكن هذا الاضطراب والتشعب سيزولان عن هذه الاخبار لو فهمنا ان أساليب الزواج كانت مختلفة وصوره متعددة ، وانه تطور بتقدم الظروف الاجتماعية وتبعا لهذه الظروف والبيئات والاحوال الاخرى اقتصادية وسياسية وطبيعية والخ ..

لابد أن تدرس اخبار الجاهليين ايضا على ضوء الابحاث العلمية الحديثة. فقد حاول الكثيرون مثلا تصويرها بلون قاتم ، كما ذكرنا فى تمهيد هذا الكتاب ، فقالوا مثلا : انه لم يكن عند العرب قاعدة يتبعونها فى الزواج ، وان الاولاد كانوا يتزوجون الامهات فينسبون لونا من ألوان الزواج الذى عرف عند العرب أو عند طائفة منهم الى العصور والقبائل والطبقات كافة . وبهذا كانت رواية الاخبار باسلوب يزيد الامر غموضا بدل أن يكون كاشفا للحقائق ، مقررا للوقائع وبالاسلوب الذى وقعت فيه . ان الزواج بالامهات ليس لدينا دليل من الشعر على وجوده لا بل عندنا روايات تنفى وجوده فتعارض الروايات السابقة . قال محمد بن حبيب :ـ « وكانت العرب لا تنكح البنات ولا الامهات ولا الخالات ولا العمات »[٢] .

قال سمث "Smith" كان الزواج لدى الجاهليين على ثلاثة أنواع : زواج يكون بين أفراد القبيلة الواحدة ، فلا يتعدى حدودها . أى أن رجال القبيلة الواحدة لا يسمح لهم بالزواج من قبيلة اخرى ، ولا يسمح لبنات

---

(١) الامومة عند العرب : لـ « ولكن » ص ٣

(٢) المحبر لمحمد بن حبيب ص ٣٢٥ .

القبيلة الا أن يتزوجن من أبناء قبيلتهن • ويسمى بالزواج الالزامى من القبيلة "Endogamous" وزواج يفرض على الرجل فيه أن يتزوج من قبيلة اخرى وهو الزواج الالزامى من خارج القبيلة "Exogamous" وزواج ثالث يسمح فيه بجمع الطريقتين(١) •

وقد ذكرت الاخبار عددا من أنواع النكاح منها : زواج الخدن وهو اتخاذ الرجل امرأة تكون خليلة له(٢) ويسمى « زواج الخليلة » أو « زواج الصديقة » وفيه يقدم الرجل ما يسمى بالصداق ويعتقد جولدزيهر "Goldziher" ان الصديقة كانت فى الغالب زوجة رجل آخر وليس لنا دليل من الشعر عليه • كما قد تتخذ المرأة خليلا لها(٣) • وهذا ايضا لم نجد له آثارا واضحة من الشعر الا مثل قول أبى ذؤيب الهذلى :ـ

فان تعرضي عني وان تتبدلى خليلا ومنهم صالح وسميج (٤)

وزواج « البدل » وفيه يتنازل الرجلان كل للاخر عن زوجته • ويجوز أن يتخذ البيت السابق شاهدا عليه • ويحصل هذا بأن يقول الاول للاخر : « انزل لى عن امرأتك انزل لك عن امرأتى »(٥) • ومنها زواج « المتعة » وهو النكاح الذى يحدد أمده منذ البداية ، وهو النكاح الموقت • ومنها نكاح « الشغار » وهو النكاح الذى يكون المهر فيه نكاح آخر يقابله من غير مهر من المال ، فيزوج الرجل من تحت ولايته من النساء الى آخر، مقابل أن يتزوج هو امرأة تحت ولاية ذلك الرجل الاخر ، فلا يكون الشغار الا أن تنكحه وليتك على أن ينكحك وليته(٦) • وهو معروف

---

(١) Smith : Kinship & Marriage etc., P 60

(٢) سورة المائدة ، الآية ٥ •

(٣) سورة النساء الآية ٢٥ •

(٤) ديوان أبى ذؤيب الهذلى ص ١٧ •

(٥) الالوسى : بلوغ الارب ج ٢ ص ٥ •

(٦) لسان العرب ، تاج العروس • نهاية الارب ج ٢ ص ٢٤٥ •

لدى بعض الناس مع ورود النهى عنه(١) ويسمى فى العراق « زواج جبين بجبين » ومن أنواع الزواج عندهم نكاح « المقت » وهو أن يخلف على المرأة الابن الاكبر لزوجها(٢) وقد أشار اليه اوس بن حجر فى قوله :

والفارسية فيكم غير منكرة فكلكم لابيه ضيزن سلف(٣)

والضيزن من يخلف على امرأة أبيه عندهم(٤) وكان الجاهليون يقبحون هذا النكاح(٥) والولد الذى يولد منه يسمى « مقتى أو مقيت » هذا الى أن الجاهليين حرموا على أنفسهم بعض النساء فجاء الاسلام وأقر هذا التحريم(٦) .

ومن أنواع الزواج التى عرفت عند العرب زواج الرهط ، أو تعدد الازواج "Polyandry" وفيه يجتمع رهط دون العشرة عادة فيطؤون امرأة على اتفاق فيما بينهم ، فان ولدت جمعتهم ونسبت المولود الذكر الى أحدهم ، كما شاءت ، وعليه ان لا يرفض ، وان كان المولود انثى فانها لا تعمل هذه المراسيم(٧) ويغلب على الظن ان هذا النوع من الزواج من

---

(١) صحيح مسلم ج ٤ ص ١٣٩ .

(٢) الاغانى ج ١ ص ٩ .

(٣) محمد بن حبيب : المحبر ص ٣٢٥ ، الملل والنحل للشهرستانى ج ٣ ص ٣١٧ ـ ٣٢٠ .

(٤) ابن منظور ـ لسان العرب ج ١٧ ص ١٢٢ .

(٥) الشهرستانى : الملل والنحل ج ٣ ص ٣١٧ ، الطبرى : ج ٣ ص ١٩٣ . أبو الفداء : المختصر فى أخبار البشر ص ١٨٠ (طبع اوربا) . السرخسى : المبسوط ج ٤ ص ١٩٨ . نهاية الارب ج ٤ ص ١٠٨ ، بلوغ الارب ج ٢ ص ٥٢ ، ٥٣ . تاج العروس ج ١ ص ٥٨٥ .

(٦) محمد بن حبيب : المحبر ص ٣٢٥ .

(٧) ولكن : الامومة عند العرب ص ٢٤ ـ ٢٥ . بلوغ الارب ج ٢ ص ٤ .

آثار الحياة القديمة عند العرب اذ كان كل شيء عند القبيلة مشاعا لافرادها كافة حتى النساء • وممن أشار الى هذا النوع من الزواج المؤرخ القديم « سترابو » فقد ذكر أن الاخوة كانوا يشتركون فى كل شيء فللاخوة جميعا زوجة واحدة مشاعة بينهم فهو تعدد الازواج من الاخوة "Fraternal Polyandry" والزانى فى عرفهم من يعاشر امرأة من قبيلة اخرى وعقوبته الموت(١) • وقد أقر الاسلام الرجم •

أما معكوس زواج الرهط وهو جمع الاختين فأكثر فى ذمة زوج واحد فكان معروفا عندهم(٢) ولكنهم كانوا ينهون عنه (٣) كما نهى الاسلام عنه فيما بعد(٤) • ويسمى هذا الزوج الضيزن أيضا مثل المتزوج من زوجة الاب بعد موته •

والنوع الآخر من الزواج هو زواج البعولة وهو الشائع فى الجزيرة وقد أقره الاسلام لكنه نظمه ووضع له قيودا ، فاشترط ان لا يزيد عدد الزوجات على الاربع والزم العدل بينهن • وهو أما زواج من امرأة واحدة وهو الزواج الوحدانى "Monogamy" أو من أكثر من واحدة وهو تعدد الزوجات "Polygamy" وطريقته التراضى لقاء مهر أو الاسر ، اذ يملك الآسر الاسيرة بالقوة وله بيعها ، أو التزوج منها ، كما له ردها على اهلها منا أو فداء • أى بدون عوض من مال أو بقبول المال عوضا عنها • واذا

---

(١) وهذا الزواج موجود عند بعض القبائل فى أفريقية • ورآه البعض عند العرب انه نتيجة للوأد الذى قلت به البنات • ورجم الزانى كان عند بعض الامم قديما كالعبرانيين •

(٢) الطبرى : تفسيره ج ٤ ص ٢١٧ • روح المعانى ج ٤ ص ٢٦٠ • الشهرستانى : الملل والنحل ج ٣ ص ٣١٧ ـ ٣١٩ •

(٣) ولكن : الامومة ص ٦٤ ، الشهرستانى : الملل ج ٣ ص ٣١٧

(٤) سورة النساء الآية ٢٣ •

ملك الاسيرة آسرها فتزوجها ثم مات انتقلت الى ملكية ذويه من أبنائه والاقربين، فلهم ان يخلفوه على زوجته أو يعضلوها أى يمنعونها من الزواج حتى تموت • وهذه العادة شاعت أيضا لدى امم كثيرة غير العرب •

والمرأة تخطب من وليها وأهلها وكانت تستشار فى الزواج ويؤخذ رأيها فى قبول الزوج أو رفضه • قال تأبط شرا •

وقالوا لها لا تنكحيه فانه لاول نصل يلاقى مجمعا (١)

وهذا يدل على حريتها فى اختيار زوجها ، وقد روى عن نساء كثيرات انهن رددن رجالا جاءوا يخطبونهن • فالخنساء ردت دريد بن الصمة على شرفه وسيادته وما استطاع اخوها معاوية ان يحملها على قبوله (٢) وهند بنت عتبة بن ربيعة ردت سهل بن عمرو وآثرت عليه أبا سفيان ورضيت به ، والزباء بنت علقمه بن حفص الطائى خطبها الحارث بن سليل الأسدى فترددت فى قبوله حتى اقنعتها امها بالزواج منه (٣) وكل هذا من قواعد الزواج المعروفة عندهم •

وتروي الاخبار ان البنت كانت تزف فى السابعة أو الثامنة فى كثير من الاحوال ، اذ كان الابوان يخافان العار اذا ما تركاها بدون زواج بعد ذاك (٤)

---

(١) الاغانى : ج ١٨ ص ٢١٠ ، حماسة أبى تمام ج ١ ص ١٣٥ •

(٢) الاغانى : ج ١٩ ص ١١ ، الامالى للقالى ج ٢ ص ١٦١ ، الشعر والشعراء ص ١٢٢ ، عيون الاخبار ج ٤ ص ٤٦ ،

(٣) عفيفى : المرأة فى جاهليتها واسلامها ج ١ ص ٥٢ ويلاحظ : الاغانى ج ٩ ص ١٤٢ ، ج ١١ ص ١٠٤ ، الشعر والشعراء ص٧٢ ، جمهرة الامثال لابن هلال العسكرى ص ٧٠ ، ١٥٤ ١٨٣ ، مجمع الامثال ج ١ ص ١١٠ •

(٤) Lyall : Arabian Poetry, (Introduction) XXXI

والمعروف أن من حق المخطوبة أن تجلس الى جانب خطيبها تجاذبه أطراف الحديث لتفهمه ويفهمها .

وقد عرف عن العرب أنهم كانت لهم مقاصد بعيدة فى الزواج قل ان توجد كلها عند امة من الامم الاخرى . فكان من مقاصدهم التناسل ونجابة الاولاد الاقوياء لا المتعة فحسب ، ومن مقاصدهم : اجتذاب البعداء ، وتأليف الاعداء لما فيه من مواصلة وتمازج . كما قصدوا من الزواج اعمار البيوت والاستعداد للقيام بخدمة الضيوف وتدبير المنازل . وكان لذلك نتائج كثيرة فقد أكبروا الزوجة فقالوا : « الزوجة ريحانه وليست بقهرمانه » يشيرون الى المودة اللازمة وطيب العشرة . ولتشوقهم للولد قالوا : « من لا يلد لا ولد » وقالوا : « سوداء ولود خير من حسناء عقيم » . وقد وافق الاسلام على هذه الفكرة اذ يكره شرعا التزوج من عقيم(١) ولحرصهم على الاولاد الاصحاء الاقوياء تلمسوا الزوجة البعيدة ، وتحاشوا القريبة فى كثير من الاحوال وقد أيد علم الوراثة الحديث وجهة نظرهم قال الشاعر :

تجاوزت بنت العم وهى حبيبة ... مخافة أن يضوى على سليلى(٢)

وقد قال الرسول الاعظم « تباعدوا لا تضووا » وهذا ليس بغريب عنهم لما كانوا يتمتعون به من دقة الملاحظة والعناية بالانساب . على أن منهم من آثر القريبة لاعتقاده بأنها تكون أصبر على ريب الزمان وأقرب خلقا ، وأسلس قيادا(٣) .

وقد لاحظوا الكفاءة فى الزواج اذ كان زواج المرأة من غير الكفء أمرا يمس الشرف ، ولا يحصل الا بشيء من الاكراه اذ روى عن المهلهل

---

(١) جعفر بن الحسن الحلى : المختصر النافع ص ١٧١ .
(٢) الملل والنحل شرح أحمد فهمى ج ٣ ص ٣٢١ .
(٣) ابن قتيبة : عيون الاخبار ج ١ ص ١٩٧ .

ابن ربيعة أنه استجار بمذحج بعد انهزامه يوم « تحلاق اللمم » فجاءه بنو ضب فخطبوا اليه ابنته ليشرفوا بمصاهرته ، ولكنه أبى أن يزوجها لهم ، بيد أن مذحجا ساعدت الخاطب حتى اضطر المهلهل الى النزول عند ارادتهم، وقال يكشف عن تألمه لذلك :

عز عـــلى وائـــل بمـــا لقيت ... أخت بنى الاكرمـين من جشم
أنكحهـا فقدهـــا الاراقـم فى ... جنب وكـان الخبـاء مـن أدم
ليســـوا بأكفائنـا الـكرام ولا ... يغنون عن عيلـة ولا عدم (١)

فمن العناصر التى كانوا يعدونها فى الكفاءة التعادل فى القوة ، والرغبة فى المساعدة ، والثروة والجاه . وقد شاع بينهم المثل القائل : اذا لم تجد للمرأة كفئا فخير زوج لها القبر (٢) . وجرت العادة عندهم فى عهد من العهود أن يكون لاهل البنت الحق فى أن يشترطوا على الزوج أن ما تلده بنتهم يكون لهم ، كما أن للزوج أن يرفض ذلك (٣) ، وهذا هو الاساس الذى بنيت عليه القاعدة الفقهيـة (الولد للفراش وللعـاهر الحجر) أى للفراش الذى يولد فوقه (٤) . وبانتشار الزواج الذى كان للرجل فيـــه السيادة ضاقت حرية المرأة وأصبحت خاضعة لسيادة الزوج ، وهذا هو السر فى حديثه صلى الله عليه وسلم « أوصيكم بالنساء خيرا فانهن عوان » (٥) وظاهرة فقدانهن الســيادة هى التى حملت كثـيرا من المؤلفين الاوربيين

---

(١) المهلهـــل ـ الاغـــانى ج ٤ ص ١٤٥ ، حـــــروب بكـــــر وتغلب ص ٩١ النويرى ـ نهاية الارب ج ٣ ص ٦٧ .

(٢) العقد الفريد ج ٣ ص ٢٢٤ .

(٣) Robertson Smith: Kinship & Marriage P. 79, 128

(٤) الميدانى ـ مجمع الامثال ج ٢ ص ٣٢٧ . الفراش يستعار لكل واحد من الزوجين .

(٥) العقد الفريد ج ٢ ص ٢٢٣ .

والشرفيين على أن يحسبوا أن النساء أصبحن بعد ذلك كالخادمات فى بلاد العرب (١) .

ولم يبخس العرب الزوجة حقها فكان لها أن تملك (٢) ، ولها سيادة البيت ، وان كان البعض منهم يضربها فى الاحوال النادرة قال الاعشى :

وبينى فان البين خير من العصا ... والا تزال فوق رأسك بارقه (٣)

كما قال الشنفرى الازدى :

اذا ما جئت ما أنهاك عنه ... ولم انكر عليك فطلقينى

فأنت البعل يومئذ فقومى ... بسوطك لا أبا لك فاضربينى (٤)

فقد جعل الشنفرى استعمال السوط لضرب الزوجة من أعمال الرجال. ويظهر أن بعضهم كان يضربهن ضربا مبرحا حتى جاء الاسلام فنهى عنه ؛ الا عند الضرورة على أن لا يكون شديدا .

وبخلاف هذا فان الشاعر كثيرا ما كان ينادى زوجته فى شعره باسمها ، ويكرر هذا الاسم ، اذ كان يحلو له سماعه ، وقد يصغره تحببا وحنينا . وكثيرا ما ذكرها بما هو من خاصة شأنها ، بأسلوب كرّمها فيه ، قال مرة بن محكان التميمى :

يا ربة البيت قومى غير صاغرة ... ضمى اليك رحال القوم والقربا (٥)

ومنهم من تلطف فى ندائها كما قال قيس بن عاصم المنقرى يخاطب منفوسه بنت زيد الخيل زوجته :

---

(١) Huart: Histoir des Arabes, P. 14

(٢) حاتم . النصرانية ص ١٢٠ ، ديوانه ص ٨ .

(٣) الاعشى ـ ديوانه ـ القصيدة رقم ٤١ .

(٤) عيون الاخبار ج ٤ ص ٨٠ .

(٤) المرأة فى جاهليتها واسلامها ج ١ ص ٦٦ ، الحماسة ج ٢ ص ٩٩ ـ ١٠٠ الاغانى ج ٣ ص ١٠٥ .

أيا بنـــة عبدالله وابنـــة مالك ويا بنةذى البردين والفرس الورد (١)

ومنزلة الزوجة فى بيت زوجها تتوقف ، الى حد كبير ، عـلى منزلة أهلها وقوتهم بين القبائل ، كما تعتمد على شخصيتها هى ومقدار جاذبيتها • والقبائل ما كانت ترغب فى زواج بناتها من أفراد القبائل البعيدة ، لانهـــا تفقد شيئا كبيرا أو قليلا من نفوذها ، فلا يتسنى لهـا بسـط الحماية الكافية عليهن • على أنهم عموما كانوا يقدرون للزوجة قدرها ، لهذا نجد طائفـــة كبيرة من الشعراء يتوجهون اليهـا بذكر مفاخرهم ، وجليل أعمالهـــم ، ويستلهمونها الشجاعة والنخوة ويستبسلون من أجلها ومن أجل الدفاع عنها ، كما استلهموها الشعر • واستمعوا لدعواتها وخفوا لاجابة مطاليبها والذود عنهـــا •

وكان الزوج يشاور زوجته فى الامور البيتية والشؤون العائلية ويقدر لها رأيها ويستجيب لرغباتها عندما لا يجد فيها ضررا فادحا فقد أطاع أوس ابن حارثة زوجته ، وأجاب الحارث بن عوف فى خطبته بعد أن كان قد رفض أن يزوجه من احدى بناته(٢) كما نجد الحطيئة يقعد عن السفر بعد أن صمم عليه اطاعة لزوجه(٣) •

وقد روى عن كثير من الازواج أنهن أجرن الهاربين وتوسطن فى فك الاسرى فقد أجارت ريطة بنت جذل الطعان دريد بن الصمة حين أسرته كنـــانـــة(٤)، وأجارت زينب بنت الرسول (ص) زوجها أبا العاص يوم

---

(١) المرأة فى جاهليتها ج ١ ص ٦٦ الحماسة ج ٢ ص ٢٤٤ ، المبرد: الكامل ج ١ ص ٣٤٥ •

(٢) الاغانى ج ٩ ص ١٤٢ ويلاحظ مجمع الامثال للميدانى ج ٢ ص ٢٦٣ • •

(٣) الاغانى ج ٢ ص ١٧٧ •

(٤) الامالى ج ٢ ص ٢٧١ ـ ٢٧٣ •

بدر فأطلق ومن الرسول عليه(١) .

بل كانت بعض الزوجات تشارك فى الحياة العامة مشاركة جدية فقد حضرت عاتكة بنت مرة زوجة عبد مناف حلف الاحابيش(٢) بل فعلت الزوجة أكثر من هذا فقد روى عن بهيسة بنت أوس الطائى انها حملت زوجها الحارث بن عوف على أن يصلح بين عبس وذبيان ، ففعل ما أرادت ، وتحمل ديات القتلى . وكان ذلك فى ليلة زفافها وقبل أن يدخل بها (٣)

أما من حيث التملك فكانت الزوجة تتملك وتتمتع بشخصية مالية مستقلة . قال حاتم الطائى يرد على زوجته عندما لامته على اعطائه المال وطلبت منه أن يمسك عن العطاء خشية أن يصبح معدما :

ذرينى ومالى ان مالك وافر وكل امرىء جار على ما تعودا (٤)

وقد أقر الاسلام هذا الحق لها . وقد سبقت الزوجة العربية اختها الرومانية فى اكتسابها الشخصية المالية القانونية فالرومانية لم يكن لها هذا الحق بل كان زوجها هو الذى يقيم عليها وصيا ، ويتصرف بمالها (٥) وهكذا الحال بالنسبة للزوجة الانكليزية فان حقها فى التملك قد شرع لها عام ١٨٨١ م . وكان زوجها قبل هذا التاريخ هو الذى يمتلك أموالها ويتصرف بها مع انها كانت تقوم بالاعمال التى تكتسب عليها اجورا ، أما الزوجة الانكليزية قبل زواجها ، وهى بنت ، فكان أبوها أو وليها هو الذى يستولى على اجورها ومالها فيتصرف به(٦) .

---

(١) الاصابة ج ٨ ص ٩١ .
(٢) اليعقوبى : تاريخه ج ١ ص ٢٠٠ .
(٣) الاغانى ج ٩ ص ١٤٣ .
(٤) ديوانه ص ٨ ، شعراء النصرانية ص ١٢٠ .
(٥) أحمد خاكى : المرأة فى العصور ص ٢٥ ـ ٣٠
(٦) المصدر السابق ص ٩٤ .

٥ ـ الزوجة فى طلاقها :

الطلاق مصطلح جاهلى قديم ويراد به تنازل الرجل عن حقوقه التى على الزوجة كافة(١) ومن أنواعه التى عرفها الجاهليون : الظهار وهو قول أحدهم « أنت علىّ كظهر امى » وقد نهى عنه الاسلام(٢) واوجب الكفارة على مرتكبه(٣) ومن أنواعه الايلاء ، وهو تحديد أجل يبتدى عنده الطلاق (٤) وهو طلاق مؤجل فى الاسلام (٥) ثم طلاق الخلع وهو الطلاق على مال(٦) تدفعه الزوجة عادة ، ويشمل الخلع ما تدفعه المتوفى عنها زوجها ، عندهم ، الى ابنه الاكبر الذى له عندهم أن يتزوجها بدون مهر بعد وفاة أبيه (٧) كما له أن يتركها لا تتزوج حتى الموت وهو ما يسمى عندهم بالعضل ، وكان شائعا عند قريش بمكة فكان الرجل ينكح امرأة شريفة ذات يسار ، فان لم توافقه عضلها أى فارقها وليس لها أن تتزوج الا برضاه فهى تضطر الى ان تدفع له مالا لارضائه ليسمح لها بالزواج والا ابقاها

---

(١) Smith: Kinship & Marriage, P. 112 ' Encyclopaedia of Religion, Vol IV P. 636

(٢) بلوغ الارب ج ٢ ص ٥٠١ ، السرخسى : المبسوط ج ٦ ص ٢٢٣ ، عمدة القارى ج ٢٠ ص ٢٨٠ .

(٣) سنن ابى داود ج ٢ ص ٢٦٥ . اللسان ج ٦ ص ٢٠١ . تاج العروس ج ٣ ص ٣٧٣ .

(٤) بلوغ الارب ج ٢ ص ٥٠ ، تفسير الطبرى ج ٢ ص ٢٥٦ـ٢٥٧، عمدة القارىء ج ٢ ص ٢٢٣ .

(٥) السرخسى : المبسوط ج ٧ ص ٩ ١ـ ٢٠ .

(٦) بلوغ الارب ج ٢ ص ٤٩ . السرخسى ج ٦ ص ١٧١ .

(٧) Smith: Kinship & Marriage etc. P. 92

معضـــــولة (١) وجاء الاسلام بتحريم العضل وبتحريم المضارة عامة (٢) اذ قال : « لا ضرر ولا ضرار » .

والاصل فى الطلاق أن يكون بيد الرجل فله أن يطلق زوجته اذا رأى ذلك ، وقد لا تكون الزوجة قد أجرمت أو فعلت ما يشين . وقد يكون بعد تفاهم يحصل بين الزوجين على الانفصال . وقـد يحـدث الطلاق عن اختلاف بين طبيعة الزوجة وطبيعة زوجها ، كما صوره الاعشى بقوله :

أيا جارتى بينى فانـك طالقـة ... كذاك أمور الناس غاد وطارقـه

وما ذاك من جرم عظيم جنيتـه ... ولا أن تكونى جئت فينا ببائقه

وبينى حصان الفرج غير ذميمة ... وموموقة فينا كذاك وواموقـــه

وذوقى فتى قـوم فانى ذائـق ... فتـاة اناس مثـل ما أنت ذائقـه

فقد كان فى شبان قومك منكح ... وفتيان هزان الطوال الغرانقه (٣)

وقد استدل بعض الباحثين من تكرار الاعشى للبينونة ثلاث مرات أن الطلاق الثلاث كان معروفا عند العرب (٤) . والظاهر أن ايقاع الطلاق كان لا يتطلب شروطا وقيودا ، وكان فيه اجحاف بحقوق الزوجة فى أحيان كثيرة حتى جاء الاسلام ونظم أحكامه وجعل له شروطا (٥) محكمة مبسوطة فى كتب الفقه . وعلى هذا فلا غرابة اذا كان الطلاق عندهم يعقب ندما فى أحوال كثيرة . يقول عروة بن الورد :ـ

---

(١) سنن ابى داود ج ٢ ص ٢٣٠ ، تفسير الطبرى ج ٤ ص ٢١٠ .

(٢) عمدة القارىء ج ٢٠ ص ١٢١ ـ ١٢٤ .

(٣) الاعشى : ديوانه القصيدة رقم ٤١ ، الاغانى : ج ٢ ص ٨٠ . البائقة ـ الداهية « تسلسل الابيات يختلف عما هو فى الديوان » .

(٤) معجم البلدان ج ٨ ص ١٣٧ ـ ١٣٨ ، محمد بن حبيب : المحبر ص ٣٠٩ . « ينسب هذا الاستنتاج الى عبدالله بن عباس » .

(٥) Scholl: L'Islam & Son Fondateur, P. 277.

أطعت الآمرين بصرم سلمى ... فطاروا فى البلاد اليستعور
سقونى النسء ثم تكنفونى ... عداة الله من كذب وزور
وقالوا ليست بعد فداء سلمى ... بمغن ما لديك ولا فقير
ولا وأبيك لو كاليوم أمرى ... ومن لك بالتدبر فى الامور
اذاً لملكت عصمة أم وهب ... على ما كان من حسك الصدور
فيا للناس كيف غلبت نفسى ... على شىء ويكرهه ضميرى(١)

واستمر يظهر حنينه لها وشوقه الكثير وهى بعيدة عنه وذلك فى قصائد كثيرة له • ويظهر من الابيات ان خلافا كان بينه وبين زوجته ، أو أنه كان فى ضيق نفسى ولكن ذلك كله لم يكن ليستوجب طلاقها لكن البعض من المغرضين أو غيرهم زينوه له بعد أن سقوه خمراً ، أذهب باعتلاكه قواه الفكرية ، وأخذ على يده فطلق ثم ندم أشد الندم •

والذين طلقوا وندموا من الشعراء كثيرون وشعر الندم هذا بجملته فيه عاطفة قوية صادقة وحرقة وعذوبة فى الاسلوب تستدر عطف السامعين• وهذه الظاهرة تدل دلالة قوية على مبلغ تأثير الزوجات العربيات فى نفوس ازواجهن •

ومن الذين تحرقوا حنينا لزوجاتهم عبدالله بن العجلان القضاعى ، اذ طلق زوجته لان أباه أكرهه على طلاقها لانها كانت عاقراً ، وهو يريد الولد، يريد وارثا يرث الرياسة والزعامة عنه ، فحزن عبدالله لطلاقها ، ومات حزناً وكمداً عليها(٢) • ومما قاله فيها بعد طلاقها :ـ

---

(١) عروة بن الورد : ديوانه ص ١٨ ـ ٢٠ • اليستعور ـ بلاد لا يدخلها أحد ، المنسىء ـ المسكر • لوكاليوم امرى ـ لو كنت أملك مثل ما أملك اليوم • الحسك ـ الغل • فيا للناس ـ استغيث بالناس •

(٢) جرجى زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ج ١ ص ١٣٩ •

فـارقت هنـــداً طـــائعاً فندمت عبـــد فراقهـــا
بالعـــين تذرى دمعـــة كالـــدر مـــن آماقهـــا
متحليـــاً فـــوق الـــردا ء يجـــول من رقراقـــها
خـــود رداح طفلـــة مـــا الفحش من اخلاقهـــا
ولقـــد ألـــذ حديثهـــا واسر عنـــد عناقهـــا (١)

ومثل هذا التوجع واكثر أظهر عبدالله بن ابى بكر الصديق اذ أمره ابوه ان يطلق عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل وهى ابنة عم عمر بن الخطاب لانه احبها حبا شديدا حتى غلبت عليه وشغلته عن مغازيه فعزم أبو بكر على عبدالله ان يطلقها حتى طلقها ومما قال فيها بعد الطلاق :ـ

أعـاتك لا انساك ما ذر شـــارق وما نـاح قمرى الحمـام المطوق
أعـــاتك قلبى كل يـوم وليلـــة اليك بمـــا تخفى النفوس معلـق
ولم أر مثلى طلق اليـوم مثلهـــا ولا مثلهـا فى غـير جـرم تطلق
لهـــا خلق جزل ورأى ومنصب وخلق سوى فى الحياء ومصدق (٢)

وكان الطلاق فى بعض الاحيان بيـد الزوجة (٣) ويحصل ذلك فى اثناء العقد ، فتشترط ان يكون أمرها بيدها ان شاءت أقامت ، وان شـاءت تركت معاشرة زوجها أو أوقعت الطلاق. ويحصل ذلك فى زواج الشريفات أكثر . ومن هؤلاء النسوة سلمى بنت عمرو بن زيد الخزرجية ، وفاطمة بنت الخشرب الانمارية ، وماوية بنت الجعيد ، وعاتكة بنت مرة ، وأم خارجة التى ضرب بها المثل « اسرع من نكاح أم خارجة » وقد عرفن بكثرة الزواج،

---

(١) الاغانى ج ١٩ ص ١٠٣ . كما راجع أبياته فيها بعد طلاقهـــا أيضا . الشعر والشعراء ص ١٦٩ .

(٢) ابن الاثير ـ اسد الغابة ج ٤ ص ٤٩٧ ـ ٤٩٨ .

(٣) Perron: Femmes Arabes,P. 14

وبكثرة ما أنجبن[١] .

قال أبو الفرج : « كانت النساء فى الجاهلية ، أو بعضهن ، يطلقن أزواجهن . وطريقة ذلك هى أن المرأة اذا كانت تسكن الخيام وبيوت الشعر تغير جهة البيت ، فتتغير ناحية الباب ، فيعلم الرجل أنها طلقته ، فلا يدخل[٢] . والظاهر أن هذا كان يقع عندما تكون المرأة متزوجة بين أهلها وتحت حمايتهم ، وهذه ميزة قاصرة على الخواص منهن[٣] .

أما أسباب الطلاق فمن الطبيعى أن تكون كثيرة ومعقدة وليس الشعر مجالا للاحاطة بها . لكنه لا يعدم أن يقدم صورا منها . قال عامر بن الطفيل يخاطب زوجته :ـ

طلقت ان لم تسألى أى فارس ... حليلك اذ لاقى صداء وخثعما
اكر عليهم دعلجا ولبانه ... اذا ما اشتكى وقع الرماح تحمحما[٤]

فهو يفخر لها ببطولته فى هذه الموقعة التى قابل فيها فارسين أوحيين وغلبهم . وانه كان مقداما بحيث أن جواده كلما أراد النكوص والتراجع صده هو ودفع به الى الامام وكر به على الخصم . ان هذا الشاعر لا يريد ايقاع الطلاق، انما هو مسرور مما أبداه من شجاعة وبأس ويريد ان تعرف زوجته ذلك عنه وتطيب به نفسا .

---

(١) المحبر لابن حبيب ص ٣٩٨ ، ٤٣٥ ، نهاية الارب ج ٣ ص ٤٧ ـ ٤٨ . ويلاحظ الاغانى ج ١٦ ص ٩٩ ـ ١٠٢ ، مجمع الامثال ج ١ ص ٣١٨ ، معجم البلدان ج ٦ ص ٣٠٧ ، ذيل الامالى ص ١٥٣ ، أخبار النساء لابن قيم الجوزية ص ٥٤ .

(٢) الاغانى ج ١٦ ص ١٠٢ ـ ١٦٠ .

(٣) Levey : Sociology of Islam. Vol. I P. 134

(٤) طبقات ابن سلام ص ١٠٩ ، بلوغ الارب ج ١ ص ١١٧ .

وهناك أبيات تنسب الى زوجة أبى حمزة الضَبي الذى هجرها على أثر ولادتها بنتا وأقام فى خيمة جيرانها • فقالت :

ما لابى حمزة لا يأتينا ؟ يظل فى البيت الذى يلينا
غضبان ان لا نلد البنينا بالله ما ذلك فى أيدينا
وانما نأخذ ما أعطينا ونحن كالارض لزارعينا (١)
ننبت ما قد زرعوه فينا

وهذا غضب ليس له مبرر وهجر سببه الهاجر نفسه • لكن هناك أسبابا جدية وعلل جذرية للطلاق ومنها ما جاء فى قول الشاعر :

لتقعدن مقعد القصى منى ذى القاذورة المقلى
أو تحلفى بربك العلى انى أبو ذيالك الصبى (٢)

فهذا زوج يتشكك ويطلب منها أن توثق دعواها باليمين • والشك وغير الشك ، اذا كان لهما مبرر وكانا فى موقعهما ما كان صاحبها بملوم •

والطلاق بين الزوجين المتغايرين فى الاذواق والطباع كان من خير الادوية لاراحتهما فى نظر العرب • ويمثله قول أعرابى :

رحلت اميمة بالطلاق وعتقت من رق الوثاق
بانت فلم يألم لها قلبى ولم تبك المآقى
لو لم أرح بطلاقها لارحت نفسى بالاباق
ودواء ما لا تشتهيه النفس تعجيل الفراق
والعيش ليس يطيب بي ن اثنين فى غير اتفاق (٣)

---

(١) بلوغ الارب ج ٣ ص ٥١ ، البيان والتبيين ج ١ ص ١٠٤ •

(٢) البيتان ينسبان الى رؤبة بن العجاج • وقال ابن برى : هما لاعرابى قدم من سفر فوجد امرأته قد وضعت ولدا فأنكره •

(٣) عيون الاخبار لابن قتيبة ج ٤ ص ١٢٥ ، العقد الفريد ج ٤ ص ١٧٣ ، حماسة ابن تمام ج ٢ ص ٤١٤ • الاباق ـ الهروب •

والذى نلاحظه كثيرا فى أخبار النساء فى الجاهلية أن المطلقـــات منهن كن يتزوجن فى الغالب بعد طلاقهن ، وقد تتزوج الواحـدة منهن مرات كثيرة حتى يستقر أمرها وتجد السعادة والراحة فى كنف الرجل الذى تريده • وحتى الشريفات ، بنات الاسر الراقية لم يكنّ يجدن فى ذلك بأساء وكذلك اللاتى يتوفى عنهن أزواجهن كن فى الغالب يتزوجن من آخر بعد انتهـــاء عدة الوفاة وهذا مما يجعلنا نعتقد أنهن كن أسعد حالا وكن ينظرن الى الحياة نظرات أكثر ثقة وتفاؤلا من معظم الايامى والمطلقات اليوم • اذ العادة عندنا فى كثير من الاحوال أن تطلق المرأة التى يتوفى عنها زوجها لذائذ الحياة ، فترتدى السواد مدى العمر ، اذ العرف يعتبر هذا وفاء منها لزوجها المتوفى ، وانه من الافضل ألا تتزوج بعده ، الا اذا اضطرت الى ذلك اضطرارا • أما المطلقة فتكاد تشبه حالتها حالة الارملة فى الاعتكاف عن مسرات الحيـاة ، وهذه أمور تسبب فى الواقع كثيرا من الحزن والكدر ، وهى أقل جدوى على الحياة ويجدر بنساء اليوم أن يكففن عن هذه العادات ، ويقتصرن على القدر المعقول منها اقتداء بأخواتهن نساء العرب فى هذا العصر الذى ندرسه •

وتدل الروايات على أن المرأة كانت تحتجر بعد وفاة زوجها فى حفش وهو خيمة صغيرة ، أو فى بناء لتقضي مدة العدة ، ولا تتطيب أو تتزين مدة عام ثم تنهي عدتها بعـد العام بمس الطيب أو بالتزين • ويظن البعض أن الجاهلية لم تكن لتعتد عدة الطلاق ، ولا عدة الوفاة ، انما العدة من وضـع الاسلام •

أما من حيث الارث فلم تكن الزوجة ترث فى الجاهلية بل على العكس كانت تصير مملوكة للابن الاكبر لزوجها وهذا فى بعض الاحيان • وقد تغضب الزوجة ، اذا اسيء ، لها فتذهب الى أهلها وهم كانوا يحمونهـــا ، ويعطفون عليها •

٦ ـ عصبية الزوجة مع قبيلتها :

والزوجة بحكم صلتها بزوجها وباهله كانت تطلع على احوالهم فى حالة السلم وفى حالة الحرب وان لم يخبرها أحد بشىء فهى ترقب وتلاحظ، واذا أرادت الاضرار بهم استطاعت ويدل على ذلك ما حصل فى « يوم الفروق »[١] ولان روح العصبية القبلية عندهم كانت قوية لهذا نجد الزوجة فى الشعر الجاهلى يكون لها ضلع مع أهلها فتشعر بشعورهم ، وتميل ميلهم ، فاذا ما نشبت حرب بين حى أهلها وحى زوجها فهى برغم اخلاصها الشديد لزوجها كانت ، مدفوعة بدافع العصبية القبلية ، تميل مع قبيلتها وهذا هو موقف جليلة أخت جساس فى حرب البسوس ،[٢] وموقف امرأة من بنى النجار فى حرب الاوس والخزرج ،[٣] فكانت هذه الخزرجية قد عرفت نية زوجها ، وقرار الاوس على غزو الخزرج فخرجت بعد أن نام القوم وبلغت قبيلتها ، فأخبرتهم باستعداد الاوس لغزوهم ، وبنيتهم على مداهمتهم وأخذهم على حين غرة ، فاستعدت الخزرج للامر ، فلم ينل منهم الاوس شيئا • واذا صعب على الزوجة فى هذه المناسبات أن تتصل بقومها شخصيا ، كانت لا تدخر وسعا فى تهيئة رسول ترسله اليهم يبلغهم الامر • وكذلك اذا ما تعذر عليها أن تعرفهم بنيات قومها بأسلوب صريح واضح ، كانت تستخدم ذكاءها العالى فى اختيار الرموز حتى تفهمهم بالامر • فكثيرات منهن قد اتخذن الاشارات السرية فى ايصال مقاصدهن • وعلى من يتلقى تلك الاشارات أن يحللها فيتوصل الى ادراك الغرض منها باستخدام فطنته وذكائه • وقد حصل فى حرب

---

(١) النقائض ص ١٠٧١ ، ابن الاثير ج ١ ص ٤١٢ •

(٢) النقائض ص ٩٠٥ •

(٣) ابن الاثير ج ١ ص ٤٩٦

زهير بن جناب مع بنى القين بن جسر [١] أن أرسلت احدى أخوات زهير وكانت متزوجة فى بنى القين « فجاء رسولها الى زهير ومعه برد فيه صرار رمل وشوكة قتاد ، فقال زهير لاصحابه : أتتكم شوكة شديدة وعدد كثير ، فاحتملوا »[٢] فاحتاطوا لذلك واحتملوا له • ومثل هذا ما جاء فى الحماسة[٣] اذ روى عن بعضهن أنهن أنفقن المبالغ الكبيرة لايصال أمثال هذه الاخبار • فقد أنفقت هند زوجة عبد الله بن العجلان النهدية خمس عشرة ناقة فأعطتها الى رسول أخذ على عاتقه أن يخبر قومها بنى نهد بعزم عامر على غزوهم اذ أنها تزوجت فيهم بعد أن طلقها عبدالله [٤] وفى ذلك، قال عبد الله بن العجلان قصيدة منها :

ألم يأت هندا كيفما صنع قومها ... بنى عامر اذ جاء يسعى نذيرها

فقالوا لنا انا نحب لقاءكم ... وانا نحيى أرضكم ونزورها [٥]

وكان أهل الزوجة بدورهم لا يقطعون صلتهم بفتاتهم التى تزوجت فى قبيلة اخرى • هم يتفقدون أحوالها ، ويمدون اليها يد المعونة عند الحاجة ووقت الشدة • روى الاغانى عن الشماخ الذبيانى أنه تزوج من سليم فاساء الى زوجته فضربها وكسر يدها • فعرضت له امرأة من قومها يقال لها اسماء ، وهى لا تعلم انه الشماخ ، فسألته قائلة : ان الشماخ هذا الخبيث قد فعل بصاحبتنا كيت وكيت أفلا تعرف مكانه ؟ فتجاهل عليها وقال لا أعلم له خبرا • وقال فى ذلك قصيدة مطلعها :ـ

---

(١) ابن الاثير ج ١ ص ٣٧٠ •
(٢) الاغانى ج ٢١ ص ٦٧ •
(٣) الحماسة ص ٢٣٣ •
(٤) الاغانى ـ ج ١٩ ص ١٠٤ •
(٥) المصدر السابق •

تعارض اسماء الرفاق عشية تسائل عن ضغن النساء النواكح

وصادف أن دخل المدينة فى بعض حوائجه فتعلقت به بنـــو سليم وطلبوه بظلامـة صاحبتهم ، فانـكر • فقالوا له احلف فجعل يطلب اليهـم ويغلظ عليهم أمر اليمين وشدتها عليه ليرضوا بها منه حتى رضوا ، فحلف لهم فقال فى ذلك :

الا اصبحت عرسى من البيت جامحا بخير بلاء أى امـــر بـــدا لهـــا
على خيرة منها ام العـــرس جامح فكيف وقد سقنـــا الى الحى مالها

الى قوله :ـ

يقولون لى فاحلف ولست بحـالف أخادعهم عنها لكيما أنالهـا (١)

وهذا يصور لنا شيئا من روح العصبية القبلية العنيفة التى كانت ضاربة أطنابها فى الجزيرة حتى جاء الاســلام ، فاستعاض عنها الناس بالنزعـــة الاسلامية ، التى تجعل المؤمنين فى المعاملات اخوة أمام الله ودار الاسلام ، وهى خير من العصبية التى كانت تستند الى الدم وليس فيه فضل لانسان على انسان بخلاف العقيدة والرأى •

على أن ميل الزوجة مع قومها وأهلها لم يكن مطردا عندهن كافة • فقد وجد بعض النساء ملن مع أهل أزواجهن وساعدنهم فى الحرب عـلى قبائلهن • فقد روى أن امرأة كانت متزوجة فى بنى عبس فأتاها أهلهـــا ليضموها اليهم وأخبروها بعزمهم على الحرب ضد عبس فأعلمت بدورهـا زوجها ، الذى أخبر قومه ، واستعدوا فحصنوا مواقعهم ، ولم ينل منهـــم العدو شيئا(٢) • وكل هذه الاخبار تدل على كره المرأة للعدوان •

ولعل من الطريف أن نذكر أن المرأة كانت فى كثير من الاحيان

---

(١) الاغانى ج ٨ ص ١٠٠ •
(٢) النقائض ـ ص ٤٢١ •

تساعد الاسرى الذين يأسرهم قومها فتمدهم بالغذاء والحاجيات ، وقد تهيء لهم وسائل الخلاص من الاسر كما أن من النساء من أحبت أسيرا أسره أهلها . فقد روى عن الحارث بن الابرص أنه وقع أسيرا عند عمرو بن عمر ، فصارت عين ابنة لعمرو تسمو الى الحارث ، الذى كان جميل الطلعة وضيء الوجه ، فشعر أبوها بذلك ، وأراد أن يصرفها عنه ، ليزوجها من رجل دميم الخلقة كان قد أعانه فى حادثة مرت به ، فقال الحارث بن الابرص :-

تعجبت من شوارى بنت عمرو ... وما أنا فى تأسينا بغمر
فكم من فارس لم ترزئيه ... أخى الفتيان فى عرف ونكر (١)

٧ - تأثير الزوجة فى وجدان الشاعر :

يصور الشعر الجاهلى التأثير البعيد الذى كان للزوجة فى نفس زوجها ووجدانه لمكانتها فى الاسرة ومنزلتها الاجتماعية فقد ذكر لها الشاعر فضائله وجعلها ذات كيان فى نفسه وهذا يصور العناية الفائقة التى سعدت بها المرأة فى كنف زوجها ، وتنعمت فى ظلالها . وكيف لا تنعم وقد كسبت قلب الرجل ، واستولت على كثير من مجهوده الفكرى ، وشغلت طويلا من وقته . فكان يقدم لها فى كل مناسبة من ثمار فكره يانعا وشهيا ، ومن سعيه ومجهوده كل عمل يدل على الاهتمام بشأنها والعناية بها .

ولان الزوجة كانت تمجد الفضائل وتكرم أهلها ، لهذا توجه الشعراء بأهم فضائلهم اليها توثيقا للصلات الزوجية وطلبا للاستزادة من تقديرها وعنايتها وأهم هذه الفضائل التى صورها الشعر : هو الكرم ،

---

(١) النقائض ص ٤٠٩ ، الاغانى ج ١٠ ص ٤٢
الشوار - الحسن .

والشجاعة ، والابتعاد عن الدنايا[١] ، وصيانة العرض[٢] ، وحماية الجار[٣] وتحمل الشدائد فى نصرة الموالين[٤] ، واهانة اللئيم[٥] والعفة عند الطمع[٦] ، ولو لم تكن لهذه المزايا قيمة كبيرة فى نفس الزوجة ، وتأثير بعيد فى نظرتها الى الرجل ، لما توجه اليها الشاعر بها ، ولما أعطاها هذه العناية من شعره • أما كيف بسط لها الحديث فيها فسنعرض لذلك فى أهمها :

أ ـ الكرم ـ وقد عرض الشعراء لازواجهم صورا من كرمهم الواسع بأسلوب سهل ممتع واستخدموا فى ذلك المعانى الواقعية ، والافكار التى يصح أن نسميها أفكارا راقية وكل ذلك يدل على رقى المرأة العقلى من ناحية والى مشاركتها الرجل فى أهم تصرفاته من ناحية اخرى ، فهى ركن أساسى فى كيان الاسرة والمجتمع معا • قال حاتم الطائى يخاطب مأوى زوجته :ـ

أماوى ان المال غاد ورائح ... ويبقى من المال الاحاديث والذكر
أماوى انى لا أقول لسائل ... اذا جاء يوما حل فى منالنا نزر
أماوى اما مانع فمبين ... واما عطاء لا ينهنهه الزجر[٧]

---

(١) خفاف بن ندبه ـ الاصمعيات ج ١ ص ١٧ • ناشرها وليم بن الورد ، المفضليات ص ٦٨ « السندوبى » •
(٢) حاتم الطائى ـ شعراء النصرانية لشيخو ص ١٢٠ •
(٣) الاسود بن يعفر ـ ديوانه • القصيدة رقم ٣ ، قيس بن عاصم ـ الاصمعيات ج ١ ص ٣٠ ـ ٣١ ، المنخل اليشكرى ـ الاصمعيات ج ١ ص ١٨ ، الاغانى ـ ج ١٢ ص ١٥٠ •
(٤) عروة بن الورد ـ ديوانه ص ٢٠
(٥) لبيد ـ ملحق ديوانه ـ القصيدة رقم ١ •
(٦) الحادرة ـ المفضليات ص ١١ •
(٧) حاتم الطاءى ـ شعراء النصرانية ص ١٠٨ ـ ١٠٩ •

وكانت الزوجة عنصرا أساسيا فعالا فى هذا الكرم الذى عرف بـــه العرب فى الجاهلية وأشاد بذكره المقيم والظاعن • فالشعر يصور كيف أن أغلب الاجواد من العرب كانوا يستعينون بأزواجهم فى البذل والعطاء وكيف أنهن كن يشاطرنهم فيه • قص هؤلاء الاجواد أحاديث كرمهم على أزواجهم ليظهروا لهن مقدار كرمهم وليشدوا عزائمهن فى المضى على الجود والكرم• فسألوهن أن يفتحن أبوابهن للسائلين والعـافين ، وناشدوهن أن يوقـــدن النيران للمطابخ ويضعن قدورهن فوق أثافيها على التلال والمرتفعات عالهـــا تجلب الاضياف اليهم ، وأسلوبهم فى مخاطبتهن قائم على الحس والتجـربة والشعر الرقيق فاستخدموا العبارات العذبة والالفاظ الرشيقة فى هذا ، خاصة امراؤهم • وهذا يدل على اللطف والمودة التى كانت تتمتع بها الزوجة فى الجاهلية[١] • وكانت تتغلغل فى نفوسهن فضائل الكرم ولهذا نجد لخطابهم آثارا بعيدة عندهن • قال قيس بن عاصم أحد أمراء تميم يخاطب زوجتـــه منفوسة بنت زيد الفوارس الضبى بعناية فائقة :

أيا بنـــة عبـدالله وأبنـــة مـالك ... ويا بنة ذى البردين والفرس الورد
اذا ما صنعت الـزاد فالتمسى لـــه ... أكيلا فانى لست آكله وحـــدى
أخـا طارقا أو جـــار بيت فاننى ... أخاف ملامات الاحاديث من بعدى
وانى لعبد الضيف من غير ذلـــة ... وما بى الا تلك من شيم العبد [١]

وكم كان يسحرهن هذا الاسلوب وهذه المعانى الجميلة الصادرة من دخيلة نفوسهم الكبيرة •

ب ـ الشـجـاعـة ـ وهى من الصفات التى أعجبت بها الزوجـة فكانت تلحظها فى زواجها من خطيبها ، وتتطلبها منه اذا أصبح زوجا لها •

---

(١) قيس بن عاصم ـ الاغانى ـ ج ١٢ ص ١٤٤ ، الحماسة لابى تمام ج ٢ ص ٢٤٤ ـ ٢٤٥ ، صاحب البردين عامر بن احيمر أعطاه المنذر بن ماء السماء بردين •

وترقب فعاله لتضع لها القيم • ولهذا نجد الواحد منهم يعرض لها أعماله ليحظى برضائها وعطفها • قال عامر بن الطفيل يخاطب زوجته :ـ

طلقت ان لـــم تسألى أى فـارس حليلك اذ لاقى صـــداء وخثعما
اكر عليهـــم دعلجـــا ولبانـــه اذاما اشتكى وقع الرماح تحمحما[1]

ولاجل أن يصور لها عظيم فعاله يلح عليها هذا الالحاح لتسأل عنـــه يوم لقى صداء وخثعما وقال لها أنه لم يسأم الحرب الشديدة الهول التى سئمها حتى حصانه الاعجم • وهذا النوع من الشجاعة يسحر ، ولا شك ، قلوب النساء ، ويستهويهن وقد عرف عن الجاهليات أنهن كن يشهدن مع أزواجهن حروبهم ، ويراقبنهم عن كثب فيشجعنهم ويساعدنهم فان لـــم يكن حـاضرات طلب أزواجهن منهن أن يسألن عنهم فيستقصين أخبـــار فعالهـم •

ومما يلاحظ أن النساء كن يرغبن أن يعاملن فى الحرب بشرف فاذا ما أسرت احداهن وعاملها الاسر بقساوة لامته ، ووبخته وهى فى أسرها ، وشنعت عليه[2] لهذا كان الفارس البدوى يتحاشى أن يمد يده فيسىء اليها أو يستلب ملابسها مهما كان حظه من الخشونة والفظاظة[3] • ولهذا كن بدورهن يطلبن من أزواجهن أن لا يغدروا فى الحرب وأن يعفوا عنـــد المقدرة وبهذا خاطب الحادرة زوجته مفتخرا :

أسمى ويحك هل سمعت بغـدرة رفع اللواء لنـــا بها فى مجمـــع

---

(١) عامر بن الطفيل ـ طبقات ابن سلام ص ١٠٩ ، بلوغ الارب ج ١ ص ١١٧ •

(٢) أشار الهذليين لابى سعيد السكرى ص ١١٧ ـ ١١٨ •

(٣) Lane - Pool: Studies in a Mosque, P. 8

انا نعف فـــلا نريب حليفنـــــا ونكف شح نفوسنا فى المطمع (١)

والنساء يعجبن بالقوة التى كثيرا ما تختلط عندهن بالحـــق ومع ذلك فقد سعين الى اخماد حـــروب كثيرة كمـــا فعلت بنت أوس فى حـــرب داحس (٢) .

ج ـ بعض الآراء السامية ـ وقد توجه بها شعراء لازواجهم لانهن أعجبن بها . منها العفة وترك الدنايا والتحلى بالخصال السامية . وهذا مما يدل على أن النساء أنفسهن كن على مستوى من الثقافة ، وربما كانت نساء المدن أكثر حظا من الثقافة بالنسبة للبدويات . ففى مكة ، والمدينة، والطائف، والحيرة كانت النساء تسمع أنضج الافكار وأرقاها من هذا قول عدى يخاطب زوجته :ـ

أعـاذل قـــد لاقيت ما يزع الفتى وأبعـده منـــه اذا لـــم يسـدد
أعـاذل قـــد لاقيت ما يزع الفتى وطابقت فى الحجلين مشى المقيـــد
أعـــاذل مـــا يـدريك أن منيتى الى ساعة فى اليوم أو فى ضحى غد
أعاذل من يكتب له الموت يلقـــه كفاحا ومن يكتب له الفـوز يسعد
أعاذل ان الجهل من لـــذة الفتى وان المنـــايا للرجال بمرصـــد
أعاذل من لا يصلح النفس خاليـا من اللب لا يرشد لقول المفند (٣)

فهذه الافكار وأمثالها انما كانت من نتـائج الاختبارات الطـــويلة ، والتأملات الصائبة لما فيهـا من اتزان كثـير . وهى تصور المستوى الفكرى الرفيع الذى وصلت اليه النساء والتقت فيه مع الرجال ، وهو لم يكن ببعيد على بيئات حضارية مثل هذه . وكان للمرأة قسط كبير من الفراغ أظهرت ميلها فيه الى تهذيب الاخلاق والعادات ، فان معاشرة السيدات كما قـــال جوته ، أكبر مهذب للاخلاق (٤) .

---

(١) الحادرة ـ مفضليات الضبى ص ٦ (لايبزج) . هذا الكتاب ص ١٣٩ .
(٢) الاغانى ج ٩ ص ١٤٢ ـ ١٤٣ .
(٣) عدى بن زيد ـ شعراء النصرانية ص ٤٦٥ .
(٤) المرأة وآراء الفلاسفة لحسين فوزى ص ١٢ ـ ١٥ .

الفصل الرابع

الأم فى الشعر الجاهلى

١ ـ مكان الام فى الشعر الجاهلى :

رأينا فى الفصلين السابقين عناية الشعر الجاهلى الفائقة بالمرأة الحبيبة وعناية تقرب من تلك بالزوجة • وسبب هذه العناية يرجع الى أن الشعر ميدان فسيح ، عند جميع الشعوب ، للتعبير عن العاطفة ، فكلما وجد المحب مثلا فى نفسه حاجة الى مخاطبة حبيبته وجد فى الشعر الاسلوب الجميل لنقل شعوره واحساسه اليها ، فبالشعر كان يطلب رضاها ويجنى ثمار نجواه• أما بالنسبة للام فان الام تحب ابنها بالفطرة وتحبه لذاته حبا صادقا يعتبر المثل الاعلى للحب الانسانى كله • فحبها كماء النهر العذب ، ينساب من قلبها العطوف كما ينساب الماء من قلب الجبل الاشم الى الوادى الاخضر الخصيب ، فهو يشبه ماء النهر فى وداعته وهدوئه ، وفى تدفقه وعذوبته ، لا يتوقف ولا ينى • كما ان حب الولد لامه ان هو الا رجع الصدى لذلك الحب ، ينغم على نغمة ويعود الى مصدره • انه مشتق من طبيعة البنوة ، طبيعة انسجام الفرع مع الاصل •

والابن كثيرا ما يعبر عن حبه بأسلوب صامت عملى حينا وقلبى شعورى حينا آخر ، حتى انه ليرغب فى بعض الاحيان أن يجعله سرا لا يكشف عنه ، ومن هنا ليس بغريب اذا ما وجدنا الشعر الجاهلى يعنى بتصوير الام عناية أقل من عنايته بالمرأة الحبيبة أو الزوجة • ولعل فى هذا شيئا من العدالة الطبيعية من وجهة من الوجوه ، ذلك لان الغالب أن تكون الامهات

فى أول أمرهن من النساء الحبيبات يتغنى الشعـــراء بشمائلهن الحسنة ، ويتغزل بهن المحبون، ثم يصبحن بعد ذلك زوجات لغير عشاقهن ، فى العادة عند العرب ، يلاطفن الازواج ، ويخطبون ودهن • فاذا مر هذان العهدان على المرأة تكون قد أخذت حظها من العناية بالشعر ، فاذا تقدم بها الزمن وانتقلت الى مرتبة الامومة كانت موضع الاحترام والطاعة ، ومناط التقدير • وهذه أمور أقل اتصالا بالشعر من الحب والهوى اللذين كان الشعر لغـة لهما • ومع هذا فاننا لا نريد أن نقول ان صلات الام بابنائها ونظرة المجتمع اليها تنحصر فى الحب والهوى فهناك علاقات كثيرة بينها وبين ابنائها وبيتها وبين أهلها واقربائها والمجتمع الذى تعيش فيه ، علاقات بها من حيث هى أم وربة بيت ومربية اولاد وغير ذلك • هذه العلاقات جديرة بأن تصبـح مجالا لنظم الشعر ، ونحن لم نستبعد الام من فسيح جنانه ومريع وديانه ، وقد أولاها الشعر عنايته ايضا وعلى مقدار تلك الروابط الذاتية والعلاقات الروحية والادوار التى كانت تقوم بها •

٢ ـ الام مناط النسب :

وهذه الصلة القوية بالام وأهلها يرجعها بعض الباحثين الى الاعصر الخالية ، حيث كانت الام مناطا للنسب ، اذ تدور حولها علاقات الافـراد بعضهم ببعض(١) • وقد ذهب كثير من الباحثين الى أن النسبة للام كانت شائعة فى بلاد العرب كلها اذ قال جيمس « وكان الرباط الدموى فى بلاد العرب قديما من جهة الام • فهى ربة البيت ، ويولد أولادها فى البيئة التى تعيش فيها ويحترمها الاولاد والزوج معـا ، ويحبونها • أما قبيلتها فكانت

---

(١) ولكن ـ الامومة عند العرب ص ٤٣ ـ ٤٤ •

على استعداد دائم لموتتها[١] » وهذا مايؤيده المشتغلون بتاريخ القوانين [٢] وقال جيمس ايضا • « والعلاقات الزوجية التى عرفت فيما بعد لم تكن لتعرف فى تلك المجتمعات فى العهد القديم • »[٣]

ولعل من أهم المراجع فى دراسة النسبة فى بلاد العرب قديما الكتاب الذى ألفه العلامة سميث بعنوان (القرابة والزواج فى بلاد العرب قديما) وقد استدل على سيادة نظام القرابة من جهة الام بدلائل كثيرة منها ما يتصل بقواعد اللغة ، كمعاملة اسماء الجموع معاملة المؤنث اذ يؤنث الفعل مثلا مع تميم ، وتغلب • وينوب عنها ضمير مؤنث • وقد رأى العلامة نولدكه[٤] أن هذه القاعدة النحوية كافية وحدها لاثبات النسبة للام فى العهود القديمة[٥] واستدل سمث على ذلك من تعابير وردت فى كتاب الاغانى منها قولهم « قطع الرحم » و « أنشدك الله والرحم » [٦] وكذلك قولهم « ارحام تقطع »[٧] وقال :

« ومما يدل على طغيان النسبة للام عندهم أسماء كثير من القبائل

---

(١) Bevan James: Woman in Islam, P. II
Levey: sociology of Islam Vol I P. 135 ' Lane Pool: Studies in a Hosque, P. 23

(٢) عبدالمنعم بدر ـ تاريخ الشريعة اللاتينية ج ١ ص ٣٨ ، ٧١ ـ ٧٤ •

(٣) Bevan James: Woman in Islam, P. 12

(٤) Noldeke: Geschichte der Perser und Araber etc. zur zeit der Sassanichen

(٥) Smith: Kinship & Mrriage in Early Arabia, P. 32

(٦) الاغانى ـ ج ١٤ ص ١٦ •

(٧) ابن أبى أصيبعة ـ أخبار الحكماء ج ١ ص ١١٦ ،

الموثقة فيرجح أنها اسماء أمهاتهم نحو قبيلة خندف ، ومزينة ، وباهلة ، وبنى الطفاوة ، وبنى سلول ، وبنى جديلة ، وبنى بجيلة وغيرها كلها نُسِبَت الى امهاتها وهى معروفة . فنحن لسنا اذن أمام قاعدة نحوية فحسب وانما امام حقائق أقوى من تلك . وهكذا نقول عن قضاعة وبنى العدوية وبنى ناجية الخ ... (١) وقبائل اخرى كثيرة من مضر وربيعة وكهلان وحمير ، أى من العرب كافة عدنانيين وقحطانيين .

وقد ذكر نولدكه بعض الامثال التى تدل على شيوع هذا الامر حتى بين أمراء العرب فهناك بعض الآثار تدل على بقاء النسبة للام فى أواخر العهد الجاهلى ، منه ما كان يحصل من المساومة أثناء اجراء عقد الزواج فيما يتعلق باتفاقهم على نسبة الاولاد ، هل ينسبون لأمهم أو ينسبون لأبيهم . (٢) والنسبة للأم ليست أمرا خاصا بالعرب بل هى ظاهرة عامة، وجدت عند جميع الشعوب فى عهد من عهودها التاريخية . قال ولكن :-

« ثبت من تحقيق أخبار القدماء وأخبار السياح وأبحاث العلماء العصريين : أن النسبة الى الام أمر يعم جميع الشعوب حتى لا نكاد نرى قوما الا وينسبون للأم فى عهد من عهودهم ، اذ نرى آثارا حية بينة لا تزال باقية عند البعض منهم الى هذا اليوم . وهذا النظام ليس أقدم نظام فى تاريخ الأسرة عند البشر بل هو النظام الذى ساد فى دور من ادوار حياتها . وهذا الدور قد ترك آثارا تدل على شيوعه وتقدمه على عهد النسبة الى الاب (٣) ، فمن الملاحظ من الاليادة مثلا أن صلة الرحم من جهة الام عند اليونان كانت أقوى منها من جهة الأب ومن هذا جاز عندهم

---

(١) ابن ابى أصيبعة : أخبار الحكماء ج ١ ص ١١٦ ، العقد الفريد ج ٣ ص ٢٩٠ ـ ٣٤٠ .

(٢) العقد الفريد ج٣ ص ٢٧٢ .

(٣) الامومة عند العرب ـ لولكن ص ٦

الزواج من الاخت للاب ولم يجز الزواج من الاخت للام[١] . » وقال ولكن فى تعليل هذه الظاهرة « من المقرر اليوم عند العلماء أن أصل الامومة عدم معرفة أب الولد ، وذلك ناتج عن عدم تمسك الهيئة الاجتماعية القديمة بالزواج الشرعى ، الذى يعد حديثا بالنسبة الى حالة الزواج الفوضوية ، التى كانت عليهـا الهيئة الاجتماعية قبـل معرفتها للزواج الشرعى . اذ من المعلوم أن الزواج كان فى أول العمران وقتيا وغير مقيد أى أن المرأة لم تكن مربوطة مع الرجل برباط متين شرعى »[٢] .

أمـا سمث فانه يجزم بأن النسبة الى الام كانت هى القاعـدة المطردة القديمة لدى الجاهليين فى بلاد العرب ، ثم تحولت بعـد ذلك الى النسبة للأباء عن طريق تعدد الازواج الذى حدث عندهم بسبب أسـر النساء فى حروبهم وغزواتهم[٣] . والنسبة للام قد ذهب العلمـاء فى أسبابهـا مـذاهب شـتى[٤] وقسـموهـا الى أدوار ولاحظـوا آثـار ذلك فى امـور كثـيرة[٥] .

والشعر الجاهلى كما يبدو لنا ليس ميدانا لتفصيل تلك الاحوال التى ترجع الى عهود قديمة ولان الشعر نفسه لا يعنى كثيرا بالشرح والتعليل لمثل هذه المظاهر . ومع هذا فاننا نجد فيه بعض اللمحـات والآثار الدالة على وجود عهد نسب فيه الابناء لامهاتهم كما نجد مثل هذه الآثار فى اللغة

---

(١) C. Letourneau: La Condition de la Femme, P. 409

(٢) الامومة عند العرب ـ لولكن ص ٧ .

(٣) Smith: Kinship & Marriage, P. 178

(٤) Mac. Lennan: Studies in the Ancient History, Primitive Marriage P. 124

(٥) محمد جميل بيهم ـ المرأة فى التاريخ والشرائع ص ٨ .

والتاريخ وغيرهما • أما فى الشعر فنلحظ هذه الآثار مثلا فى قول لبيد بين يدى النعمان :

نحن بنــو أم البنين الاربعـــة سـيوف جز وجفـان مترعة (١)

فنسبت أنفسهم الى أمهم وهى أم البنين ولا تلقب بهذا الاسم الاّ الحرة(٢) وكذلك جاء فى لامية العرب :

أقيمـوا بنى امى صدور مطيكم فانى الى أهل سواكم لاميل (٣)

فقد ناداهم بنسبتهم الى امهم ومن هذا قول بشـر بن أبى خازم فى عمرو بن الحارث اذ مدحه بقوله :ـ

فالى ابن ام اياس أعمل ناقتى عمرو فتنجح حاجتى أو ترجف (٤)

وأم أياس هذه بنت عوف بن محلم الشيبانى وبنتها هند زوجة المنذر بن ماء السماء •

٣ ـ الام تفقد ميزة النسبة اليها :

وفى عهد من العهود بدأ الانتقال من نسبة الاولاد الى امهم فصاروا ينسبون بصورة تدريجية لآبائهم لشيوع الروح العسكرى(٥) أو لظهور ضرورة الزراعة وحصول الملكية أو لنشوء عبادة الاجداد(٦) حسـب الآراء المختلفة التى ذهب اليها العلماء • والظاهر أن الشعر الجاهلى حديث

---

(١) لبيد بن ربيعة ـ الاغانى ج ١٤ ص ٩٥ (وروى الاغانى عجز هذا البيت « ومن خيار عامر بن صعصعة » ج ١٦ ص ٢٣) •

(٢) دائرة المعارف الاسلامية مادة (أم ولد) ص ٦٣٥ •

(٣) تنسب للشنفرى الازدى •

(٤) بشر بن أبى خازم ـ الاغانى ج ١٥ ص ٨٧ •

(٥) Spencer: Woman's Share, III P. 284 - 304

(٦) G. Rechard: La Femme dans L' Histoire, P. 152

بالنسبة الى عهد الانتقال هذا على ما ذهب اليه أكثر الباحثين(١) .

وقبل أن تزول عادة النسبة للامهات القديمة تماما لابد أن نتوقع حالة مرت بها العرب كان يجوز فيها للابن أن يلتحق بقبيلة امه أو بقبيلة أبيه ، وهذا ما حصل بالفعل فقد روى سمث « أن النسبة للام أو للاب كانت تحصل فى المراسيم التى تقدم فيها الضحايا والقرابين باسم الولد بعد ولادته عندهم ، وهذه خطوة الانتقال بين النسبة الى الام والنسبة للاب ومما يدل على هذا رغبة زهير بن أبى سلمى فى أن ينتمى الى قبيلة امه »(٢)

وفى هذا الدور كانت القبائل لا ترغب فى أن تزوج بناتها من القبائل الاخرى ، اذ ترغب أن تبقيهن ليلدن لهم الاولاد ، ومن هنا شاعت عادة البناء بالشريفات فى قبائلهن ، ليحموهن من جهة ، وليكون أولادهن من أبناء قبيلتهم بالفعل وبتأثير التربية . أما القاعدة ذاتها فكانت قد تقررت بحكم العادة وهى أن ينسب أبناء البنات الى قبائل أزواجهن أى ينسب الابن الى أبيه كما قال الشاعر :

بنونا بنو أبنائنا وبناتنا بنوهن أبناء الرجال الاباعد (٣)

على أن النسبة بعد أن صارت للآباء لم تنعدم صلات الابن بأقربائه لأمه . فان الواحد ، وان لم يترك قبيلة امه ، كانت تربطه بأخواله وقومهم علاقات وواجبات دموية متينة ، عليهم رعايتها كافة . وصارت مساعدة الاخوال لابن اختهم ومساعدة الولد لاخواله من الامور المرعية . حتى أن بعضهم كان يترك من أمواله نصيبا لابن اخته من بعد موته ، كما فعل بشامه بن الغدير مع ابن اخته زهير بن أبى سلمى . وكان بشامة ، كما

---

(١) Blunt: The Seven Gelden Odes P. 10

(٢) Smith: Kinship etc P. 129 - 132

(٣) الحماسة ـ شرح التبريزى ص ٢٦٠ .

هـو معروف ، مثريا وذلك بالاضافة الى ما تركه له من ثروة شعرية عظيمة(١) .

وفى الشعر الجاهلى كثير مما يصور هذا الميل المزدوج من التعلق والنسبة لأهل الاب وأهل الام معا من هذا قول عنترة :

واذا الكتيبة أحجمت وتلاحقت ألفيت خيرا من معم مخول (٢)

وقول عامر بن الطفيل :

فما سودتنى عامر من وراثة أبى الله أن أسمو بام ولا أب (٣)

وقد روى أن سلمة بن الخرشب قال يخاطب قوما جاءوا يحاربون ابن اخته الربيع ابن زياد :ـ

أتيتم الينا ترجفون جماعة فأين أبو قيس وأين ربيع

وذلك ابن اخت زانه ثوب خاله وأعمامه الاعمام وهو نزيع (٤)

فمن هذا يتضح كيف أن نظرة العرب فى النسب قد تغيرت بتقدم الزمن فلم يعودوا ينظرون الى صلة الام فحسب ، بل نظروا الى صلة الابوين معا. قال فون كريمر Von Kremer

« ان آراء العرب القديمة فى شرف النسب فقدت أهميتها وسلطتها على العقول وذلك لأن أفكارهم تغيرت تماما يوم صاروا ينسبون الاصل للابوين معا ، فكان من نتائج هذا التغير التدريجى الاستحالة على ابن الامة أو الجارية أن يرث عرش الملك حتى عصر الخلفاء الاسلاميين(٥) .

---

(١) الاغانى ـ ج ١٠ ص ١٥٧ .

(٢) عنترة ـ المرآة فى التاريخ والشرائع لمحمد جميل بيهم ص ١١٦٠ .

(٣) عامر بن الطفيل ـ تاريخ آداب اللغة العربية لجورجى زيدان ج ١ ص ١٢٤ .

(٤) الاغانى ـ ج ١٦ ص ٢٢ .

(٥) فون كريمر ـ تاريخ العمران فى الشرق ج ٣ ص ١٦ .

وحالات التطرف بالنسب الى الامهات أعقبها ، بعد عصور ، حالات تطرف بالنسب الى الآباء حتى أنه روى عن رجل ازدى كان يطوف حول الكعبة ويدعو لابيه فقال رجل يسأله « هلا دعوت لامك » فأجابه « ان امي تميمية » (١) ومما يصور تأخر صلة الام بالنسبة لصلة الاب قول غسان بن وعلة :ـ

اذا كنت في سعد وامك منهم ... غريبا فلا يغررك خالك من سعد
فان ابن اخت القوم مصغى اناؤه ... اذا لم يزاحم خاله باب جلد (٢)

٤ ـ الام في صلات العصبية :ـ

تدل البحوث الادبية والتاريخية على أن الام كانت محورا تدور عليه كثير من الاحداث الخطيرة في الجاهلية حتى ان الرواة والاخباريين والمؤرخين يصعب عليهم تفهم تلك الاحداث من دون معرفة العلاقات بين الأفراد ، الذين يتصلون بها ، والقرابة من جهة الام التي بينهم ، ذلك لقيمة هذه القرابة في نفوسهم • وقد صور الشعر ما يدل على هذه القيمة وتأثيرها في علاقاتهم وصلاتهم المختلفة • قال غلاق بن مروان بن الحكم بن زنباع في حرب داحس والغبراء :ـ

هم قطعوا الارحام بيني وبينهم ... وأجروا اليها واستحلوا المحارما
فيا ليتهم كانوا لاخرى مكانها ... ولم تلدى شيئا من القوم فاطما (٣)

كما أوضح أثر القرابة في نفوس أبناء القبائل ، نابغة بني جعدة بقوله :

---

(١) الكامل ح ١ ص ١٩١ •
(٢) حماسة أبي تمام ج ١ ص ١٤٣ •
(٣) حماسة أبي تمام : ج١ ص ١٢٧ • أجروا اليها ـ اجروا فعلهم الى القطيعة •

وشـــاركنا قريشـــا فى تقاهـــا وفى أنســـابهـــا شـــرك العنـــان
بمـــا ولدت نســـاء بنى هـــلال ومـــا ولدت نســـاء بنى ابـــان (١)

فأشـار الى آمنـة بنت ابان أم أبى معيـط وكانت تحت أميـة بن عبدشمس ، فلما مات خلف عليها ابنه أبو عمرو على قاعدتهم الجاهلية • نعم كان على الرواة أن يعرفوا هذه الصلات بين القبائل والافراد اذ ان الاحداث يختلف تصورها ومعرفة طبيعتها بادراك هذه الصـلات العائلية التى تستند على القرابة من الام وكثيرا ما يغيب عنهم سبب العداوة أو الصداقة بين أبطال قصة من قصصهم ، ولهذا نجدهم اذا ما استبان لهم وجه القرابة من جهة الام، عنوا عناية خاصة بذكرها ثم بنوا أحكامهم عليها فهم يذكرون اسم الام وقبيلتها وصلتها بالافراد الآخرين لايضـاح قضيـة من قضاياهم (٢) كان من الضرورى جدا فى البيئة التى شاع فيها نظام تعدد الازواج معرفة الام وقوة صلة الافراد بها وخاصة منهم الاخوة والاخوات ان كانوا من ام واحدة أو من امهات متعددة الامر الذى عنى به الرواة أحيانا (٣) فحسبوا للقرابة من الام حسابا • قال القتال الكلابى :ـ

نشـدت زيـادا والمقامـة بيننـا وذكرتـه أرحـام سـعر وهيثم
فلمـــا رأيتُ انـه غـير منتـــه أملت له كفى بلدن مقـــوم (٤)

لقد صور الشاعر بوضوح كيف كان تأثير الصلة من جهـة الام فى المهادنة التى انتهجها أولا مع خصمه زيادة كما صور مدى هذه الصلة فى التأثير على استمرار المهادنة حتى القطيعة والحرب •

---

(١) الاغانى ج ١ ص ٩ ٠
(٢) النقائض ص ١٩٠ ٠
(٣) Ils Lichtenstadter: Woman in the Aiyam Al - Arabe P. 6
(٤) حماسة أبى تمام ج ١ ص ٤٩ ٠

٥ ـ صورة الام فى نفوس بنيها :ـ

يفتح الطفل عينيه فى هذه الحياة فيرى انه معلق بامه، تلتف ذراعاه على عنقها، ويستريح فى حضنها ، وينام على صدرها • فيعرف ، من أول يوم يقدر فيه أن يحس ويدرك ، أنه جزء من امه ، وتقوى هذه المعرفة وتشتد كلما نما وشب • وشعور الابن العربى باتصاله بامه من أقوى أنواع هذا الشعور الذى لدى أبناء الشعوب كافة • انه يعلم انه يشارك امه حظها فى الوجود ، يشاركها فى مجدها وقوتها وشرفها ويعلم انه منها واليها • والسر فى ادراك العربى لهذه المعانى أكثر بكثير من أبناء الامم الاخرى يعود الى محيطه وطبيعته • فمحيطه محيط عصبية وتكتل وتفاخر وتنابز • وطبيعته وتربيته بسيطة وليس لديه تعقيد فكرى وهو قوى الملاحظة شجاع جواد وفى ، كل هذه الصفات جعلته يضع من كان سببا لوجوده نصب عينيه كل حين • والشعر الجاهلى يبين كيف كانت صورة الام فى نفوس بنيها واضحة قوية • قال زياد بن واصل السلمى :ـ

عزتنا نساء بنى عامر ... قسمنا الرجال هوانا مبينا
ونحن بنوهن يوم الصفا ... ق ، اذ نقبل القوم وعثا حزونا
بضرب كولغ ذكور الذئا ... ب تسمع للهام فيها رنينا

الى قوله :ـ

وكنا مع الخيل حتى استوت ... شباب الرجال وسروا العيونا
ولما تبين أصواتنا ... بكين وفدينا بالابينا (١)

يريد أنهن انتسبن الينا احتماءا بنا فأثرن النخوة فى نفوسنا فأولينا الخصوم ظلما ومهانة ، كيف لا ونحن يوم الحرب اذ نقابل الخصوم دفاعا

---

(١) المفصل للزمخشرى ج ١ ص ٣١٦ ـ ٣١٧ •

عنهن قابلناهم بضرب شديد ، فلما سمعن أصواتنا بكين وافتدينا بآبائهن .

لنتأمل مليا من أين تنبع هذه البسالة والفتوة الحقة ، من الذى الهم هؤلاء الابناء أن يسوموا الرجال ذلك الهوان المبين ؟ ومن الذى أذكى فى نفوسهم القوة والجلد فضربوا الاعداء ضربا « كولغ ذكور الذئاب » فقرعوا هاماتهم وانشعبت بعد رنين والى آخر هذا اللون من الفروسية الصادقة ؟ من أين نبعت تلك الشهامة والنخوة لنجدة من دعونهم بالبنين ؟ انها ، ولا شك ، نبعت من قلب الام فسرت الى أفئدة الابناء ولاحت فى سواعدهم القوية . هذا ما يلمسه قارىء الابيات بشكل واضح لا غموض فيه .

ومما يصور شدة اعتزاز الابناء بامهاتهم وتعلقهم بهن قول اياس بن قبيصة :

فما ولدتنى حاضن ربعية ... لئن أنا مالات الهوى لاتباعها (١)

فالشاعر يدعو على نفسه أن لا تكون الحاضن الربعية قد ولدته اذا ما اتبع ما نهى نفسه عن اتباعه ، وكان قد نهاها عن اتباع النساء . وفى هذا الدعاء دلالة واضحة جدا على شدة تعلق المرء بامه وشعوره بالفخار لصلته بها . فهو يدعو على نفسه أن يفقد ذلك الفخار والجاه العظيم الذى جاءه منها اذا ما خالف عهده ، واذا كانت الام ممن عرفن بمقامهن الرفيع وشرف مكانتهن الاجتماعية كان تعلق الاولاد بها ومحافظتهم على تلك الصلات أمرا ملحوظا .

ومما يدل على مثل هذا الشعور تفديه جواد العرب المشهور بامه وخالته ، ولا يفدى الا بأعز ما لدى الانسان خاصة اذا كان مثل حاتم . فقد قال :ـ

فمهلا فداك اليوم امى وخالتى ... فلا يأمرنى بالدنية أسود (٢)

---

(١) حماسة أبى تمام ج ١ ص ٥١ ، شعراء النصرانية ص ١٣٧ .

(٢) حاتم الطائى ـ شعراء النصرانية ص ١١٣ ، (ومثله قول الاسود فى ديوانه القصيدة رقم ٣٣ « فدى لك امى يوم تضرب واثلا ... »

فهو يحس بما جاءه من شرف عظيم من امه وخالته لان الام الشريفة تكسب ولدها من جاهها وشرفها • وهذا ما كان يحس به الافراد فى تلك البيئة التى كانت تعنى أجل العناية بالعزة والجاه والشرف وتفخر بالانساب • وبعكس هذا الام الوضيعة المغمورة النسب فكانت ضعتها تؤثر فى ابنها حتى وان كان من الاكفاء • فمن هذا يظهر كيف أن الام تشارك ابنها فى شرفها وضعتها شاء أم أبى يرتفع برفعتها ويتضع بضعتها • يقول عروة بن الورد :ـ

هم عيّرونى أن امى غريبة ... وهل فى كريم ماجد ما يعير (١)

فهو يرى أن فضله وكرمه ينبغى أن يغنى عن النظر الى أصل امه ، ولكن الناس لا يرون ذلك وانما هو مجرد دفاع دافع به عن نفسه ولهذا نجده يخلطه بامور اخرى • وهذا اللون من الدفاع يدل على أن فى قرارة النفس شيئا من الشعور بالنقص اذ يحاول أن يوجه أنظار الناس الى نواح اخرى فى الابيات التالية • ومن دفاعه أيضا :

أعيّرتمونى أن امى نزيعة ... وهل ينجبن فى القوم الا النزائع

وما طالب الاوتار الا ابن حرة ... طويل نجاد السيف عارى الاشاجع (٢)

فيقول ان النزائع هن المنجبات ، فليس من عار اذن أن يكن نزائع • ويعود يتحدث عن نفسه بأنه طالب للاوتار آخذ للحقوق ، والذى يجد فى طلب الثأر وينال حقه هو ابن حرة • فكأنه يريد أن يقول أن امه كالحرة وليس فى انتزاعها أى عار ما دامت قد انجبت ولدا طويل نجاد السيف ، فارسا ، خشنا صبورا يأخذ حقه بيده •

ومما يصور الشعور القوى بالصلة بالام ما روى من أن رجلا يمانيا من

---

(٣) عروة بن الورد ـ ديوانه ص ٣٩ •

(٤) المصدر السابق ص ٤٤ ، شعراء النصرانية ص ٩١٤ (ويقول المثل العربى النزائع لا القرائب ـ الميدانى ج ص ٣٠٥) •

أم حنظلية قال لخصمه وهو يرميه بسهمه « خـذه منى فان امى حنظلية » فأجابه الخصم « ثكلتك امك ، لقد نازلنى كثير من أبناء الحنظليات فلم ينالوا منى شيئا » (١) ومن هذا يتضح أن كلا من المتخاصمين قد اعترف مبدئيا بأثر القرابة والصلة من جهة الام كأنها قاعدة أساسية مسلمة أى أن الانسـان يكسب من امه بالوراثة ما عرف عنها من شجاعة وكرم وجاه وغير ذلك من الصفـات .

وليست الام وحدها هى التى تؤثر فى خلق الاولاد بنظر العرب ، انما كانوا يعتقدون أن صفات الخال تنتقل أيضا الى ابن اخته ولو بعد زمن طويل فمن أقوالهم الدالة على ذلك قولهم « نزعة عرق الخـال » (٢) ولا زالت هذه الامثال وأشباهها شائعة فى دنيا العربية اليوم ، كلها تدل على أثر الخئولة فى ابن الاخت . فنقول أمثالنا « ثلثا الولد لخاله » و « الاصيل يخول » (٣) وأهم من هذا أن النبى صلى الله عليه وآله لما أراد أن يكرم سـعد بن أبى وقاص قبض على يده وقال « هذا خالى » (٤) .ويستفاد مقدار اعتقادهم فى تأثير الخئولة أيضا من كلام عمرو بن الاهتم عن الزبرقان بن بدر ، أحد شيوخ العرب المشهورين ، حين أراد أن يذمه عند النبى الـكريم اذ وصفه بأنـه « زمن المروآت ، ضيق العطن ، أحمـق الولـد ، لئيم الخال » (٥) قال الشاعر يمتدح خاله :

---

(١) النقائض ص ٥١ .

(٢) الطبرى ج ١ ص ٩٩ .

(٣) كثير من هذه الأمثال نجدها شائعة فى العراق ومصر وسورية والحجاز والمغرب وغيرها من البلاد العربية .

(٤) ابن الأثير : أسد الغابة ج ٢ ص ٢٩١ . أم الرسول زهرية بنت عم سعد يجتمعان فى عبدمناف .

(٥) العقد الفريد ج ١ ص ١٤٤ .

خـــالى لانت ومن عويف خـــاله ينـــل العلاء ويكرم الاخوالا (١)

وفى هذه الاقوال كلهـا وغيرهـا دلالة قوية على تأثـير الأم وتأثـير الخئولة عندهـــم(٢) . وقد تبين من الامثال التى جمعها « فريتاج » ان العرب اذا أرادوا أن يقفوا على حالة المرأ يسألونه عن خاله أولا ، لا عن أبيه ، كما تبين لهـذا الباحث أن الشـرف الحقيقى الاصيل عندهم هو الذى يأتى من المرأة لا الرجل(٣) . والظاهر عندنا ان هذا كان فى العهود المتغلغلة فى القدم من العصر الجاهلى . هذا ويجدر بنا ان لا يغيب عن ذهننا أن علاقة الخئولة لا تقتصر على علاقة الخال أخ الأم وحده وانما هى علاقة قبيلة الخال كلهـــا(٤) . فكثيرا ما يكون ارتباط رجل بآخر انما يرجع الى علاقـــة الخئولة ومن أجل ذلك يذكر الرواة الام الى جانب ابنها فيقال مثلا . ان امه مارية بنت نهشل بن دارم .(٥) ويكون هذا اذا كانت الام شريفة مشهورة وأغلب الظن ان لعهد الامومة القديم عند العرب اثر فى تقوية هذا الرباط بين الرجل واخواله بحيث صار الخال احيانا اقرب من العم وهذه الظاهرة نجدها عند الساميين كافة(٦) .

ولهذه الصلة فى نظرهم كانوا يعتبرون طلب المسـاعدة من الاخوال

---

(١) هـذا البيت من شـواهد سيبويه التى لم يعرف قائلهـا . ويروى جرير وتميم ج ١ ص ٢٢٨ .

(٢) Bevan James: Woman in Islam P. 19

(٣) Fereytaz: Einelintung in des Studium du Arabishen Sprache , P. 46

(٤) Smith: Kinship & Marriage P. 71 Ils
Lichtenstadter: Weman in the Aiyam Al-Arab P. 7

(٥) النقائض ص ٩٤٥ .

(٦) Encyclopaedia of Religoin Vol 8 P. 467

أمرا مقبولا ، وان كان من يعتمد منهم على نفسه ويستغنى عن مساعدة الاخوال يقدر فى نظرهم • فقد روى أبو الفرج عن ابن الكلبى أن ريحانه بنت معد يكرب الزبيدى قالت لدريد بن الصمة ، بعد أن مر حول كامل على مقتل أخيه : « يا بنى ان كنت عجزت عن طلب الثأر بأخيك فاستعن بخالك وعشيرته من زبيد » فأنف من ذلك وحلف لا يكتحل ، ولا يدهن ، ولا يمس طيبا ، ولا يأكل لحما ، ولا يشرب خمرا ، حتى يدرك ثأره • فغزا غزاته وجاءها بذؤاب بن اسماء فقتله بفنائها وقال : « هل بلغت ما فى نفسك ؟ » قالت : نعم ، متعت بك[١] • وفى كلامها هذا معنى اللوم على طول مدة الاخذ بالثأر وكان دريد قد حزن حزنا عميقا على أخيه • ومما قاله فى رثائه ، يذكر رابطة الامومة بينهما :ـ

اعاذلتى كل امرىء وابن أمه متاع كزاد الراكب المتزود[٢]

وفى هذا ما يصور علاقة الاولاد بأمهاتهم وأقربائهن • ومع ذلك فقد روى على سبيل الاستثناء بعض الحوادث الدالة على ميل الولد مع أقرباء أبيه على أخواله ، فقد ثأر بعضهم لابيه من أخواله[٣] ومن هذا ما روى عن ابن جليلة زوجة المهلهل من أنه قتل جساسا خاله مع أنه كان يعيش فى كنفه وذلك ثأرا لأبيه[٤] • وكما فعل أبو جدابة اذ انتصر لشيبان على أخواله[٥] •

وقد صور الشعر الجاهلى اضطراب العلاقة بين الرجل وبين أخواله فى بعض الاحيان اذ من الجائز أن تفسد الصلات بين الاقرباء بسبب بعض

---

(١) الاغانى ج ٩ ص ٦ ، ج ١٤ ص ٢٦ ، النقائض ص ٧١ ، ٥٨٣ ، ١٠٦١ •

(٢) دريد بن الصمة ـ الاغانى ج ٩ ص ٤ •

(٣) النقائض ص ٦٨٠ •

(٤) الاغانى ج ١٤ ص ١٥٠ ،
G. de Percival, Vol. II P. 336

(٥) شاعرات العرب لبشير يموت ص ٢٦ •

الامور ، وان كانت العادة أن يكون الأخوال مناصرين ومحبين لابن أختهم ، ولهذا لم نجد فى الشعر الجاهلى ما يدل على أن العلاقة كانت تسوء الى درجة أن تنقطع جميع وشائج القرابة والصداقة بين الرجل وأخواله، وكل ما هنالك أن الصلات قد تضطرب الى حد ما وتتكدر العلاقات الى حين الا أن شعور القربى يبقى على الدوام • هذا ما صوره شعر المتلمس فى أخواله تصويرا واضحا • اذ عيره بعضهم بأمه فقال يرد عليه :ـ

يعيرنى امى رجال ولن ترى ... أخا كرم الا بأن يتكرما
ومن كان ذا عرض كريم فلم يصن ... له حسبا كان اللئيم المذمما
أحارث انا لو تشاط دماؤنا ... تزيلن حتى لا يمس دم دما

فكان بعض الافراد عيروه بأمه وقد غضب لذلك فقال ، انه كريم وعلى الكريم أن يحفظ كرامته وأن يدافع عن شرفه وحسبه ، وان لم يفعل ذلك كان لئيما مذمما • ثم يتوجه الى رجل سماه حارثا ، وهو الحارث بن التوأم اليشكرى ، وكان عمرو بن هند قد سأله عن نسب المتلمس ، فأراد أن يدعيه وهو من أخواله ، لان المتلمس ، كما هو معروف ، نشأ فى أخواله بنى يشكر ، ومع ذلك لم يرض الا أن ينسب لقومه ، فقال له ان دمى ودمك لو أمكن أن يفصلا لانفصل أحدهما عن الآخر ، وتميزا منفصلين بحيث لا يقتربان ولا يتماسان • واستمر يرد عليه بقوله :

ولو غير أخوالى أرادوا نقيصتى ... جعلت لهم فوق العرانين ميسما
وهل لى أم غيرها ان تركتها ... أبى الله الا أن أكون لها ابنما[1]

فهو يقول : لو ان الذين عابوه كانوا غرباء عنه لهجاهم وانتقم منهم • فهو اذن يشعر بأن أخواله منه فليس له أن يعيبهم أو ينتقصهم ، ثم يقول انه ليس له أم غير امه هذه فلا يستطيع

---

(١) المتلمس : ديوانه القصيدة رقم ٢١ ، الاغانى ج ٢١ ص ١٨٧ •

أن يتركها ولا أن يكون لها الا ابنا بارا كريما • ويصور بعد هذا حاله لو أراد أن يقتص من أخواله ، فيعبر عن حبه وصلته المتينة بهم أثناء ذلك :-

وما كنت الا مثل قاطع كفه ... بكف له اخرى فأصبح أجذما
فلما استقاد الكف بالكف لم يجد ... له دركا فى أن تبينا فأحجما
يداه أصابت هذه حتف هذه ... فلم تجد الاخرى عليها مقدما
فأطرق اطراق الشجاع ولو يرى ... مساغا لنابيه الشجاع لصمما
وقد كنت ترجو أن أكون لعقبكم ... زنيما فما أجررت أن أتكلما (١)

انه يقول : اننى ان قاصصت أخوالى أكون كمن له كف يقطعها بكفه الاخرى ثم ينثنى على هذه الاخرى الباقية فيقتطعها جزاء لها على قطعها الاولى فيعود بالتالى وقد فقد كفيه معا وتألم مرتين عند قطعه الكف الاولى ثم عند قطعه الكف الثانية لان الجرم والجزاء معا قد وقعا فيه • ويقول اننى قد تصورت هذه القضية بالنسبة لاخوالى فأحجمت عن مطالبتهم بالثأر اذ لم أجد طعن اخوالى بهجائى جائزا فهم منى وأنا منهم • وان مثلى واياهم كمثل الحية التى تحمل فى أنيابها السم الزعاف ولكنها لا تجد موضعا تنفثه فيه فتظل مطرقة حيرى • اننى مع اخوالى كهذه الحية فليس لى أن أنفث فيهم سم قصائدى لاننى ان فعلت أكون قد هجوت نفسى •

ونجده يصور أخيرا الام باعتبارها صلة للقرابة والعلاقات التى يرى أن المحافظة عليها أمرا ضروريا • ويشبهها فى ربطها الافراد بعضهم ببعض بالحبل ، فان الحبل اذا ما زيد فى فتله لابد أن يؤدى ذلك أخيرا به الى أن ينقطع كما يشبه الصلات بالأديم الذى اذا ما كثر فيه الخرق فلا يفيد فيه التكتيب ، والربط :-

---

(١) المتلمس - ديوانه - القصيدة رقم ١ ، الاغانى - ج ٢١ ص ١٨٧ ، مجموع اشعار العرب لوليم بن الورد ج ١ ص ٦٤ •

اذا لم يزل حبل القرينين يلتوى فلابد يوما من قوى أن تجذمـــا
اذا ما أديم القـوم أنهجـه البـلى تفرى وان كتبتـه وتخرمـا (١)

فالمتلمس اذن يحب أخواله ، ويتولاهم ، وهذا لا يمنع صلته بأقربائه من أبيه ، وحبه لهم ، فهـو يرى كلا من هـؤلاء له مكانته فلا ينبغى أن تطغى علاقته ببعضهم على علاقته ببعضهم الآخر يقول :

ألـكنى الى قـومى ضبيعـة انهـم أناسى فلوموا بعـد ذلك أو دعـوا
وقـد كان أخوالى كريما جوارهم ولكن أصل العود من حيث ينزع (٢)

فأعمامه فى نظره هم أصله الذى نزع منه وعليه أن يرجع اليهم وان كانت علاقته بأخواله كريمة ومحترمة فى نظره .

٦ ـ الام المربيـــة :ـ

يدل الشعر والاخبار والقصص على أن الام العربية كانت لها آثار بعيدة فى تربية ولدها وفى تكوين عاداته وأخلاقه . وكانت تترك لشخصها صورة واضحة جلية كأحسن ما يكون الوضوح والجلاء فى نفس ولدها ، ولا يغيب عن باله ما نشأته امه عليه من العادات والاخلاق طرفة عين . وكان يجد فى امه مصدرا للقوة والبأس ، ومصدرا للعطف والحنان . وهى سراجه الذى يهديه فى هذه الحياة وكهفه الذى آواه ففتح عينيه فى أحضانـه ، هى مدرسته الاولى والمربى المخلص المطاع .

كان العرب يؤمنون بآثار التربية والوراثة ايمانا قويا واكثر ما ذهبوا اليه هو نتيجة تجاربهم وملاحظاتهم الدقيقة وقد أقر العلم الحديث كثيرا من آرائهم . والعرب عرفوا بحرصهم على تربية الطفل وكانت الامهات تغرس

---

(١) المتلمس ـ ديوانه ـ القصيدة رقم ١ .
(٢) المصدر السابق .

فى نفوس الابناء منذ نعومة أظفارهم حب الرجولة والفضائل الموروثة ، فقد روى عن منفوسة بنت زيد الخيل أنها كانت ترقص طفلها وتغنى له بقولها :

اشبه أخى أو اشبهن أباكا أما أبى فلن تنال ذاكا
تقصر عن مناله يداكا(١)

فهى تقوى فى نفس طفلها حب الاستطلاع وتوجه نظره الى معرفة أحوال جده لامه ليعرف مآثره كما توجه نظره الى خاله وأبيه وكلهم فارس جواد. وروى عن أم عبدالله بن عباس أنها كانت ترقص ابنها وتناغيه قائلة :

ثكلت نفسى وثكلت بكرى ان لم يسد فهرا وغير فهر
بالحسب الوافى وبذل الكثر(٢)

وروى عن فاطمة بنت أسد أنها كانت ترقص عقيل بن أبى طالب وتقول :-

أنت تكون ماجد نبيل اذا تهب شمأل بليل(٣)

فنبعث فى نفسه الامل والثقة وحب الكرم. والعرب منذ القديم كانوا يؤمنون بأن فى أحضان الكريمات ينشأ الرجال الكرام والابطال العظام ، لان آثار الامهات وصور الوالدات تكون بادية فى نفوس الابناء . فقد رويت روايات وأشعار كثيرة تصور ما يعتقدونه من تأثير تربية الامهات واحوالهن على الاولاد . فذكروا مثلا أن الغيرى لا تنجب ، يقول عمرو بن معد يكرب :-

ألست قصيرا اذا ما نسبت بين المغارة والأحمق(٤)

---

(١) عفيفى - المرأة فى جاهليتها واسلامها . ج ١ ص ٨١ ، المرتضى: الامالى ج ٤ ص ١٩٥ - ١٩٦ .

(٢) محمد البندارى - المرأة ومركزها الاجتماعى ص ١٧٧ .

(٣) المرأة فى جاهليتها واسلامها لعفيفى ج ١ ص ٨١ .

(٤) العقد الفريد ج ٣ ص ٣٥٢ ، عيون الاخبار ج ٢ ص ٦٥ . المغارة التى أثار زوجها الغيرة فى نفسها بزواجه عليها .

ويعتقدون أن الغريبة يكون أولادها أقوياء بخلاف القريبة (وهذا ما أيده علم الوراثة الحديث) قال شاعرهم :ـ

تنجبتهـا للنسـل وهى غريبـة فجاءت به كالبدر خرقا معممـا

فلو شاتم الفتيان فى الحى ظالمـا لما وجدوا غير التكذب مسلما (١)

فهى ولدته قويا يهابه أقرانه الفتيان فلا يغلبه منهم أحد . ومن الذين ظهرت فيهم آثار تربية امهاتهم الجواد المعروف حاتم الطائى فهو ابن عتبة بنت عفيف ، وكانت ذات يسار ، عرفت بأنها أسخى الناس ، وأقراهم للضيف حتى حجر عليها اخوتها فقالت لهم :ـ

فماذا عساكم أن تقولوا لاختكم سوى عذلكم أو عذل من كان مانعا

وماذا ترون اليوم الا طبيعـة فكيف بتركى يا بن أم الطبائعا (٢)

وما أظهر هذا الروح فى شعر حاتم وفى تصرفاته لانه غصن هذه الدوحة. ومن آرائهم التربوية التى توصلوا اليها بطريق تجاربهم وملاحظاتهم ما رواه المسعودى اذ قال :ـ

« ومما عرف عن العربية انها مثلا لا تنوم ولدها وهو يبكى خوف أن يسرى الهم فى جسده ، ويدب فى عروقه ، ولـكنها تنازعه وتضاحكه حتى ينام ، وهو فرح مسرور ، فينمو جسده ، ويصفو لونه ودمه ، ويشف عقله. والطفل يرتاح الى الغناء ، ويستبدل ببكائه ضحكا » (٣) .

وعلاقة الولد عندهم بامه علاقة اخلاص وحب وهـذا يسـتنتج من مساعداتها له فى الشدائد فقد صور نفسه عدى بن زيد كيف زارته امه فى سجنه عند النعمان ملك الحيرة وصور اشتياقها له واستياءها الشديد لرؤيته مكبلا بالحديد :ـ

---

(١) عيون الاخبار لابن قتيبة ج ٢ ص ٦٧ .
(٢) الاغانى ج ١٦ ص ٩٧ .
(٣) مروج الذهب ج ٤ ص ١٦٠ « مطبعة الرجاء بمصر » .

ولقد ساءنى زيارة ذى قر بى حبيب لودنا مشتاق
ساءه ما بنا تبين فى الايـ ـدى واشتاقها الى الاعناق (١)

وقد صور كذلك عروة بن الورد سعى الام لخدمة أبنائها وخدماتها العظيمة واخلاصها المنقطع النظير لهم فشبه نفسه مع أصدقائه بها فى قوله :

فانى واياكم كذى الام أرهنت له ماء عينيها تغذى وتحمل (٢)

كما عرض صخر أخو الخنساء صورة قارن فيها بين حب الام وأملها فى ابنها وحب الزوجة له • قال :ـ

أرى أم صخر لا تمل عيادتى وملت سليمى مضجعى ومكانى
وما كنت أخشى أن أكون جنازة عليك ومن يغتر بالحدثان
فأى امرىء ساوى بأم حليلة فلا عاش الا فى أذى وهوان (٣)

وقيل من أمر هذه الابيات أنه لما سمع زوجته ، يسألها البعض عنه وهو مريض ، تقول عنه « لا حيا فيرجى ولا ميتا فينسى » وكانت امه تقول « أصبح بحمد الله صالحا » فغضب وقال تلك الأبيات •

ولشدة حب الام لولدها كانت تحرص على ماله فنجدها تلومه على اسرافه قال الاسود يحكى قول امه :ـ

تقول ابنة العباب رهم حربتنى حطائط لم تترك لنفسك مقعدا
اذا ما جمعنا صرمة بعد هجمة تكون علينا كأبن أمك أسودا
فقلت ولم أعيى الجواب تأملى أكان هزالا حتف زيد وأربدا

---

(١) عدى بن زيد ـ الاغانى ج ٢ ص ٢٧ ، شعراء النصرانية ص ٤٥٤ •

(٢) عروة بن الورد ـ ديوانه ص ٣٦ •

(٣) صخر أخو الخنساء ـ الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٧٣ ، ابن خلكان ـ الوفيات ج ١ ص ١٣٢ ، عيون الاخبار ج ٤ ص ١١٩ •

أرينى جـوادا مـات هـزلا لعلنى أرى ما ترين أو بخيلا مخلدا (١)

فهذا الشعر يصور أم الفارسين لائمة على كثرة الانفاق • ونظرة الام تختلف عن نظرة أولادها الابطال • اذ أن جمع المال والحرص عليه فيه شيء كبير من من الشعور بالنقص والضعف فى رأيه وهذا مما يضير بالرجل ، وبخلاف المرأة لان الجمع والادخار من طبيعتها لهذا كان أولادها لا ينظرون الى المال الا على أنه وسيلة مؤقتة ، وان اعتمادهم الاساسى يجب أن يكون على الشجاعة والبطولة وحسن السمعة • فهذه الصفات هى التى يستطيعون بها فى كل حين أن يحصلوا على المال بسهولة • وقالوا انهم يشترون بمالهم قلوب الرجـال فيجعلون لهم من الاصدقاء والناصرين قوة تضاف الى قوتهم • ولهذا نرى الاجواد فى الجاهلية أكثرهم من الشجعان وكذلك نجد الشجعان أكثرهم كراما • فقد اقترنت الفروسية بالكرم فى الجاهلية اقترانا واضحا واظن انها كذلك فى جميع الاحوال • ولهذا يسأل الاسود امه أن تريه جـوادا مات جوعا ، اذ كيف يموت الفارس جوعا ، والناس ترهب جانبه وتخطب وده وكيف يعز عليه شيء والاموال ترمى بين يديه • أما الام فتسلك مسلك ربة البيت ، التى من زينتها التدبير ومن أسلحتها الادخار •

وقد لقيت الام فى الجاهلية طاعة من أولادها فى الغالب فقد روى أن بشر بن أبى خازم الاسدى ، وكان من قدماء الشعراء فى الجاهلية وعبدا من العبيد ، هجا يوما أوس بن حارث بن لام فعمل أوس حتى اشترى بشرا فأراد أن يقطع لسانه ، لكن أمه علمت بذلك فقالت له : « يابنى مات أبوك فرجوتك لقومك عامة ، فأصبحت أرجوك لنفسك خاصـة ، وزعمت أنـك قاطع لسان رجل هجاك ، فمن يمحو من يقوله غيره ؟ » قال « ما أصنع ؟ » قالت « تكسوه حلتك ، وتحمله على راحلتك وتأمر له بمائة ناقة » ففعـل

---

(١) الاغانى ـ ج ١١ ص ١٣٩ ، شعراء النصرانية ص ٤٧٧ •

ما قالت فملأ بشر بعد ذلك الآفاق بمدائح أوس (١) .

وكانت الام مناط اخلاص ابنها يتألم لألمها ويفرح لفرحها فقد ذكر السليك بن السلكة السعدى كيف كان يتألم لحالة الاماء لان أمه أمة منهن (٢) . ومن أجل ذلك كان العرب لا يعزون بالمرأة عند الوفاة الا اذا كانت أماً (٣) وكان هذا شأنها عند اليونان ايضا .

والام العربية كانت تطبع فى نفوس بنيها من أخلاقها وروحها ماكانت تمتاز به من شعور بالفخر وثقة بالذات (٤) ، واننا لنلمس مكانتها الممتازة التى احتلتها من نفوس أبنائها وعند قومها لا فى الفروسية والتضحية من اجلها فحسب ، بل فى الشعر والتاريخ والاساطير ، الى درجة أن العرب يلقبون الامهات بألقاب . فمن تنجب ثلاثة أولاد فأكثر من النابهين الممتازين تسمى (بالمنجبة) (٥) اعلانا لتفوقها فى أداء رسالتها الاجتماعية . فالمنجبة اذن هى من يدرج فى حجرها الاطفال النجباء . والمنجبات كثيرات فى الجاهلية منهن فاطمة بنت الخرشب الانمارية ، وكان لها سبعة أولاد مشهورون ، منهم الربيع بن زياد العبسى (٦) . ومما روى عنها انها كانت تسير فى ظعائن من عبس فعرض لها زهير بن قيس واقتاد جملها يريد أن يرتهنها بدرع من الدروع حتى ترد اليه فقالت له : « ما رأيت كاليوم قط فعل رجل ، أين ذهب حلمك ، أترجو أن تصلح أنت وبنو زياد ابدا ، وقد أخذت امهم

---

(١) بلاغات النساء ص ١٤٠ ـ ١٤١ .

(٢) المرأة فى جاهليتها واسلامها لعفيفى ص ٨١ ـ ١١٤ .

(٣) العقد الفريد ج ٢ ص ٢٦٤ .

(٤) النقائض ص ٩٠ .

(٥) الميدانى ـ مجمع الامثال ج ٢ ص ٢٠٥ .

(٦) Nicholson : A Literary His. of the Arabs, P. 88
Bevan James : Woman in Islam, P. 6

وذهبت بها يمينا وشمالا ، فقال الناس فى ذلك ما شاؤا ، وحسبك من شر سماعه » فعرف قيس بن زهير ما قالت فخلى سبيلها • وقال فى ذلك :

ألـم يبلغـك والانبـاء تنمى بمـا لاقت لبـون بنى زيـاد
ومحبسها علـى القـرشى تشرى بأدراع وأسياف حـداد (١)

وكان العرب اذا أرادوا تكريم الام كنـوها بأسـم بنيها كما خاطب عروة بن الورد زوجته وكان يحبها كثيرا :ـ

ذرينى ونفسـى أم حسـان انتى بها قبل ألا أملك البيع مشترى (٢)

هذا وهناك بعض الاحوال النادرة رأينا صورها فى الشعر، كانت الام فيها موضع سخط بنيها فقد هجا الحطيئة أمه ، لأنها تزوجت من رجال كثيرين • فلما سألها عن أبيه خلطت عليه وقالت له : « انك لست من أب واحـد ، وانما انت من آباء كثيرين فغضب وتبرم فهجاها (٣) وكذلك كان العجيف يكره أمه فدعى عليها بالموت (٤) • وهـذه صورة نادرة وهى لا تؤثر فى الصورة العامة التى نجدها فى الشعر للام المحترمة المطاعة التى تربى فتحسن التربيـة •

٧ ـ الام وزوجة ابنها :

وقصة الام وزوجة ابنها قصة قديمة طويلة معقـدة • وربما رجعت الى اليوم الاول الذى شعرت الزوجة فيه بحقها على الزوج ، وبانفـرادها فى هذا الحق وبعبارة اخرى من اليوم الذى وجدت فيه الزوجة الى جانب الام • وأساس هذه المنافسة بين الام والزوجة يرجع الى الحرص والانانية

---

(١) النقائض ص ٩٠ •
(٢) عروة بن الورد ـ ديوانه ص ٢٨ • وتلاحظ ص ٢٩ •
(٣) الحطيئـة : الاغانى ج ٢ ص ٤٤ ـ ٤٦ ، مجمع الامثال ج ١ ص ١٣٧ •
(٤) عيون الأخبار لابن قتيبة ج ٣ ص ٢٢٩ •

فالام تشعر بأنها أحق بولدها ، لأتعابها الجسمية السابقة ، التى لا تقدر • والزوجة تعتبره شريك حياتها ، وتريد أن يخلص لها كما خلصت له • وفى الشعر نجد تصوير هذه المنافسة المستحكمة بينهما قال عروة :

فانى واياكم كذى الام أرهنت ... له ماء عينيها تفدى وتحمل
فلما ترجت نفعه وشبابه ... أتت دونها اخرى جديد تكحل
فباتت لحد المرفقين كليهما ... توحوح مما نابها وتولول
تخير من أمرين ليسا بغبطة ... هو الثكل الا أنها قد تجمل (١)

فقد رأى عروة فى حب الام شيئا من الانانية ، اذ قال : انها تترجى النفع بعد الشباب • فهى تحزن لأن أملها فيه قد خاب بوجود زوجته وقد صور شدة تألم الأم لذلك وما كانت تتمناه •

والأم قد تحرم فى بعض الاحيان من خير ولدها ، فتنال منه غلظة وخشونة ، وهذا مما يحز فى قلبها ، ويؤلمها أشد الايلام • وهذا ما صوره قول أم ثواب الهزانية فى أبن عقها :

ربيته وهو مثل الفرخ ، أعظمه ... أم الطعام ، ترى فى جلده زغبا

الى قولها :

أنشا يمزق أثوابى يؤدبنى ... أبعد شيبى عندى يبتغى الأدبا
انى لابصر فى ترجيل لمته ... وخط لحيته فى خده عجبا
قالت له عرسه يوما لتسمعنى ... مهلا فان لنا فى امنا اربا
ولو رأتنى فى نار مسعرة ... ثم استطاعت لزادت فوقها حطبا (٢)

---

(١) عروة بن الورد ـ ديوانه ص ٣٦ • لحد المرفقين = مكبة • هو الثكل الخ = أى أن يموت ابنها أو تتحمل وتصبر •

(٢) حماسة أبى تمام ج ١ ٢٢٧ ـ ٢٢٨ •
الكامل للمبرد : ص ١٣٦ (باريس) •

فالخصام ينشأ بين الام والزوجة ، من تطرف كل منهما فى رغبتها بالانفراد بالرجل، فيعجز هو عن التوفيق بينهما ، وقد يميل مع أحد الجانبين الام أو الزوجة • وفى الشعر تصوير للام بسلاحها الضعيف أمام الزوجة ، اذ من الناس من ينسى الحقوق عليه سريعا بل قد يجحدها • ولكن حقوق الام وذكر جميل أعمالها من الصفات الانسانية الحق ، ومن اسس العدالة القويمة الواجبة الرعاية ، لهذا نجد القرآن الكريم قد فصل فى ضرورة ذلك تفصيلا حارا مؤثرا فى النفوس خاصة فيما جاء فى وصية لقمان لابنه وهو يعظه (١) •

---

(١) سورة لقمان •

الفصل الخامس

الفتاة فى الشعر الجاهلى

١ ـ وصفها وتربيتها :ـ

نعنى بالفتاة هنا البنت المخدرة قبل زواجها وهى الشابة غالبا التى ذكرها الشاعر البكرى الحارث بن عباد وجعلها نظير ذات البعل فى قوله :ـ

أسلموا كل ذات بعل واخرى ذات خـــدر غـــراء كالتمثـال

فيتناول هذا الفصل وصف الفتاة والدور الذى تقوم به فى الحياة المنزلية والقبيلة . وكثير من الحبيبات هن من الفتيات بنات البيوت المخدرات لـكن هذا الفصل لا يتعرض لهن من حيث أنهن حبيبات لاننا سبق أن خصصنـا الفصل الثانى من الكتاب للمرأة الحبيبة .

صور الشعر الجاهلى الفتاة ، ولكن عنايته بهـا لم تبلـغ عنايته بالمرأة الحبيبة ولا بالام ، لان دورها فى الاسرة وفى الحياة الاجتماعية والقبلية هى أقل من أدوار تلك النساء لهذا اقتضى البحث تأخير الفصل الخاص بها عن فصليهما والفصل الخاص بالزوجة .

فقد صوّر هذا الشعر الفتاة وهى تنعم بالجاه ، والتربية العالية ، والعيش الرغد فى كنف أبيها ، وفى دارها التى تروح وتسرح فيها . وقال المرار ابن منقذ :

ناعمتهـــا ام صـــدق بـــرة وأب بربهـــا غـــير حـــكر
فهـــىَ خـــذواء بعيش ناعـم بـــرد العيش عليهـــا وقصـــر
لا تمس الأرض الا دونهـــا عن بـــلاط الارض ثـــوب منعفر

تطـــأ الخـز ولا تكرمـــه وتطيـــل الذيل منـــه وتجر
وترى الريـط مواديـع لهـــا شـعرا تلبسها بعـد شـــعر (١)

قد أوضح ذلك الرخاء والعناية اللذين تنعمت بهمـا هـــذه الفتاة ، والسخاء الذى يتصف به أبواها اذ أسبغا عليها برود العيش الرغد ، والحياة الهانئة ، فكان من مظاهر شرفها وبذخها أنها ترتدى الالبسـة الطويلة من الخز وهو لباس غال تلبسه بنات الاسر الراقية التى منها هذه الفتاة ، ومع ذلك فهى ليست حريصة عليها ، فهى لا تعنى بها اذ تتركها تنعفر • وهى تجعل حتى شعارها من الريط وهو نسيج ثمين ولها من الشعر عـدد كثير تلبس واحدا وتترك واحدا •

فهذه صورة واضحة لفتاة جاهلية ، عنى أهلها بأمرها واسترخصوا الغالى من أجل اسعادها وراحتها فحرصوا على تنشئتها فى الخز ، والحرير ، والحلى الغالية ، وتحت ظلال النعمة والجاه العريض • كما عرض النمر بن تولب بدوره لوسائل الزينة والطيب والغذاء الحسن الذى تنعمت به الفتاة من الطبقات الممتازة عندهم قال :

أنـاة عليهـــا لؤلؤ وزبرجـــد ونظم كأجـواز الجراد المفصـل
يربتها الترعيب والمحض خلفـة ومسـك وكافـور ولبنى تأكل
يشـن عليهـا الزعفران كأنـه دم قارت تعلى به ثم تغســل
سواء عليها الشيخ لم تدر ما الصبا اذا ما رأته والالوف المقتـل (٢)

---

(١) المرار بن منقذ ـ المرأة العربية فى جاهليتها واسلامها ـ لعفيفى ج ١ ص ١٣ المفضليات ج ١ ص ٣٢ ـ ٣٣ •

(٢) النمر بن تولب ـ الجمهرة لابى زيد ص ١٠٩ • أناة ـ بطيئة • أجواز الجراد ـ أوساطها • يربتها ـ يغذوها • الترعيب قطع السنام • خلفه ـ واحد بعد واحد • لبنى ـ شجر منه الطيب • يشن ـ يصب • قارت ـ جامد • تعلى ـ تطلى الالوف ـ من الف النساء • المقتل ـ الغزل •

فهو يصفها ببطء الحركة دلالة على نعمتها ، ويقول انها تتحلى باللؤلؤ ، والزبرجد ، والسموط المكونة من الاحجار الكريمة ، وقد رصفت بعضها فوق بعض رصف حلقات بطن الجرادة . وقال أنها تغذى بقطع السنام وهو أكرم اللحم فى الجمل وهذا دليل العناية بها . ثم ذكر كثرة طيبها من مسك وكافور ولبنى . فهى لغناها يصب عليها الزعفران صبا وكأنه الدم القارت أى المتخثر . ثم صور فتوتها وصغر سنها وعدم تجاربها فى ميدان الحب والغرام بقوله انها لا تميز الشيخ العفيف الذى لا شغل له باللهو والتصابى ، من الشاب الذى يألف النساء ويحب مجالستهن وينعكف على مغازلتهن . فكلاهما سواء فى نظرها وفى معاملتها لهما .

والافراط فى الحياء والمبالغة فى العفة من الصفات التى تتميز بها الفتاة عن غيرها من النساء . وهذه من القيم الاخلاقية التى توارثتها الاجيال العربية ، فاذا فقدتها الفتاة خرجت عن سيرة الفتيات من أمثالها . ومن هذا نجد الخفر والحياء من أهم الصفات التى ذكرها لها الجاهليون فى أشعارهم . ومن ذلك ما قاله السليك بن السلكة فى فكيهة ، وكانت فتاة من بنى عوار بن مالك ، وقد استجار بها فأجارته وهى مع حيائها وخفرها قد اخترطت السيف ، وقامت دونه تمنع الاعداء الذين لحقوا به . ولما اشتد بها الموقف كشفت خمارها عن شعرها وصاحت باخوتها فأسرعوا اليها ، ودافعوا عن السليك تلبية لدعوة اختهم ، حتى نجا فقال :-

لعمر أبيك والانباء تنمى ... لنعم الجار اخت بنى عوار
من الخفرات لم تفضح أباها ... ولم ترفع لاخوتها شنارا
كأن مجامع الأرداف منها ... نقا درجت عليه الريح هارا
يعاف وصال ذات البذل قلبى ... ويتبع المنعة النوارا

ومـا عجزت فكيهـة يوم قامت بنصل السيف واستلبوا الخمارا (١)

فهى رغم تدرعها بالعفة ، واعتصامها بالحياء سارعت الى الوقوف فى وُجـه أعدائه واستلت السيف لنجدته • اذ النجدة خلق عربى صميم فى رجالهم ونسائهم ، على السواء ، فلا تحفل المحجبة الممنعة بسقوط خمارها اذا مـا قامت لنجدة • وهذه الصورة التى صورها السليك من الصور الظريفـة الجميلة المحببة ، وقد روي عن مبلغ تأثيرها فى النفوس فيما بعد أن فتـاة متبذلة سمعتها ، فتابت بسبب ما خلفته فى نفسها من روعة خاصة قـوله « من الخفرات لم تفضح أباها » (٢) •

والشعر يصور البنت موضعا يستدر الرحمة وجميل الشـفقة فكانت الفتاة تدعو الى عطف والديها والى أن يسعوا للكسب من أجلها ويحرصـوا على الحياة لحمايتها • فكانت الفتاة اذن عنصرا فعالا من عناصر العمران يؤدى الى السعى فى الحياة • قال اسحق بن خلف يصور ذلك :ـ

لولا أميمـة لم أجزع من العـدم ولم اقاس الدجى فى حندس الظلم
وزادنى رغبـة فى العيش معرفتى ذل اليتيمـة يجفوهـا ذوو الرحم
احاذر الفقر يوما أن يلم بهـا فيهتك الستر عن لحم عـلى وضم
تهوى حياتى وأهوى موتها شـفقا والمـوت أكرم نزال عـلى الحرم
أخشى فظاظـة عم أو جفـاء اخ وكنت ابقى عليها من أذى الكلم (٣)

---

(١) السليك بن السلـكة ـ الاغـانى ج ١٨ ص ١٣٣ ، المرأة فى الشرائع لمحمد جميل بيهم ص ١١٧ ، ومثل هذا دفاع بنات ام غيلان وامهم عن ضرار بن الخطاب ابن مرداس « طبقات ابن سلام ص ٦٢ ـ ٦٣ »

(٢) الاغانى : ج ١٨ ص ١٣٣ •

(٣) حماسة ابى تمام ج ١ ص ٧٥ ، المرأة فى جاهليتها واسلامها لعفيفى ج ١ ص ٨ ـ ١٠ لم اقاس الخ •• لم أرحل لطلب المال • احاذر الخ •• أخشى أن يكشف الفقر سترها • وكنت الخ •• ما كنت اسمعهـا كلمة تؤذيها •

فالشاعر يصور ما تبعثه بنته فى نفسه من روح قوى نشيط يدفعه الى الرغبة فى الحياة والسعى للكسب والابتعاد عن الفقر والعوز • وتحمل الصعاب فى هذا السبيل :

صور الشاعر الروح القوى النشيط الذى بعثه بنته فى نفسه فدفعه الى الرغبة فى الحياة والسعى فى سبيل كسب خيرها والاجتهاد للابتعاد عن مباءة العوز والفقر ، فصار يستطيب المصاعب فى سبيل الاصابة من خير الحياة ويدأب على الكد • كما صور حبه العنيف لابنته اذ قال : يهوى موتها اشفاقا عليها من نوائب الدهر وغير الحدثان فهو يخشى ان يقعد بها الزمن فلا تجد من يعينها أو تمدّ يدها الى الاقرباء فيجفونها وهكذا صور الشعر ما كانت تلقاه البنت من الرعاية والحدب المنقطع النظير • واستمرت الفتاة تلقى مثل هذا العطف فى العهد الاسلامى فيما بعد ومنه ما صوره حطان ابن المعلى بقوله :ـ

لولا بنيات كزغب القطا ... رددن من بعض الى بعض
لكان لى مضطرب واسع ... فى الارض ذات الطول والعرض
وانما أولادنا بيننا ... أكبادنا تمشى على الارض
لو هبت الريح على بعضهم ... لامتنعت عينى من الغمض (١)

وبالرغم من هذا العطف ، الذى رأيناه ، على الفتاة وبالرغم من حرصهم على الا يدعوها تتعرض للحاجة أو الفقر ، فان من عادتهم الا يورثوها ، كما لم يكونوا يورثون الاولاد الا حملة السلاح منهم فحسب (٢)

---

(١) حماسة ابى تمام ج ١ ص ١٠٢ ، المرأة فى جاهليتها لعفيفى ج ١ ص ٨ ـ ١٠ ، دولة النساء لعبد الرحمن البرقوقى ص ٢٣٨ •

(٢) تفسير الطبرى ج ٤ ص ١٨٥، الكشاف ج ٤ ص ٢٤٨ـ٢٤٩، عمدة القارىء ج ٢٣ ص ٢٢٩ ، ٢٣٧ ـ ٢٣٨ •

فالصغار والبنات لا يصيبهم شيء مما ترك الآباء • وكان الاخوة يرثون الرجل ان لم يكن له أولاد قادرون على القتال مع وجود الصغار أو البنات له ، فقد روى أنهم اغتاظوا حين نزل الوحى باشراك البنات فى الميراث فذهب بعضهم الى الرسول قائلا : « يا رسول الله أنعطى الجارية نصف ما ترك أبوها ، وليست تركب الفرس ولا تقاتل القوم ، ونعطى الصبى الميراث ، وليس يغنى شيئا ؟ (١) » ولم تكن القبائل كافة تحرم البنت من الارث انما هذه هى القاعدة الشائعة (٢) • ويزعم الاخباريون ان أول من جعل لها نصيبا من الميراث « ذو المجاسد » اليشكرى اذ جعل لولده ماله وخص الذكر بمثل حظ الانثيين (٣) •

٢ ـ الفتاة فى الحرب :ـ

وحروب العرب ، كما نعلم ، حروب الكل ضد الكل • فكانت القبيلة تشترك كلها فى الحرب ، وحتى البنات عند الحاجة • خاصة فى حروبهم الطويلة الدائمة فلا نستغرب الا تنجو الفتيات من ويلات الحروب وآثارها المروعة • وكان الفرسان يتغنون بذكرهن كما كانوا يتغنون بحبيباتهم وأزواجهم طلبا للاسبسال واثارة للنخوة والحمية فى نفوسهم الحية الطرية • والفتيات كن يقمن بمظاهر التشجيع بأناشيدهن الحلوة ، وكن يقعن فى الاسر شأنهن شأن غيرهن من النساء كما فى النهاية يشتركن فى البكاء على القتلى ، كما سنرى ذلك فى الفصل الاخير من هذا الكتاب •

وقد تشترك الفتاة فى الاثارة للحرب وطلب الثأر كما فعلت اميمة بنت

---

(١) تفسير الطبرى ج ٤ ص ١٨٥ ـ ١٨٦ •
(٢) الامومة عند العرب • ولكن ص ٦٥ ـ ٦٦ •
(٣) المحبر لابن حبيب ص ٢٣٦ •

كليب التغلبى اذ كانت تتودد الى عمها المهلهل وتحرك فى نفسه الاشجان على قتل أخيه كليب • فقال فى ذلك :ـ

تسائلنى أميمة عن أبيها ... وما تدرى أميمة عن ضميرى
فلا وأبى أميمة ما أبوها ... من النعم المؤثل والجزور (١)

ومن الفرسان من كان يتغنى بذكر ابنته وهو فى حومة الوغى ، كما كانوا يتغنون بذكر الحبيبات ليشجعوا وليستبسلوا • قال جحدر بن ربيعة البكرى يوم تحلاق اللمم ، اذ حلق كل بكرى رأسه ، الا جحدرا منهم فقد تركوا له لمته على أن يكون أول منازل للخصوم غداة الحرب ، وما أن تقابل الجيشان الا ظهر يتغنى قائلا :ـ

قد يتمت بنتى وآمت كنتى ... وشعثت بعد الرهان جمتى
ردوا على الخيل ان ألمت ... ان لم اناجزها فجزوا لمتى (٢)

والعذارى كن سببا لاثارة بعض الحروب ، وكانت المحافظة عليهن من صميم الاخلاق العربية • فقد ثارت حرب عامر وكنانة لتحرش فتيان من بنى عامر بفتاة كنانية فى عكاظ • وكان اذا استمر القتال ، وتأزمت الحرب ، وكلت الفرسان ، تظهر الفتيات للمحاربين وهى تشد من عزائمهم ، وبهذا تؤثر فى امالة كفة الحرب • قال طرفة :ـ

ونحن اذا ما الخيل زايل بينها ... من الطعن نشاج مخل ومزعف
وجالت عذارى الحى شتى كأنها ... توالى صوار والأسنة ترعف

---

(١) المهلهل ـ ديوانه ص ٧ (سلسلة الروائع) •

(٢) جحدر بن ضبيعة البكرى ـ حماسة أبى تمام ج ١ ص ١٤٠ • آمت ـ فقدت زوجها • الكنة ـ امرأة الابن أو الاخ • الجمة ـ مجمع شعر الرأس • أناجزها ـ أعاجلها ـ اللمة ـ الشعر •

ولـم يحم فرج الحى الا ابن حرة وعم الدعـاء المرهـق المتلهف[١]

وقد روى عن ابنتي الفند الزمّاني أنهما لما رأتا أن النصر أخذ يتردد يـوم تحلاق اللمم خرجت احداهما وخلعت ثيابها فرمتها وسط المعمعة ، وتقدمت بين الصفوف منشدة تحمس المقاتلين ، ولم تلبث اختها أن اقتدت بها ، فهاج عملها الفرسان وتطاعنوا مستميتين حتى انتصروا[٢] . فلهذا كن يقعن فى الاسر اذ كن يتصلن بالمحاربين وينتقلن بينهم . قال الحارث بن عباد البكرى عند مقتل أخيه بُجير ، وذكر الفتيات الأسيرات :

أسلموا كل ذات بعـل واخرى ذات خدر غراء مثل الهـلال[٣]

فالبنات هن ذوات الخدور اللائى مثل الهلال وغير ذوات بعولة . وقد وصفهن النابغة وهن فى الاسر ، اذ أسر من بنى ذبيان عدد منهن . فقال :ـ

فآب بأبـكار وعـون عقـائـل أوانس يحميهـا امرؤ غير زاهد
يخططن بالعيدان فى كل مقعـد ويخبأن رمان الثدى النواهـد
ويضـربن بالايدى وراء براغز حسان الوجوه كالظباء العواقـد
غرائر لـم يلقَين بأساء قبلهـا لدى ابن الجلاح ما يثقن بوافد[٤]

وكان قد أغار النعمان بن وائل بن الجلاح على بنى ذبيان فأسر منهم فتيـات ونساء كانت بينهن ابنة النابغة واسمها عقرب فاطلق سبيلها اكراما لابيهـا . والعادة عند العرب أن يمنوا على الفتيات الاسيرات بردهن الى أهليهن فى كثير

---

(١) العقد الفريد ـ ج ٣ ص ١٠٩ زايل ـ فرق . ينشج بالدم ـ يصوت الدم عند خروجه منه . مخل ـ يضعف المنزوف . المزعف ـ القاتل . الصوار ـ أواخر قطيع البقر . ترعف ـ تقطر دما . الفرج موضع المخافة ، المرهق ـ المدرك .

(٢) طرفة بن العبد ـ ديوانه ص ٤٤

(٣) الحارث بن عباد البكرى ـ شعراء النصرانية ص ٧٩ .

(٤) النابغة الذبيانى ـ ديوانه ص ٨٩ .

من الاحيان صيانة لشرفهن وتفضلا عليهن وكانوا يقابلون هذه الاعمال بالمثل، وفك الاسيرات عندهم من كريم خلالهم ومن صفات الفروسية والشهامة ، ومن هذا ما قاله زهير بن جناب الكلبى فى حرب غطفان يذكر فكه أسيراتهم مفتخرا :ـ

ولولا الفضل منا ما رجعتم ... الى عذراء شيمتها الحياء (١)

والفتيات العربيات اذا وقعن فى الاسر ما كن يسمحن لانفسهن بالتنازل عما كن يشعرن به من فخار وسمو وخاصة اذا كان آسرهن من غير العرب . فقد روى عن ليلى بنت لكيز أنها كانت ذات جمال بارع ، وحسن فاتن ، فعلم بذلك كسرى ملك الفرس فاغتصبها من أبيها وأراد الزواج منها فأبت وامتنعت عليه ، وأرسلت تستنجد بأهلها شعراً ، هو عنوان للكرامة عند الفتيات العربيات . اذ قالت :ـ

ليت للبراق عينا فترى ... ما ألاقى من بلاء وعنا
يا كليبا وعقيلا اخوتى ... يا جنيدا أسعدونى بالبكا
عذبت أختكم يا ويلكم ... بعذاب النكر صبحا ومسا
غللونى قيدونى ضربوا ... ملمس العفة منى بالعصا
يكذب الاعجم ما يقربنى ... ومعى بعض حشاشات الحيا
قيدونى غللونى وافعلوا ... كل ما شئتم جميعا من بلا
فانا كارهة بغيكم ... ويقينى الموت شىء يرتجى

الى قولها :

احذروا العار على أعقابكم ... وعليكم ما بقيتم فى الدنا (٢)

---

(١) زهير بن جناب الكلبى ـ شعراء النصرانية ص ٢٠٨ .

(٢) ليلى بنت لكيز ـ المرأة فى الشرائع والتاريخ لمحمد جميل بيهم ص ١١٧ . شعراء النصرانية ص ١٤٩ .

فالهبت هذه الابيات السامية شعور أبناء قومها وكانت سببا لحرب بين العرب والفرس • أما بعد انتهاء الحرب فكانت الفتيات تشترك فى البكاء على القتلى وتظهر حرارة وحرقة شديدة وقد وصفهن المهلهل وهن يبكين ويندبن القتلى وصفا دقيقا وذلك بعد مقتل أخيه كليب اذ قال :ـ

فخرجن حين ثوى كليب حسرا ... مستيقنات بعده بهوان
فترى الكواعب كالظباء عواطلا ... اذ حان مصرعه من الاكفان
يخمشن من أدم الوجوه حواسرا ... من بعده ويعدن بالازمان (١)

فالمصائب الفادحة والاحزان كانت تخرجهن من خدورهن حاسرات عن رؤوسهن ، نادبات هول المصيبة ، يخمشن الوجوه ، ويبكين القتلى ، فيذكرن السامعين بفضائلهم ، وجليل فعالهم ، ويصورن عظيم مصابهم ، وكل هذا له شديد الوقع فى نفوس السامعين ، يثير فيها الحماس لاخذ الثأر • وبهذا صورت هند بنت معبد بن خالد حالة الفتيات يوم مقتل أخيها حبيب بقولها :ـ

اذ تخرج الكاعب من خدرها ... يومك لا تذكر فيه الحيا (٢)

وبالاضافة الى اشتراك الفتاة فى تحميس المقاتلين فى الحرب فانها كانت تعنى بالاسلحة وحفظها وكانت تسرج الخيل وتلجمها وتهيؤها للحرب • قال الكلحبة اليربوعى العرنى :ـ

فقلت لكأس الجميها فانما ... حللت الكثيب من زرود لافزعا (٣)

وكأس اسم جارية (٤) وهى ابنته • فهو يطلب منها ان تلجم فرسه

---

(١) ديوانه ص ١١ ، الاغانى ج ٤ ص ١٤٧ •
(٢) المرأة فى الشرائع : لجميل بيهم ص ١٥٨ •
(٣) الكامل : للمبرد ج ١ ص ٣ (التجارية ١٣٥٥ هـ) •
(٤) الجارية فتية النساء • قاموس المحيط •

ليتهيأ للقتال وينتصر لمن استغاث به . والعرب لا تثق بأحدٍ في أسلحتها وخيلها الا بأولادها ونسائها(١) .

وقد رأينا أن من عادة العرب قديما أن ينصرف الفرسان عن أزواجهم ولهوهم وطيبهم وتنعمهم عندما يصابون بمصيبة أو يسعون لاخذ الثأر وهكذا صورهم الشعر ينصرفون عن مداعبة بناتهم اللائى هن لانفسهم لهو وسلوة ، ومن هذا حديث المهلهل لنفسه اذ يجدها تميل الى مداعبة بنته وهو يصرفها لانشغاله بأخذ الثأر لاخيه ، قال :ـ

طفلة ما ، أبنة المهلهل بيضا ء لعوب لذيذة للعناق
فاذهبى ما اليك غير بعيد لا يؤاتى العناق من فى الوثاق
ضربت نحرها الىّ وقالت يا عديا لقد وقتك الأواقى (٢)

٣ ـ الموؤدة :ـ

صوّر القرآن الكريم حالة الجاهلى ، تولد له البنت ، تصويرا نفسيا رائعا . قال تعالى : « واذا بشر احدهم بالانثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم ، يتوارى من القوم من سوء ما بشر به ، أيمسكه على هُون ، أم يدسه فى التراب ؟! ألاساء ما يحكمون . »(٣)

كان من يبشر منهم بالانثى يحزن ويسود وجهه فيبتعد عن الناس ليختلى الى نفسه ، ويقلب النظر فى أمر المولودة ، التى هى مصيبة على زعمهم . يسائل نفسه أيحتفظ بها ويحتمل مذلتها ، كما يزعم الناس ، من حوله ، أم يدسها فى التراب ويدفنها حية ؟! وهذا ماحمل القرآن على أن

---

(١) المفضليات للضبى ج ١ ص ٣٠ .
(٢) ديوانه ص ٢٠ ، شعراء النصرانية ص ١٧٧ ـ ١٧٨ .
(٣) القرآن الكريم ١٦/٥٨ ، ٥٩ .

ينعى عليهم سخف رأيهم وسوء صنيعهم .

روى ان احدهم كان مسافرا ولما عاد الى اهله أخبر بأن زوجته قد وضعت انثى ، فغضب عليها ولم يذهب الى داره ولما علمت الزوجة بأمره استنكرت فعلته ، وأعلنت أنها ليست مقصرة فتلام لأنها لم تختر ان تكون المولودة بنتا ، ولم يكن لها يد فى جعلها أنثى .

انهم كرهوا المولود ان يكون انثى وفضلوا الذكور لكننا لا نعلم على التحقيق هل كرهوا فوأدوا أم وأدوا فكرهوا ؟ ذلك لان الاخبار والروايات وابحاث الباحثين ذهبت مذاهب كثيرة فى بيان سبب الوأد . فمنهم من أرجع الوأد الى خوفهم من العار ، ومنهم من أرجعه الى خوفهم من الاسر ، كما ان منهم من جعل سببه عادات دينية ، ومنهم من عزاه الى أسباب اقتصادية وآخرون عزوه الى اسباب اجتماعية .

والذين ارجعوا سبب الوأد الى الخوف من العار قد اختلفوا فى القبائل التى نشأ عندها الوأد اولا فمنهم من قال ان تميما أول القبائل التى نشأ عندها الوأد ، ومنهم من قال انه اول ما نشأ فى ربيعة ومنهم من قال انه نشأ اولا عند كندة .

روى الاغانى ان وأد البنات بسبب الخوف من العار بدأ عند رؤساء تميم كقيس بن عاصم السعدى ، اذ يروى ان المشمرج اليشكرى أغار على بنى سعد ، فسبى منهم نساء ، واستاق أموالا وكان فى النساء رميم بنت أحمد السعدية ، وامها اخت قيس ، فرحل قيس اليهم ليسألهم ان يهبوها له ، أو يفدوها ، فوجد عمرو بن المشمرج قد اصطفاها لنفسه . فسأله فيها فقال قد جعلت أمرها اليها ، فان اختارتك فخذها ، فخيرت فاختارت عمرو ابن المشمرج ، فانصرف قيس فوأد كل بنت له . وجعل ذلك سنة ، يئد كل بنت تولد له ، واقتدت به العرب فى ذلك فكان كل سيد يولد له بنت يئدها

خوفا من الفضيحة[١] . وذكر النويرى أن البنت التى أسرت انما هى بنت قيس نفسه لا بنت اخته[٢] . وتذهب الروايات الى أن قيس وأد كل بناته الا واحدة استطاعت أمهـا ان تخفيها ، لانها كانت قد ارسلتها الى قومهـا . اما حكاية وأد هذه البنت فقد رواها قيس نفسه لما جاء فى وفد تميم ، ومثل بين يدى الرسول الكريم . قال : « دخلت فرأيت البنت ، وكانت قد ربتها أمها ، فسألتها من تكون هذه ؟ فبكت أمها وقالت : انها ابنتك ، وقصت علىّ كيف انها استطاعت ان تنقـذ حياتهـا ، فانتظرت ، وفى ذات يوم انتهزت فرصة انشغال أمها ، فاخذتها وحفرت لها قبرا ، ووضعتها فيه ، وصرت أهيل عليها التراب وهى تقول : ماذا تصنع بى يا أبى ؟! حتى غطيتها بالتراب ، وهى تقول : أتريد أن تدفننى يا أبى ؟! ، هل أنت ستتركنى وحيدة وتذهب عنى ؟! حتى غطيتها بالتراب ، ولم أسمع صوتها . وهذه هى المرة الوحيدة التى آلمنى فيها وأد البنات[٣] .

وارجع آخرون الوأد الى ربيعة فزعموا أن بنتا لاحد ساداتها وقعت أسيرة ، فلما عقد الصلح لم تشأ البنت ان تعود الى أهلها واختارت آسرهـا فاستن هذا الرئيس سنة الوأد وقلدته بعض القبائل[٤] . كما ترجع بعض الروايات الاخرى الوأد الى كنده وتذكر قصة الحارث بن عمرو الكندى وأبيات له فى شأن الوأد[٥] ولا نعلم مبلغ صحة هذه القصة .

---

(١) الاغانى ج ١٢ ص ١٤٤ (الساسى) ، بلوغ الارب ج ٣ ص ٤٢ ـ ٤٣ ، منهاج اليقين للماوردى ص ٨٧ .
Smith: Kinship & Marriage, P 279.

(٢) نهاية الارب ج ٣ ص ١٢٧ .

(٣) الاغانى ج ١٢ ص ١٥٠ .

(٤) بلوغ الارب ج ٣ ص ٤٣ .

(٥) العقد الفريد ج ٢ ص٨٨ ، محمد كمال الادهمى : مرآة النساء ص ٥١ ـ ٥٢ .

ومن أرجع الوأد الى خوفهم من الاسر وما يتبع الاسر من العار قال : ان النساء كانت تؤسر أكثر من الرجال ، وذلك لانهن أضعف منهم فى الدفاع عن أنفسهن ، وكثيرا ما يكون أمر الدفاع عنهن عبئا ثقيلا على الرجال • ولم يكن الآسر يطلق سراح الاسيرة فى كل حين • فربما لا يكون عند اهلها المال الكافى ليفتدوها به ، كما قد يعجزون عن استردادها بالقوة، لهذا كانت الاسيرات ، اذا أراد الاسر ، ترسل الى أسواق النخاسين ، فى المدن التجارية ، مثل مكة ، والمدينة ، وخيبر[١] • وكان فى مكة سوق نظامية كبرى لتجارة الرقيق ، تجلب اليها السبايا من القبائل المجاورة ومن غيرها ، عندما لا يفتديهن اقرباؤهن[٢] • ومن الطبيعى أن من تباع فى هذه السوق يصيب أهلها عار كبير وخشية الوقوع فى الاسر وما يعقبه من عار مثل هذا كان السبب لوأد البنات عند طائفة من الباحثين •[٣]

وارجعت طائفة اخرى الوأد الى سبب دينى • قال السيد امير علي « انهم كانوا يقدمون بناتهم قربانا للالهة اقتداء ببعض الامم الاخرى »[٤] كما كان يفعل الناس فى عهد الفراعنة ، اذ يختارون فتاة جميلة عذراء كل عام ، يهدونها للنيل ، وكان عندهم أنها اذا ماتت فيه كان ذلك امارة على أن الالهة قد قبلت الهدية • ومثل هذا كان يحصل فى بلاد الصين قديما اذ يزوجون البنات من النهر الاصفر[٥] • وعلى هذا فالذين أرجعوا الوأد

---

(١) Wellhausen: Mohamed in Madina, P.221.

(٢) Bevan James: Woman in Islam, P. 44.

(٣) « ولكن » : الامومة عند العرب ص ٥٠ •
Smith: Kinship etc. P 279.

(٤) السيد أمير على : مركز المرأة فى الاسلام ص ٤٥ •

(٥) Sir James George Frazer: The Golden Bough Vol. I P. 151.

الى عامل دينى رأوا أنه كان اثرا من آثار تقاليد وشعائر دينية كانت معروفة وهو يشبه الضحايا والقرابين المعروفة لدى كثير من الامم ، تقدمها لآلهتها. بيد ان الضحايا فيها اراقة للدماء فى سبيل الالهة بالاضافة الى ازهاق الارواح، فى حين أن الوأد فيه ازهاق من غير سفك دم . وكان ازهاق روح الآدمى وسفك دمه على طريقة الضحايا للالهة معروفا فى جزيرة العرب ويؤيد وجوده ما جاء فى القرآن الكريم وما ذكرته الاخبار من قصة رؤيا سيدنا ابراهيم ، واقدامه على ذبح ابنه اسماعيل ، واطاعة سيدنا اسماعيل لأبيه . ولكن الله تعالى أوحى اليهما بفكرة الفداء(١) . ولعل هذا الايحاء يعتبر نقطة تحول هامة من ازهاق روح الآدمى وسفك دمه الغالى الى الاستعاضة عنه بروح الحيوان وسفك دمه ، من الضأن أو الماشية التى لها ثمن ويؤكل لحمها . ومثل قصة سيدنا ابراهيم قصة عبد المطلب تقريبا اذ اقدم على قتل ابنه عبد الله بسبب النذر الذى أخذه على نفسه . انه ان ولد له عشرة نفر ثم بلغوا معه حتى يمنعوه لينحرن أحدهم لله عند الكعبة ، لانه كان قد لقي من قريش ما لقي عند حفر زمزم .(٢) وهى قصة ممتعة تظهر سخاءهم العظيم فى نذورهم وأنهم يجودون بالنفوس فى سبيلها وهذا أقصى غاية الجود . وضحايا الاولاد Infantcide موجودة لدى شعوب كثيرة كما كانت موجودة لدى العرب(٣) وهكذا نجد الفراعنة واليونان والرومان وشعوب استرالية قد وأدوا البنات وقتلوا الاولاد لأسباب دينية(٤) كاظهار الشكران على النعم أو لاعتقادهم بالتناسخ والحلول أو لمعتقدات وافكار اخرى .

---

(١) سورة ابراهيم .

(٢) سيرة ابن هشام ج ١ ص ١٦٠ - ١٦٤ ، بلوغ الارب ج ٣ ص ٤٦ - ٤٧ .

(٣) Encyc. of Relig., V. I P. 669 ' Smith: Kinship, P. 370

(٤) Encyc. Brit. Vol. I2 P. 329

ومن الباحثين من أرجع الوأد الى عـــوامل اجتماعية ومنها ما يتعلق بالصحة كقتل من يولد ضعيفا ، أو مريضا أو قتل من يبتلى بعاهة جسيمة مستديمة بحيث يكون عالة كبيرة مدى حياته ، أو من يبتلى بمرض عضال لا يرجى شفاؤه(١) . والبنات والاولاد سواء فى قتل ذوى العاهات .

ومن الامور الاجتماعية التى قد يرجع اليها البعض وأد البنات هـو زيادة عددهن عن الذكور . قال « ولكن » :

«ان عدد البنات كان دائما ولا يزال يزيد كثيرا على عدد الاولاد فى الاحوال الاعتيادية ، لكن ما ترسله الارحام من الذكور سنويا أكثر مـن الاناث ، الا أن الاحصائيات عند الامم الاوربية متضافرة على أن عدد الوفيات فى الذكور أكثر بكثير منه فى الاناث . ويضاف الى هذه الظاهرة أن الرجل فى عنفوان شبابه وفى سائر أطوار حياته عموما أكثر تعرضا للخطر من المـــــــرأة » (٢) .

واعتقد «ولكن» ان الوأد لم يكن بصورة أوسع مما يتطلبه هذا التوازن بين عدد الرجال والنساء ومن الباحثين من جعل سبب الوأد الاحوال الاقتصادية وقد أيد القرآن الكريم هذا الرأى فقد ذكر فى مواضع عادة الوأد وقتل الاولاد ، وبين أنهم كانوا يقتلون أولادهم من املاق(٣) أى خشية الفقر . ومن هذا أنه روي عن صعصعة جد الفرزدق أنه سعى لمنع الوأد بشراء الموؤدة (٤) وبه افتخر الفرزدق قائلا :ـ

---

(١) المصدر السابق ، ولكن . الامومة ص ٥٠ .
Smith: Kinship. P. 279 ،

(٢) المصدر السابق .

(٣) القرآن الكريم ٦/١٥١ .

(٤) الكامل للمبرد ج ١ ص ٢٨٩ ، الاغانى ج ١٩ ص ٣ .

ومنا الذى منع الوائدا ت وأحيا الوئيد فلم يوأد[١]

كما افتخر قائلا :

أجار بنات الوائدين ومن يجر على الفقر يعلم أنه غير مخفر
على حين لا تحيا البنات واذ هم عكوفا على الاصنام حول المدور
أنا ابن الذى رد المنية فضله فما حسب دافعت عنه بمعور
وفارق ليل من نساء أتت أبى تمارس ريحا ليلها غير مقمر
فقالت أجر لي ما ولدت فانني أتيتك من هزل الحمولة مقتر
رأى الارض منها راحة فرمى بها الى جدد منها الى شر مخفر
فقال لها فيئي فاني بذمتي لبنتك جار من أبيها القنور[٢]

وقد افتدى صعصعة ، على ما ذهبت اليه الروايات ، ستا وتسعين موؤدة فى الجاهلية حتى ظهور الاسلام كان فداء كل موؤدة بعيرا وناقتين عشراوين[٣] .

وروى المبرد أن صعصعة افتدى مائتين وثمانين وليدة[٤] . كما روي عن عمرو بن نفيل القرشى أنه كان يتجول بين مضارب العرب ، فان رأى من يهم بوأد بنته أخذها منه ، وكفلها حتى تكبر ، ثم خير والدها بعد ذلك ، ان شاء أخذها وان شاء كفاه مؤونتها[٥] .

وكانت بلاد العرب قليلة الزراعة ، تعتمد فى كثير من غذائها على

---

(١) ديوانه ص ٢٠٣ ، نهاية الارب ج ٣ ص ١٢٧ ، وفى الاغانى والكامل ومعاهد التنصيص : وجدى .

(٢) الاغانى ج ١٩ ص ٣ ـ ٤ .

(٣) المصدر السابق ص ٣ . ناقة عشراء ـ مضى لحملها عشرة أشهر ، اللسان .

(٤) الكامل ج ١ص ٢٨٩ .

(٥) تيسير الوصول الى أحاديث الرسول ج ٣ ص ١١٣ .

البلاد المجاورة ، وكثيرا ما انتابتها المجاعات ، والقحط ، واضطرت قبائلها الى الهجرة • وكانت أحيانا تقوم بعض الموانع على الهجرة • وفى هذه الحالة كانت قبائلها تسعى لتجد لها مخرجا بانقاص الاستهلاك ، فتأخذ بأبسط الوسائل كقتل الاطفال أو بيعهم • وذكر العلامة « دارون » أن شعوبا كثيرة كادت تنقرض من ممارستها لعادة قتل الاطفال ، حتى أتى على هذه الشعوب وقت لم تجد الرجال فيه نساء بنسبة عددهم ، فاضطر كل بضعة منهم الى المشاركة فى امرأة واحدة (زواج الرهط) • أما قتل البنات أكثر من الاولاد فذلك لأن الاولاد أكثر انتاجا عادة وأقدر على الاكتساب فى مجتمعهم •

ومن استعراض الاسباب المختلفة التى يعود اليها الوأد عند العرب نجد أن السبب الرئيس هو الفقر والحاجة فى أكثر الاحوال • وهو السبب الذى ذكره القرآن فى أكثر من موطن(١) • والواقع ان العامل الاقتصادى ذو أثر بعيد فى حياة المجتمع وهو الذى يفسر لنا سعة انتشار الوأد مثلا ومتى انتشر وعند أى القبائل عرف •

قال الميدانى : ان عادة الوأد كانت شائعة لدى العرب عامة ولكنها اختفت قبيل الاسلام الا فى تميم(٢) • ولم يكن كل الافراد يئدون • (٣) وكانت هذه العادة منتشرة فى تميم وقيس وأسد وهذيل وكندة وبكر وائل(٤) وقريش(٥) ولم تكن مقصورة على الطبقات الفقيرة اذ توجد بين الاسر

---

(١) القرآن الكريم ٦/١٥١ ، ١٧/٣١ ، ٣٣ •
(٢) ابن قيم الجوزية : أخبار النساء ص ٥٩ ، بلوغ الارب ج ٣ ص ٤٢ • •
(٣) بلوغ الارب ج ٣ ص ٤٢ •
(٤) Smith. Kinship & Marriage, P. 281
(٥) Thomas Patric Hughes: Dictionary of Islam Art.: "Woman"

الممتازة فقد روى ابن قتيبة عن امرىء القيس الشاعر المشهور انه كان لا يولد له ولد ، وكان شديد الغيرة ، فاذا ولدت له بنت قتلها فلما رأت نساؤه ذلك غيبن بناتهن فى احياء العرب(١) كما روى الاغانى أن ليلى بنت مهلهل التغلبى ، وهى أم عمرو بن كلثوم ، كان ابوها قد أمر بها أن تدفن ولكن أمها اخفتها عنه فخلصتها من الوأد(٢) .

ومن العرب من كان يسفه رأى الوائدين(٣) ويحارب عادة الوأد ، التى هى على الرغم من ذلك يبدو أنها امتدت الى العهد الاسلامى لهذا نجد النبى صلى الله عليه وعلى آله يأخذ من المؤمنات ، حين جئن يبايعنه ، عهدا جاء فيه : ان لا يقتلن أولادهن . وهو يخص به النساء كافة . ويرى بعض أن وأد البنات كان يعتبر فى الجاهلية من الفضائل ومن الاعمال المشرفة عند جماعة من الناس . وقد يئدون البنت اذا ولدت من زواج غير شرعى بالنسبة للقواعد المرعية . وربما استعاضوا عن الوأد بالقاء البنت بعيدا للتخلص منها ومن وأدها ، الذى هو من المشاهد المؤلمة ، كيفما تكون الاحوال ، فيلتقطها من يشاء ويقوم بتربيتها ، ومن هذا يرجح أن يكون اسم « اللقيطة » الذى جاء فى قول الشاعر :

لو كنت من مازن لم تستبح ابلى بنو اللقيطة من ذهل بن شيبانا (٤)

وكذلك « لقيط » وهو ما سموا به الذكور .

أما كيفية الوأد فقد ذكر الزمخشرى ان الوالدين كانا يربيان البنت حتى السنة الثالثة ثم تغطس فى العطور فيأخذها الوالد ويلقيها فى حفرة

---

(٦) ابن قيم : أخبار النساء ص ٥٩ .

(٧) الاغانى : ج ٩ ص ١٧٥ .

(٨) الاغانى : ج ١٩ ص ٣ ـ ٤ ، بلوغ الارب ج ٣ ص ٢٤٥ ، تيسير الوصول الى أحاديث الرسول ج ٣ ص ١١٣ .

(٩) قريط بن انيف : حماسة ابى تمام ج ١ ص ٣ .

يحفرها لها فى الصحراء[١] ويحثو عليها التراب • ومنهم من كان يخنقها أو يذبحها[٢] •

٤ ـ عواطف الفتاة وآراؤها :

وبعد أن ذكرنا الوأد وأنه كان فى بعض القبائل ، وأنه لم يحصل الا لعوامل وأسباب خاصة يجدر بنا أن نتصور أن العطف ، والحب كانا متبادلين على العموم بين الفتاة وبين ذويها • فلم تكن البنت لتحرم من عطف أبيها ، وهذا ما نلمسه فى الشعر الجاهلى بصورة واضحة •

لقد صور الاعشى حزن ابنته العميق عندما رأته يستعد للسفر ، واشفاقها عليه من أخطاره • وذكر أنها كانت تتوسل اليه ليصرف رأيه عن الرحيل ، وبيّن كيف أنها كانت تشعر بالامن والراحة والعطف عندما يكون هو مقيما بين أهله وكيف أنها كانت تحس بجفاء الناس من حولها وابتعاد الاقرباء عنها عندما كان أبوها بعيدا عنها حتى لكأنها كانت تلمس أن صلات القربى والرحم يصيبها الفتور والضعف ولربما تكاد تنقطع • قال :

تقول ابنتى حين جد الرحيل ... أرنا سواء ومن قد يتم
أبانا فلا رمت من عندنا ... فانا بخير اذا لم ترم
أرانا اذا أضمرتك البلا ... د نجفى وتقطع منا الرحم[٣]

وكانت بنت الاعشى تدعو الله أن يدفع عن أبيها أتعاب السفر وأوجاعه اذ رأته مرة يستعد للرحيل فأشفقت عليه كثيرا ، وألحت على أن يعدل عن سفره ،

---

(١) الزمخشرى ج ٤ ص ١٨٨ ، تاج العروس ج ٢ ص ٥٢٠ ، بلوغ الارب ج ٣ ص ٤٢ ـ ٤٣ •
(٢) بلوغ الارب ج ٣ ص ٥٣ •
(٣) . الاعشى : ديوانه القصيدة رقم ٤ •

فلم تفلح ، حتى أنها استشفعت برجل شريف من قومها ، ولما كلم هذا الرجل الاعشى رده ، ولم يقبل شفاعته . وفى ذلك قال لها انه يحمل فى دخيلة نفسه غرضا يريد الوصول اليه . وطلب منها بعد أن دعا لها دعاءها له ، أن تكون مطمئنة النفس وأن عليها أن ترقب أوبته على كل حال ان آجلا وان عاجلا . وأن من اللائق بها أن تودعه وداع من يرجو أوبته ، فتحييه تحية طيبة . ثم حذرها اليأس والقنوط وهذا ما صوره الاعشى فى قوله :

تقول بنتى وقد قربت مرتحلا ... يا رب جنب أبى الاوصاب والوجعا
واستشفعت من سراة الحى ذا شرف ... فقد عصاها أبوها والذى شفعا
مهلا بنى فان المرء يبعثه ... هم اذا خالط الحيزوم والضلعا
عليك مثل الذى صليت فاغتمضى ... يوماً فان لجنب المرأ مضطجعا
واستخبرى قافل الركبان وانتظرى ... أوب المسافر ان ريثا وان سرعا
كونى كمثل التى اذ غاب وافدها ... أهدت له من بعيد نظرة جزعا
ولا تكونى كمن لا يرتجى أوبة ... لذى اعتراف ولا يرجو له رجعا (١)

والفتاة كانت ، ولا تزال ، تظهر لاهلها فى كل مناسبة خالص حبها وعطفها . والمعروف أن البنت بحكم جنسها تميل الى أبيها أكثر من ميل الولد له ، فالشعر الجاهلي يصور لنا ألوانا من هذا الميل والعطف الذى نجده حتى فى أقدم ما وصل الينا منه ومن ذلك قول أعصر بن سعد بن قيس عيلان :

قالت عميرة ما لرأسك بعدما ... نفد الزمان أتى بلون منكر
أعمير ان أباك شيب رأسه ... كر الليالى واختلاف الاعصر (٢)

وتحدث ذو الاصبع العدوانى عن شعور ابنته أمامة وجزعها اذ رأته اضطر الى استخدام العصا فى مشيه فرأته قد نهض وسقط فبكت فقال :

---

(١) الاعشى ـ ديوانه ـ القصيدة رقم ١٣ ، المحبر لمحمد بن حبيب ص ٣٢٦ . فاغتمضى ـ نامى وقرى مضجعا .

(٢) أعصر بن سعد ـ طبقات ابن سلام ص ١٩ التجارية ، الاغانى ج ١٤ ص ٨٨ « وهو أحد جدود طفيل الغنوى » .

جزعت أمامة اذ مشيت على العصا وتذكرت اذ نحن ملتقيان
فلقبل ما رام الآله بكيده ارما وهذا الحى من عدوان

واستمر يذكر لها ، على عادته فى شعره كيف يغير الله الملوك وهم فى عروشهم ويبدد أتباعهم وأبناءهم ويجعل الارض العامرة بهم جدباء قاحلة ، ويبيد أهلها الى أن يقول :

لا تعجبن أمام من حدث عرا فالدهر غيرنا مع الازمان (١)

وخاطب لبيد بنتيه اذ رآهما حزينتين عليه ، تتمنيان أن يبقيه الله لهما فأوصاهما ألا تخمشا عليه وجها ولا تحلقا شعرا بعد وفاته ، وانما طلب منهما أن تكتفيا بذكر فضائله وأفعاله الكريمة فحسب ، قال :

تمنى ابنتاى أن يعيش أبوهما وهل أنا الا من ربيعة أو مضر
فان حان يوما أن يموت أبوكما فلا تخمشا وجها ولا تحلقا شعر
وقولا هو المرء الذى لا حليفه أضاع ولا خان الصديق ولا غدر
الى الحول ثم اسم السلام عليكما ومن يبك حولا كاملا فقد اعتذر (٢)

وهناك كثير من الروايات تدل على أن علاقة الاب بابنته كانت علاقة مودة ومحبة ، وكان الاب يسمع نصحها فى بعض الاحيان(٣) . ومع هذا فقد رويت فى بعض الحوادث أخبار بخلاف ذلك منها أن بنتا من البنات ضحت بحياة أبيها من أجل الوصول الى رجل أحبته ، وهى ابنة ملك الحضر (٤)

---

(١) ذو الاصبع العدوانى ـ الاغانى ج ٣ ص ١١ ، رياض الادب لشيخو ص ٧١ .

(٢) لبيد بن ربيعة ـ الاغانى ج ١٤ ص ١٠١ بلوغ الارب ج ٣ ص ١١ .

(٣) النقائض ص ٣٣٥ .

(٤) عيون الاخبار لابن قتيبة ج ٤ ص ١١٩ ـ ١٢٠ ، الاغانى ج ٢ ص ٢٧ .

كما روى عن قصة ابنة الساطرون مع أردشيره(١) بيد أن البنت بصورة عامة كانت تقوم بدورها النسوى من اخلاصها لاهلها عامة ، فنجدها مثلا تنهى والدها عن الاسراف والانفاق الكثير شأنها شأن سائر النساء فى الاسر • كما صورنا ذلك فى الفصول السابقة • وقد ذكر الاسود بن يعفر عن ملامة ابنته سلمى على مبالغته فى الكرم ، واعتبارها ذلك منه اضاعة لماله • لانه اعتاد أن ينفق كثيرا على ما كان يحل بقومه من نوائب ، وكان يعين فقراءهم عند الحاجة فقال عنها :ـ

وقالت لا أراك تليق شيئا ... أتهلك ما جمعت وتستفيد
فقلت بحسبها يسر وعار ... ومرتحل اذا رحل الوفود (٢)

كما يصور الشعر الجاهلى الفتيات يقفن فى وجوه آبائهن أحيانا فيمنعنهم عن دخول الحرب والاشتراك فى القتال ويظهرن فى ذلك حرصا عليهم • وكان كثير من الآباء لا ينقادون الى رأيهن فى الغالب ، ويقنعونهن بأن الخوف والحذر لا يردان الموت المحتم عن حينه ، وفى ذلك يقول سلامة بن جندل :

تقول ابنتى ان انطلاقك واحدا ... الى الروع يوما تاركى لا أباليا
دعينا من الاشفاق أو قومى لنا ... من الحدثان والمنية واقيا (٣)

والشعر الجاهلى يصور النساء خاصة فى الطبقات الراقية ، على درجة كبيرة من الانفة والكبرياء ، فكانت الفتيات اللائى تدرج فى أحضانهن تنشأ تلك النشأة • فقد روى أن الشنفرى الازدى وكان مملوكا فى بنى سلامان عند رجل منهم ، وقد سأل ابنة هذا الرجل يوما قائلا : «اغسلى رأسى يا أختى» فأنكرت أن يكون أخاها ولو فى القول فقط ، فلطمته • وهذا كان مما أغاظه

---

(١) ابن قيم الجوزية ـ اخبار النساء ص ٨٦ •
(٢) الاسود بن يعفر ـ الاغانى ج ١١ ص ١٣٨ • شعراء النصرانية ص ٤٨٠ •
(٣) سلامة بن جندل ـ ديوانه ص ٢١ (الآباء اليسوعيين) •

وأغضبه على بنى سلامان كلهم وقال فى ذلك :

ألا ليت شعرى والتلهف ضلة بما ضربت كف الفتاة هجينها
ولو علمت تلك الفتاة مناسبى ونسبتها ظلت تقاصر دونها
أنا ابن خيار الحجر بيتا ومنصبا وامى ابنة الاحرار لو تعرفينها (١)

فأدت ضربة هذه الفتاة الى حقد عميق سبب الفتك بكثير من رجال هذه القبيلة اذ كان الشنفرى يغير عليهم فى كل مناسبة بسبب ما يحمله لهم من هذا الشعور العدائى .

٥ ـ خطوبة الفتاة :

ذكرنا فى الفصل ، الذى عقدناه للزوجة ، زواجها وطلاقها ، ونذكر هنا مقدمات الزواج كالمعاشرة والخطوبة وما يتصل بهما .

لم تكن فى البيئة الجاهلية حواجز وموانع بين الفتيان والفتيات ، خاصة عند البدو ، ففتيان القبائل يرون الفتيات ومن المسموح لهم مكالمتهن ومجالستهن فى الظروف الاعتيادية البعيدة عن الريب ، ولهذا فكثيرا ما ينمو الحب بين فتاة وفتى منهم . وهناك شواهد كثيرة على الحب الناشىء عن هذا النمط من الاختلاط (٢) كما قد ينشىء الحب عن طريق الاتصال أثناء السقى أو الرعى ، أو الرحيل والاسفار ، أو أثناء الحروب ، أو فى أوقات الحج أو الطواف حول الآلهة ، أو فى الاعياد أو فى الاسواق أو غير ذلك قال امرؤ القيس :

فمن لنا سرب كأن نعاجه عذارى دوار فى ملاء مذيل (٣)

---

(١) الاغانى ج ٢١ ص ٩٢ .

(٢) يلاحظ : الاغانى : ج ٥ ص ١٨٠ ، ج ٢٠ ص ١٥٢ ، ج ٢١ ص ١٦٠ ، الشعر والشعراء ص ٣٣٧ ، الامالى ج ٣ ص ١٥٧ ، تزيين الاسواق ص ٩١ .

(٣) ديوانه ص ٣١ .

والدوار صنم معين أو هى حفلات الرقص والصلاة للاصنام • وكانت الفتيات ترتدى الحلل الجميلة وتدور حول الصنم مغنية راقصة له • قال قيس ابن الخطيم :ـ

تراءت لنا كالشمس تحت غمامة بدا حاجب منها وضنت بحاجب
ولم أرها الا ثلاثا على منى وعهدى بها عذراء ذات ذوائب
ومثلك قد أصبيت ليست بكنّة ولا جارة ولا حليلة صاحب (١)

واذا مال الفتى الى فتاة وأراد الزواج منها فالزواج لابد أن تسبقه الخطوبة • وقد روى محمد بن حبيب : أن المرأة تخطب الى أبيها أو أخيها أو عمها أو بعض بنى عمها(٢) • ومراسيم الخطوبة تختلف باختلاف الافراد والطبقات والقبائل من حيث اطالة المراسيم وقصرها • فمن المتعارف عندهم ان تبدأ بتبادل التحايا بين ذوى الخاطب وذوى الخطيبة • ثم يتحدثون عن مناقب بيت الفتاة وعن رغبة الخاطب الاكيدة فى التصاهر مع بيت الفتاة • ثم يبدأ رأس الوفد الخاطب بالتحدث عن كفاءة الفتى الذاتية ، وعن مزايا بيته وملائمة هذه المزايا وموافقتها لمزايا الفتاة وبيتها ويذكرون وجود الكفاءة بين البيتين ثم يرد ولى أمر الفتاة على المتكلم من أهل الفتى بالطريقة نفسها • فيتحدث عن بيت الفتاة ثم عن الفتى ويثنى عليه وعلى بيته ويبين أوجه الكفاءة بين البيتين ويعلن عن موافقته على زواج الفتاة على المهر المتفق عليه سابقا (٣) •

وقد تكون الخطوبة بأسلوب موجز جدا ، فيوجه الخاطب بنفسه الايجاب الى الخطيبة فيقول « خطب » فتجيبه بالقبول بذاتها فتقول « نكح » وبهذا تتم المراسيم(٤) •

---

(١) طبقات ابن سلام ص ٩١ •
(٢) المحبر ص ٣١٠ •
(٣) نهاية الارب : ج ١ ص ٣٣٧ ، عمدة القارى ج ٢٠ ص ١٣٤ •
(٤) محمد بن حبيب : المحبر ص ٣٩٨ ، ولكن : الامومة الخ •• ص ٢٠ ، الميدانى مجمع الامثال ج ١ ص٣٥٦، تاج العروس ج ١ ص٢٣٧•

وقد يحدث الا يكون الخاطب قد رأى الخطيبة أو خالطها فيستعين عند ذاك بالاقرباء أو الجيران من النساء يخبرنه عما يريد أن يعرفه عنها • وقد يتعدد الخاطبون للفتاة فتنشأ بينهم المفاخرات والمباهلات ، فيذكر كل منهم ما فيه من المزايا ومواطن الشرف ، التى كان منها الحسب والنسب والشجاعة والنخوة(١) وتختار الفتاة من تفضل من هؤلاء ، لانهم كانوا يستشيرون الفتاة فى أمر زواجها • ويدل على ذلك قول هند بنت عتبة بن ربيعة لابيها : « يا أبت ، انك زوجتنى من هذا الرجل ـ تريد الفاكهة بن المغيرة المخزومى ـ ولم تؤامرنى فى نفسى ، فعرض لى معه ما عرض ، فلا تزوجنى من أحد حتى تعرض على أمره وتبين لى خصاله • » فخطبها سهل بن عمرو وأبو سفيان بن حرب فدخل عليها أبوها وهو يقول :

أتاك سهل وابن حرب وفيهما رضا لك يا هند الهنود ومقنع
وما منهما الا يعاش بفضله وما منهما الا يضر وينفع

الى قوله :ـ

فدونك فاختارى فأنت بصيرة ولا تخدعى ان المخادع يخدع (٢)

فاختارت أبا سفيان • ومن هذا وغيره يتضح لنا أهمية رأى الفتاة فى زواجها • أما ما كان يدور بخلد الفتاة عندما يخطبها خطيب فيجدر بنا أن نذكر نموذجا فى حادثة رواها صاحب الأغانى ، وتتلخص فى أن الحارث بن عوف بن أبى حارثة قصد أوس بن حارثة بن لام ليخطب احدى بناته وكان الحارث سيدا جليلا من سادات العرب • فدعا أوس بأكبر بناته ليستشيرها فى الامر وليعرف رأيها • فقالت « لا تفعل » قال « ولم » قالت « لانى امرأة فى وجهى ردة ، وفى خلقى بعض العهدة • ولست بابنة عم فيرعى رحمى ، وليس بجارك فى البلد فيستحى منك ، ولا آمن أن يرى منى ما يكره

---

(١) بلوغ الارب ج ٢ ص ١٥ •
(٢) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٤ ص ١٤٩ •

فيطلقنى ، فيكون علي فى ذلك ما فيه » قال « قومى بارك الله فيك » فدعـا بالوسطى فأجابته بمثل ذلك حتى دعا ببهيسه ، وهى الصغرى ، فقالت « أنت وذاك . لكنى والله الجميلة وجها ، الصناع يدا ، الرفيعة خلقا ، الحسيبة أبا . فان طلقنى فلا أخلف الله عليه(١) » وكثيرا ما كانت آراء الفتيات معتبـرة وناضجة فى هذا الموضوع .

أما الصفات التى كانت الفتيات ترغب فى توافرها عند الازواج فقـد صورها الشعر فى مواطن ، منها ما جاء فى حكاية بنات ذى الاصبع العدوانى فقد روى أنه كان له أربع بنات وكن يخطبن اليـه ، فيعرض ذلك عليهن فيستحين منه ، فلا يزوجهن اعتقادا منه أنهن لا يرغبن فى الازواج ، وكانت أمهن تقول له « لو زوجتهن » فلا يفعل . فاسـتمع عليهن ذات ليلة فقـالت الـكبرى ـ

ألا ليت زوجى من اناس ذوى غنى ... حديث شـباب طيب الريح والعطر
طبيب بأدواء النسـاء كأنـه ... خليفـة جـان لا ينـام عـلى وتر

وقالت الثانية :ـ

ألا هل أراهـا ليلة وضجيعهـا ... أشم كنصـل السـيف غـير مبلد
لصـوق بأكبـاد النسـاء وأصله ... اذا ما انتمى من سر أهلى ومحتدى

وقالت الثالثة :ـ

ألا ليته يمـلا الجفـان لضيفـه ... له جفنة يشقى بها النيب والجـزر
به محكمات الشيب من غير كبرة ... تشين ولا الفانى ولا الضرع الغمر

وقالت الصغرى «زوج من عود خير قعود» فلما سمع أبوهن ذلك زوجهن (٢) والظاهر أن هذه الصفات التى رغبن فى توفرها فى أزواجهن تكاد تنحصر

---

(١) الاغانى ، ج ٩ ص ١٤٩ ـ ١٥٠ .

(٢) الاغانى ـ ج ٣ ص ٤ ، ٥ الكامل للمبرو ج ١ ص ٣٢٩ : « بين الروايتين اختلاف فى اللفظ » .

فى التعقل ، ومضاء العزيمة ، والاخذ بالثأر ، والكرم والغنى ، والشباب ، والقرابة • ومن ملاحظتها نجد أنها الصفات التى تستدعيها طبيعة الفتاة فى تلك البيئة العربية ، تلك البيئة التى تتطلب الفتوة والكرم والعزم ، وهى الصفات التى تجعل الرجل قادرا على حماية المرأة وكفايتها • والمرأة لا تريد من الرجل غير الحماية والكفاية فى كل زمان ومكان ، وان كانت عناصر حمايتها وكفايتها تختلف باختلاف المواطن والازمان • والشعر الجاهلى يصور رغبة الفتاة مثلا فى الثروة فى مناسبات كثيرة ذلك لان الثروة كانت ولا تزال من عناصر الكفاية والحماية ، بل هى من أسهل الوسائل لمعرفة القدرة على الحماية والكفاية • والظاهر أن سكان المدن كانوا أكثر طلبا للقدرة المالية فى الرجل فى حين أن أهل البادية كانوا أكثر منهم رعاية للشجاعة والكرم • فقد روى الاغانى أن مسافر بن أبى عمرو بن أمية خطب هندا بنت عتبة بن ربيعة ابن عبد شمس وكان يهواها ، خطبها الى أبيها بعد أن فارقها الفاكه بن مغيرة ، فلم ترض ثروته وماله ، فوفد على النعمان يستعينه على أمره ، ولكنه لما عاد كان أول من لقيه أبو سفيان فأعلمه بزواجه منها(١) • وآراء الفتيات فى الازواج مبثوثة فى كتب الادب وهى بجملتها لا تخرج عما صورناه (٢)

وكانوا يزوجون الشريف منهم اذا جاء خاطبا وقد لا يأخذون منه مهرا فقد روى أن لقيط بن زراره خطب الى قيس ذى الجدين ، فقال له قيس ومن أنت ؟ قال لقيط بن زراره • قال وما حملك أن تخطب الىّ علانية فى هذا المجلس ؟ قال لانى عرفت أنى ان عالنتك لم أفضحك وان سارتك لم أخدعك • فقال كفء كريم ، لا تبيت والله عندى عزبا • فزوجه ابنته وساق عنه(٣) • وبعكس هذا اذا كان الخطيب غير كفء فلا يزوجونه الا

---

(١) الاغانى ج ٨ ص ٤٧ •

(٢) عيون الاخبار لابن قتيبة ج ٤ ص ٤٧ - ٤٨ ، الاغانى ج ٨ ص ٢١٠ - ٢١٨ •

(٣) الاغانى ج ١٩ ص ١٣١ ، العقد الفريد ج ٤ ص ١٤٧-١٤٨•

لظروف قاسية كما حصل لبنت مهلهل .

وقد تبين مما أسلفنا أن عقد الزواج يسمى فيه مهر يتفق عليه الطرفان، قد يكون ابلا أو أعيانا أو نقدا أو غير ذلك . والرجل هو الذى يدفعه بخلاف ما كان عند اليهود واليونان والرومان الامر الذى استرعى نظر الرومان (١) . والمهر أو الصداق حق من حقوق الزوج يسترجعه عند الفرقة بالطلاق أو الموت ولهذا كانت الزوجة تدخل فى ملكية الرجل يرثها عنه بنوه والاقربون ولهم ، كما أسلفنا أن يتزوجوا منها بدون مهر ، كما لهم أن يزوجوها ويأخذوا مهرها ، كما لهم عضلها أى ابقاؤها من غير زواج مدى الحياة . وقد أبطل الاسلام هذا كله . فصار المهر حق للزوجة ، لا يورث لا بالموت ولا بالطلاق . لكنه أجاز موافقة الرجل على طلاق زوجته لقاء مال وهو « الخلع » كما أن هذا المال لا صلة له بالمهر مطلقا ، انما هو لقاء تنازله عن حقه فى النكاح ، لان الزوج لا حق له فى الاسلام على رقبة الزوجة بخلاف ما كان فى الجاهلية ولفظ « الصداق » كان يطلق على ما يقدم الى العروس ، أما المهر Dowry فكان ما يقدم الى الوالدين (٢) .

وكانوا يعنون برعاية الكفاءة فى زيجاتهم . وقد أشرنا الى الحزن الشديد الذى كان يحز فى نفس مهلهل التغلبى عندما اكره على زواج بنته من رجل ، غير كفء لها ، من اليمن . ومن هذا قول الشاعر فى امرأة زوجت لمن غير كفء :

لقد فرح الواشون ان نال ثعلب ... شبيهة ظبى مقلتاها وجيدها

أضر بها فقد الولى فأصبحت ... بكف لئيم الوالدين يقودها (٣)

---

(١) Encyclopaedia of Religion, Vol. 8 P. 447

(٢) Smith. Kinship & Marriage, P. 76

(٣) الكامل للمبرد ج ١ ص ٢٨١ .

وكان ميل الفتيات ، فى الغالب ، أن يزوجن فى أقربائهن ليكن قريبات من أهلهن وذويهن • وكم نجدهن يشكين من الزواج فى الديار البعيدة والقبائل النائية • قالت امرأة من عامر كانت قد زوجت فى طيء :ـ

لا تحمدن الدهر أخت أخا لها ولا ترثين الدهر بنت لوالد
هم جعلوها حيث ليست بحرة وهم طرحوها فى الاقاصى الاباعد[1]

وذلك لانها بعيدة عن أهلها فهى لا تلقى مساعدتهم حين تحتاج اليها وكذلك كانوا يميلون عموما الى ان يزوجوا بناتهم من الاقربين فى النسب والدار •

٦ ـ التغزل بالفتاة للاغراض السياسية :ـ

ذكرنا فى الفصل الخاص بالمرأة الحبيبة الغزل الحقيقى ودواعيه والذى كان غاية فى فنون الشعر ، يترجم فيه الشاعر عن احساس خفى صادق فيثير فى النفوس المحبة شعورا صادقا كذلك • أما هذا اللون من الغزل فليس حقيقيا ولا صادرا عن شعور صادق ولهذا أفردنا له هذا القسم •

الفتاة عنوانها الحشمة ، والحياء ، والخفر ، والترفع عما قد يكون فى المجتمع من التناحر والكيد العنيفين • فهى لابد أن يكون لها منزلة خاصة ودقيقة تتأثر بالمؤثرات كافة ، وان كانت طفيفة • فهى فى المجتمع العربى يصدق عليها التشبيه الذى تضمنه قول الرسول « رفقا بالقوارير » فهى القارورة التى يظهر فيها اللمس والخدش ، وهى التى تنشعب بسهولة • وكل ثلب أو منقصة تنسب الى الفتاة تكون واضحة للعيون • وما ينسب الى الفتاة من منقصة ، مهما كان لونها ومقدارها ، يعود بحكم العادات والتقاليد ، على أهلها وبشكل أوسع وأبلغ • فشرفها شرفهم وحصانتها حصانة لهم •

---

(١) الكامل للمبرد ج ١ ص ٢٨٠ ـ ٢٨١ •

ولما كان العرب شديدى الغيرة على فتياتهم ، شديدى العمل على حفظ سمعتهن لذا اتخذهن الشعراء وسيلة لينالوا من خصومهم ومنافسيهم • وكان هذا السلاح ذا حدين اذ يتخذه الخصم لنفس الغرض • وهكذا اتخذت الفتاة مادة للنقائض بين الشعراء وموضوعا لنوع خاص من الغزل هو الغزل الكيدى وهكذا امتدت هذه النقائض التى فيها هذا اللون من الغزل الى العصر الاموى •

والتغزل بالفتيات للاغراض الكيدية الذى ليس فيه حب صادق عرف عند سكان المدن فى الجاهلية وقل أن يوجد لدى أبناء القبائل اذ أن طبائعهم لا تتحمله • وشأن هذا الغزل شأن الغزل الجاهلى عامة • وهو غزل عفيف لا ابتذال ولا اسفاف فيه • ولكنه لم يكن مع ذلك خفيف الوقع على النفوس لان العربى مرهف الحس ، شديد التأثر ، قوى الادراك لكل ما يتصل بمواطن الشرف والاعراض ، وفى مقدمتها التعرض للفتيات رمز الطهر والعفة عندهم •

ومن هذا الغزل السياسى تغزل قيس بن الخطيم بأخت الشاعر عبدالله بن رواحة وهى عمرة ، وذلك فى حرب بعاث ، التى دارت بين الاوس والخزرج وانتصرت فيها الاوس قوم قيس بن الخطيم على قوم ابن رواحه الخزرج فقال :ـ

أتعرف رسما كاطراد المذاهب ... لعمرة وحشا غير موقف راكب
ديار التى كانت ونحن على منىً ... تحل بنا لولا نجاء الركائب
تراءت لنا كالشمس تحت غمامة ... بدا حاجب منها وضنت بحاجب
ولم أرها الا ثلاثا على منىً ... وعهدى بها عذراء ذات ذوائب
ومثلك قد أصبيت ليست بكنه ... ولا جارة ولا حليلة صاحب (١)

---

(١) ديوانه ص ١٠ ، طبقات ابن سلام ص ٩١ ـ ٩٢

ثم يستمر يصور كيف أنه لم يكن له مندوحة عن الحرب ولما تبين له ذلك استعد استعدادا كاملا لهـا وجالد بشجاعته • وهذا الغزل عفيف خـال من الاسفاف ولهذا نجد الرسول « ص » وفى الجامع فى المدينة ، وليس حوله الا خزرجى ، يستشهد بهذه القصيدة التى هى فى بنتهم ، ثم استشهدهم على صحة بعض دعاوى قيس فيها ، فشهدوا له(١) •

ولم يسكت أخو عمرة عبدالله فتغزل بليلى بنت الخطيم وهى أخت قيس أيضاً فى القصيدة التى مطلعها :ـ

أشـاقتك ليلى فى الخليط المجانب نعم فرشاش الدمع فى الصدر غالبى(٢)

ومن الجدير أن نلحظ أن كلا القصيدتين من بحر واحد هو الطويل ومن قافية واحدة وهى الباء ، وان فيهما تجانسا من حيث الروح العامة ورقة اللفظ ونقضاً فى المعانى ، فهما من النقائض الجاهلية التى كانت اساسا لفن النقائض ، الذى شاع واتسع ، فى العصر الاموى •

---

(١) الاغانى ج ٢ ص ١٥٧ •

(٢) ديوان قيس بن الخطيم ص ٣٦ •

الفصل السادس

المرأة الامة فى الشعر الجاهلى

١ ـ الامة فى التاريخ والشعر :ـ

تاريخ العرب وأدبهم القديمان مثل التاريخ والادب العالمى بعامة ، انهما تاريخ أشخاص وأدب أشخاص ، لا تاريخ جماعات وأدب جماعات ، كلا ولا تاريخ أمة وأدب أمة . فطابعهما الاول والاخير طابع فردى ارستقراطى . ذلك لانهما يعنيان بالافراد الممتازين وما يصدر عنهم أو يتصل بهم فحسب . اما ما يصدر عن الجماعات ، أو الطوائف ، أو الفرق ، او سائر الافراد ، فانما ينسب الى أولئك الافراد ، ويختلط بتاريخهم وأدبهم الخاص ، ولا يكون الدافع لتدوينه أو حفظه وتناقله الا خدمة تاريخ الشخصيات تلك . فالمؤرخ يذكر الحوادث لا لشىء الا لصلتها بتاريخ فرد معين ، فهو يعنى ويختار منها بالمقدار الذى يتصل بالفرد وتاريخه . فالفتوحات والحروب والصناعات والديانات والخ .. كلها تدون باسم الافراد ، وتتطور وتتغير باسمهم . اما تاريخ الجماعات وآدابها وتطورات حياتها وتقدمها كل ذلك وغيره فمبثوث هنا وهناك ، ومفرق فى تاريخ الممتازين من الافراد وآدابهم . فقد نجد اشارات عابرة أو نستشف لمحات نادرة من بين السطور لتاريخ الجماعات وآدابها واذا اردنا ان نؤلف من هذه الاجزاء المتناثرة والاوصال المفرقة صورة متسقة مترابطة لحياة الجماعات عز علينا ذلك فى العادة واحتجنا الى جهد موصول وتوفيق وتأتى ظروف .

ومن الجماعات التى كانت تحيا فى المجتمع العربى فى الجاهلية وتؤلف طبقة متميزة من طبقاته هى طبقة الاماء . فما هى منزلة هذه الطبقة فى ذلك

المجتمع ؟ وما العوامل التى دعت الى تكوينها ؟ وما هى أعمالها فى المجتمع وتأثيرها فيه ؟ هذا وغيره ما نريد أن نكشف الستار عنه ونتلمس أخباره هنا وهناك علّنا نرسم صورة ولو كانت تقريبية لمعالم هذه الطبقة • واننا لنحس منذ البداية باننا لا نستطيع تحقيق كل ما نصبو اليه لندرة المصادر ، وضياع أكثر التاريخ والشعر والقصص والاخبار لهذه الفترة الاساسية فى دراسة حياة الشعب العربى يوم كانت الجزيرة وحدها على وجه التقريب هى الموطن الاصلى له •

والأمة فى عرف ذلك المجتمع هى المملوكة(١) خلاف الحرة أو هى المملوكة ذات العبودة(٢) أو هى الجارية التى تمتهن الخدمة والقينة أو المغنية التى تمتهن الغناء • وتسمى المغنية كرينة أيضا(٣) • فكونها مملوكة اذن من أهم صفات الأماء تلك وكان التملك يحصل عندهم بطرق أهمها : النهب والاسر والشراء • والنساء كن يجتلبن بطريق من هذه الطرق من البلاد المجاورة ، كما يؤخذن سبيات من القبائل العربيات نفسها فيمتلكن ، فأصبحن يؤلفن طبقة كبيرة فى المجتمع الجاهلى ، لشيوع الحروب والغزو عندهم وكثرة النهب • وانتشرت أسواق النخاسة فى المدن الكبرى بخاصة ، يتجر الناس فيها بالاماء والعبيد الذين كانوا يعتبرون سلعة ، ومن أهم السلع •

٢ ـ منزلة الاماء الاجتماعية :

والأماء طبقة مهانة محتقرة ، تلقى على عاتقها الاعمال المرهقة التى

---

(١) الفيروزبادى : القاموس المحيط ج٤ ص ٣٤٩ •

(٢) ابن منظور : لسان العرب ج١٨ ص ٤٧ـ٤٨ ، ج١٧ ص ٢٣١ـ ٢٣٢ •

(٣) حبيب الزيات : المرأة فى الجاهلية ص ١١ • ويسمى العود كرانا والكرينة صاحبة العود • قال لبيد :

بصبوح صافية وعزف كرينه بمـوتر تأتاله ابهامهـا

تحتاج الى مجهود مادي وبدنى كبير • وهذه الاهانة والاحتقار ينتقلان الى الابناء ، فابناء الاماء يرثونها بالولادة • قال السليك بن السلكة ، أحد صعاليك العرب المشهورين والعدائين الممتازين الذين قيل عنهم : انهم لا تعلق بهم الخيل وكانت امه حبشية وهو منسوب اليها(١) :

أشاب الرأس أنى كل يوم أرى لى خالة وسط الرحال
يشق علىّ أن يلقين ضيما ويعجز عن تخلصهنّ مالي(٢)

وابن الامة لا ترغب فيه الحرائر وان كان من قبلتهن • فهو ليس بكفء لهن ، فاذا صادف أن طلب الواحد منهم يد احداهن سرعان ما ترفضه • فقد روى ان شقيق بن سليك خطب امرأة من قومه فردته فلم يستطع أن يفعل شيئا الا أن يدعو لها بالنصب فى حياتها وبالعقم اذا تزوجت من غيره • بعد أن ردته فقال والم يحز فى قلبه :

ونبئتها أحرمت قومها لتنكح(٣) فى معشر آخرينا
فاما نكحت فلا بالرفاء اذا ما نكحت ولا بالبنينا(٤)

وبالاضافة الى احتقار ابن الأمة فان بيته لم يكن مصونا مكرما كسائر بيوت الناس ، بل كانت امرأته تزار رضى بالزيارة هو أم لم يرض • فيلج الناس عليه بيته من دون أن يحسبوا له حسابا وهو ان أراد أن يزور بيتا للناس لا يسمح له الا اذا شاء أهل البيت وبالطريقة التى يرونها • ويتحدث الناس إلى زوجته رغم ارادته • قال السليك بن سلكه وقد وجد قوما يتحدثون الى زوجته وهم من بنى عمها :

---

(١) ابن قتيبة : الشعر والشعراء ص ١٣٤ •
(٢) المبرد : الكامل ص ٢٢٩ (باريس) البرقوقى : دولة النساء ص ٥٥٢ •
(٣) لتنكح أى لتتزوج •
(٤) البرقوقى : دولة النساء ص ٧٥ •

يزورونهـا ولا أزور نسـاءهم ألهفى لاولاد الأماء الحواطب (١)

والزواج من الأماء غيرمرغوب فيه عند البدو وأهل الحضر وقد استمرت هذه النظرة للاماء حتى بعد الاسلام فكان أهل المدينة مثلا لا يرغبـون فى الزواج من الاماء حتى نشأ فيهم ثلاثة من الاماثل الاشراف ، هم : عـلى بن الحسين والقاسم بن محمد وسالم بن عبدالله فبزوا أهلها علما وورعا ، منذ ذلك ، فحسب ، تبدلت نظرة المجتمع الى الزواج من الاماء ثم تطورت الحال فصار الكثيرون منهم يرغبون فى الزواج بالاماء أملا فى أن ينجبن مثـل هؤلاء الاعلام الثلاثة(٢) .

والهجين لا تورثه العرب فى جاهليتهـا ولا تعـده ولـو وُجـد (٣) وتستعبده من أنسابها الا اذا أنجب فهى عند ذلك فحسب تعترف به . فقد بقى عنترة عبدا يعرف بابن زبيبة الى أن أغار بعض أحياء العرب على قومه من بنى عبس فقاتلوهم وفيهم عنترة فقال له أبوه : كُرّ يا عنترة فقال : العبد لا يحسن الكرّ انما يحسن الحلاب والصرّ . قال : كرّ وأنت حر . فقاتلهم عنترة وأبلى فى قتالهم واستنقذ ما فى أيديهم من الغنيمة المنهوبة فأدعاه أبوه عند ذاك وحرّره فألحقه قومه بهم فى النسب فصار عنترة بن شداد العبسى ، أما اخوته من امه فقد بقوا عبيدا(٤) .

والأمة ان ولدت سميت عندهم « أم ولد » أما الحرة فانها ان ولدت

---

(١) الاغانى : ج١٨ ص ١٣٧ .

(٢) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج٢ ص ١٧٩ . ويلاحظ كامل المبرد ج ١ ص ٣١١ .

(٣) المصدر السابق . الهجين غير كريم الام والمقرف غير كريم الاب .

(٤) ابن قتيبة : الشعر والشعراء ص ٧٥ . ومثل عنتره خفاف بن ندبه السلمى الذى كانت امه سوداء نسب اليها .

سميت « أم البنين »(١) .

على أن الاماء لم يكن كافة فى مستوى اجتماعى ومنزلة واحدة فهن يختلفن باختلاف أجناسهن وأشكالهن واستعدادهن العقلى والفنى فمنهن السوداوات من افريقية وغيرها ، ومنهن الروميات والفارسيات والهنديات . فكان منهن الكادحات المجهودات اللاتى تلقى على عواتقهن الاعمال المضنية ، والخدمات المنزلية ، ورفع الاحمال وانزالها، والطبخ وجمع الاحطاب والخ.. كخالات السليك اللاتى وصفهن فى البيتين السابقين وقال بانه يراهن بين الاحمال ووسط الرحال ، يرفعن الاثقال ويضعنها . ومن الاماء : اللاهيات العابثات ، والمغنيات والراقصات والعازفات على آلات الطرب ، وعشيرات الامراء والاثرياء العابثين اللاهين ، كعشيرات امرىء القيس وطرفة بن العبد وغيرهما ، الذين صوّروا بعض عبثهم ولهوهم معهن فى أشعارهم، وأمثال أبى سفيان وأبى جهل وعتبة بن ربيعة وغيرهم من أغنياء مكة أم القرى، وأمثال غير هؤلاء من المرابين الذين يأخذون الربا أضعافا مضاعفة والذين يأكلون الحرام فيذهب نارا فى أجوافهم وزبدا جفاء لا ينفعهم ولا ينفع الناس .

٣ ـ الاماء والحالة الاقتصادية والخلقية :

تميزت فى المجتمع العربى فى الجاهلية طبقتان : الاغنياء الموسرون والفقراء المعوزون وانعدمت ، أو كادت تنعدم ، الطبقة المتوسطة . وهذا مظهر طبيعى فى الجماعات القبلية التى يسودها رؤساؤها بالقوة والغلبة ، وتشن القبائل الغارات فيما بينها ، ولا حكومة منها ترعى صلاحها ، وحتى التجارات ونقل البضائع ما كانت تستقيم لولا الحماية الدائبة لها وكان من الطبيعى أن يجد الاثرياء لمكاسبهم الواسعة مصرفا وهم يعيشون فى بيئة صحراوية قليلة

---

(١) دائرة المعارف الاسلامية مادة (أم) .

الصور والمناظر • فقد حظيت المرأة بعناية الرجل ويدل فلى ذلك ما كانت تفتح به قصائدهم من الغزل والنسيب الذى صار تقليدا شعريا فى ذلك العصر • فكانت النساء ملهى للرجل وأى ملهى • وكان وجود الاماء اللاهيات العابثات أمرا طبيعيا عند هذا الشعب العاطفى الذى طغت عليه فرديته وغلبته نزعته المادية ، وقلت فى بلاده الملهمات من الالوان والصور • فبيئته رمال واسعة ممتدة وسماء زرقاء مصحية • والمرأة ، بطبيعتها ، ملهم قوى للمعانى والاخيلة • قال المسعودى : لم تكن أمة من الامم بعد فارس والروم أولع بالملاهى والطرب من العرب[1] •

واللاهون العابثون بخاصة ، الذين كان الاختلاف الى دور اللهو والغناء مما يألفون ، والاسراف فى العبث مما يحسنون فريقان : فريق متحلل من قواعد الدين والاخلاق المرعية ، وأكثرهم من سكان الحواضر وبخاصة المدن الكبرى مكة والمدينة والطائف ، المدن التى كانت مراكز هامة للدين والعبادات • هذه المدن كان من مصلحتها أن تحافظ على ما أقيم فيها من معابد وما تعارفوا عليه من شعائر دينية لتحتفظ بمركزها المالى والاجتماعى ، لان أهم أسواق التجارة والرقيق كانت فيها • وكان سكان هذه المدن أسبق من غيرهم فى ميدان الثقافة وقد تعرض فريق منهم لهذا السبب الى النفور من الطقوس الدينية المتبعة ونتيجة الى الاشباع الذى حصل فى نفوسهم من معالم الدين ومراسيمه فانصرفوا نحو المادة ونحو المال بخاصة • وقد ساعدهم على التحول ما تعرضت له الجزيرة العربية بعامة من أزمة اقتصادية أخذت بخناقها ، وذلك فى القرن السادس الميلادى بسبب التطورات السريعة التى كانت تطرأ على فن الملاحة البحرية التى كان من أهم نتائجها أن صار الملاحون أقدر على ركوب البحر ، فصاروا يخاطرون بنفوسهم وبتجارتهم أكثر من

---

(١) مروج الذهب : ج٤ ص ١٥٩ •

ذى قبل • فأخذت التجارات تنقل من الموانىء وبالطرق البحرية أكثر مما سبق • ومن المعروف جيدا أن التجارات فى الجزيرة كانت تسلك الطرق البرية بحيث كان أهم اقتصادياتها قائماً على نقل هذه التجارات •

وكان لهذه الازمة الاقتصادية التى شملت الجزيرة آثار بعيدة فى معايير الاخلاق والمعاملات بين الناس فتبدلت مقاييس الحشمة السابقة ، واضطربت موازين العدل الاجتماعى ، وهزلت الذمم ، وتزعزعت العقائد ، فصار كثير من التجار اذا اكتالوا على الناس يستوفون • وأخذوا الربا الفاحش أضعافا مضاعفة • والى غير ذلك مما وصفه القرآن الكريم • وكثر النهب والغارات وانحطت الاخلاق فى المدن فأخذ بعض شبان مكة مثلا يتعرض لنساء البدو عندما يفدن للحج أو لقضاء الحاجات والمصالح ، وقد يؤدى ذلك الى المشاحنات والحروب أحيانا كما حصل فى حرب الفجار (١) • وصار بعضهم يكره اماءه على البغاء طلبا للمال(٢) • وصارت بعض القبائل البدوية تئد البنات • وهذا التفسخ الخلقى هو الذى سهل لبعض الشخصيات المعروفة فى مكة وفى غيرها من المدن أن يتخذ دورا للعبث واللهو يختلف اليها العابثون ومتفسخو الاخلاق من أهل الثراء على ما سنوضحه فيما بعد •

أما الفريق الثانى من العابثين فأكثرهم من سكان البادية وهم دون العابثين من أهل المدن خطرا وأقل عددا وجلهم من أبناء الامراء وهم يقلدون المدنيين فى لهوهم وعبثهم وان كانوا يختلفون عنهم بما يجمعون الى اللهو من صفات الخشونة البدوية • وقد صور الكثيرون منهم أساليب حياتهم فى أشعارهم • قال قيس بن الحدادية :

فيومای : يوم فى الحديد مسربلا ويوم مع البيض الاوانس لاهيا (٣)

---

(١) السيد أمير على : المرأة ومركزها فى الاسلام ص ١٠٥ •
(٢) القرآن الكريم : النور ٣٣ •
(٣) الاغانى ج١٣ ص ٨ •

وقال طرفة بن العبد :

فان تبغنى فى حلقة القوم تلقنى وان تلتمسنى فى الحوانيت تصطد (١)

والاماء من العابثات وبخاصة المغنيات منهن ، وان أسأن الى الاخلاق بما نشرن من الاسفاف والانوثة المزرية الا أنهن أثرن فى الروح الشعرى ، فكم كن ملهمات بالمعانى الرقيقة والاخيلة البديعة والالفاظ العذبة والاوزان الراقصة الرشيقة كما انهن ضبطن الاوزان وكن سببا فى احكام القوافى . فقد روى مثلا عن النابغة ، مع علو مكانه فى الشعر ، انه كان يقوى فعيب ذلك عليه فأسمع شعره فى غناء ففطن الى عيبه ولم يعد الى الاقواء بعد ذلك (٢) . هذا بالاضافة الى أن تصويرهن وأوصاف مجالسهن وغير ذلك مما يتصل بأحوالهن كان مادة للشعراء فى الوصف ومن هذا قول عمر بن الاطنابة ، وكان قد برع فى وصف القيان وغنائهن وحَلْيِهِنَّ وزينتهن ومنه :

ان فينا القيان يعزفن بالد فّ لفتياتنا وعيشا رخيا
يتبارين فى النعيم ويصبب ـن خلال القرون مسكا زكيا
انما همهن ان يتحلي ـن سموطا وسنبلا فارسيا (٣)

أما الطبقات المحافظة والمتمسكة بمبادىء الدين وعرى الاخلاق فابتعدت عن اللهو وامائه وأوصت ذويها بذلك فقد روى فى وصاياهم قول دريد بن الصمة لقومه « اياكم وفضيحة النساء »(٤) . اذ كانوا يرون بيوت اللهو بما فيها من غناء ورقص وشراب وعبث ذلك انما هو مفسدة للمروءة واضاعة للكرامة . قال عفيف بن معدى كرب الكندى :

---

(١) معلقته .
(٢) ابن قتيبة : الشعر والشعراء ص ٣٨ .
(٣) الاغانى ج١٠ ص ٣٠ ، ج ١٦ ص ١٤ .
(٤) ابن قيم الجوزية : أخبار النساء ص ٩٦ .

وقالت لى هلم الى التصابى فقلت عففت عما تعلمينا
وودعت القداح وقد أرانى بها فى الدهر مشغوفا رهينا (١)

وسمّى عفيفا لذلك • وقال الاسلوم اليمانى :

وتركت شرب الراح وهى أثيرة والمؤمسات وترك ذلك اشرف
وعففت عنه يا أميم تكرما وكذاك يفعل ذو الحجا المتعفف (٢)

ومن المتعففين صفوان بن امية ، وقيس بن عاصم التميمى (٣) ومقبس بن قيس السهمى ، وحاتم الطائى (٤) •

٤ ـ الاسيرة :

والاسر من أوضح الموارد التى تمد هذه الطبقة وتعمل فى تكوينها وادامتها وكثيرا ما ذكر الاسر مقرونا بالوقائع وهو ظاهر فى الشعر الجاهلى • وكان مقام المرأة الممتاز يحمل المدافعين عنها والطالبين الطامعين فيها معا على الاستبسال • فكان وقوعها فى الاسرة خسارة وأية خسارة بالنسبة للمغلوبين وكسب وأى كسب بالنسبة للغالبين • وكان الذين يتخذون النهب والغزو وسيلة للكسب والارتزاق أمثال الصعاليك وغيرهم انما يوجهون همهم الى النساء بالدرجة الاولى والى الشريفات منهن بخاصة ، لانهن أفضل من سائر الاموال والمتاع • قال طرفة يصرح بهذا :

كشفت لهم عن ساقها وبدا من الشر الصراح
فالهم بيضات الخدو ر هناك لا النعم المراح (٥)

---

(١) محمد بن حبيب : المحبر ص ٢٣٩ •
(٢) المصدر السابق ، الملل والنحل للشهرستانى ج٣ ص ٣٠٨ ـ ٣٠٩ •
(٣) أسد الغابة ج٤ ص ٢١٩ ، الاغانى ج١٢ ص ١٤٣ •
(٤) المحبر لمحمد بن حبيب ص ٢٤٠ •
(٥) حماسة أبى تمام : ج١ ص ١٣٨ ـ ١٣٩ •

ونجد الاسيرات يوصفن فى شعر الجاهليين فى الغالب بالشرف والنعمة وشدة التعلق بالازواج وغير ذلك مما يدل على رفعة منزلتهن الاجتماعية (١) ليدللوا على شدة الدفاع عنهن وعلى بسالة آسرهن ومغامراته • ذلك لان الشريفة الناعمة تكون أعز نفرا وأكثر ناصرا وحاميا ، ومن تكون كذلك تكون أكثر طامعا وأشد طالبا •

قال زهير بن جناب :

وسبينا من تغلب كل بيضاء رقود الضحى برود الرضاب (٢)

وقالت جنوب فى رثاء أخيها عمرو :

المخرج العاتق الحسناء مذعنة فى السبى ينفح من أردانها الطيب (٣)

والشريفة اذا أحست بأنها توشك أن تقع فى الاسر كشفت عن وجهها وتظاهرت بمظهر الاماء عسى أن يؤدى ذلك الى خلاصها •

وكانت القبائل المختلفة تبذل وتخاطر فى سبيل جلب العدد الاكبر من النساء الى حظائرها ليلدن المحاربين (٤) لها فتزداد منعة • وجعل غلاء المهور الحرب عندهم وسيلة فعلية دائمية للحصول على الزوجات • فالاسيرة فى الغالب تصبح زوجة للآسر اذا لم يمن عليها • وهذه الظاهرة وأمثالها لتدل على قلة عدد النساء ويؤيد هذا غلاء المهور عندهم • أما قلة نسبة النساء فترجع الى عوامل ربما كان الوأد من أهمها(٥) وكان من نتائجها بالاضافة الى

---

(١) يلاحظ الاغانى ج١٣ ص ٣ ، شعراء النصرانية ص ٧٤٥ ، ديوان النابغة ص ٩٨ ، ٥٨ •

(٢) الاغانى ج٢١ ص ٧٨ •

(٣) رياض الادب فى مراثى شواعر العرب ص ٧٨ •

(٤) الاغانى ج٨ ص ١٣ •

(٥) Robertson Smith: Kinship and Marriage, P. 123.

غلاء المهور أننا نجد أن زواج الرهط كان معروفا عندهم(١) .

أما العدد الذى يأسرونه فى كل واقعة حربية أو حادثة نهب وغزو فمختلف ، فقد تبلغ السبايا مئة سبية فى الواقعة الواحدة(٢) . واذا ذكروا اسم سبية بين الاسرى فانما يدل ذلك فى الغالب على شرفها اوعلو منزلتها (٣) فمن ذلك مثلا أن الحصين بن حمام أغار على بنى عقيل وبنى كعب فأصاب أسماء بنت عم سيدهم ثم مَنّ عليها ، فقال :

فأبنا بالنهاب وبالسبايا وبالبيض الخرائد واللقاح
واعتقنا ابنة العمريّ عمرو وقد خضنا عليها بالقداح(٤)

فهم اذا أخذوا الاسيرة استوضحوا منها عن أقربائها وأبناء عشيرتها (٥) ويجيلون على الاسيرات القداح لاقتسامهن عندما لا يهتدون الى قسمة يرتضونها . قال زيد الخيل :

وسائل بنا جار ابن عوف فقد رأى حليلته جالت عليها مقاسمى (٦)

وكثيرا ما ثارت حروب طويلة لاسترجاع الاسيرات الكريمات شأنهم فى ذلك شأن غيرهم من الامم التى تشبههم فى جاهليتها . فحروب طراوة Troie عند اليونان كان السبب المباشر لها استرجاع هلين(٧) Heline

---

(١) «ولكن» : الامومة عند العرب ص ٣ ، ٩ ، محمد بن حبيب : المحبر ص ٣٤٠ .

(٢) بيفان : نقائض جرير والفرزدق ص ٨٤ ، ١٤٥ ، ٣٢٦ ، ٤٠٥ و ٤٧٣ ، ٦٠٠ ، ٧٠٣ .

(٣) النقائض ص ٤٧٣ ، ٧٠٣ ، العقد الفريد ج ٣ ص ٦٢ .

(٤) لويس شيخو ، شعراء النصرانية ص ٧٤٥ .

(٥) النقائض ص ١٠٦١ .

(٦) الاغانى ج ١٦ ص ٥٤ .

(٧) Perron: Femme Arabe, P. 75 - 77.

لان السكوت على أسر النساء ، عند اليونان كما عند العرب ، مجلبة لعار كبير • وقد أظهر فرسان العرب بطولات نادرة مصبوغة بالغرام والحب لاسترجاع الفتيات الاسيرات فى مناسبات تفوق الحصر(١) • وكان الحب فى نظر العرب نعمة يبعث الشعور الصادق ، والعاطفة النبيلة ، ويوقظ صفات الرجولة والبسالة • فكان لكل فارس حبيبته توحى اليه بأمثلة الشجاعة فكانت فروسية العرب فروسية حقة تمتاز بالاخلاص والجمال • وقد انتقلت هذه الفروسية ، كما هو معروف ، الى الغرب ، ولكنها لم تنتشر بكامل صفاتها ، لانها فى بلاد العرب كانت ضرورة ، لمجانستها لمقتضيات النظم الاجتماعية والاخلاقية والحياة عامة بيد أنها فى الغرب كانت تقليدا يعوزه كثير من المقومات الخلقية والاجتماعية، لهذا سرعان ما انهارت تحت تأثير المقاومات• والعرب عرفوا فن الحب L'Art d'Amer وكانت نساؤهم تتمتع بمنزلة اجتماعية سامية ساعدتهم على التخلق بروح الفروسية الحقة التى من أهم صفاتها حب التضحية للمرأة • وصوّروا أشواقهم تصوير الهائم بكريم خلالها • وصار ذكرها فى مطالع أشعارهم تقليدا فنيا يوطىء لكل المعانى ، ويختلط حتى بالهجاء أو الرثاء •

نعم كان قعود الرجل عن استرداد أسيرته عارا ما بعده عار ، ويمثل هذا عير عروة بن الورد عامر بن الطفيل اذ عيره باسر « ليلى »(٢) وقد يطول استرجاع الاسيرة ويشتد(٣) •

---

(١) Perron: Femme Arabe, P. 76 ' André Maurois Sept Visages de l'Amour, P. 8. ' Blunt: Seven Golden Odes, P. 10 - 14.

(٢) عروة بن الورد : ديوانه ص ٥٩ •

(٣) النقائض ص ٧٥ • الاغانى ج١٦ ص ٥٥ •

واذا ما باءت المحاولات الحربية والسلمية لاسترجاع الاسيرة بالفشل فليس من سبيل الى ردّها بعد ذلك الا الفداء • ولا نعرف كم كان مقدار فداء المرأة عندهم ، سوى ما روى عن النبى الكريم صلى الله عليه وآله : من انه ردّ على هوازن سباياهم فاقتدى به صحبه خلا العباس بن مرداس اذ تمسك بحقه • فقال الرسول « أما من تمسك منكم بحقه من هذا السبى فله بكل انسان ست فرائض من أول سبى اصيبه(١) » • والفريضة هى القلوص بنت سنة(٢) • والغالب على الظن أن مقدار فداء السبية لم يكن واحدا فهو يختلف عندهم باختلاف النساء وباختلاف القبائل ذلك لاختلاف اقدار النساء فالشريفة أغلا فداء من الوضيعة •

وكان من أهم مفاخرهم فى الجاهلية فك الاسيرة وهو يدل على الشهامة وكرم النفس• واذا تم فكها من دون تعريضها لسوء أو لفضيحة كان أوقع فى النفوس • ومما مدح به دريد بن الصمة يزيد بن عبدالمدان قوله عنه :ـ

ورد النساء بأطهارهـــا ولو كان غير يزيد فضح (٣)

وقال زهير بن جناب يفتخر :

ولولا الفضل منّا ما رجعتم الى عذراء شيمتها الحياء (٤)

وكثيرا ما عيروا من يتعرض للاسيرات بأذى • فمن مفاخرهم الاحسان الى الاسيرات والرفق بهن حتى كأنهن من نساء آسرهن• قال حاتم الطائى :

فما أنكحونا طائعين بناتهم ولكن خطبناها باسيافنا قهرا

فما زادها فينا السباء مذلة ولاكلفت خبزا ولا طبخت قدرا

---

(١) ابن هشام : السيرة ج٤ ص ١٣٦ •

(٢) ابن منظور : لسان العرب ج٩ ص ٦٧ •

(٣) الاغانى ج٩ ص ١٨ •

(٤) الاغانى ج٢١ ص ٩٤ ـ ٩٥ •

ولـكن خلطناهـا بخـير نسائنا فجاءت بهم بيضا وجوههم زهرا(١)

ويبدوا أن حرصهم على معاملة الاسيرة بالحسنى جعل بعضهن يجدن فى الاسر راحة ورفاها وان كن عامة قد عبّر عن كراهتهن للاسر وللآسر. لكن هذا لم يمنع أن تكون احداهن أسعد حالا وأهنأ عيشا وأهدأ بالا وهى فى الاسار فقد قال حاتم أيضا :

وأرملـة تسعـى بشعث كأنهـا وايـاهم ربـداء حثّت رئالهـا
هنأنـا ولم نمنن عليهـا فأصبحت رضية بال قد أرحنا هزالها (٢)

وكانوا يمنون على الاسيرات . ويتبعون فى منّهم عليهن ولون معاملتهم لهن والى غير ذلك قاعدة « المقابلة بالمثل » المعروفة بين الدول اليوم ويطبقونها فى أدق معانيها بين قبائلهم . فان أسىء لواحدة فى سوقها هددت وانتخت بقومها . أسّر معقل الهذلى أمّ عمرو امرأة خدام الخزاعى فى نساء من قومها وساقها عريانة فألهب ذلك نار غضبها وهددت قائلة :

أساءت هذيل فى السياق وأفحشت وأفرط فى السوق القبيح أسارها
لعـلّ فتـاة منهـم أن يسوقهـا فوارس منّا وهى باد شوارها(٣)

فرد على تهديدها غير عابىء :

أرى أمّ عمرو فى السياق تغضّبت وهـان علينـا رغمهـا وصغارهـا
وكم من فتاة قبلهـا سقت عنوة منعمـة والزرق باد حرارهـا
فان تأتنـا يا أمّ عمرو خيولـكم تلاقِ لنا حربا شديدا سعارها(٤)

وعلى العكس من هذا فقد صرح كثير من فوارسهم بأنهم يحسنون

---

(١) عفيفى : المرأة فى جاهليتها واسلامها ج١ ص ٤٥ .
(٢) ديوانه : القصيدة رقم ٦٠ .
(٣) أبو سعيد السكرى : أشعار الهذليين ص ١١٧ .
(٤) المصدر السابق ص ١١٨ .

معاملة الاسيرات لانهم يريدون أن يحسن خصومهم الى أسيراتهم وأنهم يسيئون ان أساء الخصوم • قال العباس بن مرداس يرد على خفاف بن ندبه وكان واحدا من أبناء الاماء وقد اتهم العباس بأنه يستهين بسبايا العرب : « أما استهانتى بسبايا العرب فأنى أحذو القوم فى نسائهم بفعالهم فى نسائنا الخ •• » (١) •

ولما كان الاسر شائعا لديهم وكانت قاعدة المقابلة بالمثل متبعة صارت الاسيرة لا يساء اليها فى العادة فلا يسمح الفارس لنفسه أن ينزع عنها حليّها أو قلائدها وان كان جاف الطبع(٢) هذا ناهيك عن حياتها اذ لا تتعرض للخطر فى حين أن الاسرى من الرجال يُلاقون حتفهم فى الاسر غير قليل •

ومع كل ما ذكرنا من حسن معاملة الاسيرة فان الاسيرات فى العادة لم يكنّ ينصرفن عن أهليهن وقبائلهن نظرا لقوة النزعة القبلية عندهم وما يلحقهن وأهليهن من الذلة عند أسرهن • فالاسيرات يظهرن كراهة بالغة للاسر وللآسر معا ، وحزنا عميقا لما يصرن اليه • ومنهن من تبكى أهلها وتندب حظها وتستغيث مرسلة صرخاتها نثرا وشعرا طالبة النجدة ، سائلة قومها خلاصها عاجلا(٣) • وقد يستولى على احداهن اليأس فتنتحر فرارا من الوقوع فى الاسر • فقد روى أن صخرة بنت اسماء بن الضريبة النضرى لما أسرت خنقت نفسها فماتت(٤) • وقد صور الشعراء الحالة النفسية التى تصير فيها الاسيرات • قال المجمع الهلالى :

---

(١) الاغانى ج١٦ ص ١٣٥ •

(٢) Stanly Lane-Pool : Studies in a Mosque, P. 5.

(٣) النقائض ص ٢٤٢ •

(٤) الاغانى ج١٣ ص ٣ •

وعـــائرة يـوم الهيما رأيتهـــا وقد ضمها من داخل القلب مجزع
لهـا غلل فى الصدر ليس ببارح شجى نشب والعين بالمـــاء تدمع
تقول وقـد أفردتها من حليلهـا تعست كما أتعستنى يا مجمع (١)

وبالاضافة الى أنهم كانوا يمنون فيطلقون سراح الاسيرة بدافع المعاملة بالمثل فانهم قد يمنون للفضل والاحسان أو مراعاة لقرابة (٢) أو مصاهرة أو جـوار (٣) أو اشتراء للحمد والثناء (٤) وهذا من أهم مفاخرهم التى تغنوا بها .

وكانت بعض القبائل العربية لا تؤسر نساؤها . فأهل مكة كانوا دون الناس آمنين يَعزون ولا يُغْزَون ويَسبون الناس ولا يُسْبَون فلم تسب قرشية قط فتوطأ قهرا ، ولا تجال عليها السِهَام (٥) .

واذا لم تفتد الاسيرة أو يمن عليها فيخلّى سبيلها دخلت فى ملكية آسرها غنيمة فتصبح أمة يستخدمها ان شاء (٦) أو يبيعهـــا (٧) أو يتزوج منهـا وهـو الـكثير (٨) فان تزوج منهـا لا يجوز له بيعهـــا بل لـه أن يطلق سراحها (٩) فيعود حقه فى هذه الحالة قاصرا على معاشرتها ليحصل

---

(١) حماسة أبى تمام ج١ ص ٢١٤ ـ ٢١٥ ويلاحظ ديوان النابغة الذبيانى ص ٥٨ .
(٢) ابن الاثير ج١ ص ٣٧١ .
(٣) الاغانى ج ٢١ ص ٩٤ ـ ٩٥ .
(٤) الاغانى ج٩ ص ١٨ .
(٥) ياقوت : معجم البلدان ج٨ ص ١٣٣ ـ ١٣٤ .
(٦) النقائض ١٠٦٨ .
(٧) النقائض ١٠٨٩ .
(٨) دائرة المعارف الاسلامية مادة « أ م » .
(٩) Levey: The Sosiology of Islam, VI' P. 133.

منها على الاولاد فلا يصبح حقه منصبا على شخصها • والاسيرات والسرارى اللائى يشتريهن الرجل سواء فى ذلك •

واذا لم يتزوج منها آسرها يسوقها عادة بعد أسرها الى أسواق النخاسين التى كان من أغراضها معالجة ندرة النساء وخصوصا فى القبائل الضعيفة (١) والقبائل التى شاع فيها الوأد • وكان استرجاع الاسيرة بطريق الشراء يدل على ضعف القبيلة لهذا كانوا يعيرون به (٢) •

ولما طلع الاسلام أقرّ الاسر والرق (٣) ولكنه غيّر فى أسبابه وطرقه تغييرا أساسيا • وقدم فضيلة المن على الفداء (٤) وفتح باب العتق ، وجعل فك الرقبة مصرفا من مصارف الزكاة • كما شرّع اسلوب المكاتبة بين المالك والامة من أجل أن تتحرر (٥) • وفرض تحرير الرقبة على كثير من المخالفات الدينية فهو عقوبة للظهار مثلا (٦) • واعتبر الامة المؤمنة فى الزواج وغيره خيرا من المشركة وان أعجبت (٧) • ووجّه الانظار الى الزواج من الاماء المؤمنات (٨) • وبخاصة من ليس لهم القدرة على الزواج بالحرائر • وقرر مع ذلك فى هذه الحالة للاماء حقوقا منها المهر (٩) .

---

(١) Robertson Smith: Kinship and Marriage, P. 295.

(٢) الاغانى ج١١ ص ١٧٢ •

(٣) القرآن الكريم : سورة النساء ٢٥ •

(٤) المصدر السابق ٤٠ •

(٥) المصدر السابق النور ٣٣ •

(٦) المصدر السابق المجادلة ٣ •

(٧) المصدر السابق البصرة ٢٢١ •

(٨) المصدر السابق النور ٣٢ •

(٩) المصدر السابق النساء ٢٥ •

كما فرض على ساداتهن واجبات معلومة(١) . ولما جاءت المؤمنات الى النبى الكريم يبايعنه أخذ عليهن عهدا ألا يشركن بالله شيئا ، ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه من بين أيديهن وأرجلهن(٢) .

٥ - وظائف الامة :

الاماء تؤلف فى الغالب جزء كبيرا من الطبقات الكادحة فى العهد الجاهلى تقوم هى والعبيد بالاعمال المرهقة . فهى فى الاسر الراقية تقوم بالطبخ ولوازمه . قال طرفة بن العبد :

تبيت اماء الحىّ تطهى قدورنا ويأوى الينا الاشعث المتجرف (٣)

وهى تقوم بالطحن والخبز عادة ويدل على ذلك قول حاتم الذى سبق . فهى التى تقوم بالخدمات المنزلية كلها فقد روى عن دريد بن الصمة أنه عندما أسنّ وشاخ وكّل به قومه أمة تخدمه (٤) . وقد روى عن ماوية زوجة حاتم الطائى أنها أرسلت له جاريتها تخبره بقدوم أضياف ليرسل لهم ما يحتاجون اليه(٥) . وكانت تقوم باعداد المتاع وحمل الاثقال فى الحل والترحال . ويدل على ذلك قول السليك بن السليكه الذى مرّ . وقد اتفقت النصوص على أن الاماء كنّ يقمن بالتحطيب وقطع الاخشاب . قال طرفة فى وصف ربع خال :

---

(١) المصدر السابق الاحزاب ٥٠ .

(٢) المصدر السابق الممتحنة ١٢ .

(٣) ديوانه ص ٤٤ (رواية ابن السكيت) وتلاحظ حماسة ابى تمام ج١ ص ١٥٣ ، الاصمعيات لوليم بن الورد ص ١٨ .

(٤) الاغانى ج ٩ ص ١٢ .

(٥) الاغانى ج ١٦ ص ١٠٦ .
النقائض ص ٨٨ - ٨٩

لا أرى الا النعام به كالاماء أشرفت حزمه (١)

فقد شبّه النعام تسير فى هذه الاطلال رافعة أجنحتها بالاماء اللائى كنّ يحملن حزم الحطب بجامع دقة الرجلين وسوادهما وسعة القسم العلوى والمشبه به هو الاماء • ومثله قول الاخنس بن جناب :

تمشى بها حول النعام كأنها اماء تزجى بالعشى حواطب (٢)

• ان كثرة النصوص التى تشير الى قيام الاماء بالتحطيب (٣) لتجعلنا نرجح أن هذا العمل كان من أعمالهن الخاصة بهن • ومن هذا ما روى فى النقائض فى مواضع منها : « وكانت تجمع الحطب (٤) • • فأصابوا أرملة من تميم وجدوها تحتطب وتقتطع الاخشاب (٥) • وقد ذكر النابغة الاماء اللائى يبعن الاحطاب والثمار بقوله :

ليست من السود أعقابا اذا انصرفت ولا تبيع بجنبى نخلة البرما (٦)

والرعى من الوظائف المنحطة فى نظرهم ، ويقوم به العبيد بكثرة وقد تقوم به الاماء أيضا • ويدل على ذلك ذكر الراعية الذى جاء فى خبر أسيد « اخبرت راعية أسيد بن جذيمة أسيدا بمثل ذلك فأتى أسيد أخاه زهيرا فأخبره بما أخبرته الراعية، قال : وانما رأت خيل بنى عامر ورماحها » (٧)

---

(١) ديوانه ص ٧٠ (مع شرح الاعلم) •
(٢) شعراء النصرانية ص ١٨٤ •
(٣) الاغانى ج ١٨ ص ١٣٧ •
(٤) النقائض ص ١٠٦١ •
(٥) الاغانى ج ١٠ ص ١٩ •
ابن الاثير ج١ ص ٤١٦ •
(٦) ديوانه ص ٥١ •
ابن قتيبة : عيون الاخبار ج٤ ص ٨ •
(٧) الاغانى ج١٠ ص ١٣ •

فالراعيات كنّ من المملوكات أو الاجيرات ويدل على انحطاط هذا العمل بالنسبة للنساء قول ذى الاصبع العدوانى :

عنّي اليك فما أمى براعيـــة ترعى المخاض ولا رأيى بمغبون (١)

وابن الامة كثيرا ما يقوم بالرعى فعنترة كان راعيا وقال انه يحسن الحلب والصرّ لانه ابن أمة(٢) .

أما سقى الخمر والغناء والرقص والى غير ذلك من متطلبات الشاربين واللاهين فالاماء تقوم بها كافة قال عدى بن زيد .

ودعـوا بالصبوح يوما فجـاءت قينـة فى يمينهـا ابريـق (٣)

والقيان كن يستمل آلات الطرب كافة فى مجالس اللهو فهن يضربن على الدف ويعزفن على الكران والمزهر . قال لبيد :

بصبوح صافية وعزف كرينـةٍ بمـوتر تأتألـه ابهامهـا (٤)

فالكرينة هى صاحبة العود اذ يسمون العود كرانا . وقال عبد عمرو يذكر المزهر الذى يستخدمنه فى ايقاع اغانيهن :

فيـومك عنـد مومسـةٍ هلوك كظل الرجع مزهرها ضحوكا (٥)

كما ذكر علقمة عندما فخر بمنادمته الشرب وسـماعه القيـان المزهر ووصف صوته بأنه رنم :

قد أشهد الشرب فيهم مزهر رنم والقوم تصرعهم صهباء خرطوم (٦)

---

(١) ابن قتيبة : الشعر والشعراء ص ٢٧١ .

(٢) المصدر السابق ص ٧٥ .

(٣) شعراء النصرانية ص ٤٦٧ .

(٤) لبيد معلقته .

(٥) خزانة الادب ج١ ص ٤١٦ ، جمهرة أشعار العرب ص ٣٣-٣٥

(٦) المفضليات ج٢ ص ٢٠٢ . الخرطوم أول ما ينزل من الخمر وهى صافية .

ويكاد الغناء يعتبر فنهن الاول الذى عرفن به فقد جاء فى الشعر ذكر غنائهن ووصف أساليب هذا الغناء ومن هذا ما جاء فى قول برج بن مسهر الطائى وهو يفخر بمنادمته الشرب وسماعه القيان وبمجالسته الفتيات الناعمات اللائى قال انهن يغتسلن بالماء الدافى • قال :ـ

وفينا مسمعات عند شرب وغزلان يعد لها الحميم (١)

كما روى عن عدد كبير من المغنيات ما كانت تحسنه كل واحدة منهن من أنواع الغناء فذكروا مثلا أن هريرة ، معشوقة الاعشى ، وأختها خليدة ، قينيتين لبشر بن عمرو بن مرثد كانتا تغنيان بالنصب(٢) والنصب طريقة من الغناء • ومن هذا أيضا ما ذكره عبدة بن الطبيب عن سماعه للغناء اذ كانت تغنيه مع أصحابه انسه ترتل الشعر فتطربهم فيرتاحون ويخفون ويغدقون عليها بالهدايا فيصفدونها حتى ملابسهم وبرودهم وسراويلهم من شدة الطرب • قال :

ثم اصطبحت كميتا قرقفا أنفا من طيب الراح واللذات تعليل
صرفا مزاجا ، وأحيانا يعللنا شعرا كمذهبة السّمّان محمول
تذرى حواشيه جيداء انسة فى صوتها لسماع الشرب ترتيل
تغدوا علينا فتلهينا فنصفدها تلقى البرود عليها والسراويل(٣)

فهن يحضرن مجالس اللهو ويغنين الندامى كما قال طرفة فى مشهورته « نداماى بيض كالنجوم وقينه الخ •• »(٤) •

وكانت الامة على العموم سلعة من السلع ، تستخدم فى الاعمال

---

(١) حماسة أبى تمام ج ٢ ص ٨٩ •
(٢) الاغانى ج ٨ ص ٧٧ •
(٣) المفضليات ج١ ص ١٤٣ • الكميت = خمر فى لونها دكنة ، القرقف ـ التى ترعد شاربها ، أنف ـ لم يشرب منها أحد • السمان ـ نوع من الوشى • نصفدها = نعطيها •
(٤) وتلاحظ الحماسة لابى تمام ج٢ ص ٦٠ •

المرهقة ، والاعمال الوضيعة • وهى تباع فى الاسواق وتقدم هدايا غالية •
قال زهير بن جناب يذكر النعمان :

فأين الذى كان يعطى جيـــاده بارسانهن والحسان الغوالـيـــا (١)

ولهذه الوظائف المنحطة التى كانت تؤديها الاماء فى المجتمع الجاهـلى كانت الواحدة منهن مضربا للمثل فى الحطة وسوء التصرف فان المجتمع قد حرمهن حقوقهن وسـلب كرامتهن ، فصـرن هنّ بـدورهن لا يكرمن انفسهن ، ولا يرعين لهن قدرا • وصارت البذاءة والسفاهة والسباب من مميزاتهن الخلقية • قال أبو عمرو بن بدر ينهى ابن عمه العباس بن مرداس عن التمادى فى منافرته خفاف بن ندبة وكان فارسا ، وندبة أمه وكانت أمة سوداء :

فلا تهدى السباب الى خفاف فان السـب تحسـنه الامـاء (٢)

٦ - دور اللهو والقيان :

لعل من الغريب أن نذكر أن بعض المعابد قديما كان دورا للتعارف بين الجنسين عند بعض الامم لان تلك الديانات قد حتمت هذا اللون من التعارف• فهيكل الزهرة « ميلتـا » Mylitta فى بابل من هذه المعابد • وقـد وصف هيردوتس الرحالة والمؤرخ اليونانى المشهور ما كان يجرى فى هذا المعبد وكيف كانت النساء تتعرض للرجال فيه (٣) وجاء فى التوراة اشارة صريحة لهذا المعنى • فلم يكن التعارف الجنسى خروجا على تلك الديانات عند امم كثيرة كالهنود واليونان والفرس كما لم يكن هذا التعـارف أمرا

---

(١) شعراء النصرانية ص ٥٨٤ •
(٢) الاغانى ج١٦ ص ١٣٥ •
(٣) جان امل ريك : مركز المرأة فى قانون حمـورابى والقانون الموسوى ص ١٥ (يلاحظ تفصيل ذلك) •

يستعيض به العزاب عن الزواج انما كان نظاما دينيا (١) .

أما العرب فى جاهليتهم التى وصلتنا بعض أخبارها فكانوا يرون فى الزنا عارا (٢) على خلاف ما صورهم به « سمث » (٣) انما قد يلجأ اليه فقراؤهم لانهم لا يجدون زواجا . ولما جاء الاسلام دعاهم الى التعفف (٤) كما قد يسلك طريقه سفاؤهم . ولما بعث الرسول صلى الله عليه وآله كان للنخاسة والدعارة أسواق رائجة بمكة والمدينة وتيماء وخيبر (٥) تؤخذ اليها الاسيرات هناك لتباع أو لتعمل (٦) . ومن دور اللهو والقيان دور عدة للبغاء كانت لعبدالله بن جدعان تدار باسمه جعلها سفهاء قريش مأوى لهم وعلى رأسهم أبو جهل وعتبة بن ربيعة . ولما ظهر الاسلام آمن كثير من نسائها اذ فتح لهن باب التوبة . ومن دور اللهو بيوت كثيرة اخرى منتشرة فى المدن الكبرى وبالقرب من الاسواق التجارية وكانت بعضها تديرها النساء ويختلف اليها أبناء الاشراف من السفهاء يمضون فيها أيامهم الداجنة التى لم تكن تصلح لصيدهم أو أسفارهم أو غاراتهم لكثرة الغيوم أو المطر أو الندى أو الرياح فيها وقد تحدث امرؤ القيس عن واحد من هذه البيوت بقوله :

وبيت عذارى يوم دجن ولجته يطفن بجباء المرافق مكسال (٧)

وربما أراد بالجباء المرافق المكسال صاحبة البيت « القهرمانة » فهى

---

(١) آدم متز : الحضارة الاسلامية ج٢ ص ١٤١ .

(٢) امرؤ القيس : ديوانه ص ٣٨ .

(٣) Smith: Kinship and Marriage, p. 169.

(٤) القرآن الكريم ، ابن قيم الجوزية : أخبار النساء ص ٩٦ .

(٥) Wellhausen: Mohamed in Madina, p. 221.

(٦) النقائض ص ١٠٨٩ .

(٧) ديوانه ص ٣٨ .

لكسلها، ضخمة كثيرة الشحم من أثر الراحة وهدوء البال. ولعل عمرو بن كلثوم افتتح معلقته فى بيت من هذه البيوت اذ هتف بالساقية قائلا :

الا هبى بصحنك فاصبحينا ولا تبقى خمور الاندرينا

وقد جرى العرف أن تعلق على هذه البيوت فى مكة والطائف أعلام ليهتدى اليها من شاء من الاغراب(١) ويؤيد هذا ما جاء فى القرآن الكريم اذ قال تعالى : « ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء ان أردن تحصنا ، لتبتغوا عرض الحياة الدنيا . ومن يكرههن فان الله من بعد اكراههن غفور رحيم » (٢)

قال الطبرى ان هذه الآية نزلت فى عبدالله بن سلول حين أكره أمته مسيكه على البغاء ليكسب من ذلك ، فجاءت الرسول شاكية تقول : ان سيدى يكرهنى على الزنا(٣) . وذكر ابن الاثير الجزرى ما يوافق ذلك اذ قال: انه كان لعبدالله ابن ابى جاريتان : مسيكه وأميمه ، وكان يريدهما على الزنا فشكتا ذلك الى الرسول فانزل الله عز وجل الآية : « ولا تكرهوا الخ .. »(٤) وقال محمد بن سعيد : انهم كانوا فى الجاهلية يكرهون اماءهم على الزنا ويأخذون اجورهن(٥) . وأيد صاحب المحبر أن بعضهم كان يتخذ هذه الطريقة سبيلا للكسب ومما قال : « وكان لبعضهم راية منصوبة فى أسواق العرب فيأتيها من الناس .. »(٦) ولكنه عند تعداده لانواع الزواج الاربعة التى كانت شائعة عند الجاهلين قال « وامرأة ذات

---

(١) Levey: The Sociology of Islam, VI, p. 168.

(٢) القرآن الكريم : النور ٣٣ .

(٣) الطبرى ، تفسيره ج١٧ ص ١٠٣ .

(٤) أسد الغابة فى معرفة الصحابة ج٥ ص ٤٠٤ .

(٥) الطبرى ، تفسيره ج١٧ ص ١٠٣ .

(٦) محمد بن حبيب : المحبر ص ٣٤٠ .

راية يختلف اليهـا الرجال فان جاء اثنان فوافياها فى طهر واحـد ألزمت الولد أحدهم ولهذا تدعى بـ (المقسّمة)[١] وهذا ما يسمى بزواج الرهط وفيه يتزوج عدد منهم دون العشرة من امرأة واحدة وهو نوع من الزواج القديم عندهم • أما الباغية فلم تكن لتمنع من يأتيها وقد تلحق ولدهـا ان صار لها ولد بحسب معرفة « القافة » وهم جماعة كان يظن أنهم يعرفون شبه الولد بالرجل من ملاحظة بعض السمات والعلامات والآثار فيـه[٢]

وأخبار هـذه البيوت عـلى قلتها تدل عـلى انه كان فيها لهو وشرب وخمور ورقص وغناء أو بعض من هذا فحسب • فقد روى عن ليلى بنت غفزر ، وكانت تعيش بالحيرة ، وقـد نبغت فى الغناء ، أنها تلحن أشـعار الفتيان وتوقعها وتلقيها عليهم فى نغم يهزهم هزا عنيفا وكانوا لهذا يعقدون اجتماعاتهم فى دارها ويقصدونها فى خطير أمورهم ليستثيروا حماسهم ، وليهتاجوا فيقوى عزمهم على تنفيذ ما نووا عمله • فقد روى أن الحارث ابن ظالم بن مرة الذبيانى قصدها فى حادث هام فلما سـمع غناءها انطلق من عندها كالمحموم ينتفض متأثرا من أنغامها فنفذ ما قصدها من أجله • وابنة عفزر هذه قينة وكانت دارها من نوادى السمر واللهو[٣] •

ويروى انهم كانوا يقيمون مجالس خاصـة لانسهم ولهوهم • من ذلك ما حضره حسان بن ثابت عند جبلة بن الايهم فقد روى عبـدالله بن حسان أنه كان عند بنى نبيط مأدبـة دعى اليها حسان وكان فيهـا قينة أو

---

(١) المصدر السابق •

(٢) عبدالرحمن البرقوقى : دولة النساء ص ٥٣٥ • لقد الف جماعة من الباحثين كتبا خاصة عن البغايا ، منهـم هشـام الكلبى وله « كتاب بغايا العرب فى الجاهلية وأسماء من ولدن » فهرست ابن النديم ص ١٤٦ •

(٣) الاغانى ج١٠ ص ١٨ •

قينتان تنشدان شعره وهو يبكى ، فقد ذهب بصره ، وكلما زادتا فى الغناء زاد بكاؤه ، فلما انقلب الى اهله استلقى على فراشه وقال :

« لقد ذكرتنى رائعة وصاحبتها أمرا ما سمعته أذناى بعد ليالى جاهليتنا مع جبلة بن الايهم ، فتبسم ثم جلس فقال : لقد رأيت عشر قيان خمس روميات يغنين بالرومية وخمس يغنين غناء أهل الحيرة أهداهن اليه اياس ابن قبيصة ، وكان يفد اليه من يغنيه من العرب من مكة وغيرها . وكان اذا جلس للشرب فرش تحته الآس والياسمين وأصناف الرياحين ، وضرب له العنبر والمسك فى صحاف الفضة والذهب . وأوتى بالمسك الصحيح فى صحاف الفضة وأوقد له العود الندّى ان كان شاتيا ، وان كان صائفا بطن بالثلج ... هذا مع حلم عن جهل وضحك . وما رأيت منه خنّ ولا عربدة ونحن يومئذ على شركنا ... »(١) .

وأول من غنى فى الجاهلية ، على ما تروى الاخبار ، جرادتا عبدالله ابن جدعان وكانتا أمتين تغنيان له ، سماهما بجرادتى عاد . ثم وهبهما لامية بن أبى الصلت جزاء على مدحه اياه(٢) . وقد قيل عنهما انهما كانتا لمعاوية بن بكر احد العمالقة الاول . وكانتا تغنيان بالالحان الفارسية واليونانية وقد ذاع الغناء بعدهما(٣) . وقيل انهما للنعمان(٤) والراجح ان الجرادتين اسم لمغنيتين قديمتين مشهورتين ضرب بهما المثل فى حسن الاطراب والغناء والانس ، ثم سميت بعض المشهورات من المغنيات المطربات بأسمهما أولقبتا بلقبهما على الاصح ، ويدل على ذلك قولهم فى المثل «تركته

---

(١) الاغانى ج١٦ ص ١٥ .
(٢) الاغانى ج٨ ص ٢ ـ ٣ .
(٣) الميدانى : مجمع الامثال ج١ ص ٧٨ .
المسعودى : مروج الذهب ج٤ ص ١٥٩ .
(٤) الابهيشى : المستطرف ص ١٨١ .

تغنيه الجرادتان »(١) للدلالة على الرخاء والنعمة والانس • ومن الطبيعى جدا أن لا تكون جرادتا عبدالله بن جدعان وحتى جرادتا معاويـة بن بكر أول من غنى فى الجاهلية وكذلك ليس من الطبيعى أن تكون عزة والميلاء أقدم من غنى الغناء الموقع(٢) • وان جميلة مولاة بنى سليم تعد أصلا من اصول الغناء(٣) ، وكلتاهما نشأتا فى العهد الجاهلى • ذلك لانه ليس من المنطق فى شىء أن يكون الغناء شائعا هذا الشيوع فى العهد الاسلامى وهو فى دوره الاول دون أن يسبقه عهود وعهود • هذا بالاضافة الى أن نشوء الغناء ، عند العرب خاصة ، يتغلغل فى عريق حياتهم مع الشعر الى أزمنة ضاعت آثارها فى القديم •

والمعروف أن العرب كانوا يغنون فى صلاتهم للاصنام ويقدمون نساءهم فى حفلاتهم الدينية • وقد قيل ان امرء القيس عندما شبه النعاج بالعذارى فى الملاء المذيل أراد العذارى اللائى كن يرقصن فى صلاتهن للنصب فيدرن حول الصنم ، والرقص لا يكون موزونا اذا لم يكن موقعا بتوقيع غنائى •

وتدل الاخبار على أن المدينة والحيرة كانتا أشهر المدن فى فن الغناء فى الجاهلية • وقد روى أن قيان المدينة عرفن بالرقة والظرف واتقان الغنـاء والعزف وذلك فى الزمن الذى استوطنها الاوس والخزرج ، ولم تفتها هذه الشهرة بعد الاسلام • فقد اشتهرت دور لهوها فى الجاهلية واقتنى أهلها القيان والمغنيات بخاصة • فقد روى أن النابغة كان يقوى فى شعره ولم يكن أحد يجرأ أن يذكر ذلك له ، فلما قدم المدينة أتى بقينة فغنته قوله فى المتجردة ، زوجة النعمان :

---

(١) الميدانى : مجمع الامثال •
(٢) زينب فواز : الدر المنثور ص ٣٤١ •
(٣) النويرى : نهاية الارب ج٥ ص ٤٠ •

سقط النصيف ولم ترد اسقاطه فتناولتـــه واتقتنـــا باليـــــد
بمخضب رخص كأن بنانـــه عنم يكاد من اللطافـة يعقـد (١)

فمدت فى صوتها آخر كل بيت فصارت الكسرة ياء والضمـة واوا فتجسم الاقواء بتنافر نغمتى القافية فى البيتين فأدرك النابغة هذا العيب ولم يعد يقـوى •

كما اشتهرت الحيرة بقيانها ودور اللهو فيها وكانت هذه القيان تغنى بشعر النابغة فى عهده ، وبشعر عدى بن زيد العبادى وغيرهما • وليلى بنت عفزر التى مرّ ذكرها من مشهورات مغنياتها (٢) •

وكان لدور اللهو ، بالاضافة الى ما كان يرفع على بعضها من أعلام ، أدلاء من النساء الاماء ، والعبيد الساقطين ، وقد ذكرهم جردان العود النميرى ووصفهم بقوله :

يبلغهـن الحـــاج كل مكاتب طويل العصـا أو مقعـد يتزحف
ومكمونة رمداء لا يحذرونها مكاتبة ترمى الكلاب وتحذف
رأت ورقا بيضا فشدت حزيمهـا لها فهى أمضى من سليك وألطف (٣)

يقول : ان هؤلاء الادلاء هم من العبيد ، المكاتبين لساداتهم ، يبلغون الاماء حاجات الطالبين • وهم طوال العصى لطولهم أو لاستخدامهم العصى الطويلة فى أعمالهم هذه • ومن الادلاء أيضا من المكسحين وهؤلاء يزحفون اليهن يبلغونهن الحاجات • ومنم الاماء الشعث الرمد رمدا شـديدا بحيث لا تهتدى الواحدة الى طريقها الا بصعوبة • فهى لا تسترعى أنظار المارة من الناس ، ولا يحذرونها هم فى هذه الحالة ثم هى تتظاهر بالجنون فتعاكس

---

(١) ديوانه ص ٦٧ •
(٢) ابن قتيبة : الشعر والشعراء ص ٣٨ •
(٣) الاغانى ج ١٠ ص ١٨ •

الكلاب وتركض وراءها تفعل ذلك كله لتتخفى • ثم يقول ان هذه الامة العمشاء الرمداء ما تلمح النقود الفضية الا وتطير فرحا فتخف لاداء عملها ، وتشد حيازيمها فتجرى مسرعة للغاية بحيث لا يدانيها السليك بن سلكة العداء المشهور ، فهو يبالغ فى وصف شدة اسراعها فى عملها •

٧ ـ صور قصصية :

والاماء كن مصدر لهو وعبث وكان اللاهون يصورون لهوهم واماءهم وما كان من حوادث تصير ذكريات • ونجد قصصا للهو فى شعر امرىء القيس وطرفة بن العبد والاعشى ميمون وعروة بن الورد وغيرهم • ومن خصائص هذه القصص أن أكثرها وصف وهى قليلة الحوار • ووصفها يتناول وقت زيارة هذه الدور ، وكان ليلا تجنبا لانظار الناس • كما يتناول الغناء والرقص ووصف الملابس والشراب وغير ذلك وهو بجملته وصف لا تكلف فيه وغير خارج عن الواقع الملموس ، قليل الزخرفة والخيال • قال طرفة بن العبد :

نداماى بيض كالنجوم وقينة ... تروح علينا بين برد ومجسد
اذا نحن قلنا أسمعينا انبرت لنا ... على رسلها مطروقة لم تشدد
اذا رجعت فى صوتها خلت صوتها ... تجاوب أظئار على ربع رد (١)

فقد شبه غناءها على سجيتها من غير تكلف بتجاوب أصوات الظباء • واذا قارنت هذا الوصف بغيره من الوصف الجاهلى للنساء وجدت فيه شيئا من الادب المكشوف الذى يخالف ما التزموه من الحشمة والاتزان فى سائر وصفهم(٢) • وهذا الابتذال النسبى هو الذى يميز قصص اللهو مع

---

(١) معلقته فى ديوانه ص ٢٦ ـ ٢٧ ويلاحظ عمر بن الاطنابه : الاغانى ج١٠ ص ٣ ، ج١٦ ص ١٤ •
(٢) أبو زيد القرشى : جمهرة أشعار العرب ص ١١٩ •

الاماء والغانيات عن الوصف فى التغزل بالحبيبة والتغنى بها • قال عروة بن الورد :

فقالت مـــا تشاء فقلت الهـــو الى الاصـــباح آثر ذى أثير (١)

فاللاهيات من شأنهن أن يستفسرن من الرواد عـن رغباتهم فهـــن متبذلات، ذوات موقف ايجابى، فلا يترددن فى اعجابهن بالزائرين، ولا يمتنعن عن التعرض لهم أو استنزالهم الى اللهو وليس فى هـذا غرابة فالاصطياد فنهن الاول(٢) •

وهذا القصص بجملته ليس فيه ما يحمل على انكاره فهو واقعى قليل المبالغات ولا ننكر احتمال التقليد فيه اذ قد يأخذ شاعر عن شاعر قبله بعض صوره فان لم يكن واقعا وصحيحا بالنسبة لبعضهم فانه واقع وصحيح صادق بالنسبة لمجموع الشعراء بجملتهم •

---

(١) ديوانه ص ١٨ ــ ٢٠ ، معجم البلدان ج٥ ص ٨٠ ويلاحظ المحبر لمحمد بن حبيب ص ٢٣٩ •

(٢) الاعشى : ديوانه القصيدة رقم ٣٩ • ويلاحظ امرؤ القيس : حماسة ابن الشجرى ص ١٩٥ ــ ١٩٦ •

الفصل السابع

الشـــــــاعرة

١ ـ مكان شعرها :

درسنا فى الفصول السابقة موضوع المرأة فى شعر الرجال ويجدر بنا ، اتماما للبحث ، ان ندرس هذا الموضوع فى شعر النساء ذلك لان الشعر الصادر عنهن يترجم عن جوانب كثيرة من نفوسهم ويظهـــر جوانب من أحوالهن قد لا يتعرض لها شعر الرجال ، وبهذا تصبح كلا الدراستين متممة للاخرى وضرورية لدراسة موضوع المرأة .

من الظواهر الجديرة بالعناية أن تجد من بين الشعراء فى الجاهليـــة عددا كبيرا من النساء ومنهن من تنتمى الى الطبقات الراقيـــة والبيوتات الشهيرة . أما الشعر المنسوب اليهن فهو قدر ليس بالقليل مما له قيمتـــه الفنية الادبية ، الا انه لا يتضمن معلقة من المعلقات ولا قصيدة مطولة مثلها ولهذا فان جماعة الادباء الذين عنوا باختيار الشعر الجيد الممتاز كصاحب المفضليات[١] ، وصاحب الجمهرة[٢] أو جامعى الحماسات كأبى تمام[٣]

---

(١) المفضليات فيها قطعة واحدة اختارها المفضل ج٢ ص ٣٦ .

(٢) أبو زيد القرشى ـ جمهرة أشعار العرب . ليس فيها للشواعر شىء .

(٣) حماسة أبى تمام ج١ ص ٢١٠ ، ٢٢٣ ، ٢٢٥ ، ٢٦٢ ، ٢٧١ ، ٢٧٣ ، ٢٧٩ ، ٢٨٤ ، ٣١٧ ، ٣٢٦ ، ٣٣١ ـ ٣٣٦ ، ج٢ ص ٤٠ ، ١٣٩ ، ١٩٥ ، ٢٠٦ .

والبحتـرى[١] وابـن الشـجرى[٢] أو غـيرهـم من الذين جمعـوا المختارات فهم لم يختاروا من شعر الشواعر الجاهليات الا قليلا • أمـا أصحاب التراجم من القدماء والمحدثين فقد ترجموا لبعضهن وذكروا قسما من أشعارهن[٣] لكنه قليل نسبيا • ويرجع السبب الى أمور ولعل أهمها أن عدد الشاعرات الجاهليات كان أقل من عدد الشعراء ، فكان شعرهن أقـل من شعرهم ، وصار المختار منه لهذا قليلا • ثم ان الجيـد من شعر النساء قليل ويكاد ينحصر فى فنون محدودة أهمها فن الرثاء ووصف الاحزان • ولهذا لم نجد فى المفضليات غير مقطوعة واحدة لامرأة من بنى حنيفة لا نعلم أجاهلية هى أم اسلامية • أما صاحب الجمهرة فقد وجه همه الى اختيار المشهورات من القصائد التى اكتسبت شهرة واسعة حتى امتازت بلقب خاص بها يميزها عن غيرها • فكانت مختاراته على أبواب منهـا المجمهـرات ، والمذهبات ، والملحمات ، والمراثى وغير ذلك • وحتى المراثى نفسها التى اختارها لا نجد فيها قصيدة لشاعرة جاهلية •

بيد أن ما روته كتب الادب الاخرى وكتب التاريخ من شعر النسا ليس بقليل وهو يؤلف مجموعة كبيرة لها خصائصها ومميزاتها الفنية •

أما الشاعرات أنفسهن فان المرجح ألا يخلو منهن عهد من العصـر الجاهلى ، وكان منهن عدد ، غير قليل فى أواخر هذا العصر ، فقـد روى أن الرسول صلى الله عليه وسلم سمع شعر بعضهن كالخنساء بنت عمـرو حيث كان يستجيد نظمها ، وهند بنت عتبة زوجة أبى سفيان ، التى لامت بنى المطلب وهاشم وهددتهم لقتلهم أبيها[٤] • وقتيلة بنت النضر التى وجهت

---

(١) البحترى ـ الحماسة ص ٢٨ ، ٢٩ ، ٣١ ، ٥٣ ، ٢٦٩ ـ ٢٧٧ •
(٢) حماسة ابن الشجرى ص ٨١ ـ ٨٢ •
(٣) الشعر والشعراء ص ٧٢ •
(٤) هند بنت عتبة الدر المنثور ص ٥٧ •

اليه صلى الله عليه وعلى آله وسلم عتابها المؤثر على قتل أبيها(١) أو اخيها على اختلاف الروايات • وأم كلثوم بنت عبد ود التى امتدحت الامام على عليه السلام وان كان قد قتل أخاها(٢) • وربما سمع الرسول شعر بعض عماته وهن بنات عبد المطلب وكن شاعرات فرثين أباهن وهو فى مرض موته لأنه طلب ذلك منهن (٣) •

واذا دققنا النظر فى أشعار شواعر الجاهلية وسيرهن وجدناهن ينتمين الى قبائل مختلفة ، كما وجدناهن يظهرن فى عدة مناسبات ، خاصة وقت الازمات العصبية ، والحروب العنيفة التى كانت تدور رحاها فى الجزيرة العربية ، وقد نبغ منهن بين القبائل جماعات كما نبغ منهن فى القرى والحواضر جماعات اخرى • وقد سبق أن قدمنا مقطوعة فى الفصول السابقة لليلى بنت لكيز الملقبة بليلى العفيفة ، وهى من أقدم الشواعر التى وصل الينا شعرهن ، وهى من بنى بكر بن مرة(٤) ومن السابقات اللائى وصل الينا شعرهن ايضا أم الأغر بنت ربيعة احدى أخوات كليب وائل التغلبى •

أما فى حرب البسوس فقد ظهر عدد من الشواعر منهن من شريفات بكر وتغلب جليلة أخت جساس البكرية(٥) وأسماء أخت كليب التغلبية(٦)

---

(١) قتيلة بنت النضر ـ سيرة ابن هشام ج١ ص ٥٣٩ ، حماسة البحترى ، ص ٢٧٦ •

(٢) أم كلثوم بنت عبد ود ـ الدر المنثور ص ٦٣ •

(٣) الحماسة لابى تمام ج١ ص ٢٢٢ ، السيرة ج١ ص ٥٣٧ ، ١٠٨ ـ ١١١ •

(٤) يراجع الفصل الخامس ص ٢٢١ ، رياض الادب لشيخو ص ٢ ـ ٣ •

(٥) مراثى شواعر العرب ص ١١ ـ ١٤ •

(٦) نفس المصدر ص ٧ ـ ١١ •

وأمامة بنت كليب . وهذه الحرب دارت رحاها عـــدة سنين لذلك ظهر فيها شواعر اخرى كثيرة منهن أم ناشرة التى نجدها تلوم ابنها ناشرة لانه قتل همام بن مرة وتظهر له أسفها وجزعها لسوء فعلته . وكان همام كثير الاطعام للفقراء والمحتاجين ومما قالت تلوم ابنها :ـ

ألا ضيع الايتـــام طعنـــة ناشرة أناشـر لا زالت يمينـــك واترة
قتلت رئيس الناس بعـد رئيسهم كليب ولم تشـكر وانى لشـاكرة

كما أن المهلهل أخا كليب ، لما قتل ، رثته شاعرات كثيرات منهـــن سلمى بنته ومما قالت :

عديا أخا المعروف فى كل شـتوة وفارسهاالمرهوب عندالتكافح (١)

أما الشواعر اللائى برزن فى حرب داحس والغبراء فمنهن أم قرفة الفزارية . وقد عرضت فيما سبق بعض قصيدتها تخاطب فيها حذيفـــة زوجهـــا(٢) . وقرفـة هـذا مالك بن بدر بن حذيفـة وقد رثته بنتـه لما قتل وكانت من الشاعرات الشهيرات(٣) ومن رثائها له قولها :ـ

لله عينا من رأى مثـــل مالك عقـيرة يوم اذ جرى فرسـان

الى قولها :ـ

أحل بـه امس الجنيـــدب نـذره فأى قتيل كان فى غطفـــان (٤)

ومن شواعر داحس والغبراء ناجيـة بنت ضمضم المـــرية (٥) وقد رثت أخاها ومنه :ـ

---

(١) نفس المصدر ص ١٨ .

(٢) يراجع الفصل الاول ص ٦٧ ، الامثال للميدانى ج ٢ ص ٥٠ ، رياض الادب ص ٣٩ .

(٣) الاغانى ج ١٦ ص ٣٠ ، الامثال للميدانى ج ٢ ص ٥٣ .

(٤) رياض الادب ص ٤١ ـ ٤٢ ، عقيرة القوم ـ شريفهم .

(٥) الاغانى ج١٦ ص ٣٠ . العقد الفريد ج٣ ص ٧٠ .

من أجل سيدنا ومصرع جنبه علق الفؤاد بحنظل مجدوع (١)

ومنهن بنت حذيفة الفزارية(٢) .

وممن ظهرن فى يوم شعب جبلة وعين أباغ دختنوس بنت لقيط بن زرارة وقد عرضنا لهجائها لابن قهوس اذ ألقى الراية وفر من الموقعة (٣) ومما قالته فى رثاء أبيها يوم قتل وصارت بنو عامر تضربه وهو جثة هامدة :ـ

الا يا لها الويلات ويلة من بكى لضرب بنى عبس لقيطا وقد قضى

لقد ضربوا وجها عليه مهابة ولا تحفل الصم الجنادل من ثوى

الى قولها :ـ

فما ثاره فيكم ولكن ثاره شريح أأردته الاسنة أم هوى

فان تعقب الايام من فارس تكن عليكم حريقا لايرام اذا سما (٤)

ومن الشاعرات فى واقعة عين أباغ فروة بنت مسعود اذ قالت :ـ

بعين أباغ قاسمنا المنايا فكان قسيمها خير القسيم

وقالوا ماجدا منكم قتلنا كذاك الرمح يكلف بالكريم (٥)

ومن شواعر يوم كديد وحروب بنى عامر والكلاب الثانى ريطة بنت عاصم ، وهى من هوازن(٦) ، وهند بنت معبد(٧) الاسدية وأم عزة

---

(١) رياض الادب ص ٤٤ ـ ٤٥ . علق الفؤاد الخ : أصابته مرارة كأنه ذاق الحنظل .

(٢) البكرى ـ معجم ما استعجم ص ٧٢ ، ٢٦٨ .

(٣) الاغانى ج١٠ ص ٣٥ .

(٤) الاغانى ج١٠ ص ٤٠ ـ ٤١ . ولا تحفل الخ .. لا تكاد الصخور تضم جسده لعلو شأنه .

(٥) رياض الادب لشيخو ص ٥٦ ـ ٥٧ .

(٦) نفس المصدر ص ٣٩ ـ ٤٠ .

(٧) خزانة الادب للبغدادى ج٤ ص ٥٠٩ .

الكنانيـــة (١) ، وربطة بنت جذل الطعان التى حمت دريد بن الصمـه وفاء لسابق فضله عليها ومما قالت :ـ

سنجزى دريدا عن ربيعـة نعمـة وكل امرىء يجزى بما كان قدما
فان كان خيرا كان خيرا جـزاؤه وان كان شرا كان شرا مذمما (٢)

ومنهن زينب بنت مالك أخت ملاعب الاسنة العامرية وقد رثت يزيد ابن عبد المدان وهو يمانى وهى نزارية لأنه فك أسرى من قومهـا (٣) فلامها جماعة من الناس كيف ترثيه وهـو من خصوم نزار فقالت ترد عليهم :ـ

ألا أيهـا الـرازى علي بأننى نزاريـة أبكى كريمًـا يمانيـا
ومـالى لا أبكـى يزيد وردنى أجر جديدا مدرعى ورداثيا (٤)

وظهر فى حروب سهل وسليم ريطة بنت عاصم النهدى وقد رثت أخاها الذى قتله بنو سهم وهو ظمآن صاد ، فقالت تعاتبهم :ـ

هـلا سقيتم بنى سـهم أسيركم نفسى فداؤك من ذي غلة صـادى
الطاعن الطعنة النجـلاء يتبعهـا مضرج بعد ما جـادت بأزبـاد (٥)

ومن شواعر الجاهلية أيضا فى بعض أيامهم الاخرى المشهورة الفارعة بنت شداد الكلبية (٦) وكان من بنى قشير ابنة بجير (٧) والفارعـة (٨)

---

(١) الاغانى ج١٤ ص ١٣١ .
(٢) العقد الفريد ج٣ ص ٧٩ .
(٣) الاغانى ج١٠ ص ١٥٠ ـ ١٥١ .
(٤) الاغانى ج١٠ ص ١٥١ .
(٥) الاغانى ج١١ ص ١٤ ـ ١٥ .
(٦) العقد الفريد ج٣ ص ١١٠ . خزانة الادب ج٤ ص ٥٠٥ .
(٧) العقد الفريد ج٣ ص ٨١ .
(٨) معجم ما استعجم ص ٥٩١ .

ومن تميم آمنة بنت عتبة فارسهم[١] .

أما الشواعر اللائى عرفن فى أواخر العهد الجاهلى أى فى القرن السادس الميلادى فهن كثيرات فى البوادى والمدن ومن شواعر البدو أمامة بنت ذى الاصبع العدوانى[٢] وهى من قيس عيلان بن مضر ومنهن فاختة بنت عدى فقد رثت أباها حين قتل[٣] . ومنهن أخت الحاجز الازدى التى رثته بقولها :ـ

أحَيٌّ حاجز أم ليس حيا ... فيسلك بين خندف والبهيم

ويشرب شربة من ماء ترح ... فيصدر مشية السبع الكليم[٤]

ومنهن جنوب الهذلية وهى أخت عمرو ذى الكلب وقد عرفت بمراثيها له[٥] .

ومن شواعر المدن شواعر مشهورة وخاصة فى مكة التى كان فى عكاظها يجتمع الشعراء والشاعرات فيعرضون قريضهم على أئمة الشعر ، كما روى عن النابغة وقد عرض عليه الاعشى وحسان شعرهما ثم عرضت عليه الخنساء شعرها فأعجب به كل الاعجاب[٦] .

ومن شواعر مكة خالدة بنت هاشم ، رثت أباها حين توفى بغزة[٧]

---

(١) العقد الفريد ج٣ ص ٨٨٠ . لسان العرب ج ١٧ ص ٣٦ وقد نسب اليها أبيات .

(٢) الاغانى ج٣ ص ١

(٣) ج١٠ ص ٦٥ .

(٤) يلاحظ الاغانى ج١٢ ص ٥٢ . معجم ما استعجم ص ٦٩٨ .

(٥) خزانة الادب للبغدادى ج٢ ص ٢٨ . ج٤ ص ٣٥٣ ، ٣٥٦ ، ٥٠٥ .

(٦) خزانة الادب ج١ ص ٢٠٨ .

(٧) معجم ما استعجم للبكرى ص ٧٦٦ . مراثى شواعر العرب ص ٣٨ ـ ٤٠ .

وسبيعة بنت عبد شمس زوجة مسعود بن معتب الثقفى ، وكانت مكرمة عنده حتى أنه ضرب لها خباء يوم حرب ثقيف وقريش ، وقال من دخله من قريش فهو آمن ، فدخله منهم كثيرون ، وصارت توسع هذا الخباء حتى عظم . ولها رثاء فى عبدالمطلب بن عبد مناف (١) . كما أن من شواعر مكة ايضا فاطمة بنت الاحجم وامها خالدة بنت هاشم التى سبق ذكرها ومن شعرها فى رثاء أخوتها :

اخوتى لا تبعدو أبدا ... وبلى والله قد بعدوا
لو تملتهم عشيرتهم ... لاقتناء العز أو ولدوا
هان من بعض الرزية أو ... هان من بعض الذى أجد (٢)

وكان لعبد المطلب ست بنات شاعرات . ولهن شعر رصين العبارة ، قوى السبك ، سامى المعانى . منهن صفية وبرد وأم حكيم البيضاء (٣) أما المشركون فى عهد الرسول فكان بينهم شواعر : منهن هند بنت عتبة أم معاوية ، فقد رثت قتلى بدر من المشركين (٤) وصفية بنت مسافر بن أبى عمر بن أمية ولها رثاء فى قتلى القليب من قريش (٥) . ومن المكيات سبيعة بنت الاحب زوجة عبد مناف بن كعب بن كنانة ، وقد روت لها السيرة مقطوعة فى كرامات مكة توصى ولدها فيها أن يرعى قدسية هذه المدينة (٦)

---

(١) مراثى شواعر العرب ص ٦٤ ـ ٦٥ .

(٢) نفس المصدر ص ٦٨ ، حماسة أبى تمام ج١ ص ٢٧٢ . لا تبعدوا ـ لا تهلكوا . لو تملتهم ـ لو بقوا طويلا فى عشيرتهم أو كان لهم أولاد . هان الخ ـ لكان همى أعظم .

(٣) سيرة النبى لابن هشام ج١ ص ١٠٨ ـ ١١١ .

(٤) نفس المصدر ج١ ص ٥٣٧ .

(٥) نفس المصدر ج١ ص ٥٣٨ .

(٦) نفس المصدر ج١ ص ١٦ .

وقد أوردنا من أبياتها فى تمهيد هذه الرسالة .(١)

أما المدينة فالظاهر أن أكثر شعر شاعراتها قد ضاع اذ ما ورد لهن منه قليل . ومنهن سارة القرضية ولها رثاء فى القتلى من قومها حين قتلهم أبو جبيلة فى وادى ذى حرض قرب المدينة ومنه :ـ

كهول من قريضة أتلفتها ... سيوف الخزرجية والرماح
رزئنا والرزية ذات ثقل ... يمر لاهلها الماء القراح(٢)

والحيرة لابد أن يكون فيها عدد كبير منهن بيد أنه لم يصلنا شىء يناسب مقامها ومما وصلنا من أشعارهن ما قالته رقاش أخت جذيمة ملك الحيرة التى زوجها وهو ثمل لاحد ندمائه فلما أفاق استنكر ذلك اذ لم يَرَ الزوج كفئا لها ولكنها رضيت به ، وكان يحبها فقال لها أخوها مستنكرا :ـ

حدثينى رقاش لا تكذبينى ... أبحر زنيت أم بهجين
أم بعبد وأنت أهل لعبد ... أم بدون وأنت أهل لدون

فأجابته :ـ

أنت زوجتنى وما كنت أدرى ... وأتتنى النساء للتزيين
ذاك من شربك المدامة صرفا ... وتماديك فى الصبا والمجون (٣)

ومن هذا وغيره يتضح ان الشاعرات كن فى أكثر القبائل والمدن فى الجاهلية ، فلا تمتاز بهن قبيلة أو مدينة أو عدد من القبائل والمدن . فشأنهن اذن شأن الشعراء ، منتشرات فى المجتمعات المختلفة .

٢ ـ مقارنة شعرها بشعر الرجل :

لعل أول ما يلاحظ فى هذا الصدد أن أشعار المرأة قصائد قصيرة

---

(١) ص ٣٥ .
(٢) مراثى شواعر العرب لشيخو ص ٤ ـ ٥ .
(٣) تاريخ ملوك الحيرة .

بجملتها أو مقطوعات والظاهر أن طبيعة النساء الفنية لا تساعد فى العادة على الاطالة فى القصيدة ، حتى فى قصائد الرثاء الذى هو الفن الاقرب الى أذواقهن • فلا نجد لواحدة منهن قصيدة تضارع قصيدة أبى ذؤيب الهذلى فى طولها ومتانتها(١) ، أو مرثية كعب بن سعيد الغنوى(٢) ولهذا نجد فى الكتب التى عنيت باختيار القطع القصار كحماسة أبى تمام (٣) مقطوعات لهن • وهذا وصف للناحية الظاهرة من نتائج قرائح الجنس اللطيف فى العصر الجاهلى • أما ، وموضوعنا هو وصف صورة المرأة فى الشعر ، فيصح اذن أن نتسائل عن قيمة هذا الشعر النسوى فى تصوير المرأة بالنسبة لقيمة شعر الرجال فى هذا الصدد •

أما شعر الرجال فللمرأة كما رأينا منزلة عالية فيه فقد اتخذت موضوعا لقصائد مطولة رائعة واحتلت مطالع كثير من هذه القصائد ، فكانت اذن هدفا لقسم كبير من أناشيدهم وهذا راجع بالطبع الى منزلتها فى نفوسهم • وأما شعر النساء فأول فنونه وأهمها فنّ الرثاء حتى انه تكاد لا توجد شاعرة الا وقالت فيه بيتا أو أكثر ، أما الموضوعات الاخرى التى نظمن فيها فهى أغلب الموضوعات الشعرية المدح والهجاء والنصيحة واثارة الحماس والتحزب القبلى والوصف ولكن هذه الفنون بجملتها تكاد تكون كلها مما يتصل بالرثاء عن قرب أو بعد ، كمدح الشجاعة التى كان القتيل يبديها فى حياته (٤) ، وكالثناء على كرمه أو الفخر بانتصاراته الحربية (٥)

---

(١) جمهرة أشعار العرب لابى زيد القرشى ص ١٢٨ ــ ١٣٣ •
(٢) المصدر السابق ص ١٣٣ ــ ١٣٥ •
(٣) حماسة أبى تمام ج١ ص ٣٣٤ــ٣٣٨ • الكامل للمبرد ص١٣٦
(٤) الحماسة لابى تمام ج١ ص ٢٧٩ ، الدر المنثور ص ٦٣ •
(٥) حماسة أبى تمام ج١ ص ٢٢٣ ، رياض الادب ص ٣٦ •

وكاللوم والعتاب على تسليم صديق لاعدائه أو خذلان جار فى حرب (١) وكالاثارة على حرب للاخذ بثأر قتيل (٢) أو النهى عن الاخذ بدية عن قتيل (٣) أو اللوم أو العتاب على قتل (٤) أما ما يتعلق بشىء من هذا فهو قليل بالقياس الى ما أنشدنَه فى مراثيهن وهو متفرق فى كتب الادب والتاريخ (٥) .

فالرثاء والنواح وما يتصل بهما اذن هو فن النساء الشعرى فى العصر الجاهلى لانهما يصدران عن الحزن والمرأة أكثر مطاوعة للاحزان وأشد انصياعا لتأثير العواطف واستجابة لها ، ثم ان هذا الرثاء نفسه اذا استعرضناه وجدنا المرأة قد خصصته بجملته لرثاء الرجال ومع ذلك نجد فيه شيئا يتعلق بالمرأة فيصور بعض نواحى حياتها . اننا نجد فى رثائهن وشعرهن عامة تصويرا للمناحاة والنساء الباكيات ، هذا الى أن الشاعرة قد تتعرض لتصوير أحزانها وآلامها (٦) وهذه هى من صور المرأة التى نستفيدها من هذا البحث ثم اننا لا ننسى ما نستشفه من رثائها للرجل فى معرفة ميولها ورغباتها فهي برثائها انما تترجم فى الواقع عن عواطفها ، وذوقها ، وأمانيها ، وآمالها ، وخيالاتها . فتترجم عن كل هذا بما ترسمه فى رثائها من صور أدبية فنية تفيدنا هى الاخرى فى لمس قدرتها الادبية ومعرفة ذوقها الفنى .

فالمرأة فى شعر الرجال تكون اذن موضوعا شعريا يقصد اليه مباشرة

---

(١) نفس المصدر ص ٣٦ ، الدر المنثور ص ٥٤٥ .

(٢) الدر المنثور ص ٦١ ـ ٦٤ ، رياض الادب ص ٦٠ .

(٣) حماسة أبى تمام ج١ ص ٥٤ .

(٤) الدر المنثور ص ١٣٥ ، رياض الادب ص ٩ ـ ١٤ .

(٥) الاغانى ج١٣ ص ١٣٦ ، حماسة أبى تمام ج١ ص ٢٢٧ـ٢٢٨ .

(٦) رياض الادب ص ٩٠ ، ٩٢ ، أنيس الجلساء ص ٢٨ ، ٣٣ ، ٦٢ ، ٧٤ ، ٩٥ .

فى حين أنها فى شعر الشاعرات أما أن تكون مقصودة مباشرة أو تستشف صورتها من الشعر فيدرك القارىء أسلوبها الفنى من أشعارها ويعرف رغباتها وذوقها من اختيارها للمعانى التى توردها ، والاوصاف التى تختارها من سلوك الرجال ، والروح التى تغذيها فى تصويرهم • وبهذا يتسنى للباحث أن يتصورها من وراء هذه العناصر الفنية لان الشعر فى ذاته انما هو ظاهرة نفسية فاذا صدر من قلب المرأة حمل الينا عبير عواطفها ونشر أحاسيسها فصور لنا ذوقها وتفكيرها وما يكن فى صدرها من أمان وآمال ويجول فى مخيلتها من صور •

والمرأة شأنها شأن الانسان عامة ، فهى ترغب فى المعانى والصفات التى تكمل بها أنوثتها فهى تشعر بأنها بحاجة اليها فتمتدحها لهذا السبب أينما وجدتها • وفى شعر النساء معان غير الرثاء أو الوصف لاحزانهن فهناك وصف للاسيرات والسبايا(١) وهذا ما نجده فى شعر الرجال أيضا كما نجد فى شعرهن كذلك حثا على الاخذ بالثأر(٢) ووصفا للمعوزات والارامل كيف يصعب عليهن القيام بأود أولادهن وهذا عندما كانت الشواعر تتعرض للقتيل وتمتدح كرمه واحسانه(٣) • كما صورت النساء أنفسهن عند اظهار رغباتهن فى طلب الحماية والكفاية من الرجل(٤)

وعلى العموم فان ما جاء فى شعر النساء مما يصورهن انما هو جزء من كثير مما جاء فى شعر الرجال عامة مما يتعلق بهن • فما جاء فى شعر

---

(١) جنوب الهذلية ـ رياض الادب ص ٧٨ ، أنيس الجلساء ص١٢٢

(٢) أم قرفة ـ رياض الادب ص ٣٩ •

(٣) جنوب الهذلية ـ رياض الادب ص ٨٣ • الخنساء ـ أنيس الجلساء ص ٢ •

(٤) فاطمة بنت الاحجم ـ رياض الادب ص ٦٦ •

شواعر العرب فى الجاهلية غير واف فى الواقع بحد ذاته ليصور المرأة فى ذلك العهد ، وهو قليل بالقياس الى ما فى شعر الرجال .

٣ ـ اجادتها فنّ الرثاء :

وكان العرب كما هم اليوم ، يرون الندب والنواح من المظاهر الدالة على تكريم الميت والوفاء له ، فصورهم الشعر يرغبون فيهما ، كما صور الشعر النساء وهن يندبن وينحن . يقول معن بن أوس :ـ

رأيت رجالا يكرهون بناتهم ... وفيهن لا نعدو نساء صوالح
وفيهن والايام يعثرن بالفتى ... نوادب لا يملللنه ونوائح (١)

والشعر عامة شعر الرجال وشعر النساء يصور النساء النادبات وبكاءهن فى المآتم والاحزان على نحو ما نجد عند المهلهل (٢) والربيع بن زياد (٣) وكما صورتهن الشواعر ، تقول الخنساء :ـ

فنساؤنا يندبن بحاً ... بعد هادئة النوائح
شعثا شواحب لا ينين ... اذا ونى ليل النوابح
يحنن بعد كرى العيو ... ن حنين والهة قوامح
لما فقدن أخا الندى ... والخير والشيم الصوالح
والجود والايدى الطوا ... ل المستفيضات السوامح (٤)

---

(١) الاغانى ـ ج١٠ ص ١٦٥ ، ديوانه ص ٣٢ (ليبزج ١٩٠٣)

(٢) المهلهل ـ شعراء النصرانية ص ١٦٢ . المرأة فى جاهليتها واسلامها ج١ ص ١١٤ .

(٣) حماسة أبى تمام ج١ ص ٢٩٨ ـ ٢٩٩ . المرأة فى جاهليتها واسلامها ج١ ص ١٢٢ .

(٤) انيس الجلساء ص ٢٨ ـ ٣٠ ، بعد هادئة النوائح ـ بعد هدوء النوائح ونومهن . اذا ونى الخ ـ لا يفترن اذا فترت النوابح . الوالهة على أولادها . القامحة ـ التى لا تقنع بمرتع ولا ماء ببلدها .

وقد ذكرت كثيرات منهن بكاءهن فيما صورنه من أحزانهن [١] ذلك لان البكاء والنواح مما اختصت به النساء على مر العصور ولهذا كثر الرثاء فى أشعارهن حتى طغى على سائر الفنون الاخرى فيها . « فالنساء أشجى الناس قلوبا عند المصيبة وأشدهم جزعا على هالك، لما ركب الله عز وجل فى طبعهن من الخور وضعف العزيمة وعلى شدة الجزع يبنى الرثاء »[٢] .

واذا استعرضنا رثاءهن رأيناه لا يقتصر على وصف أحزانهن فحسب بل نجد فيه صورا للقيم التى وضعنها لصفات الرجال وخلالهم التى كن يعجبن بها فالشجاعة والكرم والشرف كانت من أهم الصفات التى امتدحنها وتليها صفات اخرى منها العفة والتدبير والكفاية وحسن المنطق والتعقل فى تصريف الامور ففى رثائهن اذن نجد تصويرا لاحزانهن وتصويرا لشمائل الرجال وصفاتهم الكريمة وتكاد هذه الصفات أن تكون هى الصفات التى كن يرغبن أن تتوفر فى الازواج عندما كان الرجال يتقدمون اليهن للخطوبة .

أما عن أوصاف أحزانهن وآثارها فى عقولهن وأبدانهن فقد أطالت وأبدعت كثيرات منهن فى وصفها وتصويرها . وتعد الخنساء من أقدرهن وصفا وتعبيرا عن عميق أحزانها وهى الشاعرة الوحيدة التى ذكرها ابن سلام فى طبقاته فى الشعراء الجاهليين[٣] . وقال الشريشى فى شرح المقامات الحريرية عنها « أجمع علماء الشعر أنه لم تلك قط امرأة قبل الخنساء ولا بعدها أشعر منها[٤] » ذلك لان الخنساء وفقت الى الترجمة عن عميق أحزانها وبالغ تأثرها فى قصائد مشهورة وخاصة ما قالته فى أخيها صخر

---

(١) طبقات ابن سلام ص ٤٨ .
(٢) ابن رشيق القيروان : العمدة ج٢ ص ١٤٥ ـ ١٤٦ .
(٣) طبقات ابن سلام ص ٤٨ .
(٤) الشريشى ـ شرح المقامات الحريرية ج٢ ص ١٥٣ .

حتى ان الباحث ليحار فيما يختاره منها لهذه الجودة الغالبة فهى تقول :

قذى بعينيك أم بالعين عوّار ... أم أقفرت اذ خلت من أهلها الدار
تبكى لصخرهى العبرى وقد ذرفت ... ودونه من جديد الترب أستار
لابد من موتة فى صرفها غِيَر ... والدهر فى صرفه حول وأطوار

الى قولها :

فما عجول على بو تحن له ... لها حنينان اعلان واسرار
ترتع ما رتعت حتى اذا ادكرت ... فانما هى اقبال وادبار
لا تسمن الدهر فى أرض وان ربعت ... فانما هى تحنان وتسجار
يوما بأوجد منى يوم فارقنى ... صخر وللدهر أحلاء وامرار (١)

وواضح ما فى هذا الشعر من الحزن العميق والدمع الغزير السخين الذى أسلمها الى الضنى ونال من نور عينيها . وقصائد الخنساء فى وصف أحزانها كثيرة أغلبها رقيق اللفظ حسن السبك لطيف التصوير (٢) كشفت فيها عما يخالج نفسها من الحزن العميق وحتى لكأنه يحز فيها حزا. فهى تقول :

لا تخالى أننى لقيت رواحا ... بعد صخر حتى أبين نواحا
من ضميرى بلوعة الحزن حتى ... نكأ الحزن فى فؤادى فقاحا
لا تخالى أنى نسيت ولا بل ... فؤادى ولا شربت القراحا
ذكر صخر اذا ذكرت نداه ... عيل صبرى برزئه ثم باحا (٣)

---

(١) الخنساء ـ أنيس الجلساء ص ٧٣ ـ ٧٥ ، ٧٦ ـ ٧٩ ، الكامل للمبرد ص ٧٣٧ ، العجول ـ التى يموت ولدها صغيرا : ترتع الخ ـ ترعى فاذا ذكرت ولدها تململت . ربعت ـ أصابها مطر الربيع .

(٢) الخنساء ـ أنيس الجلساء ص ١ ـ ٦ ، ١٢ ـ ١٦ ، ١٨ ـ ١٩ ، ٢٢ ـ ٢٣ ، ٢٥ ـ ٣٠ .

(٣) المصدر السابق ص ٣٣ .

وهى تصور هنا حزنا بليغا موجعا وكأنه أحدث فى فؤادها جرحا لا يرقأ دمه وقد تفننت الخنساء فى وصف أحزانها على أخويها صخر ومعاوية(١) وأظهرت قدرة فائقة على تصوير عواطفها النفسية العميقة حتى استطاعت بصدق عاطفتها ورقة شعورها أن تجعـــل السامع يشاركها فى أحزانها ويشاطرها أوجاعها ، فيتألم لالمها ويحزن لحزنها • فهى أبعد غورا فيمـــا تصل اليه من التعبير عن الشعور النفسى • وهى تمتاز كذلك بالقدرة على الاطالة فى وصف خلجات نفسها فتظهر ما فيها من المعانى الدقيقة وتصور آثارها فى عقلها وجسمها •

والشاعرات اللاتى برزن فى وصف أحزانهن كثيرات الا أنهن فى الغالب لا يبلغن ما بلغته الخنساء ، كما أنهن لا يطلن فى وصف مشاعرهن اطالتها ، ولعل ممن برزن منهن صفية بنت عمرو الباهلية التى بكت أخاها طـــــــويلا(٢) ، وعاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل(٣) وناجيةبنت ضمضم • وقد رثت أخاها هرما(٤) • ومن أشهر هؤلاء الخـرنق أخت طرفة بن العبد الشاعر المشهور • ومن شعرها فى رثاء زوجها حين قتل :

أعـاذلتى عـــلى رزء أفيقى ... فقـد أشرقتنى بالعذل ريقى
الا أقسمت آسـى بعـد بشر ... على حى يموت ولا صديق (٥)

---

(١) الخنســاء الاغانى ج ١٣ ص ١٣٧ ــ ١٣٨ • الـكامل للمبرد ص ٧٤٠ ــ ٧٤٥ • أنيس الجلساء ص ١٥٢ ، ٢٥ ، ٢٨ ٦٧ • الدر المنثور ص ١١٢ ــ ١١٣ •

(٢) حماسة أبى تمام ج ١ ص ٢٨٤ ــ ٢٨٥ ، الدر المنثور ص ٥١٨

(٣) المصدر السابق ص ٣٣٣ ــ ٣٣٤ •

(٤) الدر المنثور ص ٥١٨ •

(٥) خزانة الادب ج٢ ص ٣٠٧ • معجم البلدان ج٤ ص ١٥٥ ، رياض الادب ٣٥ ، شاعرات العرب لبشير يموت ص ٨٠ • أشرقتنى ــ أغصصتنى •

ومع هذا فالبون بعيد بين شعرها وشعر الخنساء من حيث قوة التعبير عن الحزن ، وهذا البون يكون أبعد شقة بطبيعة الحال بين شعر الخنساء وشعر الشواعر الاخريات اللائى تعرضن لوصف احزانهن ، اذ انهن لم يكن لهن من القدرة على وصف خلجات النفس والتعبير عن عواطفهن العميقة ما كان لزعيمتهن الخنساء الشاعرة الموهوبة فى هذا الميدان . فان هؤلاء لم يستطعن أن يطلن فى الحديث عن أحزانهن ، اذ نجدهن سرعان ما يتحولن فى مراثيهن الى ذكر القتيل ، والتنويه بمآثره ، ووصف مزاياه وخلاله ، والى امور اخرى مما يتصل بقضية مقتله . ومع هذا فانهن يختلفن فى القدرة الفنية بعضهن عن بعض ولعل قتيلة بنت النضر بن الحارث التى سمع الرسول الكريم رثاءها فتأثر لسماعه من أجودهن . ومنهن ليلى العفيفة بنت لكيز بن مرة الرَبَعى التى رثت ابن عم لها يقال لها غرثان وهو أخو زوجها البراق ومنه قولها :

لما ذكرت غريثا زاد بى كمدى ... حتى هممت من البلوى باعلان
تربع الحزن فى قلبى فَذُبت كما ... ذاب الرصاص اذا أصلى بنيران
فلو تراني والاشجان تقلقنى ... عجبت براق من صبرى وكتمانى (١)

ثم انتقلت الى ذكر قومه الذين لم يناصروه وعادت بعد ذلك فوصفته وذكرت خلقه وطباعه . وهى فى هذا كله لم تبلغ ما بلغته الخنساء من المقدرة الفنية . ومن اللائى برزن فى الجاهلية واتصفن بالفن الرفيع ، فأذبن عواطفهن الصادقة فى نمير قصيدهن العذب جليلة اخت جساس بن مرة الكلبية ، والذى وصلنا من شعرها هو مشهورتها التى قالتها تصف أحزانها على زوجها القتيل ، وترد على التغلبيات ، وسنأتى على ذكرها فيما بعد .

---

(١) رياض الادب ص ٢ ـ ٣ .

أما الخلال والصفات التى بثتها الشاعرات فى الرجال فهى كثيرة ، ولكن الشجاعة هى أكثر هذه المعانى ترددا فى مراثيهن • فقد رغبت النساء كافة فى الشجاعة البدنية لما كان لها من الاثر فى البيئة الجاهلية ، حيث كانت القوة والغلبة تسودان أحوال الجماعات فيها ، فى معظم الاحوال • فكانت الشجاعة أهم وسائل الحماية والكفاية فرغبت فيها المرأة وتعشقتها اذ وجدت فيها الخير الكثير والضالة المنشودة ، فأعجبت بها وامتدحتها أينما وجدتها • لهذا بكت الفرسان ، وذكّرتهم ببسالتهم ، وشجاعتهم ، وتحملهم الصعاب ، اكثر مما أظهرته لاية صفة اخرى فيهم • ومما قالته جنوب أخت عمرو ذى الكلب الهذلى ترثيه حين قتله بنو كاهل :ـ

وخرق تجوزت مجهولة ... بوجناء حرف تشكى الكلالا
فكنت النهار به شمسه ... وكنت دجى الليل فيه الهلالا

الى قولها :ـ

وحرب وردت ، وثغر سددت ... وعلج شددت عليه الحبالا
ومال حويت ، وخيل حميت ... وضيف قريت يخاف الوكالا[1]

فقد وصفته بالمخاطرة فى المفاوز المخوفة وشبهته اذا يسير فيها بالشمس نهارا وبالقمر ليلا ، تريد هدايته وسيطرته عليها • ثم وصفته بأنه يردّ الحروب ويسد الثغور وانه يقهر الخصوم الشداد • كما ذكرت فيه القدرة على الحصول على المال ، وقوة الجانب ، والكرم الواسع • فهذه الصفات كلها كانت المرأة فى العصر الجاهلى ترغب فيها لانها تؤمّن لها الحماية والكفاية ، من الامور التى تنشدها فى الرجل الجاهلى • وممن مجدن

---

(١) الدر المنثور لزينب فواز ص ١٣١ • الخرق ـ الفلاة الواسعة • الوجناء ـ عظيمة الوجنتين • الحرف ـ الضامرة • العلج ـ القوى الضخم • الوكال ـ الضعف •

الشجاعة فى أشعارهن تماضر زوجة زهير ملك عبس ، اذ قالت ترثى ولدها مالك حين قتله حذيفة بن بدر :-

لئن حزنت بنو عبس عليه ... فقد فقدت بنو عبس فتاها
ترى الشم الجحاجح من بغيض ... تبدد جمعها يوما رآها
فيتركها اذا اضطربت بطعن ... وينهبها اذا اشتجرت قناها (١)

وهكذا نجد فى مراثى الكثيرات منهن بكاء للشجاعة الضائعة والبسالة المفقودة(٢) ومن جميل القول ما روى لعاتكة بنت زيد بن عمرو ابن نفيل :-

فلله عينا من رأى مثله فتى ... أكر وأحمى فى الهياج وأصبرا
اذا اشرعت فيه الاسنة خاضها ... الى الموت حتى يترك الموت أحمرا (٣)

فهى تقول ان مرثيها تزيده الشدة والمحنة فى الحرب قدرة على الحماية والكر والجلد فهو اذا ما استحر القتال وتخالس الفرسان الطعان ترك قتلاه والدماء تسيل منهم حمراء قانية .

وبجانب الشجاعة ذكرت الشواعر الكرم وامتدحته لان الكريم من دلائل الحماية والكفاية ايضا فهو من مظاهر القدرة التى تحب المرأة أن تستظل بظلها ، خاصة وان فصول المحل هى من أشد المظاهر المروّعة فى الجزيرة العربية . فكانت ذكرياتها ومشاهد الضيوف وصور الاسيرات والعانين ومناظر الايتام والارامل تحرك عواطف المرأة وتبعث فى ذهن الشاعرة صورا من كرم الميت الذى كان يتكفل بكل هؤلاء حين الضائقة

---

(١) نفس المصدر ص ١١٤ ، شواعر العرب ص ٤٣ . الشمم - ارتفاع فى الأنف . الجحجاح - السيد الكريم . اشتجرت - اشتبكت .

(٢) الدر المنثور لزينب فواز ص ٥٥ .

(٣) حماسة أبى تمام ج ١ ص ٣٣٤ . لله الخ .. من العجب أن ترى العين أشد منه كرا . اذا الخ .. انه يسفك دماء كثيرة فى القتال .

والعوز ، فيشتد فى نفسها الاسى والحزن عليه . وهكذا ذكرت جنـــوب أخاها عمرا النهدى لما تصورت حالة الضيوف فى أيام الجفاف والعسر فبكته بقولها :ـ

لقـد علـم الضيف والمرملـون ... اذا اغبر أفـق وهبت شـمالا
وخلت عن أولادهـا المرضعات ... ولـم ترعـين لمـاء بـلالا
بأنـك ربيـع ، وغيـث مريـع ... وأنك تـكون هناك الشـمالا (١)

فصورت أخاها ربيعا وغيثا يروى عند الحاجة والمحن ، حتى فى أشد أيام ضيقهم فكيف به اذاً حين السعة والخير . وهل هناك صورة خـير من هذه الصورة التى تسحر لب المرأة ، ربيع وخيرات عميمة فى كل وقت وحين ، وحتى فى الضيق والشدة ومن هذا ما قالته هند بنت عتبة أم معاوية فى أبيها بعد قتله فى واقعة بدر(٢) .

وللكرم صـــور كثيرة فى كل زمان ومكان وان اختلفت أشكالها باختلاف الحاجة والامكنة . فمن صنوف الكرم فى بلاد العرب قديما فك الاسرى والعانين وهذا ما نسبته أم بسطام لابنها اذ رثته بقولها :ـ

سيبكيك أسرى طالما قد فككتهم ... وأرملة ضاعت وضـاع عيالهـا
ويبكيك عان لم يجد من يفكـه ... ويبكيك فرسان الوغى ورجالها (٣)

فليس بغريب على نساء العرب أن يمدحن الكرم بصوره المختلفة ، ويشجعن عليه ، ويظهرن استعدادهن لمعونة الرجل فيه ، كما فعلت زوجة

---

(١) الدر المنثور لزينب فواز ص ١٣١ ، رياض الادب لشيخو ص ٨٣ . المرملون ـ من قل زادهم . اذا الخ . . تصف وقت الشتاء . وخلت الخ . . لم تجد قوتا ولا بللا . الشمال ـ الذخر . المريع ـ المخصب .

(٢) الدر المنثور لزينب فواز ص ٥٣٨ .

(٣) نفس المصدر ص ٥٥ .

سالم بن قحفان العنبرى اذ سألته بأسلوبها الشعرى أن يهب • وقالت انها أعدت لكل ناقة خطما تقاد منه اذا ما وهبها لسائل(١)

ويأتى بعد بكائهن شجاعة القتيل وكرمه ، بكاؤهن شرفه وجاهه ، فقد أظهرت الشواعر عناية فى وصف شرف من رثينه فذكرن أنه من خيرة الناس نسبا ومن سادتهم منزلة وأنه ينـــادم الملوك ويشرب بكاساتهم • والشرف عنصر من عناصر القوة ايضا فى كل عصر وكل مصر ، اذ هـو قوة معنوية تحب النساء أن تركن اليها ، فتستظل بفيئها • ولهـذا بكت الشواعر الشرف كثيرا • فقالت دختنوس ترثى أباها لقيـط بن زرارة بقولهـا :ـ

عثر الاغـر بخـير خنـ ـدف كهلهـا وشبابهـا

الى قولها :ـ

ورئيسـها عنـد الملـو ك وزين يـوم خطابهـا
وأتمهـا نسـبا اذا رجعـت الـى أنسـابهـا
يرعـى عمـودا للعشـيـ ـرة رافعـا لنصابهـا
ويحـولهـا ويحـوطهـا ويـذب عن أنسـابهـا (٢)

وذكرت المرأة الشاعرة فى مراثيها بجانب هذه الصفات الشـدة ، وحسن التدبير ، والنطق المحكم الذى تفَضُّ به المشاكل وغـير ذلك • قالت أم قيس الضبية ترثى أبنها :ـ

ومشـهد قـد كفيت الغائبين بـه فى مجمع من نواحى الناس مشهود
فرجتـه بلسـان غـير ملتبـس عنـد الحفـاظ وقلب غير مزؤود

---

(١) حماسة أبى تمام ج ٢ ص ٢٧٠ ـ ٢٧١ • بلوغ الارب للالوسى ج ١ ص ٥١ ـ ٥٢ •

(٢) الدر المنثور لزينب فواز ص ١٩١ •

اذا قناة امرىء أزرى بها خور هز ابن سعد قناة صلبة العود (١)

ومن الصفات المحببة لهن العفة (٢) والحماية (٣) والعفو (٤) والقدرة على الكسب (٥) وتحمل الامور الجسيمة (٦) والحكمة فى المنطق والقدرة على الاقناع (٧) . تقول ناجية بنت ضمضم ترثى أخاها :ـ

الدافع الخصم الالـ ـد اذا تفوضح فى الخصومة
بلسان لقمان بن عا د وفصل خطبته الحكيمة
ألجمتهم بعد التجا ذب والتدافع فى الخصومة (٨)

ومما جمع كثيرا من الفضائل الجاهلية رثاء الخنساء لاخيها صخر فى قصيدتها المشهورة ومطلعها :ـ

أعينيَّ جُودا ولا تجمدا ألا تبكيان لصخر الندا (٩)

فقد نوهت فيها بكرمه ، وشرفه ، وشجاعته ، فى الشدة ، وسيادته قومه ، وحسن كفايته . كما أشارت الى علو منزلته فى أهله وذويه .

وهذا الرثاء كله ليدل على شخصية المرأة فى البيئة الجاهلية خاصة

---

(١) لسان العرب ج ٢٠ ص ٢٠١ تاج العروس ج ١٠ ص ٣٧ ، من نواحى الناس ـ من أشرافهم .
(٢) خزانة الادب ج٢ ص ٣٠٧ . معجم البلدان ج٤ ص ١٥٥ . شرح ديوان الخنساء (أنيس الجلساء) ص ١١٤ .
(٣) الدر المنثور ص ٥٣٨ . أنيس الجلساء ص ١٤٤ .
(٤) الدر المنثور ص ١٩١ .
(٥) المصدر السابق ص ١٣١ . رياض الادب ص ٨٣ .
(٦) الدر المنثور ص ٥٥ ، ٣٥٨ .
(٧) المصدر السابق ص ٣٥٨ .
(٨) الدر المنثور ص ٥١٨ .
(٩) المصدر السابق ص ١١٣ .

فى ساعات الاحزان والمآتم • فهى تقوم الى جانب الرجل فى انشاد المراثى • وقد وصف كثير من الشعراء النساء وهن يبكين ويندبن القتلى بقلوب حرى مكلومة ، وينشدن أشعارهن فيهم • يدفعهن الى ذلك صدق عاطفتهن ، وقوة شعورهن ، واخلاصهن فيؤثر ذلك فى نفوس السامعين أبلغ الاثر • قال المهلهل يصف النائحات :ـ

وترى الكواعب كالظباء عواطلا ... يبكين مصرعه فقد أبكانى
يخمشن من أدم الوجوه حواسرا ... من بعده ويعدن بالازمان
متسلبات نكدهن وقد ورى ... أجوافهن بحرقة ورواني
ويقلن من للمستضيق اذا دعا ... أم من لخضب عوالى المران (١)

فهو يصور بكاءهن ، وشدة حرقتهن، وندبهن مزايا القتيل الكريمة، شجاعته وكرمه ونخوته • وهذه فى الواقع هى أهم الصفات التى ذكرتها النساء فى مراثيها فى الجاهلية بحيث لم نكد نعثر على غيرها ، وهى أهم فضائلهم المعروفة • كما صور المهلهل العواطف النبيلة التى كانت تبديها عقيلات الاشراف نحو الاطفال الذين قتل آباؤهم بقوله :ـ

وتقوم ربات الخدور حواسرا ... يمسحن عرض ذوائب الايتام (٢)

٤ ـ اناشيدها الحربية :

ونجد فى شعر الجاهلية مقطوعات فى الفخر والحماسة تفخر فيها بقومها الامر الذى يدل على شعورها بالانفة وعزة النفس وهو مما يتفق والمنزلة التى كانت تتمتع بها بين القبيلة والجماعة • والشاعرة كانت تحس بالواجب كما يحس الشاعر به فيما يتعلق بالتعصب لقبيلتها ، والذود عنها ، فتتخذ من مواطن الشرف فيها ، ومن أعمالها المجيدة وايامها المشهودة مادة

---

(١) شعراء النصرانية ص ١٦٢ ، ديوان المهلهل (الروائع ص ١١)•
(٢) المرأة العربية فى جاهليتها واسلامها لعفيفى ج١ ص ١١٤ •

ستعين بها على الاشادة بذكرها • ولا تدخر وسعا فى ذلك وخاصة فى مواطن المنافسة والخصومة ، والتطاول بين القبائل • تقول الخرنق وهى تخاطب بنى أسد وقد قتلوا زوجها :ـ

ألا لا يفخرن أسد علينا ... بيوم كان حينا فى الكتاب
فقد قطعت رؤوس من قعين ... وقد نقعت صدور من شهراب
وأردينا ابن حسحاس فأضحى ... تجول بشلوه نجس الذئاب (١)

فهى ترد على أسد فخرهم بقتل زوجها بشر ، وتُذكّرهم بايقاع قومها بهم ، وقتلهم ابن حسحاس • ولها فى الفخر بقومها مقطوعة اخرى تقول فيها أنهم كرام ينحرون الجُزورَ ، وعزيزون ينزلون بحيث شاؤوا ، وانهم عفيفو النفس، كريمو السيرة ، معروفون بالشجاعة والبطولة • (٢)

والشاعرات اللائى اشتهرن بالفخر كثيرات وخاصة من بنات الاشراف والرؤساء ، اذ كان شعورهن بعلو المنزلة يساعدهن على أن يبرزن فى هذا الفن • ومنهن عاتكة بنت عبد المطلب تقول مفتخرة بانتصار قومها :ـ

سائل بنا فى قومنا ... وليكف من شر سماعه
قيسا وما جمعوا لنا ... فى مجمع باق شناعه
فيه السنور والقنا ... والكبش ملتمع قناعه
بعكاظ يعشى الناظرين ... اذا هم لمحوا شعاعه
فيه قتلنا مالكا ... قسرا وأسلمه رعاعه
ومجدلا غادرنه ... بالقاع تنهشه ضباعه (٣)

---

(١) رياض الادب فى مراثى شواعرالعرب ص ٣٢ • الحين ـ الهلاك • ابن حسحاس ـ سيد من أسد • الشلو ـ الجسم • بنو قعين من أسد •
(٢) المصدر السابق ص ٣١ ـ ٣٧ •
(٣) الحماسة لابى تمام ج ١ ص ٢٢٣ • الشر هنا الحرب • السنور ـ السلاح • الكبش ـ القائد أو الرئيس • قناعه ـ بيضة رأسه • مجدلا بالقاع ـ مطروحا على الارض • الرعاع ـ السفلة •

فهى تفخر بانتصار قومها على قيس برغم عدتهم وعددهم وتذكر قتل مالك سيد قيس • ومن هذا وغيره يتضح جليا كيف ان المرأة فى البيئة الجاهلية ما كانت لتختلف فى مفاخراتها عن الرجل من حيث الاسلوب والمعانى التى تناولتها • وهى تقف الى جانب الشاعر تدافع عن القوم كما يدافع ، وتفخر بالوقائع والانتصارات ، وترد على الخصوم • واختصت الشريفات بالفخر كما اختص الاشراف منهم به على العموم • ومن هؤلاء فارعة بنت شداد (١) ودختنوس ابنة لقيط بن زرارة(٢) وأمامة بنت ذى الاصبع العدوانى(٣) • ولم تترك الشاعرة منهن ماضيَ قومها ولا حاضرهم الا وأحاطت به علما ، فجعلته مادة لفخرها ، اذ كانت الشاعرة تسعى الى الاحاطة بأخبارهم وأيامهم كما كان يفعل الشعراء فزادت ثروتها الادبية • تقول أمامة بنت ذى الاصبع :ـ

كانوا ملوكا سادة فى الورى دهرا لها الفخر على الفاخر (٤)

وعصبية المرأة كما قدمنا فى الفصول السابقة كانت مع قبيلتها فى الغالب فهى تظلُّ محافظة على اخلاصها لقبيلتها وصلتها بها اذا ما تزوجت فى قبيلة اخرى • ولهذا كانت الواحدة منهن تخبر قومها بما يهم مصالحهم، وما يدبر لهم • فكانت تخبرهم باستعداد خصومهم للغزو ان استعدوا له • وقد استعرضنا صورا من هذا • واننا نجد هنا أن شعر النساء يؤيد هذا الروحَ عندهن ، ولعل أوضح مثال لعصبية المرأة وشدة تعلقها باهلها هو ما حدث لجليلة زوجة كليب بعد مقتل زوجها • فان نساء تغلبٍ لم يرضين لها بالبقاء فى مأتمهن لانهن حسبنها غير حزينة مثلهن ، وأنها شامتة فى

---

(١) الدر المنثور فى طبقات ربات الخدور ص ٣٥٨ •

(٢) المصدر السابق ص ١٩١ •

(٣) و (٤) المصدر السابق

دخيلة نفسها وخاصة وقد سبق أن أظهرت لزوجها فى حياته شدة تعصبها لقومها ، وفخارها بأخيها جساس • فقد روى أن زوجها كليبا كان سألها مرة عن أعز العرب ، وظن انها ستقول له هو أنت ولكنها قد خيبت أمله بقولها : أخى جساس أعز العرب ، فأعاد عليها السؤال قائلا ثم من وهى تقول مرة بعد اخرى أخى جساس • فتتأثر لذلك كليب وغضبت نساء تغلب لما سمعن بجوابها ، فحفظن ذلك لها ، لهذا طلبن اليها أن تترك المأتم وترحل الى أهلها وأسمعنها كلاما زاد فى أحزانها • وروى أن اسماء أخت كليب قالت لها :-

أخت جساس توارى وارحلى ... عن فنانا اليوم ثم انتقلى
أنت ألقيت وأغريت بنا ... سترى منا ضرام الشعل
كنت بالامس تغرين أخى ... وتمنيه بما لم يفعل
وتقولين أخى صهرك ما ... مثله ممن أرى بالمعبل

ثم تستمر تصور أحزانها وتحرض قومها بنى تغلب على الاسراع للاخذ بثأر سيدهم كليب وتعود تهدد بكرا بقولها :-

يا بنى بكر هلموا شمروا ... سوف نفنيكم غدا بالمنصل
برجال ليس فيكم مثلهم ... من بنى تغلب تحت القسطل (١)

وبعد أن سمعت جليلة قولها أجابتها بقصيدة رائعة تناقضها فيها ، ولكنها تمتاز عن تلك بقوة سبكها وسمو معانيها ودقة تصويرها ، والروح المتزنة ، والتعقل الذى يسيطر عليها قالت :-

يابنة الاقوام ان لمتِ فلا ... تعجلى باللوم حتى تسألى

---

(١) رياض الادب فى مراثى شواعر العرب ص ٧ • شعل - جمع شعيلة • الامنية - الكذب • المعبل - نصل قصير أى يرمى بالمعبل • فنانا - فنائنا • المنصل - السيف • القسطل - غبرة الحرب •

فاذا أنت تبينت الذى يوجب اللوم فلومى واعذلى
ان تكن أخت امرىء ليمت على شفق منها عليه فافعلى (١)

وقصيدة جليلة هذه ليس فيها من روح العصبية والغيظ ما فى قصيدة اسماء ، فهى بعد قولها هذا تستمر فى قصيدتها تصف أحزانها على مافعله جساس ، وتصور خوفها عليه وتقول ان الامر مؤلم لها فى كل وجوهه وأحواله ، اذ شبهت كلا من كليب وجساس بعين من عينيها فكل ما يؤلمها يؤلمها هى فاذا اودى أحدهما بالاخر تألمت هى للاول وللثانى . فالمصيبة فيها اولا واخيرا :ـ

يشتفى المدرك بالثأر وفى دركى ثأرى ثكل المثكل
ليته كان دما فاحتلبوا دررا منه دمى من أكحلى
اننى قاتلة مقتولة فلعل الله أن يرتاح لى (٢)

والروح الظاهر فى هذه القصيدة هى روح الاعتدال وتحكيم العقل ، فهى تطلب من اسماء أن تفكر فى الامر وان تضع نفسها موضعها، فاذا وجدت نفسها تفعل غير ما تفعله هى حق لها أن تلومها وتعذلها . وفى القصيدة نظرات واسعة الى الماضى والحاضر وتطلع الى المستقبل . أما الفاظها فرقيقة مختارة وعباراتها متينة السبك بخلاف قصيدة اسماء التى فيها بعض الركة فى التعبير كما تختلف عنها من حيث العصبية والكراهية .

أما عن اشتراك الشاعرة الجاهلية فى اثارة الحرب ووصفها الوقائع ففى شعرها كثير مما يصور ذلك وخاصة اذا كانت مفجوعة بصاحب أو قريب . ومن هذا ما أظهرته أمامة ابنة كليب بعد نكبتها بوالدها فقد

---

(١) المصدر السابق ص ١١ ـ ١٤ . الدر المنثور لزينب فواز ص ١٣٥ .

(٢) رياض الادب ص ١١ ـ ١٤ .

استثارت عمها المهلهل وحفزته على الاخذ بالثأر وذلك فى قولها الـذى لا يخلو من عنف :ـ

أتلهـوا بالملاهى والخمـور ... ولا تـدرى بعاقبـة الامـور
ولا تدرى بأن كليب أضـحى ... قتيـلا عنـد جسـاس الغـدور
فوا عجبا لجساس وعمرو ... لقـد جسروا عـلى أمر نكـير

الى قولهـا :ـ

فبـادر نحـوه فلقـد ترامت ... اليـه الآن شـجعان النظـير (١)

فهى تذكر لعمها هول الوقيعة وعظم المصاب ، وتصور له جراءة جساس وشناعة جريرته • وقد عرفت النساء بداريتهن فى الطرق والمسـالك التى يستطعن أن يؤثرن بها فى الرجال ، والشعر أسلوب من أساليبهن استخدمنه وفيه عبارات ومعان مؤثرة • ومما قالت أم عمران ابنـة وقـدان تحرض قومها على الأخذ بثأر من قتل منهم :ـ

ان انتم لم تطلبوا بأخيكم ... فذروا السلاح ووحشوا بالابرق
وخذوا المكاحل والمجاسد والبسوا ... نقب النساء فبئس رهط المرهق
ألهـاكم أن تطلبوا بأخيكم ... أكل الخزيز ولعق أجرد أمحق (٢)

فهى تخاطبهم تقول : ان قعدتم عن طلب الثأر كنتم أجدر بأن تكونوا نساء فيصبح الأولى لكم أن تسلكوا مسلكهن فى التكحل والتنقب وارتداء ثيابهن الناعمة • ثم تغلظ فى التعنيف قائلة : انكم ألهاكم النهم فى المأكل والشراهة عن أخيكم القتيل • وكثيرا ما نجد الشواعر تلح فى أخذ الثأر والامتناع عن

---

(١) رياض الادب ص ٦ • أمر نكير ـ أمر صعب • النظير ـ اسم علـم •

(٢) الحماسة لابى تمام ص ٦٨١ ـ ٦٨٢ • الدر المنثور ص ٦١ • وحشوا ـ كونوا مع الوحوش • المرهق ـ المضيق عليه • الخزيز ـ لحم يقطع قطعا صغارا • الامحق ـ القليل •

أخذ الديات وقد برعن فى أساليب التأثير فى نفوس الرجال[١] .

وشعر النساء الحماسى كثير وقد عرضنا لامثلة منه فى الفصول السابقة ومنه ما كان قوى السبك حسن المعنى سامى الفكرة كشعر كبشة أخت عمرو بن معد يكرب[٢] وأم نـــدبـــة[٣] . وقـــد أظهرن فى أشعارهن عامة صدقا فى العاطفة واخلاصا للفكرة وهذا طبيعى فى النســاء ان آمنّ بشىء .

٥ ـ نظرة عـامـــة :

ولم يقتصـر شـعر المرأة الجاهلية عـلى الرثاء والحرب بل تنـاول موضوعات اخرى وان كانت قليلة نسبيا ، الا أن منها ما يتصل بالحرب والرثاء كذلك عن قرب أو بعد ، ومنها مثلا فن العتاب واللوم ويدلُّ ظهوره فى شعر النساء على شعورهن بمنزلتهن الاجتماعية وهذا ما كان عند المرأة فى الجاهلية . فكانت الشاعرة ترى من حقوقها أن تلوم وتعتب وتوبخ وتهجو الخصوم . ولعل من أرق ما أثر عن الجاهليات عتاب قُتَيْلَة بنت[٤] النضر بن الحارث ، فقد روى أن أباها كان من المخاصمين للدعوة الاسلامية، يفسد قلوبَ الناس بالكذب والافتراء ، ويشترى لهو الحديث ليضل به عن سبيل الله ، فرأى الرسول الـكريم ضرورة تخليص الناس من أذاه فأمر به فقتل . فأرسلت ابنته تعاتبه بأرق القول وأعذبه ، باكية فتأثر صلى عليـه وسلمْ لعتابها الرقيق ومما جاء فيه :ـ

---

(١) حماسة البحترى : ص ٣٠ ـ ٣٥ .

(٢) الحماسة لابى تمام ج ١ ص ٥٤ .

(٣) الدر المنثور ص ٦٤ . رياض الادب ص ٣٩ .

(٤) اسد الغابة : « قالت اخته وقيل بنتـه » ، الحصرى : زهر الاداب ج ١ ص ٢٧ ـ ٢٨ هى اخت النضر .

أمحمـد ولانت صـنو نجيبـة ... فى قومها والفحل فحل معرق
ما كان ضرك لو مننت وربمـا ... منّ الفتى وهـو المغيظ المحنق
لو كنت قابـل فديـة لفديتـه ... بـاعز مـا يغلو لديـك وينفق
فالنضر أقرب من تركت قرابة ... وأحقهم ان كان عتق يعتق (١)

وقد سبق هذه الابيات أبيات بعثت فيها قتيلة بالتحيات الطيبات لابيها المقتول صبرا ، وصفت فيها أحزانها العميقة ، وذرفت من دمعها السخين ، ثم عاتبت الرسول صلى الله عليه وسلم « ما كان ضرك لو مننت ؟! » وكان من العتاب الذى تقدمت به النساء الشريفات وعقائل البيوتات للرسول الكريم عتاب هند بنت عتبة فى مقتل أبيها ببدر تقول :ـ

تداعى لـه رهطه غـدوة ... بنو هـاشـم وبنو المطلب
يذيقونـه حـد أسـيافهم ... يغلونه بعـد مـا قد عطب
يجرون منـه عفير التراب ... على وجهه عاريا قدسلب (٢)

فاذا تصورنا صيغة هذا العتاب واللوم رأيناه يمثل شخصية واضحة فيهـا خصائصها ومميّزاتها . أليس مما يلفت الانظار أن الواحدة منهن كانت تعاتب أعظم الشخصيات وأكثرها خطرا . ثم هى لا تقول الا ما يدل على رجاحة فى العقل ، واتزان فى المنطق وحكمة فى المنهج ؟ وليس أدل على عظم منزلتهن ، واستقامة أقوالهن ، ومبلغ تأثيرهن ، من أن أشعارهن كانت تجد صداها الواضح فى نفوس المخاطبين فتبلغ أسماعهم . أوليس عتاب يؤثر فى نفس الرسول صلى الله عليه وسلم عتابا جليلا وقولا سديدا يدل

---

(١) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٥٣٩ . حماسة البحترى ص ٢٧٦ . ابن عبدالبر : الاستيعاب ج٤ ص ٣٧٨ ـ ٣٧٩ ابن حجر : الاصابة ج ٤ ص ٣٧٨ . ابن الاثير : أسد الغابة ج ٥ ص ٥٣٣ .
(٢) سيرة ابن هشام ص ٥٣٦ .

على شخصية قائله حتى أن الرسول لما بلغه هـذا النشـيد المؤلم بكى حتى اخضلت الدموع لحيته وقال : لو بلغنى شعرها قبل أن أقتله ما قتلته .

وفضلا عن ذلك فان عتاب الشواعر كان يتطور فيأخذ ألوانا مختلفة اذ يشتد فيكون تعييرا وشتما كما قالت أخت طرفة تعيّر عمرا ، وكان قد وشى بأخيها الى عمرو بن هند :ـ

فهلا ابن حسحاس قتلت ومعبـدا ... همـا تركاك لا تريش ولا تبرى
هما طعنا مولاك فى عطف صلبه ... واقبلت ماتلوى على محجر تجرى (١)

فهى تنعى عليه سوء تدبيره كما كانت الشاعرة قد تنعى على قوم بأجمعهم اعمالا مخزية يكونون قد اقترفوها (٢) . فقد روى أن زيد بن ميّة وكان مجاورا للزبرقان بن بدر ، قتله أحد خصومه ، وهو هزال بن كعب ، ولم يدافع الزبرقان عنه كما انه قعد عن الاخذ بثأره بعد ذلك ، فقالت زوجته ، وهى وهيبة بنت عبد العزى ، توبخ الزبرقان وتعيره ورجاله ، ومنهم عوف ابن كعب بقولها :

تجلـل خزيهـا عوف بن كعب ... فليس لخلعهـا منـه اعتـذار
أجـيران ابن ميـة خبـرونى ... أعـين لابن ميـة أم ضمـار
متى تـردوا عكاظ توافقوهـا ... بأسماع مجـادعهـا قصـار
فانكم ومـا تخفـون منهـا ... كذات الشيب ليس لها خمار (٣)

كما أن عتابهن قد يرق ويخف فيصير قولا أقرب الى الانصاف والاعتراف بالحقيقة ، فاذا ما صدر عن امرأة ذات قلب حساس وعاطفة قوية كان دليلا على سمو ادراكها ، واتزان تفكيرها ، وسيطرة عقلها على عاطفتها وخاصة

---

(١) رياض الادب فى مراثى شواعر العرب ص ٣٧ . انك لم تثأر من هذين بـل عطفـت تشى بأخى . العطف ـ الجـانب . المحجر الموضـع المنخفض .

(٢) الدر المنثور ص ٥٤٥ .

(٣) المصدر السابق .

اذا كانت مصابة مكلومة • ومن هذا قول أم كلثوم ابنة عبد ود ، وقد قتل الامام علي كرم الله وجهه أخاها عمرا فى واقعة الخندق ، فامتدحته وامتدحت الامام ، فصورت الفارسين تصويرا بديعا اذ شبهتهما بأسدين يتجاولان • وقالت ان كلا منهما كفء كريم باسل خالس صاحبه سلب نفسه بجلد وثياب • ومن القصائد التى قالتها فى هذا الصدد ما جاء فيها :ـ

لو كان قاتل عمرو غير قاتله ... لكنت أبكى عليه دائم الابد
لكن قاتله من لا يعاب به ... من كان يدعى أبوه بيضة البلد
من هاشم فى ذراها وهى صاعدة ... الى السماء تميت الناس بالحسد (١)

ومن الرغبات التى أبدتها الشواعر فى أشعارها رغبتهن فى الزواج من أقربائهن والامتناع عن الغرباء ، وهذا ما روى عن الخنساء • فهى لما خطبها دريد بن الصمة من أخيها وسمح أخوها بذلك ، اذ كان هو والصمة متأخين ، رفضته لما علمت بذلك وعنفت أخاها وأظهرت رغبتها فى الزواج من أقربائها قائلة :

أتخطبنى هبلت على دريد ... وتطرد سيدا من آل بدر
معاذ الله ينكحنى حبركى ... يقال أبوه من جشم بن بكر
ولو أمسيت فى جشم هديا ... لقد أمسيت فى دنس وفقر (٢)

وكثيرا ما ظهر حب النساء لقبائلهن فى أشعارهن بصور عديدة منها حبهن لبلادهن وديارهن فكن يرسلن لها التحيات الشعرية مع الريح اذ تهب ومن هذا قول وجيهة بنت أوس الضبية ترد على عاذلة تعذلها على شدة الشعور الذى كانت تبديه نحو أهلها وديارها اذ بعدت عنهم فهى تقول :ـ

وعاذلة تغدو علي تلومنى ... على الشوق لم تمح الصبابة من قلبى

---

(١) المصدر السابق ص ٦٣ •
(٢) الاغانى ج ١٣ ص ١٣٦ • الدر المنثور ص ١٠٩ ـ ١١٠ •

فمالى ان أحببت أرض عشيرتى ... وأبغضت طرفاء القصيبة من ذنب
فلو أن ريحا بلغت وحى مرسل ... حفى لناجيت الجنوب على النقب
فقلت لها أدى اليهم رسالتى ... ولا تخلطيها طال سعدك بالترب (١)

فهى عبرت باسلوبها العذب عن شدة تعلقها بقومها حتى أنها ظهرت عليها تلك بشكل واضح . وفى شعر النساء كثير مما يصور حنينهن الى أهليهن خاصة من كانت منهن متزوجة فى غير أهلها وبعيدة عنهم فقد روى أن امرأة من مازن تزوجت كَلْبيّا وبينما هى سائرة الى بيت زوجها أحست أن بكرها الذى كانت تركبه كأنه قد أخذ يحن فتذكرت أهلها وخاطبته تقول :ـ

تحن وأبكى ، ان ذا لبلية ... وانا على البلوى لمصطحبان
وان زمانا أيها البكر ضمنى ... وإياك فى واد لشر زمان (٢)

ومن القول الدال على بعد النظر والاناة قول أم النحيف ، وهو سعد ابن قرط أحد بنى جذيمة ، تخاطبه وقد منعته عن الزواج من فتاة معينة ولكنه عصى رأيها بيد أنه لم يوفق أخيرا فى زواجه فأراد ان يطلقها بعد ذلك فقالت له أمه :ـ

لعمرى لقد أخلفت ظنى وسؤتنى ... فحزت بعصيانى الندامة فاصبر
فلا تك مطلاقا ملولا وسامح الـ ... قرينة وافعل فعل حر مشهر
فقد حزت بالورهاء أخبث خبثة ... فدع عنك ما قد قلت ياسعد وأحذر
تربص بها الايام عل صروفها ... سترمى بها فى جاحم متسعر (٣)

---

(١) حماسة أبى تمام ج ص ١٢٩ . طرفاء القصيبة ـ موضع ، الحفى ـ المكرم .
(٢) حماسة ابن الشجرى ص ١٣ .
(٣) حماسة أبى تمام ص ٨٠٩ ـ ٨١٠ . جاحم ـ جحيم .

واستمرت تذكر له أن كثيرا من الكرام ذوى الاخلاق الطيبة قد ابتلوا بنساء خبيثات فصبروا حتى أبدلوا بغيرهن كريمات .

ان شعر المرأة ، وان قل الذى بين ايدينا منه ، لا يخلو من الغزل رغم حرص العربية على عدم اذاعته . وهذا الغزل اذا ما قورن بغزل الشاعر الجاهلى وجدناه أقل منه فى المقدار فغزل الرجل فى ذلك العهد يؤلف ديوانا ضخما جدا . والسر فى هذا ، كما ذكرنا ، انما يعود الى أن المرأة بطبيعتها مطلوبة والرجل هو الطالب وليس معنى ذلك أنها لا تحب أو لا تتعشق انما حبها بطبيعته يكون صامتا مكتوما فى حين ان حب الرجل علنى صارخ وحب المرأة هادى رقيق وحبه عنيف ثائر ويضاف الى هذا تمسك الجاهليين بقواعد الحشمة وحرصهم على صيانة المرأة والابتعاد بها عن الاسفاف والابتذال . ولهذا تميز غزل المرأة فى الجاهلية ، على قلته ، بالقصد والايجاز وعدم الاطالة فى وصف الوجد بخلاف شعر المحبين .

فمن الغزل النسوى قول ضاحية الهلالية وقد احبت رجلا اسمه حبيب :-

وما وجد مسجون بصنعاء موثق ... بساقيه من حبس الامير كبول
وما ليل مولى مسلم بجريرة ... له بعد ما نام العيون عويل
بأكثر منى لوعة يوم راعنى ... فراق حبيب ما اليه وصول (١)

ومثل هذا الاتزان نجده فى قول الخنساء بنت التيحان تصف شوقها الى جحوش الخفاجى :-

ألا ان وجدى بالخفاجى جحوش ... برى الجسم منى فهو نضو سقام
واقسم انى قد وجدت بجحوش ... كما وجدت عفراء بنت حزام (٢)

---

(١) شاعرات العرب الجاهليات لبشير يموت ص ٩٤ .
(٢) شاعرات العرب الجاهليات لبشير يموت ص ٧٥ .

واذا ما بالغت الواحدة منهن فى وصف شدة شوقها لم تتعد عادة حد قول سعدى الاسدية فى ابن عم لهـا احبته حبا جما ولـكن أباه منعه من الزواج بها فزوجها ابوها من رجل آخر فاشتد وجد ابن عمها فارسل لها شعرا صور لها حاله فيه فأجابته بأبيات منها :

حبيبى لا تعجـل لتفهم حجتـى كفانى مـا بى من بلاء ومن جهد
ومن عبـرات تعترينى وزفـرة تكاد لها نفسى تسيل من الوجد (١)

ان مشاركة الشاعرات فى انشاد الشعر، وحرص الاجيال المتعاقبة على المحافظة على أشعارهن وتناقلها خلال العصور أمر له دلالته • واول ما يدل عليـه هو سمو منزلة المرأة فى ذلك المجتمع وكفايتهـا الفنية ، وقيمـة الموضوعات التى كانت تعالجها •

فقد شقت المرأة طريقا لهـا فى الحياة العربية كما اتخذت لهـا نهجا قويما فى الادب الشعرى للامـة • ويجدر بنا ألا يغيب عن اذهاننا ما كان للشعر من أثر وللشاعر من خطر فى المجتمع البدوى فى الجاهلية اذ قد تفعل القصائد فيه ما لا يفعل السيف أحيانا •

واذا أنعمنا النظر فى هذه الثروة الشعرية النسائية وجدناها على درجة من القيمة الفنية فمعانيها دقيقة على وجه العموم ، وهى قريبة من الواقع ، بعيدة عن المبالغـة ، يسيطر عليها روح التعقـل والاتزان ، نلمسه فى معظم القصائد ، وهو دليل ثابت على نضج المرأة الجاهلية عقلا ، وثقافة ، كما هو دليل على عدم تأخرها عن المستوى الذى كان عليه الرجل ، فلا نجـد فى شعر النساء شذوذا فى التفكير وحتى أن الاحلام وطيف الخيـال معدومين عندهن وليس فى شعورهن افكار نابيـة أو آراء فجة • فلنستعرض بعض آرائهن فى امور عامة • تقول الخنساء بنت أبى سلمى وأخت زهير الشاعر

---

(١) شاعرات العرب الجاهليات لبشير يموت ص ٩١ •

الحكيم تتحدث عن الموت :

ولا يغنى تـــوقى المرء شـــيئا ولا عقـــد التميم ولا الغضـــار
اذا لاقـــى منيتـــه فأمســـى يساق به ، وقد حق الحذار (١)

فهى لا تؤمن بأثر الرقى والتعاويذ فى دفع الموت وهذا أسلوب من التفكير سليم ومثله قول أم تأبط شرا :

والمنايـــا رصـــد للفتى حيـــث ســـلك
كل شـــىء قـــاتـــل حـــين تلقى أجلك (٢)

ومن آرائهن فى التربية مثلا قول أم ثواب الهزلية فى ابنها :

أنشـــا يمـــزق أثوابى يؤدبنى أبعد شيبى تبغى عندي الادبا (٣)

فهى ترى السن المتقـدم لا يناسبه التعليم وانمـا يناسب التعليم عهد الفتوة والشباب اذ المسن لا يكون لـه من الاقبال عـلى الامور الجـديدة ما للفتى .

أما الرثاء الذى هو أكثر فنون الشعر النسوية فان الاعتدال والاتزان ظاهر فيه . ولنتخذ مثلا له من قول الفارعة ترثى أخاها :

يا عـين جودى لمسعود بن شـداد بكل ذى عبرات شـجوه بـادى
من لا يذاب له شحم السديف ولا يجفو العيـال اذا مـا ضن بالزاد
ولا يحـــل اذا ما حـــل منتبذا يخشى الرزيـة بين المـال والنادى
قـــوال محكمـة نقاض مبرمـــة فراج مبهمة ، حباس أوراد (٤)

---

(١) المؤتلف والمختلف للآمدى ص ١١٠ .
(٢) حماسة أبى تمام ج ١ ص ٢٧٣ ـ ٢٧٤ .
(٣) المصدر السابق ص ٣٥٤ ـ ٣٥٦ .
(٤) حماسة ابن الشجرى ص ٨١ .
الدر المنثور فى طبقات ربات الخدور ص ٣٥٨ .
شجوه باد ـ حزنه ظاهر للناس ، لا يذيب الخ .. لا يذيب لنفسه شجم السنام ولا يرد المحتاجين ولا ينفرد خوفا من الفقر ، يقول المحكم من القول ويبطل ما احكم غيره ، يزيل لبس الامور ويصد اعداءه عن الورد .

فهى تسأل عينيها أن تذرف الدمع وتذكر كرم أخيها وعنايته بالعيال والضيوف وأصالة رأيه ، لهذا تسنى له نقض الامور المبرمة ، وكشف الاشياء الغامضة المبهمة ، وقالت أنه شريف من شأنه أن يحمى الورد اذا نزل به وأنه جواد شجاع • واستمرت تطلق عليه أمثال هذا الوصف المعتدل القريب من الواقع البعيد عن المبالغة • وهكذا نجد الافكار واضحة فى شعر النساء والربط ظاهرا بين المعانى فى غالب الاحوال وهذا راجع الى وضوح تلك المعانى فى نفوسهن وتماسكها فصبنها فى مقطوعات شعرية قصيرة فى الغالب •

أما اللفظ فى أشعارهن فان الغريب قليل فيه جدا وان كانت مسألة الغرابة أمر يختلف باختلاف الافراد • والرشاقة ظاهرة ، وسبك الالفاظ حسنا فيه انسجام ثم أنه مما يلاحظ كثرة الاوزان الخفيفة فى أشعارهن والضربات القصار كما فى مقطوعة هند بنت عتبة فى رثاء أبيها :ـ

يا عين بكى عتبة ... شيخا شديد الرقبة
يطعم يوم المسبغة ... يدفع يوم الغلبة
انبى عليه حربه ... ملهوفة مستلبة (١)

وقول أم السليك ترثيه :ـ

طاف يبغى نجوة ... من هلاك فهلك
ليت شعرى ضلة ... أى شىء قتلك
أمريض لم تعد ... أم عدو ختلك
أى شىء حسن ... لفتى لم يك لك
ان أمرا فادحا ... عن جوابى شغلك (٢)

---

(١) الدر المنشور ص ٥٣٨ •
(٢) الحماسة لابى تمام ج ١ ص ٢٧٣ ـ ٢٧٤ •

وفى هذا الوزن ترجمة عن عاطفة حرى وحزن عميق وهى أوزان أكثر مناسبة للنواح والتعديد فى المآتم • وشعر النساء خاصة فى الرثاء يدل على عاطفة صادقة كما يصوره شعر الخنساء التى ما جفت دموعها بل ظلت تنهمل فى الجاهلية والاسلام • ومن زعم بأن الدموع سريعة الجفاف فانما هى دموع الرجل فالامثلة على طول بكاء المرأة كثيرة ليس عند النساء من الطبقات الراقية فحسب بل الفقيرات اللاتى منهن أم السليك التى ذكرته وعدت مزاياه كما ذكرت هند بنت عتبة أباها وذكرت كرمه وبأسه فكثرة النواح صفة ظاهرة عند الناس عامة على اختلافهن • ولما كان شعورهن صادقا كان فى رثائهن نغمة بليغة من التأثر والحزن •

فهرست الاعلام

آشور بانيبال - ٣٦ .
الاشوريون - ١٤٠ .
آمنة بنت اخ عمرو بن عمرو - ٦٤.
آمنة بنت ابان - ١٩٥ .
آمنة بنت عتبة - ٢٨١ .
ابان (بنو) - ١٩٥ .
ابراهيم - ٢٢٧ .
ابن الاثير - ٢٦٨ .
ابن حبيب - ٦٠ .
ابن حزم - ١٠٥ .
ابن حسحاس - ٢٩٨ .
ابن سلاّم - ١٤ ، ٤٦ ٢٨٨ .
ابن الشجرى - ٢٧٦ .
ابن عباس - ٤٥ .
ابن عبد القيس - ٧٥ .
ابن الفارض - ١٢٥ .
ابن قتيبة - ١٢ ، ١٣١ .
ابن قهوس - ٢٧٩ .
ابن الكلبى - ٢٠١ .
ابن مسعود - ٥٦ .
أبو بكر - ١٧٤ .
أبو تمام - ٣٨ ، ٢٧٥ ٢٨٤ .
ابو جبيلة - ٢٨٣ .
ابو جدابة - ٢٠١ .
ابو جهل - ٢٤٩ ، ٢٦٧ .
ابو ذؤيب الهذلى - ١١٥ ، ١٥٣ ، ١٦٢ ، ٢٨٤ .
ابو سفيان - ٥٧ ، ١٦٥ ، ٢٤٠ ، ٢٤٩ ، ٢٣٨ ، ٢٧٦ .
ابو ضمضم - ٣٩ .
ابو العاص - ١٦٩ .
ابو عبيدة - ١٢ .
ابو عمرو بن بدر - ٢٦٦ .
ابو عمرو بن عبد شمس - ١٩٥ .
ابو الفرج - ٦٤ ، ١٧٥ ، ٢٠١ .
ابو قيس بن الاسلت - ١٥١ .
ابو محجن - ١ ٥٠
أحد - ٥٧ ، ٧٤ .
الاحساء - ٢١ .
احمد امين - ٤٤ .
الاخنس بن جناب - ٢٦٣ .
أربد - ٢٠٧ .
أردشير - ٢٣٥ .
أرشميدور - ٣٧ .
ارم - ٢١ .
ازهر بن هلال التميمى - ١٥٢ .
اسبانيا - ١٤٦ .
استراليا - ٢٢٧ .
اسحق بن خلف ٢١٦ .

أسد (بنو) ٢٣٠ ، ٢٩٨ .
الاسلوم اليمانى ـ ٢٥٤ .
اسماء ـ ١٧٩ ، ٢٥٥ .
اسماء أخت كليب ـ ٢٧٧ ، ٣٠٠ ، ٣٠١ .
اسماعيل ـ ٢٢٧ .
الاسود بن يعفـــر ـ ١١٧ ، ١٤٥ ، ١٥٦ ، ٢٠٧ ، ٢٣٥ .
أسيد ـ ٢٦٣ .
الاعشى ـ ٢٢ ، ٤٦ ، ٥٠ ، ٧٣ ، ٧٨ ، ٨٢ ، ٨٦ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٩ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١١٠ ، ١١٢ ، ١١٦ ، ١١٨ ، ١٢١ ، ١٢٤ ، ١٢٩ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٤٥ ، ١٥٣ ، ١٦٨ ، ١٧٢ ، ٢٣٢ ، ٢٦٥ ، ٢٧٣ ، ٢٨١ .
أعصر بن سعد ـ ٢٣٢ .
الاغلب العجلى ـ ١٥٠ .
افريقية ـ ٨٥ .
افلاطون ـ ٤٠ ، ٤١ ، ٩٠ .
الافوه الاودى ـ ٧٧ .
ألس ـ ٩٣ .
أمامة بنت ذى الاصبع ـ ٢٣٣ ، ٢٣٤ ، ٢٨١ ، ٢٩٩ .
أمامة بنت كليب ـ ٢٧٨ .
أم الاغر بنت ربيعة ـ ٢٧٧ .
أم اياس بنت عوف ـ ١٩١ .
أم بسطام ـ ٢٩٤ .
أم ثواب الهزانية ـ ٢١١ ، ٣١٠ .
أم جميل ـ ٥٥ .
أم جندب ـ ٥٧ .
أم حكيم بنت عبد المطلب ـ ٢٨٢ .
أم خارجة ـ ١٧٤ .
أم السليك ـ ٣١٢ .
أم عزة الكنانية ـ ٢٧٩ .
أم عمران بنت وقدان ـ ٣٠٢ .
أم عمرو الخزاعية ـ ٢٥٨ .
أم القرى ـ ٢٤٩ .
أم قرافة الفزارية ـ ٦٧ ، ٢٧٨ .
أم قيس الضبية ـ ٢٩٥ .
أم كلثوم بنت عبدود ـ ٢٧٧ ، ٣٠٦ .
أم كهمس ـ ٧٥ .
أم ناشرة ـ ٢٧٨ .
أم ندية ـ ٣٠٣ .
امرؤ القيس ـ ٤ ، ٥١ ، ٥٧ ، ٧٤ ، ٧٧ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٩٢ ، ٩٤ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٩ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٣٠ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ٢٣١ ، ٢٣٦ ، ٢٤٩ ، ٢٦٧ ، ٢٧١ ، ٢٧٣ .
أمية بن أبى الصلت ـ ٨ ، ٩ ، ٢٧٠ .
أمية بن عبد شمس ـ ١٩٥ .
امير علي ـ ٢٢٦ .
أميمة (جارية) ٢٦٨ .
أميمة بنت اسحق ـ ٢١٦ .
أميمـة بنت كليب ـ ٢١٨ ، ٢١٩ ،

٢٧٨ ، ٣٠١ .
الانباط ـ ٢٠ .
الاندلس ـ ١٤ .
أوس بن حارثة بن لام ـ ١٦٩، ٢٠٨، ٢٠٩ ، ٢٣٨ .
الاوس (بنو) ٧٦ ، ١٥١ ، ٢٤٣ ، ٢٧١ .
أوس بن حجر ـ ٦٥ ، ١٠٩، ١١٠، ١٥٢ ، ١٦٣ .
أوستن ـ ٢٥ .
اياس بن قبيصة ـ ١٩٧ ، ٢٧٠ .
أيزانبرت ـ ١٤٦ .
أيوب ـ ٣٩ .
بابل ـ ١٠٢ ، ٢٦٦ .
البابليون ـ ١٤٠ .
بادية الشام ـ ٢٠ .
بجير ـ ٢٢٠ .
البحترى ـ ٢٧٦ .
البحر الاحمر ـ ١٨ .
البحرين ـ ٢٠ ، ٢١ ، ٨٢ .
بدر ـ ١٧٠ ، ٢٨٢ ، ٢٩٣ .
بدر (بَنُو) ٢٠٦ .
برترام توماس ـ ١٩ .
البراق الربعى ـ ٢٩١ .
برج بن مسهر الطائى ـ ٢٦٥ .
برد بنت عبد المطلب ـ ٢٨٢ .
البسوس ـ ٦٧ ، ٢٧٧ .
بشامة بن الغدير ـ ١٩٢ .
بشر بن أبن خازم ـ ١٩١، ٢٠٨، ٢٠٩ .
بشر بن عمرو ـ ٢٦٥ .
بطرا ـ ٢٠ .
بعاث ـ ١٥١ ، ٢٤٣ .
بغيض (بَنُو) ٢٩٣ .
بكر (بَنُو) ٧٢، ٢٣٠، ٢٧٧، ٣٠٠ .
بلقيس ـ ٥٦ .
بنت الحصين ـ ٦٦ .
بهيسة بنت أوس ـ ١١٣، ١٧٠، ١٨٥، ٢٣٩ .
البهيم (بَنُو) ١٨١ .
بيرون ـ ٢٥ .
بيكن ـ ٢٥ .
تأبط شرا ـ ٦٠ ، ١٤١ ، ١٥١، ١٥٢ ، ١٥٥ ، ١٦٥ .
تدمر ـ ٦٥ .
تراجان ـ ٢٠ .
تغلب (بَنُو) ٢٥٤، ٢٧٧، ٢٩٩، ٣٠٠
تماضر زوجة زهير ـ ٢٩٣ .
تماضر زوجة علباء ـ ١٥٩ .
تماضر زوجة النمر ـ ١٥٢ .
تميم (بَنُو) ٧، ١٥، ٢٢٤، ٢٢٥ ، ٢٣٠ ، ٢٦٣ ، ٢٨١ .
التوراة ـ ٢٦٦ .
تهامة ـ ٣ ، ١٨ ، ٢١ ، ٢٢ .
تيتس ـ ٣٤ .
تولستوى ـ ١٣٩ .
تيماء ـ ١٩ ، ٢٦٧ .

ثعلبة - ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١٥ .
ثقيف (بنو) ٢٨٢ .
ثمود - ٣ ، ٢٦ .
الثموديون - ٢٠ .
الجاحظ - ٣٨ ، ٤٥ .
جاندارك - ٥٦ .
جبلة (شعب) ٢٧٩ .
جبلة ابن الايهم - ٢٦٩ ، ٢٧٠ .
جحد بن ضبيعة - ٧٤ ، ٢١٩ .
جحوش الخفاجي - ٣٠٨ .
جدة - ٢١ .
جديس - ٢٢ .
جذام - ٢١ .
جذيمة - ٢٨٣ .
جران العود ٧٩ ، ٢٧٢ .
الجرعاء - ٢٢ .
جزيرة العرب - ٣ ، ٤ ٥ .
جستنيان ٣٣ .
جساس بن مرة - ٥٧ ، ٧٢ ، ٢٠١ ، ٢٧٧ ، ٢٩١ ، ٣٠٠ ، ٣٠١ ، ٣٠٢ ،
جشم (بنو) ٣٠٦ .
جعفر بن أبي طالب - ٦ .
جليلة أخت جساس - ٥٧ ، ٧٢ ، ١٧٨ ، ٢٠١ ، ٢٧٧ ، ٢٩١ ، ٢٩٩ ، ٣٠٠ ، ٣٠١ .
جميلة (مولاة سليم) ٢٧١ .
جنوب أخت عمرو - ٢٥٤ ، ٢٨١ ، ٢٩٢ ، ٢٩٤ .
جنوب بنت محسن الجعدى - ١٢٣ .
جوته - ١٨٥ .
جورج برد - ٢٥ .
جورج الرابع - ٢٥ .
جستان لوبون - ٣٠ ، ١٤٦ .
الجوف - ١٩ .
جولدزيهر - ١٦٢ .
جوّ - ٢٢ .
جيمز - ١٨٧ ، ١٨٨ .
حائل - ٤ .
حاتم الطائى - ٦١ ، ٦٢ ، ٨٣ ، ١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٧٠ ، ١٨٢ ، ١٩٧ ، ٢٠٦ ، ٢٥٢ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٢٦٢ .
الحاجز الاسدى - ٢٨١ .
الحادرة - ١٨٤ .
الحارث بن الابرص - ١٨١ .
الحارث بن التوأم - ٢٠٢ .
الحارث بن سليل - ١٦٥ .
الحارث بن ظالم - ٧١ ، ٢٦٩ .
الحارث بن عباد - ٢١٣ ، ٢٢٠ .
الحارث بن عمرو - ٢٢٥ .
الحارث بن عوف - ١٦٩ ، ١٧٠ ، ٢٣٨ .
الحبشة - ٣٤ ، ٨٢ .
حبيب - ٣٠٨ .
حجر - ٢٢ .
الحجاز - ٣ ، ١٥ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ .
حذيفة - ٦٧ ، ٢٧٨ .

الحرار ـ ١٩ ٠
حزقيل ـ ٣٧ ٠
حسان بن ثابت ـ ٢٦٩ ، ٢٨١ ٠
حسمى ـ ٢١ ٠
الحصين بن حمام ـ ٢٥٥ ٠
الحضر ـ ٢٣٤ ٠
حضرموت ـ ١٥ ، ١٩ ، ٢١ ٠
الحضرميون ـ ٢٠ ٠
حطان بن المعلى ـ ٢١٧ ٠
الحطيئة ـ ٦٥ ، ١٤٨ ، ١٦٩ ، ٢١٠
حلب ـ ١٠٢ ٠
حليمة ـ ٦٥ ٠
حمورابى ـ ٣٢ ٠
الحميريون ـ ٢٠ ٠
حنظلة بن ثعلبة ـ ٧٢ ٠
حنيفة (بنو) ٢٧٦ ٠
الحنيفية ـ ٧ ، ٨ ٠
حوران ـ ٣٠ ٠
الحوفزان ـ ٧٢ ٠
الحيرة ـ ١٥ ، ٢٠ ، ٣٢ ، ٣٤ ، ٦٧ ، ٢٠٦ ، ٢٧٠ ، ٢٧١ ، ٢٨٣ ٠
خالد بن جعفر ـ ٧١ ٠
خالدة بنت هاشم ـ ٢٨١ ، ٢٨٢ ٠
الخبتين ـ ٤ ٠
خداش بن زهير ـ ١٠١ ٠
خدام الخزاعى ـ ٢٥٨ ٠
خديجة ـ ٦١ ٠
الخرنق ـ ٢٩٠ ، ٢٩٨ ٠
الخزرج ـ ٢٤٣ ، ٢٧١ ٠
خفاف بن ندبة ـ ٢٥٩ ، ٢٦٦ ٠
خليدة ٢٦٥ ٠
خماعة بنت عون ـ ٥٥ ٠
خندف (بنو) ٢٨١ ، ٢٩٥ ٠
الخندق ـ ٣٠٦ ٠
الخنساء ـ ٥٧ ، ١٦٥ ، ١٧٦ ، ٢٨١ ، ٢٨٧ ، ٢٨٨ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٢٩١ ، ٢٩٦ ، ٣٠٦ ، ٣١٢ ٠
الخنساء بنت أبى سلمى ـ ٣٠٩ ٠
الخنساء بنت النيحان ـ ٣٠٨ ٠
خولة ـ ١٢٥ ٠
خويلد بن مرة الهذلى ـ ٧٦ ٠
خيبر ـ ٣٤ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ٠
داحس ـ ١٤٩ ، ١٩٤ ، ٢٧٨ ٠
دارم (بنو) ١٢ ٠
دارون ـ ٢٣٠ ٠
دختنوس بنت لقيط ـ ٢٧٩ ، ٢٩٥ ، ٢٩٩ ٠
دريد بن الصمة : ١١٣ ، ١٤٥ ، ١٥٠ ، ١٥٩ ، ١٦٥ ، ١٦٩ ، ٢٠١ ، ٢٥٢ ، ٢٥٧ ، ٢٦٢ ، ٢٨٠ ٠
دوامسيس ـ ١٤٧ ٠
دوماس ـ ٣٠ ٠
الدهناء ـ ١٩ ٠
ديغو ـ ٢٥ ٠
ديكنز ـ ٢٥ ٠
ذبيان (بنو) ٢٢٠ ٠

ذؤاب بن أسماء – ٢٠١ .
ذو الاصبع العدوانى – ٥٣ ، ١٥٠ ، ١٨١ ، ١٣٣ ، ١٣٩ ، ٢٦٤ .
ذو حرض (واد) ٢٨٣ .
ذو المجاسد اليشكرى – ٦١ ، ٢١٨ .
ذى قار – ٦٧ ، ٧٢ .
ربيع (بنو) ٧٢ .
الربيع بن زياد – ١٩٣ ، ٢٠٩ ، ٢٨٧ .
ربيعة (بنو) ٣٤ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٣٤ ، ٢٨٠ .
الرسول الاعظم – ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٧٠ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢٩١ .
رقاش – ٢٨٣ .
الرمة (واد) ٢٢ .
الرمق بن زيد الخزرجى – ٨٧ .
رميم بنت احمد السعدية – ٢٢٤ .
روحى الخالدى – ٤٧ .
الروم – ٥ ، ٨٢ .
الرومان – ١٤٠ ، ٢٢٧ .
ريحانة بنت معد يكرب – ٢٠١ .
ريطة بنت خذل الطعان ١٦٩ ، ٢٨٠ .
ريطة بنت عاصم – ٢٧٩ ، ٢٨٠ .
ريمان – ١١ .
الزباء بنت علقمة الطائى – ٦٠ ، ١٦٥ .
الزبرقا بن بدر – ٦٥ ، ١٩٩ ، ٣٠٥ .
زبيبة – ٢٤٨ .
زبيد (بَنُو) ٢٠١ .
زمزم – ٢٢٧ .
زنوبيا – ٥٦ .
زهير بن جذيمة – ٢٦٣ ، ٢٩٣ .
زهير بن جناب – ١٧٩ ، ٢٢١ ، ٢٥٤ ، ٢٥٧ ، ٢٦٦ .
زهير بن ابى سلمى – ٤ ، ٨ ، ٨٤ ، ١١١ ، ١٩٢ .
زوجة ابى حمزة الضبى – ١٧٦ .
زولا – ١٣٩ .
زياد – ١٩٥ .
زياد (بنو) ٢٠٩ ، ٢١٠ .
زياد بن واصل السلمى – ١٩٦ .
زيد – ٢٠٧ .
زيد بن مية – ٣٠٦ .
زيد الخيل – ٢٥٥ .
زيد بن عمرو بن نفيل – ٨ .
زينب بنت الرسول (ص) ١٦٩ .
زينب بنت مالك – ٢٨٠ .
سارة القرضية – ٢٨٣ .
الساطرون – ٢٣٥ .
السافلة – ٢١ ، ٢٢ .
سالم بن عبد الله – ٢٤٨ .
سالم بن قحفان العبدى – ١٥٨ ، ٢٩٥ .
السبئيون – ٢٠ .
سبيعة بنت الاحب – ٣٥ .
سبيعة بنت عبد شمس – ٥٦ ، ٢٨٢ .
سترابو – ٢٧ ، ٢٨ ، ١٦٤ .
ستوبارت – ٥٦ .

سحيم - ١٣٦ ، ١٣٨ .
سدوس - ٢٢ .
سراة (جبال) ١٨ .
سعد (بنو) ٧٢ ، ٢٢٤ .
سعد بن ابى وقاص - ١٩٩ .
سعد بن قرط - ٣٠٧ .
سعدى الاسدية - ٣٠٩ .
سعر - ١٩٥ .
سلامان (بنو) ٢٣٥ ، ٢٣٦ .
سلامة بن جندل - ١١٠ ، ١١٣ ، ١٥٠ ، ٢٣٥ .
سلمى أم عبد المطلب - ٦٠ .
سلمى بنت عمرو بن زيد - ١٧٤ .
سلمى بنت الاسود - ٢٣٥ .
سلمى بنت الخرشب - ١٩٣ .
سلمى بنت مهلهل - ٢٧٨ .
السليك بن سلكة - ٥٥، ٢٠٩، ٢١٥، ٢١٦، ٢٤٧، ٢٤٩ ، ٢٦٢، ٢٧٣ .
سليم - ٢٧١ ، ٢٨٠ .
سليمان - ٥٦ .
سليمى بن ربيعة - ٧٩ .
السماوة - ٢٠ .
سمث - ٣٠ ، ٣٣ ، ١٦١ ، ١٨٨ ، ١٩٠ ، ١٩٢ ، ٢٦٧ .
سمنة - ٢٣ .
السميدع - ٥٦ .
سولون - ٣١ ، ٣٢ .
سويد بن ابى كاهل - ١٣٤ ، ١٥٠ .
سهل (بنو) ٢٨٠ .
سهل بن عمرو - ١٦٥ ، ٢٣٨ .
سهم (بنو) ٢٨٠ .
سواع - ٧ .
سويد بن عامر المصطلقى - ٨ .
سيدو - ٢٣ .
سيناء - ٢٠ .
الشام - ٣ ، ١٤ ، ١٥ ، ١٨ ، ٥١، ٥٧ ، ٨٢ ، ٨٥ .
شداد - ٢٤٨ .
شذرة - ٦٥ .
الشريشى - ٢٨٨ .
شعيب - ٢٦ .
شقيق بن سليك - ٢٤٧ .
الشماخ الذبيانى - ١٧٩ .
شمر - ١٩ .
الشنفرى الازدى - ٧١ ، ١٤١ ، ١٤٣ ، ١٤٨، ١٦٨، ٢٣٥ ، ٢٣٦.
الشهب - ٤ .
شيبان (بنو) ٢٠١ .
شيلى - ٢٥ .
صخر أخو الخنساء - ٢٠٧ ، ٢٨٨ ، ٢٨٩ ، ٢٩٦ .
صخرة بنت اسماء - ٢٥٩ .
صعدة - ٦٨ .
صعصعة - ٢٢٨ ، ٢٢٩ .
صفوان بن امية - ٢٥٣ .
صفية بنت عبد المطلب - ٢٨٢ .

صفية بنت عمرو الباهلي - ٢٩٠ .
صفية بنت مسافر - ٢٨٢ .
الصين - ٢٢٦ .
ضاحية الهلالية - ٣٠٨ .
ضرار بن الخطاب - ٥٦ .
ضريب بن الحرب - ٧٣ .
ضمرة بن ضمرة النهشلي - ١٥٧
الطائف - ٢١ ، ٢٣ ، ٢٥٠ .
طه حسين - ٤٤، ٤٥، ٤٦، ٤٧، ٥٠
الطبري - ٢٦٨ .
طرفة بن العبد - ٤، ٥١ ، ٥٧، ٧٣،
٨٠ ، ٩٠ ١٠٦ ، ١٢٥ ، ١٢٨ ،
١٢٩ ، ١٣٣، ١٣٦، ٢١٩، ٢٤٩،
٢٥٢ ، ٢٥٣، ٢٦٢، ٢٦٥، ٢٧٣.
طروادة - ٥٢ ، ٢٥٥ .
طسم - ٢٢ .
طفيل الغنوى - ١١٥ .
طى (بنو) ٥٦ .
ظفار - ٢١ .
عاتكة ام هاشم - ٦٠ .
عاتكة بنت زيد بن عمرو - ١٧٤ ،
٢٩٠ ، ٢٩٣ .
عاتكة بنت عبد المطلب - ٢٩٨ .
عاتكة بنت مرة - ١٧٠ ، ١٧٤ .
عاد - ٣ ، ٢٦ .
عاقل - ٤ .
عامر (بنو) ٦٨ ، ٧٧ ، ١٩٦ ، ٢٢٩،
٢٤٢ ، ٢٦٣ ، ٢٧٩ .
عامر بن جشم - ٦١ .
عامر بن الطفيل - ٧٤، ١٧٥، ١٨٤،
٢٥٦ .
عنه - ١٠٢ .
العباس بن مرداس - ٢٥٧ ، ٢٥٩ ،
٢٦٦ .
عبد الله بن ابى - ٢٦٨ .
عبد شمس - ٢٨٢ .
عبد الله بن ابى بكر - ١٧٤ .
عبد الله بن جدعان - ٢٦٧ ، ٢٧٠ ،
٢٧١ .
عبد الله بن حسان - ٢٦٩ .
عبد الله بن رواحة - ٢٤٣ ، ٢٤٤ .
عبد الله بن سلول - ٢٦٨ .
عبد الله بن العباس - ٢٠٥ .
عبد الله بن عبد المطلب - ٢٢٧ .
عبد الله بن عجلان القضاعى - ١٢٣،
١٧٣ ، ١٧٩ .
عبد المطلب بن هاشم - ٦٠ ، ٢٢٧ ،
٢٨٢ ، ٢٩٨ .
عبد مناف - ١٧٠ ، ٢٨٢ .
عبد يغوث - ١٤٤ .
عبد بن الطيب - ٢٦٥ .
العبرانيون - ٧ .
عيسى (بنو) ٢٤٨ ، ٢٧٩ ، ٢٩٣ .
عبلة - ١١١ .
عبيد بن الابرص - ٨٨ ، ١١٣ .
عتبة بن ربيعة - ٢٤٩، ٢٦٧، ٣١٤.

عتبة بن عفيف ـ ٢٠٦ .
العجيف ـ ٢١٠ .
عدنان ـ ٣٧ .
عدنان ـ ٦٧ .
عدى بن زيد العبادى ـ ١٤٧، ١٥٣، ١٨٥ ، ٢٠٦ ، ٢٦٤ ، ٢٧٢ .
العراق ـ ٣ ، ١٤ ، ١٥ ، ٢٢، ٨٢.
عرقوب ـ ١١٥ .
عروة بن مرة الهذلى ـ ٧٦ .
عروة بن الورد ـ ٥٠ ، ٦٠ ، ٧٨ ، ١١٢ ، ١٤٢، ١٤٤ ، ١٤٩، ١٥٠، ١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٧٢، ١٩٨، ٢٠٧، ٢١٠ ، ٢١١، ٢٥٦، ٢٧٣، ٢٧٤ .
العروض ـ ١٥ ، ٢٠ ، ٢١ .
العُزى ـ ٧ .
عفراء بنت حزام ـ ٣١٠ .
العفير ـ ٢٢ .
عفيف بن معد يكرب ـ ٢٥٢ .
عقرب ـ ٢٢٠ .
عقيل (بنو) ٦٦ ، ٢٢١ ، ٢٥٥ .
عقيل بن ابى طالب ـ ٢٠٥ .
عكاظ ـ ٢١٩ ، ٢٩٨ .
علباء بن أريم ـ ٧٠ ، ١٥٩ .
علقمة الفحل ـ ٥٧ ، ٨٠ ، ٨٧ ، ١٠٤ ، ١٠٩، ١١٨، ١١٩، ١٢١، ١٢٥ ، ١٤٣ ، ١٤٥ ، ٢٦٤ .
علي (ع) ٢٧٧ .
علي بن الحسين (ع) ٢٤٨ .
عمان ـ ١٥ ، ١٩ ، ٢١ .
عمر بن أبى ربيعة ـ ١٣٨ .
عمر بن الخطاب ـ ٥ ، ٢٨ ، ١٤٨ ، ١٧٤ .
عمرو ـ ٣٠٢ .
عمرو بن الاطنابة ـ ٢٥٢ .
عمرو بن الاهتم ـ ١٥٦ ، ١٩٩ .
عمرو بن الحارث ـ ١٩١ .
عمرو النهدى ـ ٢٩٤ .
عمرو ذو الكلب الهذلى ـ ٢٥٤، ٢٨١.
عمرو بن عبد ود ـ ٣٠٦ .
عمرو بن عمرو ـ ٦٤ ، ١٨١ .
عمرو بن كلثوم ـ ٦٧ ، ٦٨ ، ٨٦، ٩٢ ، ١٤٣ ، ٢٣١ ، ٢٦٨ .
عمرو بن المشرح ـ ٢٢٤ .
عمرو بن معد يكرب الزبيدى ـ ٦٤ ، ١٢٧ ، ٢٠٥ ، ٣٠٣ .
عمرو بن نفيل ـ ٢٢٩ .
عمرو بن هند ـ ٥٥ ، ٢٠٢ .
عمرو بنت الحباب ـ ٦٧ .
عمرة بنت رواحة ـ ٢٤٣ ، ٢٤٤ .
عمرة بنت عامر بن الظرب ـ ٥٧ .
عمرة بنت علقمة الحارثية ـ ٥٧ .
عميرة بنت ابى سعيد ـ ١٣٨ .
عوف بن كعب ـ ٣٠٦ .
عنترة العبسى ـ ١٢، ٣٨ ، ٥٠، ٥١، ٧٩ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠٢ ، ١٠٧ ، ١٠٩، ١٢٠، ١٢١، ١٢٦،

١٢٩ ، ١٣٠، ١٣٤، ١٤٩، ١٩٣، ٢٤٨ ، ٢٦٤ •
عين اباغ ـ ٢٧٩ •
عوار بن مالك (بنو) ٢١٥ •
الغبراء ـ ١٤٩ ، ١٩٤ ، ٢٧٨ •
غرثان الربعى ـ ٢٩١ •
غزة ـ ١٨١ •
غزوان ـ ٢١ •
غسان ـ ٣٤ •
غسان بن وعلة ـ ١٩٤ •
غطفان (بنو) ١٥ ، ٢٢١ •
غلاق بن مردان ـ ١٩٤ •
الغور ـ ٢١ •
غيلان ـ ١٢ •
فاختة ـ ١٨١ •
فارس ـ ٥ ، ١٤ ، ١٥ ، ٨٢ •
الفارعة بنت شداد ٢٨٠ ، ٢٩٩ •
فاطمة بنت الاحجم ـ ٢٨٢ •
فاطمة بنت أسد ـ ٢٠٥ •
فاطمة بنت الخرشب الانمارية ـ ٦٠، ١٧٤ ، ٢٠٩ •
الفاكه بن المغيرة المخزومى ـ ٢٣٨ ، ٢٤٠ •
الفجار ـ ٦٨ ، ٢٥١ •
فدك ـ ٣٤ •
الفراعنة ـ ٢٢٧ •
الفرزدق ـ ٢٢٨ •
الفرس ـ ٢٦٦ •
فروة بنت مسعود ـ ٢٧٩ •
فريتاج ـ ٢٠٠ •
فكيهة بنت قتادة ـ ٥٥، ٢١٥، ٢١٦
فيلدنج ـ ٢٥ •
القاسم بن محمد ـ ٢٤٨ •
قتادة السدوسى ـ ٦ •
القتال الكلابى ـ ١٩٥ •
قتيلة بنت النضر ـ ٢٧٦، ٢٩١، ٣٠٣•
قحطان ـ ٦٧ •
القدس ـ ٤ ٣•
القرى (واد) ٢١ •
القرآن ـ ٧ •
قرح ـ ٢١ •
قرفة ـ ٦٧ •
قريش ـ ١٤ ، ١٥ ، ٣٥، ٥٧، ٦٨، ٨٧ ، ١٩٥ ، ٢٢٧ ، ٢٣٠، ٢٦٧، ٢٨٢ •
قس بن ساعدة ـ ٨ •
قشير (بنو) ٢٨٠ •
قضاعة ـ ٣٤ •
قطر ـ ٢١ •
القطيف ـ ٢٢ •
قعين (بنو) ٢٩٨ •
القليب ـ ٢٨٢ •
قيس (بنو) ٦٧ ، ٢٣٠، ٢٩٨، ٢٩٩•
قيس بن الاسلت ـ ١٠٦ •
قيس بن ثعلبة ـ ٥٥ •

قيس بن الحدادية - ١٢٨ ، ١٤٢ ، ٢٥١ .
قيس بن الخطيم - ٧٥ ، ١٠٤ ، ١٥٠ ، ٢٣٧ ، ٢٤٣ ، ٢٤٤ .
قيس ذى الجدين - ٢٤٠ .
قيس بن زهير - ٢٠٩ ، ٢١٠ .
قيس بن عاصم - ٧٢ ، ١٦٨ ، ١٨٣ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٥٣ .
قيس عيلان (بنو) ٢٨١ .
كأس (جارية) ٢٢٢ .
كهل (بنو) ٢٩٢ .
كبشة اخت عمرو - ٣٠٣ .
كديد (يوم) ٢٧٩ .
كريمر (فون) ١٩٣ .
كسرى - ٧٣ ، ٢٢١ .
كعب (بنو) ٢٥٥ ، ٢٨٢ .
كعب بن زهير - ١٥٤ ، ١٥٧ .
كعب بن سعيد الغنوى - ١١٢ ، ١٤٥ ، ١٤٨ ، ١٥٠ ، ٢٨٤ .
الكعبة - ١٩٤ ، ٢٢٧ .
الكلاب (يوم) ٢٧٩ .
كلب - ٥٧
الكلحبة اليربوعى - ٢٢٢ .
كليب التغلبى - ٢١٩ ، ٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٩٩ ، ٣٠٠ ، ٣٠١ ، ٣٠٢ .
كنانة (بنو) ٦٨ ، ٢١٩ ، ٢٨٢ .
كندة (بنو) ٢٢٥ ، ٢٣٠ .
كوخر - ٩٣ .
كوست - ٣٠
اللات - ٧
لبيد بن ربيعة - ١١٠ ، ١٥٦ ، ١٩١ ، ٢٣٤ ، ٢٦٤ .
لقمان - ٢١٢ .
لقيط بن بكر - ٧٣ .
لقيط بن زرارة - ٢٤٠ ، ٢٧٩ ، ٢٩٥ .
لكيز بن مرة - ٢٢١ ، ٢٩١ .
ليلى - ٢٥٦ .
ليلى بنت الخطيم - ٢٤٤ .
ليلى بنت عفزر - ٢٦٩ ، ٢٧٢
ليلى بنت لكيز (العفيفة) ٢٢١ ، ٢٧٧ ، ٢٩١ .
ليلى بنت مهلهل - ٦٧ ، ٢٣١ .
مأرب - ٢٠ .
ماء السماء - ٥٥ .
مارية بنت نهشل - ٢٠٠ .
مازن - ٦٨ ، ٣٠٩ .
مالك - ٢٩٨ .
مالك بن بدر - ٢٧٨ .
مالك بن زهير العبسى - ٢٩٣ .
مالك بن الصمصامة - ١٢٣ .
ماوية - ٤ .
ماوية زوجة حاتم - ١٨٢ ، ٢٦٢
ماوية بنت الجعيد - ١٧٤ .
المبرد - ٢٢٩ .
المتجردة - ١٤٦ ، ٢٧١ .

المتلمس – ١٠٧ ، ٢٠٢ .
المتنبى – ١٢٥ .
المثقب العبدى – ٨٠ ، ١١٥ ، ١٣٢ .
المثلم بن رياح المرىّ – ١٥٧ .
المجمع الهلالى – ٢٥٩ ، ٢٦٠ .
المجوس – ٧ .
محمد بن حبيب – ١٦١ ، ٢٣٧ .
محمد بن سعيد – ٢٦٨ .
محمد على (مولانا) ١٥ .
المخبل السعدى – ١٥٦ .
المدينة – ١٥ ، ٢٢٦ ، ٢٤٤ ٢٥٠ ، ٢٦٧ ، ٢٧١ ، ٢٨٣ .
المرار بن سعيد – ١٠٨ ، ١٠٩ .
المرار بن منقذ – ٧٩ ، ٨٦، ٩٦، ٩٧، ٩٨ ، ١٠٤ ، ٢١٣ .
مرة بن محكان – ١٦٨ .
المرقش الاصغر – ١٣٣ .
المرقش الاكبر – ٧١ ، ١٢٢ .
مروان بن زنباع العبسى – ٥٥ .
المزرد – ٩٥ ، ٩٦ .
مسافر بن عمرو – ٢٤٠ .
مسعود بن شداد – ٣١٢ .
مسعود بن معتب – ٢٨٢ .
المسعودى – ٣٧ ، ٢٠٦ .
المسيب بن علس – ٨٠ .
مسيكة – ٢٦٨ .
المشمرخ اليشكرى – ٢٢٤ .
مصر – ٣ ، ١٤ ، ٨٢ ، ٨٥ .
المصريون – ١٤٠ .
مضر – ٢٣٤ .
المطلب (نبو) ٢٧٦ ، ٢٧٧ ، ٣٠٤ .
معاوية بن أبى سفيان – ٢٨٢ ، ٢٩٤
معاوية اخو الخنساء – ١٦٥ ، ٢٩٠.
معاوية بن بكر – ٢٧٠ .
معقل الهذلى – ٢٥٨ .
معن بن اوس – ١٣٢ ، ٢٨٧ .
المعينيون – ٢٠ .
مقيس بن قيس السهمى – ٢٥٣ .
مكة – ١٥ ، ٢١ ، ٣٣، ٣٥ ، ١٧١، ٢٢٦ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠، ٢٦٧، ٢٧٠، ٢٨١ ، ٢٨٢ .
ملاعب الاسنة (عامر بن مالك)٢٨٠
مليكة – ٦٥ .
منى – ٤ .
مناة – ٧ .
المنذر بن ماء السماء – ١٩١ .
المنخل – ٤٦ ، ١٣٦ .
منفوحة – ٢٢ .
منفوسة بنت زيد الخيل – ١٦٨ ، ١٨٣ ، ٢٠٥ .
منقر (بنو) ٧٢ .
مهره – ٢١ .
مهلهل التغلبى – ٧٢ ، ١٦٦ ، ٢١٩، ٢٢٢ ، ٢٢٣، ٢٤١، ٢٧٨، ٢٨٧، ٢٩٧ ، ٣٠٢ .
موسى – ٣١ .

الميدانى ـ ٢٣٠ •
ميلتا ـ ٢٦٦ •
نابغة بنى جعدة ـ ١٩٤ •
النابغة الذبيانى ـ ٦٩ ، ٨٠ ، ٩٣ ، ١٠١ ، ١٠٧ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٤٦ ، ٢٢٠ ، ٢٥٢ ، ٢٦٣ ، ٢٧١ ، ٢٧٢ ، ٢٨١ •
تابليون ـ ٦٧
ناجية بنت ضمضم ـ ٢٧٨ ، ٢٩٠ ، ٢٩٦ •
نبيط (بنو) ٢٦٩ •
نبيه بن الحجاج ـ ٥٨ •
النجار (بنو) ٧٦ •
نجد ـ ٣ ، ١٥ ، ٢٠ ، ٢٢ •
النجف ـ ٢٠
نزار (بنو) ٢٨٠ •
نسر ـ ٧ •
النضر بن الحارث ـ ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢٧٦ ، ٢٩١ •
النعمان ـ ٥٦ ، ٦٧ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٩١ ، ٢٠٦ ، ٢٤٠ ، ٢٦٦ ، ٢٧٠ ، ٢٧١ •
النعمان بن وائل ـ ٢٢٠ •
نفر ـ ١١٣ •
النفوذ ـ ١٩ •
النمر بن تولب ـ ٨٢ ، ١٥٢ ، ٢١٤ •
نوار ـ ١٥٦ •
نولدكه ـ ٤٦ ، ٤٧ ، ١٨٨ ، ١٨٩ •
النويرى ـ ٢٢٥ •
هاشم (بنو) ٣٠٤ ، ٣٠٦ •
هامرتن ـ ٢٥ •
هانىء بن مسعود ـ ٥٦ •
هذيل (بنو) ١٥ ، ١٥١ ، ٢٣٠ •
هريرة ـ ٢٦٥ •
هل ـ ٢٢
هلال (بنو) ١٩٥ •
همام بن مرة ـ ٢٧٨ •
هند ـ ٥٧ ، ٨٢ ، ٨٥ ، ٨٩ •
هند بنت عتبة (ام معاوية) ١٦٥ ، ٢٣٨ ، ٢٤٠ ، ٢٧٦ ، ٢٨٢ ، ٢٩٤ ، ٣٠٤ ، ٣١٤ •
هند بنت معبد ـ ٢٢٢ ، ٢٧٩ •
هند زوجة المنذر ـ ١٩١ •
هند النهدية ـ ١٧٩ •
هنيده بنت صعصعة ـ ٦٥ •
الهنود ـ ٢٦٦
هوازن ـ ١٥ ، ٦٨ ، ٢٥٧ ٢٧٩ •
هيثم ـ ١٩٥ •
هيرودوتس ـ ٣٥ ، ٣٦ ، ٢٦٦ •
هيلين ـ ٥٢ ، ٢٥٥ •
هيوارت ـ ٣٥ •
وائل (بنو) ٢٣٠ •
واد نكتون ـ ٥٦
وجيهة بنت أوس ـ ٣٠٩ •
وقدان ـ ٣٠٢ •

ولكن - ١٦٠، ١٨٩، ١٩٠، ٢٢٨ .
وليم الرابع - ٢٥ .
وهيبة بنت عبد العزى - ٣٠٦ .
يثرب (المدينة) ١١٥
يزيد بن عبد المدان - ٢٥٧ ، ٢٨٠ .
يشكر (بنو) ٢٠٢ .
يعقوب - ٢٦ .
يغوث - ٧ .
اليمامة - ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ .
اليمن - ٣ ، ٧ ، ١٥ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢١ ، ٣٤ ، ٣٦ ، ٤٦ ، ٨٢ ، ٨٥ ، ٢٤١ .
اليونان - ٢٠ ، ١٤١ ، ٢٢٧ ، ٢٥٥ ، ٢٢٦ .

المراجع

أ - العربيـــــة

آدم متز	الحضارة الاسلامية	الترجمةوالنشر ٤٧-٩٤٨م
الآمدى	المؤتلف والمختلف	القدسى ١٣٥٤هـ
ابن أبى اصيبعة	عيون الانباء	الوهبية ١٨٨٣٠م
ابن الاثير	الكامل	ليدن ١٨٧١م
ابن الاثير	أسد الغابة	مصر ١٢٨٠ - ١٢٨٦هـ
ابن الاثير	جامع الاصول	
ابن الانبارى	شرح المفضليات	التقدم ١٩٠٦م
ابن جرير الطبرى	تاريخ الرسل والملوك	بريل ٨٣ - ١٨٨٥م
ابن جرير	تفسير القرآن	بولاق ١٣٢٣هـ
ابن حجر	الاصابة	التجارية بمصر ١٩٣٩م
ابن حزم	طوق الحمامة	ليدن ١٩١٤م
ابن خلدون	المقدمة	التقدم ١٣٢٢هـ
ابن خلكان	وفيات الاعيان	مصر ١٢٩٩هـ
ابن رشيق	العمدة	السعادة ١٩٠٧م
ابن سلام	طبقات الشعراء	ليدن ١٩١٣م
ابن الشجرى	الحماسة	حيدر أباد ١٣٤٥هـ
ابن طيفور	بلاغات النساء	مصر ١٩٠٨م
ابن عبد البر	الاستيعاب	التجارية بمصر ١٩٣٩م
ابن عبد ربه	العقد الفريد	بولاق ١٣٠٢هـ
ابن الفارض	ديوانه	بيروت ١٨٨٨م
ابن قتيبة	عيون الاخبار	دار الكتب ١٩٢٥م

ابن قتيبة	الشعر والشعراء	الخانجى ١٣٢٢هـ
ابن قيم الجوزية	أخبار النساء	التقدم ١٣١٩هـ
ابن الكلبى	الاصنام	دار الكتب ١٩٢٤م
ابن منظور	لسان العرب	بولاق ١٣٠٧هـ
ابن النديم	الفهرست	الرحمانية ١٣٤٨هـ
ابن هشام	السيرة النبوية	جوتنجن ١٨٦٠م
أبو حاتم	المعمرين	الخانجى ١٩٠٩م
أبو داود	السنن	
أبو ذؤيب الهذلى	ديوانه	دار الكتب ١٩٤٥
أبو زيد القرشى	الجمهرة	بولاق ١٣٠٨
أبو سعيدالسكرى	أشعار الهذليين	لندن ١٨٥٤م
أبو الفداء	المختصر	الحسينية ١٣٢٥هـ
أبو الفرج	الاغانى	الساسى ـ التقدم
أبو محجن	ديوانه	لدونج ، بتافون ١٨٨٧م
أبو هلال العسكرى	جمهرة الامثال	
الابهيشى	المستطرف	البابى الحلبى مصر
أحمد أمين	فجر الاسلام	الاعتماد ١٩٢٨م
أحمد أمين	ضحى الاسلام	التأليف والترجمة ١٩٣٥م
أحمد خاكى	المرأ فى مختلف العصور	مصر ١٩٤٧م
أدى شير	تاريخ كلدو وآشور	اليسوعيين
الاسود بن يعفر	ديوانه	
الاعشى ميمون	ديوانه ـ الصبح المنير فى شعر أبى بصير	أدلف هلز هوش ببانه ١٩٢٧ ـ ١٩٢٨م
افلاطون	الجمهورية	المقتطف ١٩٢٩م
الافوه الاودى	ديوانه ـ مع الطرائف	التأليف والترجمة ١٩٣٧م

الالوسى	بلوغ الارب	الرحمانية ١٩٢٤م
الالوسى	روح المعانى	الاميرية ١٣٠٠هـ
أمرؤ القيس	ديوانه	التقدم ١٣٢٣هـ
أمير على (السيد)	مركز المرأة فى الاسلام	الياس زخورا ١٩١٢م
أمية بن أبى الصلت	ديوانه	ليبزج ١٩١١م
أهل وارت	العقد الثمين	لندن ١٨٧٠م
أوس بن حجر	ديوانه(نشر ردولف جبير)	فينا ١٨٩٢م
البحترى	الحماسة	بيروت ١٩٠٩م
البخارى	صحيحه ـ شرح القسطلانى	بولاق ١٣٠٤هـ
البرقوقى (عبدالرحمن)	دولة النساء	مصر ١٩٤٥م
البستانى (كرم)	النساء العربيات	صادر بيروت
بشير يموت	شاعرات العرب	الاهلية ١٩٣٤
البكرى	معجم ما استعجم	جوتنجن ٧٦ ـ ١٩٧٧م
البكرى	أراجيز العرب	مصر ١٣١٣هـ
البيضاوى	أنوار التنزيل	الخيرية ٩٦١هـ
بيفان (انتونى)	النقائض	ليدن ١٩٠٨ ـ ١٢م
	تراث الاسلام	الترجمة والنشر ١٩٣٦م
جان أمل ريك	مركز المرأة فى قانون حمورابى	العصرية ـ مصر
الجاحظ	البيان والتبيين	التجارية ١٩٣٢م
الجاحظ	الحيوان	الحميدية ١٣٢٣م
الجاحظ	ثلاث رسائل ـ الرسالة الثانية	ليدن
الجرجانى	الوساطة بين المتنبى وخصومه	صيدا ١٣٣١هـ

جعفر الحلى	المختصر النافع	دار الكتاب
جعفر العلوى	مواسم الادب	مصر ١٣٢٦هـ
جورج حداد	المدخل الى تاريخ الحضارة	
جورجى زيدان	تاريخ آداب اللغة العربية	الهلال ١٩٢٤م
جورجى زيدان	تاريخ العرب قبل الاسلام	الهلال
جوستان لوبون	حضارة العرب	الحلبى ١٩٢٤ - ٢٥م
جون هامرتن	تاريخ العالم	وزارة المعارف المصرية
جونسون	المعلقات السبع	لندن ١٨٩٤م
حافظ وهبة	جزيرة العرب	التأليف والترجمة ١٩٤٦م
حبيب الزيّات	المرأة فى الجاهلية	الفجالة ١٨٩٩م
حتى (فليب)	تاريخ العرب	بيروت ١٩٤٦م
حسن ابراهيم حسن	تاريخ الاسلام السياسى	حجازى ١٩٣٥م
حسين فوزى	المرأة وآراء الفلاسفة	مصر ١٩٢٥م
الحصرى	زهر الآداب	الرحمانية ١٩٢٥م
حمزة فتح الله	باكورة الكلام على حقوق المرأة	بولاق ١٣٠٨م
الخنساء	أنيس الجلساء	اليسوعيين ١٨٩٦
	دائرة المعارف الاسلامية	
داود الانطاكى	تزيين الاسواق	بولاق ١٢٩١م
روحى الخالدى	علم الادب	مصر ١٩٠٤م
الزبيدى	تاج العروس	مصر ١٣٠٧هـ
الزمخشرى	المفصل	حجازى - مصر
زهير بن أبى سلمى	ديوانه (مع شرح الاعلم)	التجارية - مصر
زهير بن أبى سلمى	ديوانه (مع شرح ثعلب)	دار الكتب ١٩٤٤م
زينب فواز	الدر المنثور	بولاق ١٣١٢هـ

سحيم	ديوانه	مخطوط
السرخسى	المبسوط	السعادة
سعيد أفغانى	الاسلام والمرأة	
سلامة بن جندل	ديوانه	الجوائب ١٣٠٠هـ
السيرافى	أخبار النحويين البصريين	الكاثوليكية ١٩٣٦م
السيوطى	المزهر	السعادة ١٣٢٦هـ
الشريشى	شرح المقامات الحريرية	مصر ١٣٠٠هـ
الشريف المرتضى	الشهاب فى الشيب والشباب	الجوائب ١٣٠٢هـ
الشماخ	ديوانه	السعادة ١٣٢٧هـ
الشنفرى	ديوانه (ضمن الطرائف)	الترجمة والنشر ١٩٣٧م
الشهرستانى	الملل والنحل	الادبية ١٣١٧هـ
الصفدى	الغيث المسجم	الازهر ١٣٠٥هـ
الضبى	المفضليات	ليبزج ١٨٨٥م
الطبرى	تفسيره	المطبعة الميمنية ١٣٢١هـ
طه حسين	فى الادب الجاهلى	الاعتماد ١٩٢٧م
طرفة بن العبد	ديوانه (مع شرح الاعلم)	شالون ١٩٠٠م
طفيل الغنوى	ديوانه (رواية أبى حاتم)	لندن ١٩٢٧م
عباس العقاد	هذه الشجرة	دار سعد مصر
عبدالرزاق السنهورى	اصول القانون	مصر ١٩٤١م
عبدالعزيز الميمنى	الطرائف الادبية	لجنة التأليف ١٩٣٧م
عبدالقادر البغدادى	خزانة الادب	بولاق ١٢٩٩م
عبدالله عفيفى	المرأة العربية	مصر ١٩٢١م
عبدالوهاب خلاف	أحكام الاحوال الشخصية	مصر ١٩٣٨م
عروة بن الورد	ديوانه (جمع وشرح ابن السكيت)	مصر ١٢٩٣هـ

علقمة الفحل	ديوانه	الجزائر ١٩٢٥م
على بدوى	أبحاث التاريخ العام للقانون	مصر ١٩٤٧م
عنترة العبسى	ديوانه	الرحمانية بمصر
العينى	عمدة القارى	مصر ١٩٥٧
الفخر الرازى	تفسيره	العامرية ١٣٠٨هـ
فردريك أنجل	أصل العائلة	بغداد ١٩٤٥م
	القرآن الكريم	
الفيروز أبادى	قاموس المحيط	القاهرة ١٩٣٥م
قيس بن الخطيم	ديوانه	ليبزج ١٩١٤م
كعب بن زهير	ديوانه	الجزائر ١٩١٠م
لبيد بن ربيعة	ديوانه (نشره هابر)	ليدن ١٨٩١م
لويس شيخو	شعراء النصرانية	اليسوعيين ١٩٢٠م
لويس شيخو	رياض الادب	اليسوعيين ١٨٨٧م
مارسيل تينر	تاريخ الحب	مصر ١٩٣٧م
الماوردى	منهاج اليقين	
المبرد	الكامل فى الادب	ليبزج ١٨٧٤م
المتلمس	ديوانه (ر٠ دولار)	ليبزج ١٩٠٣م
المتنبى	ديوانه	الرحمانية ١٩٣٠م
محمد البندارى	المرأة ومركزاها القانونى	النوكل ١٩٤٤م
محمد بن حبيب	المحبر	حيدر أباد ١٩٤٢م
محمد بن شاكر	فواة الوفيات	مصر ١٢٩٩م
محمد جميل بيهم	المرأة فى التاريخ	بيروت ١٩٢١م
محمد بن سليمان	كتاب الزهرة	اليسوعيين ١٩٣٢م
محمد عابد السندى	تيسير الوصول	
محمد فريد وجدى	دائرة المعارف	القرن العشرين

محمد كمال الادهمى	مرآة النساء	المحمودية مصر
محمد نعمان الجارم	ديانات العرب فى الجاهلية	السعادة ١٩٢٣م
المسعودى	مروج الذهب	البهية ١٣٤٦هـ
مسلم	صحيحه	
المعرى	سقط الزند (شرح التنوير)	التجارية ١٣٥٨هـ
الميدانى	مجمع الامثال	بولاق ١٢٨٤هـ
النابغة الجعدى	ديوانه	
النابغة الذبيانى	ديوانه (التوضيح والتبيان)	السعادة مصر
النويرى	نهاية الارب	دار الكتب ١٩٢٩م
وليم بن الورد	الاصمعيات	برلين ١٩٠٢م
ولكن	الامومة عند العرب	كازان ١٩٠٣م
ياقوت	معجم البلدان	السعادة ١٩٠٠م
اليعقوبى	تاريخ اليعقوبى	النجف ١٣٥٨هـ
يوسف غنيمة	تاريخ الحيرة	بغداد ١٩٣٦م

ب - الافرنجيـــة

1. Abdul Rahim (Sir): Muhamed Jurisprudence.
2. Able (Ludwing): Dis Sieben Muallakat, Berlin 1891.
3. Blunt (W.S.): Seven Golden Odes of Paga Arabia, London 1903.
4. Bro n: A Literary History of Persia, Cambridge, 1929.
5. Bugh: Dictionary of Islam, London 1885.
6. Bukhsh (S.Kh.): Contributions To The History of Islam Givilization, Calcutta Uni. 1930.
7. Burckhardt: Travels in Arabia. London 1829.
8. Bushnell (Horace): Sermons For The New Life, 1858.
9. Gambridge: Medival History, Gambridge, 1922—1929.
10. Chiragh Ali: Reformes Under Muslim Rules.
11. Doumas (E.): La Vie Arabe et La Société Musulmane, Paris, 1864.
12. Doughty (Gharles M.): Travels in Arabia Deserta, Cambridge, 188.
13. Ellis (H.H.): Studies in The Psycology of Sex, London 1899.
14. Encyclopaedia of the Bible.
15. Encyclopaedia Britanica.
16. Encyclopaedia of Riligion.
17. Encyclopaedia of Social Science, Seligman, 1935.
18. Fahmy (M.): La Condition de La Femme, de la Tradition et L'Evolition de L'Islam, Paris 1913.

19. Fereytaz: Einleitung in das Studium du Arabishe.
20. Fison & Howitt: Kamilaris & Kunari.
21. Frazer(Sir James George): The Golden Bough, England 1890.
22. Genunge (G.F.): The Working Principles of Rhetoric, Bosten 1901.
23. Goldziher : Muhammedaniche Studien, Max Niemeyer 1889.
24. Ghulam Ahmed: The Trading of Islam, London 1921.
25. Hell (J.): Die Kultur der Araber, Leipzig 1919.
26. Historians History of The Wold, London 1907.
27. Huart (G.L.): Histoir Des Arabes. Paris 1913.
28. Hughes (T.P.): Dictionary of Islam, London 1935.
29. Huzayyin (S.A.): Arabia & The Far East, Egypt 1942.
30. Johnson (F.E.): The Seven Poemes. London 1894.
31. James (V.R. & L. Bevan): Woman in Islam, lucknow 1941.
32. Kremer (Von): Gontribution of The History of Islam, Calcutta 1905.
33. Lammens (P.H.): L'Islam, Groyance et Institutions, Beyrouth 1926.
34. Lane (E.W.): Arabia Society in The Middle Ages, London 1883.
35. Lane-Pool (S.) Studies in A Mosque, Remington 1893.
36. La Tourneau: La Condition de La Femme.
37. Lennan (Mac.): Studies in The Ancient History, Primitive Marriage.
38. Levey: Sociology of Islam.

39. Lichtenstadter (I.): Woman in The Aiyan Al-Arab. London 1935.
40. Lyall: Ancient Arabian Poetry, Calcutta 1894.
41. M. de S,: Résumé de L'Histoir des Traditions Morales et Religeuses.
42. Max Partol: Naturvolker.
43. Maurois (André): Sept Visages de L'Amour, New York 1944.
44. Mill: Dissertations & Discussions.
45. Mohammad Aly (M.): Mohammed The Prophet, Lahore 1933.
46. Morgoliouth: Mohommed Doctrine.
47. Muir (sir W.T.): The Life of Mohammed, Edinburgh 1912.
48. Murry (J.M.): Adam & Eve, London 1943.
49. Nicholoson (R.A.): A Literary History of The Arabes, Cambridge 1941.
50. Noldeke (TH.): Geschichte der Perser Und Araber etc. Zur Zeit der Sassanichen.
51. O'Leary: Arabia Befory Mohomed, London 1927.
52. Perceval (Caussin de A.P.): Essai Sur L'Histoiry des Arabes AvantL'Islamisme, Pendant L'Epoque de Mohamet 1849.
53. Perron (Dr. M.): Femme Arabe, Paris 1858.
54. Rechard (G.): La Femme dan L'Histoir.
55. Rosler: La Gondition Femministe.
56. Scholl (J.CH.): L'Islam & Son Foundrteur Neuchatel 1874.
57. Sédillot (L.B.): Histoire Generale Des Arabes, Paris 1877.

58. Sell (R.C.): The Life of Mohammed, India 1913.
5 . Shah (S.I.A.): Mohamed The Prophet, London.
60. Sloane (W.G.N.): The Poet Labid, Leipzig 1877.
61. Smith (R.) Kinship & Marriage In Old Arabia London 1907.
62. Spencer: Woman's Share In The Social Gulture, London.
63. Stobart (J.W.H.): Islam & it's Founder, London 1876.
64. Thomson: Samitic Magic.
65. Traver (Albert A.): History of Ancient Civilisa tion.
66. Wellhausen: Mohamed in Madina, Berlin 1882.
67. Word (Lester F.): Pure Sociology.

فهرست الموضوعات

الصفحة

المقدمة :

بيان الموضوع وسبب اختياره وجدواه • ما يصح ان يكون مصدرا لدراسة حياة المرأة فى العصر الجاهلى • الشعر من أوثق المصادر وأهمها • المراجع الاخرى التى اضطررنا الى الاعتماد عليها • أ ـ و

التمهيد :

(١) قصور الدراسات التاريخية للعصر الجاهلى وأسبابه : ١ ـ ١٦

أ ـ الاسباب الطبيعية • ٣ ـ ٥

ب ـ الاسباب غير الطبيعية : (١) الثورة على الجاهلية (٢) الشعوبة (٣) العصبية القبلية • أثر هذه العوامل فى تغيير الحقائق ٥ ـ ١٦

(٢) حاجة العصر الجاهلى الى الدراسة العلمية • ١٦ـ١٨

أ ـ البيئة الجغرافية ، وصلاتها بنظم الحياة وطبيعة السكان (١) العربية السعيدة (٢) العربية الحجرية (٣) العربية الصحراوية ١ـ الحجاز ، ٢ـ تهامة ، ٣ـ اليمن ، ٤ـ العروض ، ٥ـ نجد • ١٨ ـ ٢٤

ب ـ عناصر الحياة الاجتماعية • أولا ـ دراسة الحياة الاقتصادية ، ثانيا ـ دراسة حياة اجتماعية مماثلة • ثالثا ـ دراسة النظم والقوانين • رابعا ـ دراسة الحياة الدينية • خامسا ـ الدلائل على رقى العرب • ٢٤ ـ ٣٧

THE PROFESSOR

AN ACADEMIC REVIEW

ISSUED BY

THE COLLEGE OF EDUCATION
UNIVERSITY OF BAGHDAD

VOL. XI

1962 - 1963

1382 - 1383

Government Press — Baghdad